المحتويات

مُقَدِّمَة ٧

• الشبهة الأولى ١٥

ادعاء تناقض القرآن في مادة خلق آدم عليه السلام، ومخالفته لما ورد في السنة النبوية

• الشبهة الثانية ٢٠

الزعم أن الله لم يُكَرِّمْ آدم عليه السلام، ولم يأمر الملائكة بالسجود له

• الشبهة الثالثة ٢٣

ادِّعاءُ طَرْدِ آدم عليه السلام من الجنة لوقوعه في الخطيئة بأكله من الشجرة

• الشبهة الرابعة ٢٨

الفهم الخاطئ لبعض الحقائق في قصة آدم عليه السلام

• الشبهة الخامسة ٣٨

إنكار نبوة آدم عليه السلام

• الشبهة السادسة ٤٢

الزعم أن آدم وحواء - عليهما السلام - قد أشركا بالله تعالى

• الشبهة السابعة ٥٠

الزعم أن القرآن أخطأ في ذكر اسم إدريس عليه السلام وقصة رفعه حيًّا إلى السماء

• الشبهة الثامنة ٥٥

الفهم الخاطئ لدعاء نوح عليه السلام على قومه بالهلاك

• الشبهة التاسعة ٦١

ادِّعاء أن طوفان نوح أسطورةٌ وليس حقيقة كما ورد في القرآن

• الشبهة العاشرة ٦٨

التشكيك في أبوّة نوح عليه السلام لابنه

• الشبهة الحادية عشرة ٧٢

ادعاء وقوع نوح في الخطأ؛ بسؤاله المولى عز وجل أن ينجِّي ابنه الكافر من الغرق

• الشبهة الثانية عشرة ٧٧

الزعم أن نوحًا عليه السلام لم يؤمن به أحد من قومه

• الشبهة الثالثة عشرة ٨٠

التشكيك في صحة قصة نوح عليه السلام في القرآن

• الشبهة الرابعة عشرة ٨٢

ادِّعاء خطأ القرآن في ذكر قصة هود عليه السلام، التي لا وجود لها في التوراة

• الشبهة الخامسة عشرة ٨٤

ادعاء أن ناقة صالح عليه السلام خرافة تتنافى مع العقل

• الشبهة السادسة عشرة ٨٧

ادِّعاء وقوع إبراهيم عليه السلام في الشرك

• الشبهة السابعة عشرة ٩٣

توهم أن إبراهيم عليه السلام وقع في الكذب

• الشبهة الثامنة عشرة ٩٩

إنكار لقاء إبراهيم عليه السلام بالنمروذ

• الشبهة التاسعة عشرة ١٠٢

ادِّعاء أن إبراهيم عليه السلام تزوَّج من سارة، وهي أخته

• الشبهة العشرون ١٠٥

إنكار ذهاب إبراهيم عليه السلام إلى الجزيرة العربية، وبنائه الكعبة

• الشبهة الحادية والعشرون ١٠٨

ادِّعاء تباين القرآن المدني عن المكّي بشأن إبراهيم عليه السلام؛ استمالة لليهود

• الشبهة الثانية والعشرون ١٢٠

الزعم أن إبراهيم عليه السلام شكَّ في قدرة الله على إحياء الموتى

- الشبهة الثالثة والعشرون ١٢٣

إنكار وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام

- الشبهة الرابعة والعشرون ١٢٥

ادعاء أن الذبيح هو إسحاق عليه السلام وليس إسماعيل عليه السلام

- الشبهة الخامسة والعشرون ١٢٩

ادِّعاء أن إسماعيل عليه السلام ليس نبيًّا من الأنبياء

- الشبهة السادسة والعشرون ١٣٢

ادِّعاء وجود صراع بين إسماعيل وإسحاق عليهما السلام

- الشبهة السابعة والعشرون ١٣٨

ادِّعاء أن النبوة مقصورة على إسحاق عليه السلام وولده دون إسماعيل عليه السلام

- الشبهة الثامنة والعشرون ١٤٠

الزعم أن لوطا عليه السلام عرض على قومه إتيان الفاحشة مع بناته

- الشبهة التاسعة والعشرون ١٤٤

التشكيك في توكُّل لوط عليه السلام حق التوكُّل على الله

- الشبهة الثلاثون ١٤٨

ادعاء وقوع الفحشاء في بيت لوط عليه السلام

- الشبهة الحادية والثلاثون ١٥٨

دعوى خطأ القرآن في قصة تآمر إخوة يوسف عليه السلام عليه والمكر به

- الشبهة الثانية والثلاثون ١٦١

ادِّعاء كتمان يوسف عليه السلام للحق بعدم إظهار حريته عند بيعه

- الشبهة الثالثة والثلاثون ١٦٣

ادعاء وقوع السرقة من يوسف عليه السلام

- الشبهة الرابعة والثلاثون ١٦٦

ادِّعاء خطأ القرآن في اتهام يوسف عليه السلام بالهمِّ بالفاحشة

- الشبهة الخامسة والثلاثون ١٧٦

إنكار وليمة امرأة العزيز الواردة في قصة يوسف عليه السلام

- الشبهة السادسة والثلاثون ١٨٣

ادِّعاء أن يوسف عليه السلام أدان نفسه واتهمها بارتكاب الذنب

- الشبهة السابعة والثلاثون ١٨٦

دعوى اضطراب القرآن الكريم في حديثه عن يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز

- الشبهة الثامنة والثلاثون ١٩٣

ادِّعاء أنَّ استعانة يوسف عليه السلام بالساقي تخالف توكله على الله

- الشبهة التاسعة والثلاثون ١٩٦

ادِّعاء خطأ يوسف عليه السلام بطلبه الإمارة

- الشبهة الأربعون ١٩٩

ادِّعاء أن يوسف عليه السلام خان إخوته وأساء إلى أبيه بحبسه أخاه بنيامين

- الشبهة الحادية والأربعون ٢٠٥

دعوى خطأ القرآن في ذكر عدد مرات مجيء إخوة يوسف عليه السلام لمصر وسجنه أخاه بنيامين

- الشبهة الثانية والأربعون ٢٠٩

إنكار حقيقة قميص يوسف عليه السلام، ومعجزة شفاء يعقوب عليه السلام

- الشبهة الثالثة والأربعون ٢١٣

الفهم الخاطئ لسجود إخوة يوسف له عليه السلام

- الشبهة الرابعة والأربعون ٢١٦

ادِّعاء أن نبي الله أيوب عليه السلام كان غضوبًا

- الشبهة الخامسة والأربعون ٢١٩

ادِّعاء أن ذا الكفل عليه السلام ليس نبيًّا

- الشبهة السادسة والأربعون ٢٢١

دعوى وقوع سيدنا يونس عليه السلام في المعصية برحيله عن قومه

- الشبهة السابعة والأربعون ٢٢٦

دعوى اضطراب القرآن في مسألة نبذ يونس عليه السلام بالعراء

- الشبهة الثامنة والأربعون ٢٣٠

ادِّعاء أن القرآن أخطأ في إخباره أن من عثر على موسى عليه السلام هي امرأة فرعون

- الشبهة التاسعة والأربعون ٢٣٣

ادِّعاء أن موسى عليه السلام قتل قبطيًّا لمجرد أن رجلا من شيعته استنصر به عليه

- الشبهة الخمسون ٢٣٥

إنكار استئجار الرجل الصالح لموسى عليه السلام

- الشبهة الحادية والخمسون ٢٣٧

ادِّعاء أن موسى عليه السلام اعتذر عن حمل الرسالة، وطلب من الله أن يكلِّف بها هارون عليه السلام

- الشبهة الثانية والخمسون ٢٤٠

الزعم أن شريعة موسى عليه السلام هي أولى الشرائع للبشر

- الشبهة الثالثة والخمسون ٢٤٢

الزعم أن القرآن خالف التوراة في عدد ألواح موسى

- الشبهة الرابعة والخمسون ٢٤٦

دعوى خطأ القرآن الكريم بشأن إيمان سحرة فرعون

- الشبهة الخامسة والخمسون ٢٥١

دعوى مخالفة القرآن الكريم التوراة في عدد آيات موسى

- الشبهة السادسة والخمسون ٢٥٣

ادِّعاء أن موسى عليه السلام استهان بكلام الله واعتدى على نبي الله هارون عليه السلام

- الشبهة السابعة والخمسون ٢٥٥

ادِّعاء أن موسى وهارون لم يكونا مؤمنَيْن، وأن موسى عليه السلام وَصَّى قومه بسرقة المصريين

- الشبهة الثامنة والخمسون ٢٥٩

ادِّعاء أن موسى عليه السلام كان وصيًّا على محمد ﷺ وأمته

- الشبهة التاسعة والخمسون ٢٦٣

استنكار تعلم موسى عليه السلام من الخضر

- الشبهة الستون ٢٦٧

توهم وقوع موسى عليه السلام في المعصية، لعدم وفائه بشرطه مع الخضر

- الشبهة الحادية والستون ٢٧٠

ادِّعاء أن موسى عليه السلام تعدى على ملك الموت بلطمه، وفَقْأ عينه

- الشبهة الثانية والستون ٢٧٢

توهُّم وقوع الخلط في القرآن بشأن قصة قارون

- الشبهة الثالثة والستون ٢٧٥

ادِّعاء أن القرآن أخطأ في ذكر عقيدة ذي القرنين

المصادر والمراجع ٢٨٣



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الانبياء والمرسلين، سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين... وبعد؛

فإن الله ﷻ ما خلق الخلق ليعتز ويتفاخر بهم، أو لينتفع منهم بقضاء حوائج وتحقيق مصالح، حاشاه ﷻ، تقدست أسماؤه وتنزهت صفاته، بل هو الغني والكل إليه فقير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ﴿١٧﴾﴾ (فاطر)؛ وإنما خلق الله عباده من أجل غاية سامية هي عبادته ﷻ، وأمرهم أن يكون ذلك منشودهم ووظيفتهم في الحياة، قال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ (الذاريات)، وأخذ عليهم الميثاق بذلك وهم أمثال الذَّر في صلب أبيهم آدم، فأشهدهم على ألوهيته وربوبيته وعبوديتهم له، فشهدوا وأقرّوا: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ (الأعراف)، ولكن هل يدرك الإنسان أن الله خلقه لعبادته وطاعته وهو لا يذكر هذا الميثاق الذي أخذ عليه وهو في ظهر أبيه آدم؟! أي نعم ذلك ميثاق مكنون مَرْكوز[1] في أصل فطرته، ولكنه لا يذكره.

وربما أنعم الإنسان النظر فتوصل بعقله إلى وجود الخالق، ولكن كيف يعرف حقه عليه؟! وكيف يؤدي هذا الحق على الوجه الصحيح؟!

لا شك أن معرفة هذا الحق وتأديته لن تكون إلا عن طريق وسيلة تأخذ من الخالق وتخبر عن أسمائه وصفاته، وتتناسب مع الطبيعة البشرية، وليس ذلك إلا عن طريق وحي السماء، فالعقل البشري لا يستغني عن الوحي مهما ترقَّى وتزكَّى، إذ إن للعقل البشري حدوده التي لا يتعداها، وهناك أمور لا يستطيع إدراكها؛ لأنها غير داخلة في مجاله، فلا بد فيها من الوحي الذي هو للعقل كنور الشمس أو الضوء للعين، فإذا حُجِبَ الوحي لم ينتفع الإنسان بعقله.

ويصف الإمامُ ابنُ تيميةَ الرسالاتِ الإلهيةَ في ضرورتها للعباد، بأنها روح العالم ونوره وحياته، فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟ والدنيا مُظْلِمَةٌ ملعونة إلا إذا ما طلعت عليها شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تُشرق في قلبه شمس الرسالة فهو في ظلمة، وهو من الأموات، قال ﷻ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا

---

١. المَرْكوز: متأصِّل الوجود.

﴿يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (١٢٢)﴾ (الأنعام).

ويوضح ابن القيم مدى حاجة الناس إلى الرسل فيقول: "فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، فأي ضرورة وحاجة فُرِضَتْ فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير".

وبعد ذلك نقول: لما كان العقل البشري وحده لا يكفي للتفريق بين الخير والشر، وكانت هناك الأمور الغيبية التي لا يمكن للإنسان معرفتها إلا عن طريق الوحي، وعن طريق الشرع، كالإيمان بالله عز وجل، وبصفاته العليّة، والإيمان بالملائكة، وبالبعث والنشور... إلى غير ذلك من الأمور الغيبية، فقد اقتضت حكمة الله عز وجل ألا يدع الناس هَمَلًا [1] وألا يتركهم سُدًى [2]؛ فأرسل إليهم ما بين حين وآخر مبلغين عنه، يهدون الناس إليه ويدلونهم عليه، ويرشدونهم إلى مراضيه، ويحذرونهم من مساخطه: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا (١٦٥)﴾ (النساء).

وهؤلاء الرسل قد اختارهم الله من بين خلقه، ليكونوا نموذجًا للكمال، وعنوانًا للفضل، وحملة لمشاعل النور والضياء، وقادة لركب الحضارة الإنسانية على مدى الأزمان وكرِّ الدهور. اصطفاهم المولى جلت حكمته؛ ليكونوا هداة مصلحين، فاختارهم على علمه، ورباهم على عينه، وشرفهم بأكمل الأوصاف؛ فأعطاهم الحكمة، ورزقهم قوة العقل، وسداد الرأي، وجعلهم أئمة وقدوة: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ (٧٣)﴾ (الأنبياء)، ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ (٧٥)﴾ (الحج)، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩ (٥٨)﴾ (مريم)، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ (٩٠)﴾ (الأنعام).

لذلك جاء هذا العمل في جزأين، يذبُّ [3] عن أنبياء الله ورسله الكرام تلك المحاولات البذيئة التي تَنْسِبُ إليهم مُنْكَرًا من الأفعال المشينة، وتلصق بهم قدرًا فاحشًا من الصفات الرذيلة، بهتانًا [4] وزورًا، للنيل من منزلتهم السامية، والحطِّ من أقدارهم، بهدف صرف الناس عن اتباع مناهجهم في الهدى والإيمان، والحَيْلُولة [5] دون تَرَسُّمِ خطاهم في الخير والإحسان، فتفسد البشرية في أخلاقها وقيمها، وتضطرب الموازين في عقول الناس وأفهامهم، حين تشوه

١. الهَمَل: المتروك.

٢. سُدًى: مهمل.

٣. يَذبُّ: يدافع.

٤. البهتان: الظلم.

٥. الحيلولة: الحجز والمنع.

القدوة في عيونهم.

ومما يدعو للأسف الشديد أن جُلَّ الافتراءات التي رُمِي بها الأنبياء والمرسلون كانت من أهل الكتاب[١] الذين استأمنهم الله على كلامه فحرفوه، واشتروا به ثمنًا قليلًا فبئس ما يشترون، وربما اتبعهم شِرْذِمة [٢] من العَلْمانيِّين[٣] والإلحاديِّين[٤] في العصر الحديث، بهدف إنكار الأديان جملة وتفصيلًا، وكلٌّ يبكي على لَيْلاهُ.

فأما أهل الكتاب وخاصة اليهود فإنهم يودُّون تبرير إفسادهم في الأرض؛ فحرفوا دينهم وشوَّهوا سير الأنبياء؛ إيهامًا للناس وتزيينًا لأنفسهم أنهم يتبعون في ذلك الرسل والشرائع، وأما العلمانيون فقد وجدوا في تلك الصورة المشوهة عن الأنبياء في اليهودية والنصرانية مسوغًا للخروج من رِبْقَة [٥] الأديان، والفسوق عن ضوابط الأخلاق وقيودها؛ لذا كانت الأمة الإسلامية هي المدافعة عن الأنبياء والرسل، المُشِيدَة بمآثرهم، فهي وارثة الأنبياء المقيمة لدينهم، وهذا من فضل الله عليها، ومن شمائل أمة الإسلام على سائر الأمم.

أما عن أهم خلاصات المناقشات حول هذه الشبهات الموجَّهة للأنبياء والرسل في هذه الدراسة فهي:

- النبوة هبة ربانية وفضل إلهي، يهبها الله لمن يشاء من عباده، ويختص بها من يريد من خلقه، وهي لا تُدرك بالجد والتعب، ولا تُنال بكثرة الطاعة والعبادة، أو بطريق الرياضة النفسية والعزم والمثابرة، إنما هي بمحض الفضل

---

١. مما نسبه اليهود إلى الأنبياء من قبائح:

- زعموا أن نبي الله هارون صنع عجلًا وعبده مع بني إسرائيل. (الخروج ٣٢: ١).
- أن إبراهيم خليل الرحمن قدَّم امرأته سارة إلى فرعون حتى ينال الخير بسببها. (التكوين ١٢: ١٣).
- أن لوطًا شرب الخمر حتى سكر، ثم قام على ابنتيه فزنا بهما الواحدة تلو الأخرى. (التكوين ١٩: ٣١).
- أن يعقوب سرق مواشي من حميه وخرج بأهله خلسة دون أن يعلمه . (التكوين ٣١: ١٧).
- أن روأبين زنى بزوجة أبيه يعقوب، وأن يعقوب علم بهذا الفعل القبيح وسكت. (التكوين ٣٥: ٢٢).
- أن داود زنى بزوجة رجل من قواد جيشه، ثم دبر حيلة لقتل الرجل، وبعدئذ أخذ داود الزوجة وضمَّها إلى نسائه فولدت له سليمان. (صموئيل الثاني١١: ٢).
- أن سليمان ارتد في آخر عمره وعبد الأصنام وبنى لها المعابد. (الملوك الأولى ١١: ٤).

هذه بعض المخازي والقبائح والكبائر التي نسبها اليهود إلى الأنبياء الأطهار، وحاشاهم مما وصفوهم به، ولكنها النفوس المريضة التي تَنْسِبُ إلى خيرة الله من خلقه القبائح، ليسهل عليهم تبرير ذنوبهم ومعايبهم عندما ينكر عليهم منكر أو يعترض عليهم معترض.

أما النصارى فإضافة إلى تصديقهم التوراة المحرفة فقد نسبوا إلى الأنبياء قبائح أيضًا منها:

- أن عيسى من نسل سليمان بن داود، وأن جدهم فارص الذي هو نسل الزنا من يهوذا بن يعقوب. (متى ١: ١ ـ ١٦).
- أن يسوع أهان أمه أمام جمع من الناس. (يوحنا ٢: ٤).
- أن يسوع شهد بأن جميع أنبياء بني إسرائيل هم سراق ولصوص. (يوحنا١٠: ٨)، هذا فيض من غيض مما تطفح به تلك الأناجيل المحرَّفة من وصف الأنبياء والمرسلين بما هم بريئون منه.

٢. شِرْذِمة: طائفة قليلة.

٣. العَلْمانيُّون: الذين يُنسبون إلى العلمانية، وهي مذهب يخرج الاعتبارات الدينية من العلاقات المدنية والتعليم العام.

٤. الإلحاديُّون: جمع إلحادي، وهو مَنْ يُنْكِر الألوهية، ويرفض أدلتها.

٥. الرِّبْقَة: العَقْد.

الإلهي: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ (البقرة)، فالأنبياء هم صفوة البشر وخِيرة الخلق.

- وظيفة الرسل هي البلاغ والإنذار، ودعوة الخلق إلى الإيمان بوحدانية الله وعبادته وحده: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ (الأنبياء)، وذلك لئلا يبقى لأحد حجة على الله ﷻ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ (النساء)، وكان لا بد أن يكون المبلِّغ للأوامر الإلهية إلى البشر واحدًا منهم، ليمكن الأخذ عنه؛ لذا اختار الله الرسل من البشر، وقد أدى الرسل الكرام هذه الوظيفة على أكمل الوجوه فلم يتأخر واحد منهم عن تبليغ دعوة الله، وإقامة الحجة وإصلاح النفوس وتزكيتها، وتقويم الفكر المنحرف والعقائد الزائفة، وسياسة الأمم وتدبير أمورها بما يتفق مع منهج الله: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ (النساء).

- الرسل والأنبياء بشر من الناس، يحتاجون إلى ما يحتاج إليه الناس، من الطعام والشراب والتناسل وسائر أعمال الناس، ولكنهم معصومون، وعصمتهم لا تعني أنَّ فيهم من صفات الألوهية شيئًا، لذلك فإن الرسل يتبرءون من الحَول والطَّول [1]، ويعتصمون بالله الواحد الأحد، ولا يدَّعون شيئًا من صفات الله ﷻ، قال ﷻ مبينًا براءة عيسى مما نسب إليه: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ (المائدة).

- لقد اختار الله الرسل ليكونوا سفراءَ بينه وبين عباده؛ ولذا اقتضت حكمته العلية أن يجعلهم أكملَ البشر خَلْقًا وأفضلَهم علمًا وأشرفَهم نسبًا وأعظمَهم أمانة، وأن يحفظهم بعنايته، ويَكْلأهم برعايته، ويربيهم على عينه، فهم قدوة للناس، وفيهم الأسوة الحسنة، فلا بد أن يمتازوا بالصدق والأمانة، والفطانة والسلامة من العيوب المنفرة في تبليغ الرسالة.

- إذا تتبعنا القرآن الكريم في حديثه عن النبوة والأنبياء نجد فيه الذكر العاطر، والثناء المجيد لهؤلاء الصفوة المختارة لحمل مشعل الهداية والإصلاح، وقيادة ركب الإنسانية إلى طريق السعادة وشاطئ الأمن والسلام، فتطالعنا صور ونماذج لم يخلق الله أجمل منها في الكون - على خلاف صورتهم القبيحة ونماذجهم السيئة التي ترسمها لهم الكتب المحرَّفة - ونرى أسلوب القرآن الكريم في الحديث عنهم أسلوبًا يتدفق بالحياة، ويَفيض [2] بالبشر

---

١. الحَول والطَّول: الحول: هو القوة والقدرة. والطول: الفضل والغنى والمنّ.

٢. يَفِيض: ينتشر منه بكثرة.

ويَنُمُّ عن[(١)] الحب والإيثار، فيذكرهم بالثناء الجميل، ويصفهم بأسمى الصفات والمواهب العقلية والخلقية، كل ذلك ليدل على أنهم الصفوة والقدوة والمثل العليا الكاملة للبشرية.. ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩)﴾ (الأنعام).

• الأمة الإسلامية مجمعة على عصمة الأنبياء والرسل من الشرك والمعاصي والذنوب وقبائح العيوب، كالزنا والسرقة والمخادعة وصناعة الأصنام وعبادتها والسحر ونحو ذلك، وقد برَّأ كتاب الله وسنة رسوله أنبياء الله ورسله من افتراءات المفترين، ومما نسبه إليهم المحرِّفون لكتبهم، فإن الأنبياء قد امتازوا ببعدهم عن المعاصي وعُزُوفهم[(٢)] عن الشهوات، واجتنابهم لكل ما يُخِلُّ بالمروءة، أو يُهدر الكرامة، أو يَحطُّ من قدر الإنسان، فإنهم - صلوات الله وسلامه عليهم - أكمل الناس خُلُقًا، وأزكاهم عملًا وأطهرهم نفسًا وأعطرهم سيرة؛ لذا أمر الله بالتخلق بأخلاقهم والسير على مناهجهم في جميع شئون الحياة. ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ (٩٠)﴾ (الأنعام)[(٣)].

• لقد امتازت دعوة الأنبياء بأن مصدرها الوحي الإلهي الذي يُصْطَفَون له ويُكْرَمون به، فلا يُقاسون أبدًا على الحكماء أو الزعماء أو المصلحين، وجميع أصناف القادة الذين جربتهم البشرية، وتاريخ الإصلاح والكفاح الطويل، والذين هم نتيجة بيئتهم، وغرس حكمتهم، وصدى محيطهم، ورد فعل لما كان يَجِيش[(٤)] به مجتمعهم من فساد وفوضى، قال ﷺ: ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾ (يونس)، ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩)﴾ (الأحقاف)؛ لذا فإن الرسول لا يستطيع أن يحدث تغييرًا أو تبديلًا أو تَحْوِيرًا[(٥)] في الرسالة وأحكام الله، فهو لا يخضع لعوامل نفسية أو حوادث وقتية خارجية، ولا يدير رسالته حيث دارت الأحوال والأوضاع وشاء المجتمع: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥)﴾ (يونس)[(٦)].

• كما امتازت دعوة الأنبياء أيضًا بأنهم لا يطلبون الأجر عليها من أحد، إنما أجرهم على الله في بساطة وعدم تكلف، فهم يسيرون مع الفطرة، ويخاطبون الناس على قدر عقولهم، إذ هي دعوة واضحة الهدف والغاية، لا تعقيد فيها ولا غموض: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦)﴾ (ص)، ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ

---

١. ينُمُّ عن: يدل على.

٢. عُزُوفهم: انصرافهم وبعدهم.

٣. اقتَدِه: اقتدى بهم وتأسَّى بهم.

٤. يَجِيش: يمتلئ.

٥. التَّحْوير: النقص.

٦. تِلْقاء نفسي: من عند نفسي.

أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٠٨)﴾ (يوسف).

- أفضل الرسل هو خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ، فهو آخر الأنبياء في البعثة وأفضلهم في المنزلة والرتبة.. ومن أعظم الدلائل على ذلك أنه لم يُبعث نبي قطُّ إلا وقد أخذ الله ﷻ عليه العهد والميثاق إن أدرك محمدًا ﷺ في حياته ليؤمنن به، وليكونن من أنصاره وأتباعه، قال ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٨١)﴾ (آل عمران)، والأدلة على ذلك كثيرة في كتب أهل الكتاب رغم تحريفها، إلا أنه قد بقيت إشارات واضحة تبشر ببعثة أفضل الأنبياء والمرسلين وخاتمهم، غفل عنها المحرفون ولم ينتبهوا إليها كما حرَّفوا النصوص الصريحة باسمه ﷺ؛ حقدًا وحسدًا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)﴾ (البقرة).

- من أصول الإيمان التصديق الجازم بالرسالات التي أنزلها الله إلى عباده بواسطة رسله وأنبيائه، والتصديق أنهم بلغوها للناس، فالإيمان بالرسل أصل من أصول الإيمان: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ (٨٤)﴾ (آل عمران)، ومن لم يؤمن بالرسل فقد ضل ضلالًا بعيدًا، وخسر خسرانًا مبينًا، ولم يَقْدُرِ الله حق قدره: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا (١٣٦)﴾ (النساء)، وقال ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ (٩١)﴾ (الأنعام)[1]، وكذلك الكفر برسول واحد هو كفر بجميع الرسل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٥١)﴾ (النساء).

هذه هي أهم الخلاصات التي انتهت إليها هذه الدراسة التي دارت حول الشبهات الموجهة للأنبياء والرسل، وقد حاولنا أن تتَّسم معالجتنا لها بالحوار الهادئ المستنير، والمقارنة الموضوعية بين النصوص الدينية التي تتحدث عن الأنبياء والرسل في الأديان السماوية كلها، ثم تركنا الحكم للعقل المنصف، الذي قطع جازمًا بعصمة الأنبياء المرسلين من المعاصي، ونزاهتهم من القبائح، وبراءة ساحتهم من المنكرات، وأن النصوص التي طعنت في عصمتهم ليست إلهية، وأن كلماتها ليست ربانية، وأن الكتاب المشتمل عليها ليس سماويًّا خالصًا، وذلك لأن الأنبياء والمرسلين اُختيروا لهداية الناس، فلا بد أن يكونوا أسوة حسنة، وقدوة صالحة للبشر حتى تثمر توجيهاتهم، ويتقبل الناس دعوتهم؛ إذ

١. ما قَدَروا الله حقَّ قَدْره: لم يُعَظِّموه حقَّ التعظيم.

كيف ينادون بالإصلاح وهم مفسدون؟! وكيف يدعون غيرهم للخير وهم عنه بعيدون؟! وبهذا قد تبيَّن الرشدُ من الغي والحقُّ من الباطل: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (آل عمران).

الشبهة الأولى

ادعاء تناقض القرآن في مادة خلق آدم عليه السلام، ومخالفته لما ورد في السنة النبوية(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن القرآن مضطرب في حديثه عن مادة خلق آدم عليه السلام، ويستدلون على ذلك بقوله الله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩) ﴾ (آل عمران)، وقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ﴾ (المؤمنون)، وقوله عز وجل: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ (١١) ﴾ (الصافات)، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) ﴾ (الحجر). وقوله عز وجل: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) ﴾ (النور). ففي الموضع الأول يذكر أن مادة خلق آدم هي التراب، وفي الثاني أن مادة الخلق هي الطين، وفي الثالث أن مادة الخلق هي الطين اللازب[1]، وفي الرابع أن مادة الخلق هي الحَمَأ[2] المَسْنون[3]، وفي الخامس أن مادة الخلق هي الماء، في حين أن السنة ذكرت أن الله خلق آدم علي صورته.

وهم بذلك يشككون في اتساق آيات القرآن الكريم من جهة، ويزعمون مخالفتها للسنة النبوية من جهة أخرى.

وجها إبطال الشبهة:

١) الفهم السليم لمراحل خلق آدم من: التراب اليابس والطين، والطين المتماسك، والحمأ والصلصال، وطبيعة كل مرحلة - يزيل هذا الادعاء الباطل بوقوع الاضطراب في القرآن.

٢) سبب ورود حديث خلق آدم وتأويلات العلماء والمفسرين له يثبتان عدم التشبيه بين آدم عليه السلام والله عز وجل - تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا - والحديث خبر آحاد من المتشابه الذي يرد إلى المحكم قطعي الثبوت، وهو القرآن الكريم، وعليه فلا تعارض بين القرآن والسنة.

التفصيل:

أولا. الفهم الصحيح لمراحل خلق آدم يزيل هذا الادعاء:

إن حديث القرآن الكريم عن خلق آدم موزع في سور القرآن الكريم: (آل عمران، والنور، والحجر، والصافات، وغيرها)، وهذا لا يعني تعارضًا أو اضطرابًا، فالآيات على تعددها تذكر مراحل تكوُّن آدم، وعناصر تكوينه، فحين يذكر القرآن الكريم أن الله تبارك وتعالى خلق آدم عليه السلام من تراب فهذا حق؛ لأن التراب عنصر تكوينه الأول، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩) ﴾ (آل عمران)، وعندما يذكر أن آدم خُلق من طين فهو حق

(*) البيان في تحليل وتوجيه الإشكالات التي تثار حول قصص القرآن، د. عاطف قاسم المليجي، مكتبة اقرأ، القاهرة، ٢٠٠٤م.

١. اللازِب: اللاصق.

٢. الحَمَأ: الطين الأسود المنتن.

٣. المَسْنون: المتغير.

أيضًا، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ (المؤمنون) ولا تناقض بين هذا النص وسابقه؛ فإن الماء إذا صُبَّ على التراب صار طينًا، وقال الله ﷻ أيضا: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ (النور)، وعندما نقرأ قوله ﷻ: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾ ﴾ (الصافات)، فهذا حق أيضًا؛ لأن الطين إذا مكث فترة فإنه يصير لازبًا؛ إذ إن لازبًا بمعنى لاصقًا، وإذا قال الله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ (الحجر)، فهذا حق، فإن الطين إذا مكث فترة صار يابسًا، فكان صلصالًا، والطين إذا مكث فترة صار أسود متغيرًا، وذلك هو الحمأ، ثم كان مسنونًا.

قال الإمام النَّسفي: "وفي الأول كان ترابًا، فعُجِنَ بالماء فصار طينًا، فمكث فصار حمأ، فصار سلالة، فصُوِّرَ، ويَبُسَ فصار صلصالًا"؛ ومن ثم فلا تناقض بين هذه المراحل.

ولقد أخبرنا الله ﷻ في كتابه العزيز أنه خلق آدم من تراب شأنه شأن عيسى عليه السلام، وصفته في خلق الله إياه على غير مثال سبق إلا أن آدم قد خُلِقَ من تراب، أي: من غير أم ولا أب، فهو في الإبداع أقوى وأعظم. وقد قال ﷻ: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ (آل عمران).

ثم كوَّنه تكوينًا آخر، ذكر أطواره جملة في آيات أخر، طين ثم صلصال من حمأ مسنون، فقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ (الحجر)، وقال الله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ﴾ (السجدة).

والصلصال: هو الطين اليابس، والحمأ: هو الطين الأسود، والمسنون: هو المتغير بسبب التفاعل الكيميائي، وقد شُبِّهَتْ طينةُ آدمَ في يبسها وصلصلتها بالفخار؛ لأن الفخار - كما يقول د. محمد وصفي - لا يُصنَع ولا يُتكوَّنُ إلا من طين غني بالعناصر التي يتركب منها الإنسان، وينشأ منها النبات.

إذن فعدد الأطوار التي مر بها آدم عليه السلام قبل نفخ الروح فيه خمسة على الجملة لا على التفصيل هي:

١. طور التراب اليابس الذي لا حِراك فيه، ولا حياة.

٢. طور الطين الذي لم تتفاعل عناصره بعد.

٣. طور الطين المتماسك الذي أشار إليه سبحانه: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾ ﴾ (الصافات).

٤. وما لبث هذا الطين حتى اسود وتفاعلت عناصره، فكأنه حمأ.

٥. طور الصلصال، فقد يبس هذا الطين - بعد أن تفاعلت عناصره - يبوسة تامة، حتى صار له رنين كرنين الفخار.

وبين كل طور من هذه الأطوار أطوار لا يعلمها إلا الله. ثم سَوَّاه الله ونفخ فيه من روحه؛ أي من سره المكنون، فصار إنسانًا سويًّا مزودًا بالعقل والعلم، وبكل المؤهلات التي تجعله قادرًا بإذنه ﷻ على تأدية وظيفته، التي خلقه من أجلها.

وقصة خلق آدم هي قصة خلق البشرية كلها، فهو مخلوق من طين وذريته مخلوقون من طين أيضًا؛ إذ إن النطفة التي خلقوا منها هي من الطين على الحقيقة، فمن الطين كان النبات، ومن النبات كان المني، ومن المني كانت النطفة.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ ﴾ (الأنعام)، أي: ابتدأ خلقكم وخلق أبيكم من طين، وقد عَرَفَ العلماء في هذا العصر أن الطين يحمل عناصر كثيرة تبلغ في جملتها تسعين عنصرًا يحمل النبات منها جملة، فإذا أكله الإنسان تحولت بعض العناصر إلى منويات، ومن هذه المنويات تتكون النطف، فتكون هذه النطف حاملة لخلاصة صالحة من هذه العناصر، يسميها الله تعالى "سلالة" في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ (المؤمنون)[1].

تلك هي مراحل خلق الإنسان الأول عبر بعض سور القرآن الكريم، توالت فيها وتتابعت وتكاملت معاني المصطلحات: التراب، الماء، الطين، الحمأ المسنون، الصلصال، دونما أية شبهة للتعارض أو التناقض، إذن فالمراحل السابقة لآدم عليه السلام بالأصالة، ولذريته بالتبعية.

ثانيًا. سبب ورود الحديث وتأويلات العلماء له يثبتان عدم التشبيه والتجسيم:

إن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خلق الله آدم على صورته"[2] له سبب لم يذكره الراوي اختصارًا، ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم مر برجل يضرب ابنه أو عبده، في وجهه لطمًا، ويقول: قبح الله وجهك، ووجه من أشبه وجهك، فقال صلى الله عليه وسلم: "إذا ضرب أحدكم فليتجنب الوجه؛ فإن الله خلق آدم على صورته"[3]. وإنما قال النبي صلى الله عليه وسلم ذلك له؛ لأنه سمعه يقول: "قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك". بدليل أنه نهى عن ذلك بقوله: "ولا تقل قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك"[4]. وذلك سب للأنبياء، والمؤمنين، فزجره عن ذلك، وخص آدم بالذكر؛ لأنه هو الذي ابتدِئت خِلْقة وجهه على الحد الذي يُحتذى عليها من بعده، كأنه ينبهه على أنك قد سببت آدم، ومن وَلَدَ، مبالغة في الردع له عن مثله[5].

وللعلماء في تأويل الحديث وجوه أخرى أشهرها وأرجحها ما تقدَّم، وفَهْمُ الحديث على أن الضمير يعود على لفظ الجلالة فَهْمٌ ضعيف إذا الضمير في "صورته" يعود إلى أقرب مذكور وهو آدم، وإن كان للعلماء مخارج

---

١. انظر: أطوار الخلق وحواس الإنسان، موسوعة ما فرطنا في الكتاب من شيء، د. أحمد شوقي إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، ص٢٩: ٣٢.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب بدء السلام (٥٨٧٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل ... (٧٣٤٢).

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة رضي الله عنه (٧٣١٩)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الحظر والإباحة (٥٦٠٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٨٦٢).

٤. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة رضي الله عنه (٧٤١٤)، والبخاري في الأدب المفرد، كتاب الخدم والمماليك، باب لا تقل قبح الله وجهه (١٧٣)، وحسنه الألباني في ظلال الجنة (٥١٩).

٥. مشكل الحديث وبيانه، ابن فورك، تحقيق: د. موسى محمد علي، عالم الكتب، بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص٤٨، ٤٩ بتصرف يسير.

وتأويلات في ذلك بما يدفع التشبيه، والتجسيم الذي لا تقره النصوص الصريحة القاطعة في القرآن، كقوله ﷻ: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ (الإخلاص)، وقوله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ (الشورى: ١١)، وهما من الآيات المحكمات قطعية الثبوت، والحديث السابق، وإن كان صحيحًا فهو خبر آحاد، وهو من المتشابه، والمتشابه يرد إلى المحكم ويفهم على ضوئه[١].

ويعرض شيخ الإسلام ابن تيمية لهذا الحديث فيقول: "أما من يزعمون تناقض هذا الحديث مع قوله تعالى: ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ (الشورى)، فإن يسر الله لهم الجمع، فليجمعوا، وإن لم يتيسر؛ فليقولوا كما قال الراسخون في العلم: ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ (آل عمران: ٧)، وعقيدتنا أن الله لا مثيل له؛ فبهذا تسلم من الزيغ والضلال.

هذا كلام الله تعالى، وهذا كلام رسوله ﷺ، والكل حق، ولا يمكن أن يكذِّب بعضه بعضًا؛ لأنه كله خبر وليس حكمًا كي يُنْسَخَ، فأقول: هذا نفي المماثلة وهذا إثبات الصورة؛ لأن من قال: "إن الله خلق آدم على صورته"[٢] رسول الذي قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾. والرسول لا يمكن أن ينطق بما يُكذِّب القرآن، والذي قال: "خلق آدم على صورته" هو الذي قال: "أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر"[٣].

فهل يعتقد هؤلاء أن الذين يدخلون الجنة على صورة القمر من كل وجه، أم أنهم على صورة البشر، لكن في الوضاءة والحسن، والجمال، واستدارة الوجه، وما أشبه ذلك مما هو على صورة القمر، لا من كل وجه؟!

فإن قلنا بالأول؛ فمقتضاه أنهم دخلوا، وليس لهم أعين، وليس لهم أنوف وليس لهم أفواه، وإن شئنا قلنا: دخلوا وهم أحجار.

وإن قلت بالثاني؛ زال الإشكال، وتبيَّن أنه لا يلزم من كون الشيء على صورة الشيء أن يكون مماثلًا له من كل وجه.

وإن أبى هؤلاء المدَّعون إلا المماثلة، فهناك جواب آخر، وهو أن الإضافة هنا من باب إضافة المخلوق إلى خالقه؛ فقوله: "على صورته"؛ مثل قوله ﷻ في آدم: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ (ص: ٧٢)، ولا يمكن أن يكون الله ﷻ قد أعطى آدم جزءًا من روحه، بل المراد الروح التي خلقها الله ﷻ، لكن إضافتها إلى الله بخصوصها من باب التشريف؛ كما نقول: عباد الله؛ فيشمل الكافر، والمسلم، والمؤمن، والشهيد، والصديق والنبي.

لكننا لو قلنا: محمد عبد الله؛ فهذه إضافة خاصة، ليست كالعبودية السابقة. فقوله: "خلق آدم على

١. المرجع السابق، ص٥٥ بتصرف.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، النهي عن ضرب الوجه (٦٨٢١).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٠٧٤)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر (٧٣٢٩).

صورته"؛ يعني: صورة من الصور التي خلقها الله تعالى وصورها؛ كما قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١)﴾ (الأعراف)، والمصوَّر آدم، إذن فآدم على صورة الله؛ يعني: أن الله هو الذي صوره على هذه الصورة التي تعد أحسن صورة في المخلوقات، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤)﴾ (التين)، فإضافة الصورة إلى الله تعالى من باب التشريف، كأنه عز وجل اعتنى بهذه الصورة، ومن أجل ذلك لا تضرب الوجه؛ فتعيبه حسًّا، ولا تقبحه فتقول: قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك؛ فتعيبه معنًى؛ من أجل أنه الصورة التي صورها الله وأضافها إلى نفسه تشريفًا وتكريمًا؛ أي: لا تقبحها بعيب حسي، ولا بعيب معنوي، وهذا التأول: إضافة الصورة إلى الله تعالى إضافة تشريف له وله نظير، كما في: بيت الله، وناقة الله، وعبد الله؛ لأن هذه الصورة - أي صورة آدم - منفصلة بائنة من الله، وكل شيء أضافه الله إلى نفسه وهو منفصل بائن عنه؛ فهو من المخلوقات؛ فحينئذ يزول الإشكال.

ولكن إذا قال قائل: أيهما أسلم للمعنى الأول أم الثاني؟ قلنا: المعنى الأول أسلم، مادمنا نجد أن لظاهر اللفظ مستساغًا في اللغة العربية وإمكانًا في العقل؛ فالواجب حمل الكلام عليه، ونحن نجد أن الصورة لا يلزم منها مماثلة الصورة الأخرى، وحينئذ يكون الأسلم أن نحمله على ظاهره.

وإذا قالوا: ما الصورة التي تكون لله ويكون آدم عليها؟ قلنا: إن الله عز وجل له وجه، وله عين، وله يد، وله رجل عز وجل، لكن لا يلزم من أن تكون هذه الأشياء مماثلة للإنسان؛ فهناك شيء من الشبه، لكنه ليس على سبيل المماثلة؛ كما أن الزمرة الأولى من أهل الجنة فيها شبه من القمر، لكن بدون مماثلة.

وبهذا يصدق ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة؛ من أن جميع صفات الله تعالى ليست مماثلة لصفات المخلوقين؛ من غير تحريف ولا تَعْطيل[1]، ومن غير تَكْييف[2] ولا تمثيل[3].

الخلاصة:

- الفهم الخاطئ لمراحل تكوُّن آدم، وتعدد صور خلْقِه أدَّى إلى هذا الزعم، فالمراحل التي ذكرها القرآن هي: طَوْر التراب اليابس الذي لا حِرَاك فيه ولا حياة، ثم طَوْر الطين الذي لم تتفاعل عناصره بعد، ثم طَوْر الطين اللازب، ثم طور الحمأ المسنون، ثم مرحلة التسوية، ثم نفخ الروح... هذه هي مراحل تكوُّن الخلق كما اقتضتها حكمة الله وقدرته، وإن تحدث القرآن عن تلك المراحل في سور القرآن المختلفة فلا يعني هذا تعارضًا أو اضطرابًا، إنما هي عملية مرحلية حتى وصلت إلى الصورة النهائية.
- بالرجوع إلى سبب ورود الحديث - الذي أغفله الراوي اختصارًا - يتضح لنا أن النبي ﷺ أراد زجر الرجل؛ إذ إن سبَّ الغلام وتقبيح وجهه إنما هو سب للأنبياء والصالحين، وقد خصَّ النبي ﷺ آدم عليه السلام اعتبارًا بالأصل الأول.

---

١. التَّعطيل: مذهب يُنكر صفات الله عز وجل.

٢. التَّكييف: هو تعيين كُنْه الصفة؛ يقال: كيَّف الشيء؛ أي: جعل له كيفية معلومة.

٣. شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية، ابن العثيمين، دار ابن الجوزي، الرياض، ط٣، ١٤١٦هـ، ج١، ص١٠٩ وما بعدها.

- الحديث خبر آحاد وَرَدَ في المتشابه، والمتشابه من خبر الآحاد يُرَدُّ إلى قطعي الثبوت؛ أي القرآن الكريم والسنة الصحيحة، والرد إلى الآية يثبت عدم التعارض ومن ثم فلا إشكال.

الشبهة الثانية

الزعم أن الله لم يُكَرِّمْ آدم عليه السلام، ولم يأمر الملائكة بالسجود له(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغالطين أن الله عز وجل لم يأمر ملائكته بالسجود لآدم عليه السلام، ولم يرد تكريمه ولا تشريفه، بل إن الملائكة هي التي أرادت أن تشرفه بسجودها له دون أمر من الله، فحال بينهم وبين ذلك أن الله عز وجل جعل آدم عليه السلام ينام؛ فلم يتمكنوا من السجود له، ذاهبين من وراء ذلك إلى تجريد نبي الله آدم عليه السلام مما شرفه الله به من سجود الملائكة له.

وجها إبطال الشبهة:

١) الملائكة لا تفعل شيئًا دون أمر من الله عز وجل، وسجودهم لآدم عليه السلام أمر إلهي، وهو سجود تكريم، لا سجود عبادة.

٢) القرآن الكريم لم يذكر أن آدم عليه السلام كان نائمًا، وماذا يُجْدِي نومه من عدمه في شأن إثبات السجود ونفيه؟! وما تذكره التوراة من ذلك؛ لتحليل الخطيئة، وارتكاب المعاصي لا دليل عليه.

التفصيل:

أولا. الملائكة لا تفعل شيئًا دون أمر من الله عز وجل، وسجودهم لآدم أمر إلهي، فضلا عن كونه سجود تكريم لا سجود عبادة:

ما كان للملائكة أن تفعل شيئًا لم تؤمر به، فهم مَجْبُولون[1] على الطاعة، مفطورون عليها، لكن أمرهم الله بالسجود تتمة لصور التكريم التي خصَّ الله بها آدم، وهو سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة وتعظيم، كما أننا يجب أن نعلم أن الحديث عن آدم والملائكة لا يخضع لاجتهاد عقلي، ولا لعلم تجريبي، ولا لاستقراء تاريخي، ولا طريق لمعرفته إلا النقل الصحيح من رسول موحًى إليه، ولا يتحقق ذلك إلا فيما جاءنا عن رسول الله ﷺ من القرآن الكريم، المقطوع بثبوته عن رسول الله، والمنقول إلينا بالتواتر القطعي الثبوت.

والقرآن الكريم صريح في أن الله عز وجل أمر الملائكة بالسجود لآدم، وأن الملائكة استجابوا لأمر الله فسجدوا، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (البقرة)، وسجود الملائكة لآدم هو عين طاعة الله وعبادته، فقد سجدوا؛ لأن الله أمرهم بالسجود، فأطاعوا أمر الله، وهذا يتفق مع طاعة الملائكة المطلقة لأمر ربهم؛ لأنهم: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (النحل).

(*) موجز دائرة المعارف الإسلامية، فريق بحث من المستشرقين، ترجمة نخبة من الأساتذة، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الشارقة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

١. المجبول: المطبوع.

وليس للملائكة هوى واجتهاد من قبل أنفسهم، فهذا يتناقض مع طبيعة جِبِلَّتهم وعبوديَّتهم لخالقهم، فهم ينتظرون أمر الله، فحق فيهم قول الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (التحريم).

فما كان للملائكة أن تفعل ما لم تُؤمر به، وما سجدت الملائكة إلا استجابة لأمره ﷻ، وهذه كرامة أخرى من كرامات الله تعالى لآدم عليه السلام، وهو ﷻ القائل: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (البقرة).

والسجود في اللغة: التذلل والخضوع، ويطلق أيضًا على الانحناء من أجل التحية والتكريم كما في قوله ﷻ حكاية عن إخوة يوسف عليه السلام: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا ﴾ (يوسف: ١٠٠).

ويطلق السجود في الشرع على وضع الجبهة واليدين، والركبتين، والقدمين على الأرض، وهذا لا يكون إلا لله ﷻ.

وسجود الملائكة لآدم عليه السلام ليس من باب السجود لغير الله، ولا عبادة آدم من دون الله، إنه سجود لله في الحقيقة؛ لأن الله هو الذي أمرهم أن يسجدوا لآدم، أي هو الذي كلفهم بذلك، ولو كان عبادة لغيره لما أمرهم به ﷻ؛ لأن الله لا يأذن لأي مخلوق أن يعبد غيره، وعندما سجد الملائكة لآدم كانوا عابدين لله[1].

ولكي نفهم معنى العبادة نقول: "إن العبادة هي طاعة أوامر الله واجتناب نواهيه، فما قال الله لنا: افعلوا، فإننا نفعل، وما قال: لا تفعلوا، فإننا لا نفعل؛ لأن العبادة هي طاعة الخلق لخالقهم في أوامره ونواهيه؛ ولذلك عندما نذهب إلى الحج، فإننا نقبل الحجر الأسود في الكعبة، ونرجم الحجر الذي يمثل إبليس في مِنًى، نقبل حجرًا، ونرجم حجرًا، هذا هو معنى عبادة الله واتباع منهجه، كما أُمرنا نفعل، لا شيء مقدس عندنا إلاّ أمر الله ومنهجه؛ فالملائكة لم يسجدوا لآدم، ولكنهم سجدوا لأمر الله بالسجود لآدم، وفرق كبير بين السجود لشيء، وبين السجود لأمر الله"[2].

بيد أننا نوضح الأمر لمن التُبِس عليه قائلين: إن سجود الملائكة لآدم كان أمرًا إلهيًّا، وفي هذا إظهار لعلو شأنه عليه السلام، كما أن فيه تكريمًا لهذا النوع البشري؛ حيث أسجد الملائكة لأبيهم آدم عليه السلام، وقد خص الله آدم بأربع مزايا، هي آية الفضل وعنوان الشرف الرفيع وهي: خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له، وعلمه أسماء كل الأشياء[3].

والسجود الذي فعلته الملائكة هو الانحناء على هيئة مخصوصة حسب طبيعة خِلقتهم، وقد أُمِروا به تعظيمًا له وتحية، وفي تعظيمه تشريف لذريته ـ أيضًا ـ وفيه تنبيه لأولي الألباب على وجوب شكرهم لله على هذه المنة[4].

---

١. القرآن ونقض مطاعن الرهبان، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط١، ٢٠٠٧م، ص٣٠٨.

٢. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م، ج١، ص٢٥٤.

٣. النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، دار الصابوني، مكة، ١٢٩٠هـ ص١١٩.

٤. قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

ويدل هذا على أن السجود كان أمرًا إلهيًّا، ولم تفعله الملائكة من تلقاء ذاتها أو على هواها®.

ثانيًا. لم يذكر القرآن الكريم - وهو الحق المبين - أن آدم عليه السلام كان نائمًا، ثم ماذا يُجْدِي نومه من عدمه؟!

هذا، وقد أغفلت التوراة أمورًا حدثت بالفعل، منها: توبة آدمَ واستغفاره لتحليل الخطيئة، وارتكاب المعاصي. فأيهما نصدق: القرآن الكريم أم التُّرَّهَاتِ التوراتية؟!

فمن أخبرهم أن آدم عليه السلام حينما أراد الملائكة أن يسجدوا له كان نائمًا؟ وأي فائدة في نومه أو عدم نومه؟ أكان يمنعهم نومه من أن يسجدوا له؟! ثم إنه لا عبرة بما جاء في التوراة أو غيرها من الكتب السابقة إذا خالف القرآن الكريم، أو لم يُذْكَرْ فيه، فليست هذه الكتب هي التي أنزلها الله تعالى على رسله ﷺ ولكنها أوهام سطَّرتها أيدي البشر، وهذا بشهادة أهل هذه الكتب، واقرأ إن شئت نقد اسبينوزا للكتاب المقدس.

وكيف نؤمن بكتب لعبت بها الأيدي تبديلًا وتحريفًا فهؤلاء لم يسلم من عبثهم وافتراءاتهم[1] أيٌّ من أنبياء الله تعالى؛ فهذا آدم عليه السلام قد ذكر العهد القديم أنه بسبب مخالفته أَمْرَ ربِّه له بالامتناع عن الأكل من الشجرة لُعِنَت الأرض "ملعونةٌ الأرضُ بسببك". (التكوين ٣: ١٧)، فكيف يلعن الله الأرض بسبب مخالفة آدم التي لم تقع منه وهو في الأرض، وإنما كان في الجنة، وما ذنب الأرض في أن تصيبها لعنة بسبب معصية وقعت في غير عالمها؟!

لقد كان نزول آدم إلى الأرض وخروجه من الجنة جزاء معصيته، بِقَدَرٍ كَوْنِي سابق، فإنه ﷻ ما خلق آدم ليسكن الجنة، بل خلقه لِيَعْمُرَ[2] الأرض هو وذريته؛ قال ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠) والجزاء إنما يستحقه من تقع منه المعصية دون غيره من البشر: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ (فاطر)[3].

ثم إذا كانت اللعنة قد أصابت الأرض بسبب مخالفة آدم، ألا تستحق أن ترفع عنها اللعنة من أجل طاعات البشر، ممن عاشوا فيها من الأنبياء والصديقين والصالحين، والعلماء العاملين، وكل من أطاع الله فوقها؟!

وكيف تُلعن الأرض بسبب معصية آدم وقد اختاره الله وذريته لسكناها وعِمَارَتِها دون الملائكة، وهم يسبحون بحمده ويقدسونه ﷻ؟!

والتوراة التي بأيديهم لم تذكر شيئًا عن توبة آدم عليه السلام، واستغفاره ربَّهُ من مخالفته ومغفرة الله له، في حين أن ذلك مُوَضَّحٌ في القرآن الكريم، وهو ما تقبله العقول السليمة إذ كيف تقع المخالفة من نبي ولا يندم

® في **"حقيقة سجود الملائكة لآدم"** طالع أيضًا: الوجه الرابع، من الشبهة الخامسة، من الجزء السابع (الإيمان والتدين). وفي **"دعوى أن خيرية إبليس تمنعه من السجود لآدم"** طالع: الشبهة الرابعة والثلاثين، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد إليها).

١. الافتراء: الكذب والاختلاق.

٢. يَعْمُر: يعيش فيها ويسكنها.

٣. ولا تَزِر وازرة وِزْر أخرى: لا يُؤاخذ أحد بذنب غيره. المُثْقَلة: النَّفْس التي أثقلتها الآثام.

عليها ولا يتوب منها؟!

ثم إنه في إغفال التوراة توبةَ آدمَ تشجيع لذريته من بعده على التمادي في عصيانهم، وعدم الرجوع بالتوبة إلى ربهم، وهل بهذا تصلح الحياة؟ كلا[1]!

نخلص مما سبق إلى أن التوراة أغفلت ما يُفيد ذكرُه وذكرت ما لا يُفيد، وهذا يدلنا على أنها من صنع البشر، فلا ينبغي أن نصدق كل ما جاء بها خاصة إذا خالف القرآن الكريم؛ لأن القرآن هو الحق من الله المصدق لما سبقه من كتب قبل تحريفها وتبديلها من قِبَلِ البشر.

الخلاصة:

- ما كان للملائكة أن تفعل شيئًا لم تؤمر به، فهم مجبولون على الطاعة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ (التحريم)[2].

- لقد أمر الله الملائكة بالسجود تتويجًا لصور التكريم التي خصَّ الله بها آدم عليه السلام فقد جعله خليفته في الأرض، ونفخ فيه من روحه، وأمر ملائكته بالسجود له إجلالًا وتعظيمًا لشأنه، ولنسله من بعده، كما علمه الأسماء كلها. والحديث عن آدم والملائكة لا يخضع لاجتهاد عقلي، ولا استقراء تاريخي، بل السبيل إلى معرفته هو النقل الصحيح من رسول موحى إليه.

- لم يذكر القرآن الكريم - وهو الحق المبين - أن آدم كان نائمًا، ثم ماذا يجدي نومه من عدمه؟! هذا وقد أغفلت التوراة أمورًا حدثت بالفعل منها: توبة آدم واستغفاره لتحليل الخطيئة وارتكاب المعاصي من قبل نسله، كما ذكرت خطأً أن الله لعن الأرض بمخالفة آدم، وهذا ظلم، ومحالٌ على الله تعالى الظلمُ؛ لقوله في الحديث القدسي: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا"[3].

فأيها نصدق؛ القرآن الكريم المصون عن التحريف أم الترهات التوراتية المحرفة؟! والتي أقرَّ بتحريفها أهلها ودارسوها من أمثال اسبينوزا وغيره.

الشبهة الثالثة

ادِّعاءُ طَرْدِ آدم عليه السلام من الجنة لوقوعه في الخطيئة بأكله من الشجرة(*) ®

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن آدم عليه السلام وقع في الخطيئة بأكله من الشجرة، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ (طه)[4]، ويتساءلون: كيف

١. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مطبعة الأمانة، القاهرة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص١٩٧: ١٩٩.

٢. قُوا أنفسكم: احفظوها.

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٦٧٣٧).

(*) إظهار الحق، قساوسة وعلماء مستشرقون أشهروا إسلامهم، محمد عبد الحليم عبد الفتاح، القاهرة، ٢٠٠٥م.

® في "انتفاء وقوع الشرك من آدم وحواء" طالع: الشبهة السادسة، من هذا الجزء.

٤. غَوَى: ضلَّ سبيل الرشاد.

يتوافق هذا مع عصمة الأنبياء؟

وجها إبطال الشبهة:

١) استخلافُ الله لآدم ونزولـهُ إلى الأرض ظـاهرُه العصيان، بيد أن حقيقتَه وقوعُ مراد الله ﷻ بخلق الحياة على ظهر الأرض، وهذا لا يتنافى مع العصمة.

٢) ما فعله آدم بأكله من الشجرة، يعدُّ خطأً وليس خطيئة، وهو نسيان وغفلة أو فهم النهي على سبيل الإرشاد لا التحريم، وهذا لا يتنافى مع العصمة.

التفصيل:

أولا. الاستخلاف وانتقال آدم إلى الأرض حقيقته أن يقع مراد الله وليس بسبب عصيان آدم:

الأنبياء - عليهم السلام - هم أشرف الخلق وأزكاهم، وأتقاهم لله وأخشاهم له، ومقامهم مقام الاصطفاء والاجتباء، وواجبُ الخَلْقِ نحوهم التأسي والاقتداء بهم، فالواجب أن يُحفظ لهم هذا المقام، وأن يُنزَّهُوا عن[1] مدِّ الألسن إليهم بالنقد والاتهام. غير أن نفوسًا قد غلبها الفسق، مَدَّت ألسنتها إلى الأنبياء بالعيب والتُّهم، فلم تدع نبيًّا دون أن ترميه بدعوى العيب والإثم تريد بذلك انتقاصهم، والحط من أقدارهم، بل والطعن في القرآن الكريم الذي ذكر أحوالهم، فكان الذب عن أنبياء الله ﷻ متعينًا؛ صونًا لدين الله، وحفظًا لحق أنبيائه، عليهم السلام.

والعصيان هو مخالفة الأوامر سواء أكانت صغيرة أم كبيرة، والاستشهاد بقوله ﷻ: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ٢٣﴾ (الجن) استشهاد فاسد؛ لأن إطلاق اللفظ على كبائر الذنوب لا ينفي إطلاقه على صغارها، ومثال ذلك: قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ (الأنعام)[2]، عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: لَمَّا نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ (الأنعام: ٨٢) شقَّ[3] ذلك على المسلمين فقالوا: يا رسول الله أينا لا يظلم نفسه. قال: ليس ذلك إنما هو الشرك، ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ (لقمان: ١٣)[4]. وعلى هذا لا يكون آدم قد ارتكب كبيرة من الكبائر.

وهنا يُثار سؤالٌ مفاده: كيف يكون آدم نبيًّا معصومًا وقد خالف أمر ربه؟ وقال الله تعالى فيه: ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١﴾ (طه)[5]. وليس هناك جواب أحسن من جواب الله سبحانه حيث يقول: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ١١٥﴾ (طه)[6].

ولعل آدم عليه السلام ظن صدق إبليس في قسمه فما جرب من قبل كذبًا ولا خداعًا، أو ظن أنَّ النهي هو عن

١. يُنَزَّهُوا عن: يبعدوا عن.

٢. لَمْ يَلْبِسُوا: لم يخلطوا.

٣. شقَّ: صَعُبَ.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِ﴾ (لقمان: ١٢) (٣٢٤٦)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب صدق الإيمان وإخلاصه (٣٤٢).

٥. طَفِقَا يَخْصِفَانِ: جَعَلا يلصقان الورق على جسديهما ليسترا عوراتهما.

٦. العَزْم: التصميم.

خصوص هذه الشجرة، لا عن جنسها ونوعها، ومع ذلك فإن هذا الامتحان كان قبل أن يهبط إلى الأرض، وقبل أن يصير رسولًا مسئولًا عن رسالته، ولله في هذه التجربة حكمة يجب أن نمسك ألسنتنا عن الخوض فيها كما جاء في الحديث المتفق عليه عن محاجة موسى لآدم - عليهما السلام - بقوله: أنت أخرجتنا من الجنة، فكانت لآدم عليه السلام الحجة والغلبة عليه[1]، فذلك قضاء الله وترتيبه، ولولاه ما كانت هذه الحياة[2].

الهدف من خلق آدم عليه السلام الاستخلاف في الأرض:

من توهم أن آدم عليه السلام نزل إلى الأرض بسبب وقوعه في المعصية فقد أبطل مرادات الله من خلق آدم، فلم يقل الله إنه خلق آدم ليعيش في الجنة، بل خلقه ليعيش في الأرض، وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)، ولكن أدخله الجنة أولًا وأمره بأوامر وحذَّره من الشيطان لتكون فترة تدريب عملي عما سيحدث في الأرض إذا أطاع واتَّبع هذا المنهج، وما سيحدث له إذا عصاه... هذه هي الحكمة من دخوله الجنة أولًا.

ويوضح د. أبو النور الحديدي ذلك الأمر قائلًا: "أمر الله تبارك وتعالى ملائكته أن يسجدوا لآدم عليه السلام، وذكر سبحانه أنه اختص آدم عليه السلام بعلم الأسماء دون الملائكة يقول تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)﴾ (البقرة)، وعِلمُ آدم بالأسماء مبرر لتفضيله، وإسجاد الملائكة له.

فلا بد أن آدم عليه السلام قد شابه الملائكة في التخلق بخُلُقِهم من فِعْلِ المأمورات، وتَرْكِ المحظورات، ثم امتاز عليهم بعلم الأسماء دونهم؛ فلهذا كله استحق شرف إسجادهم له.. وأما مخالفته عليه السلام النهي الموجه إليه من ربه بألَّا يأكل من الشجرة التي عينها له، فهي مخالفة من آدم تحقيقًا لقضاء الله الكَوْنِي؛ لأن الحق عز وجل أخبر ملائكته أنه سيجعل في الأرض خليفة - آدمَ وذريتَه - يخلف بعضُهم بعضًا، جيلًا بعد جيل، وقرنًا بعد قرن، ويكون منهم من يفصل فيما بين بعضهم من المظالم، ويَرْدَعُهم[3] عن المحارم، وعَرَفَتْ الملائكة أن من هذا الجنس من سيفسد في الأرض، ويسفك الدماء.

ولهذا سألت الملائكة ربهم تعالى سؤال استعلام فهم يعبدون الله تعالى ويسبحون بحمده، فأجابهم الحكيم الخبير عز وجل بأنه يعلم من المصلحة في استخلاف البشر ما لا يعلم الملائكة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ (البقرة)[4].

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله (٦٢٤٠)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى - عليهما السلام - (٦٩١٢).

٢. المصطفون الأخيار، عطية صقر، دار مايو، القاهرة، ١٩٩٧م، ص٤٦، ٤٧.

٣. يَرْدَع: يزجر ويمنع.

٤. يَسْفِك الدِّماء: يقتل.

ومن ذلك: أن الإفساد في الأرض، وسفك الدماء لن يقع من جميع ذرية آدم ﷺ، وإنما من بعضهم، وسيكون من ذرية آدم أنبياء ورسل يهدون الناس إلى التي هي أقوم، كما سيكون منهم الصدِّيقون، والشهداء، والصالحون، والعلماء العاملون، كما أن بعضًا ممن يخطئ ويفسد لا يلبث أن يعود إلى رشده فيتوب ويصلح أمره، فإذا كان من ذرية آدم العصاة، والطائعون، والخطَّاءون والتوَّابون، فهم ليسوا شرًّا محضًا، ولا فسادًا خالصًا وإنما فيهم خير وشر، واستقامة واعوجاج، يقول البيضاوي في تفسيره: إن الحكمة تقتضي إيجاد ما يغلب خيره، فإنَّ تركك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير.

كذلك من الحكمة في استخلاف آدم وذريته في الأرض كشف دفائنها[1]، وإخراج ما اختزن بين طبقاتها، واحتوته بطون جبالها، وضمّته أعماق بحارها من خيرات لا تحصى، ونِعَمٌ لا يبلغ العد منتهاها، وكنوز لا يأتيها الحصر، وثروات تفي بحاجات البشرية من مبدئها إلى منتهاها.

والبشر هم الذين تدفعهم الحاجة إلى الطعام والشراب، وتسوقهم الضرورة إلى اتخاذ المسكن والكساء، ويحثهم حب الراحة وكراهية الألم إلى السعي الدَّائب[2] في ربوع الأرض، وبهذا تعمر الأرض، وتزدهر فوقها الحياة، أما الملائكة فهم مستغنون عن كل ذلك، غير محتاجين إلى طعام أو مسكن أو كساء، ولذا فلن يجهدوا في الأرض طلبًا لخيراتها، وانتفاعًا بثرواتها فلو استُخْلِفُوا فيها لبقيت كما هي يوم خلقها الله، لا يُسْتَعْمَرُ فيها قفر، ولا يُكْشَفُ لها سر، ولا يُسْتَزْرَعُ فيها زرع.

وحكمة الحكيم الخبير تقتضي أن تُظْهَر آلاؤه، وتُكْشَفُ نعمُه، وتُرى آثارُ قدرته وعظمته، وإنما يكون ذلك بعمارة الأرض وازدهارها على أيدي المحتاجين إلى هذا وهم آدم وذريته، فإذا أُسْكِنَ آدم وزوجه الجنة فإنما هي سكن ظاعن[3]، وإقامة راحل، حددت له غاية لا بد أن يبلغها، ومهمة لا مفر من القيام بها، وهي عمارة الأرض، وبعث الحياة في رُبُوعها[4]؛ بعد ابتلاء مَحْتُوم[5]، وامتحان مقدور، فإن سنة الله في خلقه أن ترتبط المسببات بأسبابها، وأن تؤدي إلى الغايات وسائلُها؛ فليكن لانتقال آدم إلى الأرض ـ وهو لا بد منتقل إليها ـ بسبب يستدعيه، وداع يقتضيه، ظاهره المخالفة لله، والعصيان لأمره، وحقيقته أن يقع مراد الله، ويتم مقدوره.

ولله في خلقه أسرار، فالقرآن كون مسطور ينبئ عن الكون المستور، ولكن بالقدر الذي نحتاجه في شئون ديننا ودنيانا، أما الأسرار التي لا حاجة لنا بها فقد طَواها[6] الله عنا فلا نكلف أنفسنا مُؤْنَةَ[7] البحث عنها.

ولذلك يقول بعض الصالحين ممن ذاقوا حلاوة الإيمان: "رُبَّ معصية أورثت ذلًا وانكسارًا، خيرٌ من طاعة أورثت عزًّا واستكبارًا "كأنهم عرفوا أن الخالق

---

١. الدَّفائن: ما هو موجود في باطن الأرض.

٢. الدَّائب: المستمر.

٣. الظَّاعن: الراحل.

٤. الرُّبوع: الأنحاء، جمع رَبْع.

٥. المحتوم: الواجب واللازم.

٦. طَوَى: أخفى.

٧. المُؤْنَة: الجُهد.

أوجد الذلة للنفس البشرية حتى يعتدل ميزانها، ولا تدخل في باب التيه بالعبادة.

ومن هنا كانت الحكمة من المعصية فهو أمرٌ قَدَرِي أراده العلي القدير من خلق آدم عليه السلام. لذا لا يتوجه إلى آدم عليه السلام اللومُ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "احتج آدم وموسى، فقال له موسى: أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة، فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، ثم تلومني على أمر قُدِّر عليّ قبل أن أُخْلَق. فقال رسول الله ﷺ: فحج آدمُ موسى مرتين"[1][2].

ثانيًا. ما فعله آدم يعدُّ خطأً وليس خطيئة، وللعلماء في تأويل هذا الخطأ وجوه:

لم يكن الذي صدر عن آدم عليه السلام وهو الأكل من الشجرة خطيئة كما يصور النصارى؛ فإن الخطيئة ارتكاب محظور عن إصرار وعلم بأنه محظور. وبالتالي يستلزم التكرار والفساد في الأرض مثل: القتل وسفك الدماء.... إلخ. وهذا ما لم يحدث من آدم عليه السلام، أمَّا ما وقع منه فهو عن غير تعمد وإصرار، وللعلماء في ذلك تأويلات.

تأويلات العلماء لهذا الخطأ:

الأول: أن يكون ذلك منه على سبيل النسيان، وإنما سمي ما أتاه ناسيًا معصية وغواية؛ لأن النبي ﷺ ليس كأحد من الناس. فإذا نسي عُدَّ ذلك معصية في حقه، وإن كان ـ ما صدر منه ـ غيرَ معصية إن صدر من غيره.

الثاني: أنه تأوَّل فيما فعل؛ إذ فُهِمَ أن الأمر والنهي ليسا جازمين بحيث يترتب على المخالفة الغضب والمجازاة، بل فَهْمُه على أنه إرشاد فقط، ونهي إرشاد، وما كان من هذا القبيل لم تَحْرُمْ مخالفته، كما حمل الفقهاء الأمرَ بكتابة الدَّيْن على أنه أمر إرشاد ولا إثم بتركه.

الثالث: أن ما حصل من الذنوب الصغيرة، وهذا لا يتأتى إلا على رَأْي من يقول: إن الأنبياء غير معصومين من الصغائر.

الرابع: أن ذلك كان قبل النبوة المستلزمة للعصمة من المعصية... ودليل ذلك قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ (طه)، والاجتباء: هو اصطفاء الله له بالرسالة، فتكون المعصية قد وقعت من آدم عليه السلام قبل النبوة[3].

الخامس: أن آدم تأوَّل في أكله من الشجرة؛ لأن الله أراه الشجرة التي نهاه عن الأكل منها، فتأوَّل أنَّهُ نهاه عن عينها، ولم ينهه عن جنسها، فأكل من شجرة أخرى من جنسها[4].

السادس: أن الذي حدث من آدم مرة واحدة؛ فلا يجوز نعته بأنه عاصٍ أوغاوٍ؛ فإنهما تطلقان على من تكررت منه المعصية والغواية.

ولا يطلق عليه عاصٍ أو غاوٍ إذا كانت المعصية قبل النبوة؛ لتشريف الله له بالنبوة والرسالة، كما لا يطلق

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب وفاة موسى عليه السلام، وذكره بعد (٣٢٢٨)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٦٩١٥)، واللفظ للبخاري.

٢. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص١٤٣: ١٤٥.

٣. النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، مرجع سابق، ص٦٢.

٤. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مكتبة التراث، القاهرة، ط١، ١٩٨٥م، ص١٩، ٢٠ بتصرف.

على من أسلم بعد كفره كافر، ولا يطلق عليه ذلك إن كانت بعد النبوة؛ لأن الله قَبِل توبته.

إن كلمة عاص أوغاو تطلقان على من كثرت فيه المعصية، والغواية، وهما تطلقان بهذه الصيغة على آدم، وأطلقت عصى، وغوى، والمراد فيما حكاه القرآن عنه؛ أي: في الواقعة المذكورة فقط[1].

ومما يؤكد ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ﴾ (الأعراف: ٢٢)، لم يقل: "فلما أكلا من الشجرة"؛ لأن الأكل يقتضي إعادة المعصية مرات ومرات، أما مجرد التذوق فيتبين منه أنها حدثت مرة واحدة فقط، أي أن المعصية لم تتكرر[2].

الخلاصة:

- الاستخلاف، وانتقال آدم إلى الأرض حقيقته أن يقع مراد الله، وتُعَمَّرَ الأرض التي من أجلها خَلَقَ الله الخلقَ فتلك إرادته سبحانه قبل بدء الخليقة.. ومعصية آدم لا تتنافى مع العصمة، فلا أكثر من تبرئة الله تعالى له؛ إذ قال جل شأنه: ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ (طه)؛ فلا معصية ولا مؤاخذة مع النسيان، غير أن الله سمى ذلك معصية؛ لأنها على صورتها، وآخَذَهُ بها؛ لأن مقام النبوة غير مقام عامة الناس، وللحبيب مع حبيبه منزلة لا تكون لغيره. على أن آدم وقع في هذه المعصية قبل اختصاصه بالرسالة، وقد صدَّق إبليس حين أقسم له وظنه من الناصحين، فما جرب من قبل كذبًا أو خداعًا، ولله في ذلك حكمة يجب أن نمسك ألسنتنا عن الخوض فيها. فلله في خلقه شئون وعقولنا قاصرة عن إدراك مقتضى حكمته ﷻ.
- كما أن الخطأ يختلف عن الخطيئة التي قال بها النصارى من ضمن عقائدهم الفاسدة؛ فالخطيئة: ارتكاب محظور عن إصرار، وعلم بأنه محظور، وبالتالي يستلزم التكرار والفساد في الأرض مثل القتل، وسفك الدماء. أما الخطأ: فهو ناتج عن الغفلة والنسيان، وهو ما حدث مع سيدنا آدم عليه السلام.
- للعلماء تأويلات في هذا الخطأ الذي وقع فيه آدم عليه السلام بأكله من الشجرة. فبعضهم قال: إن هذا الخطأ ناتج عن النسيان ونسيانه في حد ذاته معصية؛ لأن مقام الأنبياء يختلف عن غيرهم، وبعضهم قال: إن آدم ظن أن أمر الله ونهيه أمر إرشاد فقط، ونهي إرشاد فقط.. وهذا لا يحرم مخالفته.. وآخرون قالوا: إن ما حصل يعد من صغائر الذنوب، وأن ذلك كان قبل النبوة المستلزمة للعصمة من المعصية.

الشبهة الرابعة

الفهم الخاطئ لبعض الحقائق في قصة آدم عليه السلام(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن الجنة التي خُلق فيها

---

1. مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م، عند تفسير الآية ١٢١ من سورة طه.
2. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، دار القدس، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م، ص٢٠.

(*) استحالة تحريف الكتاب المقدس، القمص مرقص عزيز خليل، كنيسة القديسة العذراء، والشهيدة دميانة المعلقة، مصر، ٢٠٠٣م.

آدم عليه السلام كانت في الأرض في جدة أو الهند، وأن الشجرة التي أكل منها آدم عليه السلام هي شجرة العلم والمعرفة والبصيرة، وكان الله عز وجل قد نهاه عن الأكل منها؛ خوفًا من أن يكتسب هذه الأشياء، فلما خالف آدم عليه السلام وارتكب خطيئته وأكل من الشجرة، صار ذا علم وبصيرة ومعرفة، فغضب الله عليه. وعندما تاب لم تكن توبته صادقة؛ بدليل أنه طُرد من الجنة، ولو كانت توبته صادقة ما استحق الطرد منها. وأنه وَرَّث خطيئته تلك للبشرية من بعده، وتحملوها دون ذنب اقترفوه.

وجوه إبطال الشبهة:

١) ليس هناك أي فائدة من معرفة الجنة التي خُلق فيها آدم عليه السلام أهي جنة الخلد أم غيرها؟ ومن تمام الإيمان السكوت عمَّا سكت عنه القرآن؛ إذ لو أفاد ذكره ما سكت عنه القرآن الكريم أو الرسول صلى الله عليه وسلم.

٢) كيف ينهى الله آدم عليه السلام عن الأكل من شجرة العلم - على فرض صواب من قال ذلك - خوفًا من أن يكتسب المعرفة، وهو الذي اختصه دون الملائكة وعلَّمه الأسماء كلها؟!

٣) لم يغضب الله تعالى على آدم عليه السلام، بل عاتبه عتابًا خفيفًا استلزم توبته، فتاب الله عز وجل عليه واجتباه، ونزوله إلى الأرض كان تحقيقًا لمراد الله بتعمير الأرض وليس طردًا له من الجنة.

٤) إثبات القرآن الكريم لكل الحقائق السابقة الخاصة بآدم عليه السلام دون لَبس أو غموض دليل قاطع على صدقه.

٥) الخطيئة لا تورث، فالعدل الإلهي يقضي بأنه لا تزرُ وازرةٌ وزرَ أخرى.

التفصيل:

أولا. من تمام الإيمان السكوت عمَّا سكت عنه القرآن الكريم؛ إذ لو أفاد ذكره ما سكت عنه القرآن الكريم أو الرسول صلى الله عليه وسلم:

ما الذي يعود علينا، وما الفائدة التي تُرتجى إذا علمنا طبيعة الجنة التي سكنها آدم عليه السلام وزوجه هل كانت جنة الخلد أم أنها جنة من جنات الدنيا؟

فالزعم أن الجنة التي سكنها آدم عليه السلام وزوجه في جدة أو في الهند دعوى لا دليل عليها، والتوراة نفسها - على علاتها - لا تذكر هذا المكان المزعوم أو ذاك. فهذا كله رَجْم بالغيب، وتَخَرُّصٌ[1] باطل، والقرآن لم ينص على طبيعة هذه الجنة أهي جنة الخلد أم جنة خاصة لآدم وزوجه، أم جنة من جنات الأرض، كل هذه احتمالات واردة، وقال بها بعض العلماء ذلك، في حين أن بعضهم توقف في شأنها، ورجح الشيخ عبد الوهاب النجار هذا التوقف والتفويض في علمها لله تعالى، فيقول: رأى الجمهور أنها جنة المأوى، آخذين بظاهر الآيات والأحاديث كقوله عز وجل: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (البقرة)، وحديث أبي هريرة رضي الله عنه: يجمع الله تبارك وتعالى الناس فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون: "يا أبانا استفتح لنا الجنة"، فيقول: "وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم"[2]. قال ابن كثير في البداية

١. التَّخَرُّص: الكذب.
٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (٥٠٣).

والنهاية: "وهذا فيه قوة جيدة ظاهرة في الدلالة على أنها جنة المأوى، وليس تخلو عن نظر، إذ لو كانت الجنة التي عاش فيها آدم عليه السلام وزوجه، من جنات الدنيا - كما يزعمون - فكيف يبحث آدم عليه السلام عن شجرة الخلد في دار لا خلود فيها"[1]؟!

ثانيًا. كيف ينهى الله آدم عليه السلام عن الأكل من شجرة العلم وهو الذي علمه الأسماء كلها؟!

بل كيف يخشى الله من أن يكتسب آدم عليه السلام المعرفة فهل كان الله يريده جاهلًا؟! أم كان يخشى الله - تعالى عما يقولون - من أن يتعلم فيضاهي علم الله تعالى؟! فهو لذلك لا يريده متعلمًا؟! ولماذا يخشى الله من علم آدم؟! وإذا كان قد منعه من الأكل من شجرة المعرفة خوفًا من أن يكتسب هذه الأشياء؟! فلماذا علّمه الأسماء كلها؟! إن هذه الخرافة التي تزعم أن الله حرم آدم هي خرافة تتماشى مع سائر معتقدات اليهود الفاسدة التي تصف الله بما لا يجوز من صفات النقص والعجز تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

وإذا سلّمنا - جدلًا - بأن الشجرة التي أكل منها آدم عليه السلام هي شجرة العلم والبصيرة، فلماذا يسعى آدم عليه السلام للأكل منها، وقد أعطاه الله العلم قبل أن يسكن الجنة؟

هذا فضلًا عن أن القرآن الكريم لم يذكر نوع هذه الشجرة التي نهي عنها آدم عليه السلام وزوجه، ولم يذكر أكثر من أنهما أبيح لهما الأكل من كل ما في الجنة باستثناء تلك الشجرة؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (البقرة). ولكن التوراة تذكر أن هذه الشجرة هي شجرة معرفة الخير والشر: "وأوصى الرب الإله آدمَ قائلًا: من جميع شجر الجنة تأكل أكلًا، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتًا تموت". (التكوين ٢: ١٦، ١٧).

أما زعمهم أن الشجرة التي أكل منها آدم عليه السلام كانت شجرة العلم والمعرفة والبصيرة فليس كذلك؛ لأن الله تعالى وهب العلم لآدم عليه السلام قبل أن يُؤمر بسكن الجنة ويُنهى عن الأكل من الشجرة، قال عز وجل: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ (البقرة).

ومن العجيب أن تَنُصَّ التوراة على أن آدم عليه السلام ما كان يعلم الفرق بين الطاعة والمعصية؛ لأن الشجرة التي أكل منها هي نفسها "شجرة معرفة الخير والشر"، فكيف يُعاتَبُ على شيء ما كان يعلم أنه شر؟!

ثالثًا. لم يغضب الله تعالى على آدم عليه السلام، بل عاتبه عتابًا خفيفًا استلزم توبته، فتاب الله عز وجل عليه واجتباه، ونزوله إلى الأرض كان تعميرًا لها، وليس طردا له من الجنة:

لم يذكر القرآن الكريم أن الله تبارك وتعالى غضب على آدم عليه السلام، أو أن توبته كانت غير صادقة، ولكن جاء فيه أن الله تعالى عاتبه هو وزوجه قائلًا: ﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الأعراف).

١. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٢٢.

فتاب آدم عليه السلام عن خطئه وطلب ضارعًا[1] من ربه أن يغفر له ويرحمه ومعه زوجه، قال تعالى حكاية عنهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ (الأعراف). فقبل الله توبتهما واجتباه[2] ربه تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ (البقرة)، وقال عز وجل: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ (طه).

وللحبيب مع حبيبه ما لا يكون لغيره. والقرآن صرَّح أنهما - آدم عليه السلام وحواء - لم يأكلا: أي لم يستمرا في المعصية، ولكن ذاقا: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا﴾ (الأعراف: ٢٢) أي مرة واحدة حدث التنبه بمجرد الحدوث ولم يُصِرَّا على المعصية، حينئذ وقع العتاب من الله تعالى.. كما في الآية السابقة بالاستفهام المنفي حتى يكون الجواب من أفواههما: نعم يارب نهيتنا.

هنا وقف آدم وحواء - عليهما السلام - أمام الله تعالى مُقِرَّين بالخطأ والمخالفة، معترفين بالذنب، متيقنين أن الله تعالى حق، وقوله حق، وأنهما لم يستطيعا حمل نفسيهما على اتباع المنهج فظلما نفسيهما، ثم طلبا من الله تعالى المغفرة والرحمة في ذل وانكسار لئلا يكونا من الخاسرين.

فقد صدَّقا كلام إبليس وظنوه من الناصحين حين أقسم لهما؛ فلم يجربا من قبل كذبًا أو خداعًا. والله تعالى جعل التوبة، لكنه يقبلها بشروط منها: الإخلاص، والصدق والإنابة، والندم على ما فات من ذنب، والعزم على عدم العودة للذنب ثانية. وهو ما تحقق حِيال[3] آدم عليه السلام وزوجه[4].

وقد سبق أن أوضحنا أن هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض ليس بسبب معصيته أو غضب الله عليه، بل هو مراد الله من خلق آدم عليه السلام من قبل أن يخلقه، قال تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)، وليس نزوله إلى الأرض طردًا من الجنة كما يدعي المتوهمون، بل هو قضاء كَوْني سابق، وقبول التوبة يدل على عدم الغضب.

فقد ذكر الله تعالى - أنه قَبِلَ توبة آدم عليه السلام وزوجته عندما رجعا إلى الله تعالى - ومن أصدق من الله قيلًا.. ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ (البقرة)، كما أخبر الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ (طه)®.

رابعًا. إثبات القرآن الكريم لكل الحقائق السابقة الخاصة بآدم عليه السلام دون لبس أو غموض:

إن آدم عليه السلام تاب إلى الله توبة نصوحًا، وكان خروجه من الجنة تنفيذًا لحكمة الله السابقة على وجوده.

فهو لم يُطْرد، وإنما خرج من الجنة، وهبط إلى

---

١. الضَّارع: الذَّليل.

٢. اجتباه: قرَّبه واصطفاه.

٣. حِيال: تجاه.

٤. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ص٢١: ٢٤.

® في **"سبب خروج آدم من الجنة ونزوله إلى الأرض"** طالع أيضًا: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة، من هذا الجزء.

الأرض كما اقتضت حكمة الله في خلق الأرض، وتعميرها، وابتلاء بني آدم، فقد قدر ﷻ قبل أن يخلق آدم عليه السلام أنه سيجعل فيها آدم عليه السلام وذريته خلفاء في الأرض، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (البقرة).

إذن فالحكمة من معصية آدم عليه السلام أن الله تعالى درَّبه عليه السلام قبل أن يباشر مهمة الاستخلاف في الأرض تدريبًا يؤهله لمسئولية الاستخلاف في الكون، وكان التدريب في مكان يَكْفُل[1] الراحة والأمن، وما كان الله تعالى ليزجَّ[2] بآدم عليه السلام في ذلك الكون الواسع دون أن يدربه أولًا على مهمته.

أوضح الله له الأوامر، وأَجْلَى[3] له النواهي، وحذره من الشيطان.. ولم يكتف الخالق الرحيم بذلك، بل قدَّم لآدم عليه السلام الفرصة للتوبة إن أصابته الغفلة، وأَعْلَمَنَا الحقُّ كيف أن الشيطان قد ثأر لنفسه من آدم عليه السلام بإيقاعه في الخطيئة، وكذلك سيفعل مع أبنائه؛ لينبهنا الله ﷻ لعداوة إبليس، ومن ثَمَّ اجتنابه، ثم حذَّرنا الله تعالى من عدونا إبليس ومن خطواته التي يتبعها ليوقع الإنسان في دَرَكِ المعصية.

إذن فخروج آدم عليه السلام من الجنة وهبوطه إلى الأرض قَدَر الله الذي لا رادَّ له، وحكمته التي لا مُعَقِّبَ لها... فقد أسكنه الجنة وهو يعلم أنه سيخرج منها بسبب الأكل من الشجرة ليعمر الأرض، ويصلحها هو وذريته، ويعبدوه فيها طوعًا وكرهًا، وقد جرت سنة الله تعالى أن يقرن الأسباب بمسبباتها؛ ليعلم الإنسان أن كل شيء قد خلقه الله بِقَدَرٍ، وليعرف أن النَّصَبَ[4] بعده الراحة[5].

وقال الله ﷻ محذِّرًا بني آدم من عداوة إبليس لهم: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ (الأعراف).

وطاعة آدم عليه السلام: اختيار، وانكسار، واعتذار، ورغبة في أن يقبل الله توبته. لماذا؟ محبة منه في الله الخالق.. ويعد هذا تقعيدًا لمبدأ نوراني مهم في حياة الجماعة، فطَلَبُ آدم عليه السلام للتوبة، وقبول الله لتوبته، إنما وضع أساسًا هامًا لمسيرة الإنسان، وهو أن مرتكب الذنب سوف يجد باب التوبة مفتوحًا، فيقبل على الله بانكسار، ولا يتمادى في معصيته.

والله تعالى تاب على آدم عليه السلام واجتباه، وجعله نبيًّا - كما أسلفنا - ووفَّقه لعمارة الأرض، وإصلاحها بكلمات الله وهدايته، فاستحق الجزاء الأخروي من الله تعالى، بدخول الجنة، فكانت الجنة دار جزاء، وليست تركة تُورَّث بحق وبغير حق كما يفهمها النصارى ومن على شاكِلَتهم[6].

١. يَكْفُل: يوفِّر.

٢. يزجُّ: يرمي.

٣. أَجْلَى: أوضح.

٤. النَّصب: التعب.

٥. قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٢٧: ٣٠.

٦. شاكِلَتهم: من شابههم، أو على طريقتهم.

خامسًا. الخطيئة لا تورث، فالعدل الإلهي يقضي بأنه لا تزر وازرة وزر أخرى:

١. الآيات والأحاديث التي استدلوا بها على توارث الخطيئة مصروفة عن ظاهرها بغير صارف:

ادَّعى المبطلون أن ميراث الخطيئة ثابت في القرآن والسنة لقوله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢)﴾ (الأعراف)، ولقول رسول الله ﷺ: "فجحَد آدم فجحَدت ذريته، ونُسِّي آدم فنُسِّيَتْ ذريته، وخَطِئَ آدم فخَطِئَتْ ذريته"[١].

فزعموا أن الله أخذ الميثاق من آدم نيابة عن ذريته، و أن الحديث يفيد توريث الخطيئة، وهذا ادعاء باطل وزعم لا دليل عليه لا من قرآن ولا سنة.

أما الآية الكريمة فلم تذكر أن الله أخذ الميثاق من آدم بالنيابة عن ذريته، فهذا صرف للآية عن ظاهرها بغير صارف ولا مُسوِّغ لذلك، اللهم إلا أهواء النصارى!

والآية صريحة العبارة؛ بأن الرب أخرج ذرية آدم من ظهره بالفعل وأشهدهم على أنفسهم، وهو ما أكَّدته الأحاديث الصحيحة منها:

قال رسول الله ﷺ: "لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نَسَمَةٍ هو خالقها من ذُرِّيَّته إلى يوم القيامة، وجعل بين عَيْنَي كل إنسان منهم وَبِيصًا[٢] من نور، ثم عرضهم على آدم فقال: أي رب من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرَأى رجلًا منهم أعجبه وبيص ما بين عينيه فقال: أورب، من هذا؟ قال: رجل من آخر الأمم من ذريتك يُقال له: داود، فقال: ربِّ، كم جَعَلْتَ عُمره؟ قال: ستين سنة، قال: أي رب، زِدْهُ من عمري أربعين سنة، فلما قُضِي عُمر آدم جاءهُ ملك الموت، فقال: أولم يَبْقَ من عمري أربعون سنة؟ قال: أولم تُعْطِها ابنك داود؟ قال: فجَحَد[٣] آدم فجحدت ذريته، ونُسِّي آدم فنُسِّيت ذريته، وخَطِئ آدم فخطِئت ذريته"[٤].

وعن أنس بن مالك ؓ أن النبي ﷺ قال: "يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذابًا يوم القيامة: لو أن لك ما في الأرض من شيء أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم، فيقول: أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي شيئًا فأبيت إلا أن تشرك بي"[٥].

وجاء ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قال: "أخذ الله الميثاق من ظهر آدم ؑ بنعمان - يعني عرفة - فأخرج من صُلْبه كل ذرية ذَرَأها[٦] فنَثَره[٧] بين

---

١. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب سورة الأعراف (٣٠٧٦)، والحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الأعراف (٣٢٥٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٠٩).

٢. الوَبِيص: اللمعان.

٣. جَحَد: أنكر.

٤. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب سورة الأعراف (٣٠٧٦)، والحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الأعراف (٣٢٥٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٠٩).

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب (٦١٧٣)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهبًا (٧٢٦٣).

٦. ذَرَأ: خلق.

٧. نَثَر: بعثر.

يديه كالذَّرِّ، ثم كلَّمهم قِبَلًا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ (١٧٣)﴾ (الأعراف)"[١]. وغير ذلك كثير مما أورده ابن كثير في تفسيره[٢].

وأما قول رسول الله آخر الحديث: "فجحَد آدم فجحَدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته، وخطِئ آدم فخطئت ذريته"، فلا يفيد توريث الخطيئة وإنما توريث الطباع، والفارق بينهما كبير، فهذه الصفات هي من طبيعة الإنسان التي خلقه الله تعالى عليها، فكل الناس ينسون ويجحدون ويخطئون؛ لأنهم خلقوا ضعافًا كما قال : ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا (٢٨)﴾ (النساء)، وكما قال رسول الله ﷺ: "كل ابن آدم خطَّاء، وخير الخطائين التَّوَّابون"[٣].

ولكن لا يرث أحدهم خطيئة الآخر ولا يرث الإنسان جحود غيره! فكل إنسان يتحمل خطأه هو، والقاعدة القرآنية المحكمة: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩)﴾ (النجم)، وقوله : ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا (١٣)﴾ (الإسراء)[٤]، وقوله : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ (٨)﴾ (الزلزلة)، وحسبنا في الرد على من يعتقدون أن الطفل البريء يولد مُلطَّخًا بخطيئة آدم ويريدون إلصاق ذلك العبث كرهًا بالإسلام - أن نذكر نيفًا من كلمات رسول الله ﷺ في وصف من تطهر من كل الذنوب والآثام: "من حجَّ هذا البيت فلم يَرْفُث[٥] ولم يَفْسق[٦] رجع كيوم ولدته أمه"[٧]، وأن الله يقول: "إني إذا ابتليتُ عبدًا من عبادي مؤمنًا فحَمِدَني على ما ابتليته فإنه يقوم من مضجعه ذلك كيوم ولدته أمه من الخطايا". ويقول الرب : "أنا قيَّدتُ عبدي وابتليته، وأجروا له كما كنتم تُجْرُون[٨] له وهو صحيح"[٩].

لما فرغ سليمان بن داود من بناء بيت المقدس سأل الله ثلاثًا: حكمًا يصادف حكمه، وملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، وألا يأتي هذا المسجد أحد لا يريد إلا الصلاة

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، من مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (٢٤٥٥)، والنسائي في السنن الكبرى، كتاب التفسير، باب سورة الأعراف (١١١٩١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧٠١).

٢. انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: هاني الحاج، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د. ت، ج٣، ص٣٦٣.

٣. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك رضي الله عنه (١٣٠٧٢)، والترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٩٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٥١٥).

٤. أَلْزَمناه طائره في عُنُقه: ألزمناه عمله.

٥. لم يَرْفُث: لم يفحش في القول.

٦. لم يَفْسق: لم يَأْتِ ما حرَّم الله عليه.

٧. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور (١٤٤٩)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة (٣٣٥٨).

٨. تُجْرُون: تكتبون له من الأجر.

٩. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الشاميين، حديث شداد بن أوس رضي الله عنه (١٧١٥٩)، والطبراني في المعجم الكبير (٧/ ٢٧٩)، باب الشين: شداد بن أوس رضي الله عنه (٧١٣٦)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٠٠٩).

فيه إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فقال النبي ﷺ: "أما اثنتان فقد أعطيهما، وأرجو أن يكون قد أعطى الثالثة"(١).

ومن الجدير بالذكر في هذا السياق أن خروج آدم من الجنة ما كان بسبب زلته هذه، ولكن لأن الله تعالى قدَّر منذ القدم أن يَبتلي الإنسانَ باستخلافه في الأرض، كي يَعْمُرَها بالتوحيد ويعبده فيها بظاهر الغيب، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (البقرة)، وليتم بذلك اختبار الإيمان على الإنس والجن، قال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ (الذاريات)، وقال ﷻ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ (الملك).

ومن أدلة ذلك حديث محاجة آدم موسى، قال رسول الله ﷺ: "احتج آدم وموسى فقال له موسى يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة، قال له آدم: يا موسى اصطفاك الله بكلامه، وخطَّ لك بيده أتلومني على أمر قدره اللهُ عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة فحج آدم موسى، فحج آدم موسى (ثلاثًا)"(٢).

ومن المعلوم أنه لا يجوز الاحتجاج بالقَدَر لتبرير المعصية، وإنما يجوز ذلك في تعليل الابتلاء العجيب. إننا نقرأ في القصة التوراتية أن آدم عليه السلام ما كان يعلم الفرق بين الطاعة والمعصية؛ لأن الشجرة التي أكل منها هي نفسها "شجرة معرفة الخير والشر"، فكيف يعاتب على شيء ما كان يعلم أنه شر؟

٢. وراثة خطيئة آدم عقيدة النصارى، والإسلام يُصَوِّبها، ونصوص القرآن تنطق بالعدل الإلهي:

فالخطيئة في الإسلام لا تُوَرَّثُ، وإنما هي من كسب الإنسان، ومن عمله، وهو يحاسب عليها، ولا يؤاخذ على خطيئة غيره قال ﷻ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ (البقرة)، وقال ﷻ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ (الأنعام).

وقال ﷻ: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ (النجم)، وقال ﷻ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ (فاطر)، وقال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ

---

١. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في الصلاة في مسجد بيت المقدس (١٤٠٨)، وابن خزيمة في صحيحه، كتاب الصلاة، باب فضل الصلاة في مسجد بيت المقدس (١٣٣٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٩٠).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله (٦٢٤٠)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى (٦٩١٢).

﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١)﴾ (الطور) [1].

أما ما استدل به أصحاب هذا الادعاء من أكل آدم عليه السلام من الشجرة، وخروجه من الجنة، نتيجة لذلك.. فليس ثمة دليل على ما يعتقدون، فإن الله تعالى أهبط الإنسان - آدم - عليه السلام وذريته من بعده إلى الأرض ليتم البلاء، ويتنافس الناس في العمل، فمن أطاع دخل الجنة، ومن عصى حُرِم من دخول الجنة، ودخل النار.

فالخروج من الجنة ليس عقوبة على خطيئة موروثة - كما توهموا - وإنما ليكون الإنسان مستحقًّا للجزاء بعمله وكسبه.

وليأت هؤلاء المدعون بآية واحدة، أو حديث واحد يعترف بأن الخطيئة موروثة، فكلها تنطق بالعدل الإلهي، وهذا من محاسن الإسلام.

فهل من العدل أن أتحمل وزر غيري؟! وهل من العدل أن يحمل وزري غيري؟!

وتجربة آدم وزوجه - عليهما السلام - ليست خطيئة موروثة؛ فقد تم تصويبها، ولا وجود لإنسان بمفرده قادر على أن يحمل عن البشر خطاياهم، كذلك ليست هناك واسطة بين الله تعالى وبين البشر.

ولكنها تجربة البشرية بكاملها ممثلة في شخص آدم عليه السلام، فيها الصعود والهبوط، والتدني والتسامي، فهو مُزَوَّد بالشهوات والنَّزَوات [2]، مُهَيَّأٌ للرقي بعد الرجوع والتوبة. فكما انزلق لنَزَغات [3] الشيطان بحكم تكوينه البشري، لا بسبب امرأته حواء كما تُصوِّر التوراة؛ إذ تقول: "وكانت الحيَّة أَحْيَل جميع حيوانات البرية التي عملها الرب الإله، فقالت للمرأة: "أحقًا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة؟" فقالت المرأة للحية: "من ثمر شجر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله: لا تأكلا منه، ولا تمساه لئلا تموتا". فقالت الحية للمرأة: "لن تموتا! بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر". فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل، وأنها بهجة للعيون، وأن الشجرة شهية للنظر. فأخذت من ثمرها وأكلت، وأعطت رجلها أيضًا معها فأكل". (التكوين ٣: ١ - ٦)، وسلك الشيطان لإغوائهما كل مسلك (أزلهما - وسوس لهما - دلاهما بغرور)، بهذه الحيل الماكرة نسيا عهد الله، ونهيه لهما، ثم بعد أن نبههما الله عز وجل تنبها، وتابا فتاب الله عليهما، واجتبى الله آدم للرسالة وزوده بأسباب الهداية. على أن ما فعله آدم ليس خطيئة وإنما هو خطأ، أما الخطيئة كالقتل، وسفك الدماء، والدس بين الناس، وإثارة الوقيعة بينهم فالعقاب عليها إما في الدنيا أو في الآخرة، وأما الخطأ فهو ابن للغفلة والسهو®، لذا يجب ألا ينظر أبناء آدم إلى أبيهم على أنه أول من ارتكب الخطيئة، وإنما هي التجربة البشرية التي تقبل أن تمر بكل واحد من أبناء البشر، فالحكم العدل عز وجل لا يُحَمِّل أحدًا وزر أحد®.

١. أَلَتْناهم: نقصناهم.

٢. النَّزَوات: الإغراءات الشيطانية والشهوات.

٣. النَّزَغات: الإغراءات.

® في **"أكل آدم من الشجرة خطأ لا خطيئة"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثالثة، من هذا الجزء.

® في **"فكرة الإسلام عن خطيئة آدم"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثانية والثلاثين، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد).

فما أبعَدَ الفارق بين ما جاء في التنزيل الحكيم، وبين ما سطَّرته أوهام المبطلين!!

إذا قارنا هذه الحقائق القرآنية ببعض ما جاء في التوراة أدركنا الفارق بين الحق والباطل، والنور والظلمات، ففي التوراة كانت المرأة مغرية لآدم بالأكل من الشجرة؛ لذا عاقبها الله ﷻ بآلام الحمل، والولادة، وسيادة الرجل عليها، كما عوقب آدم بالشقاء والتعب، وإنبات الأرض له شوكًا: "وقال للمرأة: "تكثيرًا أُكَثِّر أتعاب حَبَلِك، بالوجع تلدين أولادًا. وإلى رَجُلك يكون اشتياقك وهو يَسُود عليك". وقال لآدم: "لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتُكَ قائلًا: لا تأكل منها، ملعونة الأرض بسببك. بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك. وشوكًا وحَسَكًا تنبت لك، وتأكل عشب الحقل". (التكوين ٣: ١٦ـ ١٨).

أما حقائق الإسلام في هذا الشأن فلا تخفى على أحد بمكان، وقد أوضحناها في الأوراق السابقة.

الخلاصة:

- من المنطقي أن نسكت عما سكت عنه القرآن الكريم، إذ لو أفاد ذكره لذكره القرآن؛ فالهدف من القصص القرآني العبرة والعظة؛ لذلك لا نسلم بتأويلات وردت عن بعض العلماء لِلْجَنَّةِ التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، والتي هبط منها آدم عليه السلام فعلمها عند الله؛ لأنها من الغيبيات التي نؤمن بها على أي كيفية كانت، والجمهور على أنها جنة المأوى أخذًا بظواهر الآيات والأحاديث، ومن ثم فليست جنة من جنات الأرض؛ إذ كيف يطلب آدم شجرة الخلد في دار لا خلود فيها؟! كما أن في مخالفة آدم عليه السلام أمر ربه، وتوبته منها دروس وعبر للبشرية جمعاء.

- كيف ينهى الله آدم عليه السلام عن الأكل من شجرة المعرفة وهو الذي علمه الأسماء كلها، وإذا كانت الشجرة شجرة المعرفة فلماذا يسعى آدم عليه السلام إلى الأكل منها وقد أعطاه الله العلم قبل أن يدخل الجنة.

- إن الله ﷻ لم يغضب على آدم عليه السلام الغضب الذي يوجب الخروج من رحمة الله تعالى، بل عاتبه عتابًا خفيفًا استلزم توبته عليه السلام؛ فتاب عليه واجتباه وهداه.

- أما نزوله إلى الأرض فكان تعميرًا لها وليس طردًا من الجنة أو عقوبة... فكان امتحانه في الجنة تدريبًا على مسألة الاستخلاف في الأرض، إذ هكذا اقتضت حكمة الله قبل خلقه عليه السلام. كما أراد المولى ﷻ أن يتعلم بنو آدم درسًا يفيدهم في ابتلائهم في الدنيا والذي خُلِقُوا من أجله، أراد أن يعلموا أن الشيطان عدو لهم ليجتنبوه؛ فبمكره وخداعه أخرج أبويهما من الجنة؛ ثأرًا لنفسه، فقد صور له غروره أنه أكرم خلقًا من آدم، فكان العداء بتكريم الله لآدم دون سائر خلقه.

- أما وراثة خطيئة آدم فعقيدة النصارى، والإسلام بريء منها، ونصوص القرآن تنطق بالعدل الإلهي؛ إذ إنه "لا تزر وازرة وزر أخرى"؛ وما استدلوا به من نصوص مصروفة عن ظاهرها بغير صارف، كما أن هناك فرقًا بين الخطأ والخطيئة، فالخطأ: ناتج عن الغفلة والنسيان، وهو ما حدث مع سيدنا آدم عليه السلام. أما الخطيئة: فيندرج تحتها سفك الدماء، والقتل، وخلافه مع توافر شرط العمد.

- تختلف حقائق القرآن عن سائر الكتب الأخرى

المحرفة فهو النور، وما عداه الظلمات، وهو الحق وما عداه الباطل، وبالاستقراء يتضح لنا أن القرآن هو المصوِّب لأخطاء وعقائد السابقين كما يضيف ما لا علم لهم به، وفيه دلالة على قدسيته فهو وحي من الله إلى رسوله ﷺ، ولم تمسه يد التحريف بالعبث والفساد، فقد تَعَهَّدَ الله تعالى بحفظه وهو خير الحافظين.

الشبهة الخامسة

إنكار نبوة آدم عليه السلام (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن نوحًا عليه السلام أول الأنبياء وليس آدم عليه السلام، ويستدلون على ذلك بأن القرآن لم يذكره ـ أي آدم عليه السلام ـ باعتباره نبيًّا أو رسولًا، ويهدفون من وراء ذلك إلى إنكار نبوته عليه السلام.

وجه إبطال الشبهة:

النبوة: هي الوحي، والنبي هو ما نزل عليه هذا الوحي وأمر بتبليغه للناس وهذا متحقق في آدم عليه السلام. والقرآن أشار إلى نبوته إذ اجتباه ربه.

التفصيل[1]:

أشار القرآن الكريم إلى نبوة آدم عليه السلام حيث قال تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ (طه:١٢٢) والاجتباء هنا: النبوة؛ بدليل قوله تعالى في سورة مريم عليها السلام، قال: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ (مريم: ٥٨) يعني من النبيين، وقال في قصة يونس عليه السلام بعد قصة الحوت: ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ (القلم: ٥٠)[2].

كما أشارت السنة النبوية إلى نبوة آدم عليه السلام فعن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله أي الأنبياء كان أول؟ قال: آدم، قلت: يا رسول الله ونبي كان؟ قال: "نعم نبي مكلم". قلت: يا رسول الله كم المرسلون؟ قال: ثلاثمائة وبضع عشر جمًّا غفيرًا[3] [4].

وفي رواية عن أبي أمامة قال أبو ذر: قلت يا رسول الله كم وفاء عدة الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جمًّا غفيرًا[5].

ولقد اهتم القرآن في حياة كل نبي بموطن العبرة والعظة وصَوَلات الصراع وجَوَلاته[6] بين الأنبياء وأقوامهم، بيد أن الصراع في حياة آدم عليه السلام كان مع

(*) المفترون: خطاب التطرف العلماني في الميزان، فهمي هويدي، دار الشروق، مصر، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

١. انظر: الموسوعة الإسلامية العامة، إشراف: د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٢. تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء، أبو الحسن علي بن أحمد السبتي الأموي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٩م، ص٧٨.

٣. جمًّا غفيرًا: جمع كثير.

٤. صحيح: أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده، أحاديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه (٤٧٨)، وأحمد في مسنده، مسند الأنصار، حديث المشايخ عن أبي بن كعب رضي الله عنه (٢١٥٨٦)، وصححه الألباني في المشكاة (٥٧٣٧).

٥. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث أبي أمامة رضي الله عنه (٢٢٣٤٢)، والطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٢١٧)، باب الصاد: صدي بن عجلان أبو أمامة رضي الله عنه (٧٨٧١)، وصححه الألباني في المشكاة (٥٧٣٧).

٦. صَوَلات الصراع وجَوَلاته: مراحله المتعددة.

الشيطان، وكذلك كانت العبرة في كيفية نشأته ووجوده أكثر من الصراع في حياته باعتباره نبيًّا؛ فركز القرآن على ذلك، ومن الأدلة أيضًا على نبوة آدم قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ (آل عمران)، وقد ثبت أنه تعالى اختار هؤلاء لدينهم وإسلامهم وهؤلاء كلهم أنبياء، فكيف يقال: إن الله لم يذكر آدم عليه السلام ضمن الأنبياء وهو مذكور معهم بل وفي مقدمتهم؟

وإذا كان القرآن لم يذكر آدم عليه السلام كما ذكر غيره من الأنبياء، بالتفصيل في حياته باعتباره نبيًّا، فإنه ذكر أن الله خاطبه بلا واسطة، فأحل وحرم، وأمر ونهي، دون أن يرسل إليه رسولًا، وهذا هو معنى النبوة:

ويتجلى ذلك في العديد من الأمور منها:

١. تعليمه الأسماءَ - وحيًا - دون الملائكة، وتفضيله وذريته بالعلم:

فبعد أن تغلغلت الروح في جسده، كساه الله من نور جلاله، وجماله، فظهر نور الكرامة على وجهه، وألبسه من حلل الجنة، وعلمه من لدنه علمًا. وأظهر فضله على الملائكة.

قال تبارك وتعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (البقرة)، قال الطَبَري فيما يرويه عن الحسن وقَتَادَة: "علَّمه الله تعالى اسم كل شيء: هذه الجبال، والبغال، والإبل، والجن، والوحش"[١].

وجعل يسمي كل شيء باسمه، وعرضت عليه كل أمة[٢]؛ حتى يستطيع أن يتعامل مع مجريات الأحداث في الكون. فآدم عليه السلام لو لم يكن قد تعلم الأسماء كلها لما استطاع أن يتحدث مع ولد من أولاده قائلًا - مثلًا -: انظر هل أشرقت الشمس أم لا؟

إذن كان لآدم عليه السلام أن يتعلم الأسماء كلها، وكان لا بد من معلم يعلمه إياها، والملائكة لا تدري ذلك فقد قالت: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ (البقرة).

لذا علَّمه الحكيم الخبير عن طريق الوحي والإلهام، فقذف في قلبه ووجدانه وإدراكه الأسماءَ، والمسمياتِ. فهذا يدل على نبوته واصطفاء الله له، واللغة بنت المحاكاة فلا أحد يستطيع أن يتكلم إلا بعد أن يكون قد سمع من الآباء، والآباء سمعوا من الأجداد، وهكذا حتى تنتهي السلسلة إلى سيدنا آدم عليه السلام.

فممَّن سمع آدم عليه السلام حتى يتكلم؟! ومن أسمعه وعلَّمه الأسماء كلها وهو أول البشر؟ إنها قدرة الله الذي يوحي إلى من يشاء من عباده.. فهي مسألة يجب أن يعترف بها كل عاقل، والدليل على صدق ذلك هو أن المسميات قد تم عرضها على الملائكة فلم تعرف أسماءها ولم تتعرف على المسميات، وذلك من طلاقة قدرة الله تعالى.

---

١. أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١/ ٤٨٥)، تفسير سورة البقرة، آية ٣١، برقم (٦٥٧).

٢. سلسلة القصص القرآني، د. حمزة النشرتي وآخرون، مؤسسة الأهرام، د. ت، القاهرة، ج١، ص١٩.

وإدراك آدم عليه السلام كان إدراكًا توفيقيًّا، أي أنه عرَّف كل اسم لكل مسمى كما خلقه الله تعالى، ثم نزل إلى الأرض لتتطور هذه المسميات، ويعمل العقل الإنساني لتطوير وتحديد الأشياء مما استدعى أن يضع لها أسماء مشتقة مما تلقاه آدم عليه السلام من الحق عز وجل[1].

وبعد أن علَّمه الله تعالى الأسماء كلها أورث الله عز وجل هذا العلم لذريته من بعده، وبهذا العلم نشأت المجتمعات، وتطورت الحياة، وظهرت المخترعات.

٢. استخلافه في الأرض واختصاصه بالعديد من التشريعات والتكاليف التي يجب أن يبلغها البشر:

قال الحق عز وجل: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)، فالمتأمل لكلمة "خَلِيفَةً" يجد أن الخليفة هو مَن استخلفه الله تعالى في الأرض، وجعل الأشياء تتفاعل له؛ يوقِد النار فتشتعل، ويَزرَع الأرض فتنبت، ويَستأنس الحيوان فيأنس له، ويستخدم الأنعام في الطعام والتنقل ويأخذ منها اللبن ليشربه، والصوف ليغزله، وغيرها العديد من النعم التي لا تُعَدُّ ولا تحصى.

كل ذلك ما كان للإنسان أن يَعِيَه لولا أن مَنَّ عليه خالقه عز وجل بوحيه ذلك لعبده آدم عليه السلام حتى يُعلِّم ذريته من بعده؛ تتمة لسلسلة الفضائل والتكريمات والنعم.

وإمعانًا في ترابط البشر، وتعايشهم في أمن ونظام.. كانت التشريعات والتكاليف التي أمر الله آدم عليه السلام أن يُقعِّدها من أجل سعادة البشر، واستقرارهم، ومن هذه التشريعات:

- **شريعة الزواج:**

فلا يكون النسل المشروع الذي يباركه الله إلا من زوجين سلكا الطريق الصحيح في التزاوج. هذا ما جرت عليه طبيعة الحياة التي اقتضتها حكمة الله.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾ (الروم).

وقد حَثَّ النبي صلى الله عليه وسلم على الزواج قال صلى الله عليه وسلم: "من استطاع الباءة[2] فليتزوج؛ فإنه أغضُّ للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وِجاء"[3][4].

وقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾ (النساء)[5].

إن هذا تعبير عن خلق جديد مستقل وليس من قبيل الصدفة فهو أمر محكوم بنظام دقيق وقوانين محكمة... حيث يختلف النوعان وينشأ عن التقائهما جنين قد يكون ذَكَرًا وقد يكون أنثى بعد مدة زمنية... هل هذا الأمر المنظم بدقة يمكن أن يكون صدفة؟!

---

١. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ص١١، ١٢ بتصرف.

٢. الباءة: الجماع.

٣. وِجاء: وقاية.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة (١٨٠٦)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة (٣٤٦٦).

٥. بثَّ: نشر.

إن هذا النظام الدقيق الذي أوجد اللقاء بين الرجل والمرأة على لذة ومتعة واشتهاء؛ ليكون به عِمارة الكون على أسس وقواعد محسوبة من التكليف[١]. عن طريق الوحي، والله لا يوحي إلا إلى الأنبياء، فكيف تُنكَر نبوة آدم ﷺ وقد أُوحي إليه بهذه التكاليف وتلك الشرائع؟!

وعلى هذا فقد أُمِرَ آدم ﷺ بتكليف من ربه ﷻ أن يتزوج كل من ولديه توأم أخيه، فقد كانت السيدة حواء تلد اثنين في كل بطن... ولذلك أمر آدم ﷺ ابنيه قابيل وهابيل، أن يتزوج كل منهما توأم أخيه، وألا يتزوج الأخت التي ولدت له، وسوف يتضح لنا بعد عرض أحداث قصة قابيل وهابيل أن الأخ القاتل قد فعل هذا ليبرأ من عصيان أمر أبيه الذي هو وحي سماوي لنطمئن إلى نبوة آدم ﷺ، أما رسالته فالأمر فيها مختلف وشأنه أن نُفوِّض[٢] علم ذلك إلى الله[٣].

- **النهي عن القتل وسفك الدماء:**

وإذا عُدْنا أدراجنا[٤] إلى المشهد السابق من قصة قابيل وهابيل، فإننا نجد التكليفات والشرائع التي بلغها آدم ﷺ لأبنائه تشهد بنبوته؛ فامرأة هابيل التي هي توأم قابيل كانت أجمل من توأم هابيل، فأباها قابيل على أخيه، وأرادها لنفسه، ثم اتفقا على أن يحتكما إلى الله ﷻ وذلك بأن يقدم كل منهما قربانًا[٥] إليه سبحانه، فتقبَّل الله من هابيل ولم يتقبل من قابيل الذي ظل على موقفه العِنادي، وعداء أخيه، وعصيان الله، وهداه شيطانه وسلطان الهوى إلى قتل أخيه الذي حكى عنه القرآن خشيته من الله، وتقواه له، وملاطفته لأخيه قال ﷻ: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (المائدة).

إن الذي حَمَل قابيل على ارتكاب هذه الجريمة في حق أخيه وأبيه - بل في انتهاك حرمات الله، فقد قتل نفسًا بغير وجه حق - إنما هو الحسد، الذي بسببه طُرِد إبليس من الجنة، وبسببه أُلْقِي يوسف في الجُبِّ[٦]، وبسببه كفر من كفر.

وقوله ﷻ: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (المائدة)، دعوة من الأخ الصالح إلى أخيه بالهدى والتقوى. فهو يخبره أن رضا الله تعالى مقرون بطاعته واتباع أوامره، فلو كان تقيًّا مثله لقبل قربانه، ولكنه يتمادى في غيه، ويصر على قتله. بينما يستمر التقي في دعوته إلى الهدى، ويكشف له معالم الطريق إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ويلقاه ملاطفًا موادعًا.

فمن أين عُرِفت هذه الأخلاق وتلك التشريعات من الحلال والحرام؟ ومن أين عُرف ما يرضي الله وما يغضبه إلا أن يكون وحيًا يوحي؟ وإذا كان القرآن لم

---

١. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ص١٠: ١٢.

٢. نفوِّض: نسلِّم.

٣. للمزيد انظر: قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٢٤ وما بعدها.

٤. أدراجنا: رجعنا.

٥. القُرْبان: ما يُتَقَرَّب به إلى الله.

٦. الجُبُّ: البِئْر.

يذكر آدم عليه السلام بالنبوة صراحة فقد أشار إلى ذلك كما سبق في الآيات وذكره مع مَن اصطفاهم بالنبوة وأوحى إليه كما أوحى إلى أنبيائه. فكيف يأتي بعد ذلك مَن ينكِر نبوة آدم عليه السلام ويزعم أنه لم يكن نبيًّا.

الخلاصة:

- لم يذكر القرآن الكريم نبوة آدم عليه السلام كما ذكر غيره من الأنبياء، ولكن ذكر أن الله خاطبه بلا واسطة، فأحل، وحرم، وأمر، ونهى، دون أن يُرسِل إليه رسولًا. وهذا معنى النبوة.

- ومن دلائل نبوة آدم عليه السلام:

  - أن الله تعالى أوحى إليه بتعليم الأسماء دون الملائكة الكرام، إذ لم تعرف عندما عرض الله عليهم الأسماء والمسميات، إذن كان هناك إلهام ووحي؛ وعلى هذا فسيدنا آدم ليس بشرًا عاديًّا بل هو نبي موحى إليه.

  - كذلك فقد أراد الله تعالى بعد خلق آدم عليه السلام خلق ذرية تكون خليفته في الأرض تعمرها ويتحقق مراد الله من وجودها.. وكان لزامًا أن تعي البشرية العديد من التشريعات والأحكام الإلهية التي تساعدها على الاستقرار وتحمل مَغَبَّة [1] هذه الحياة التي لم يجربوها من قبل، فكان إرشادهم تكريمًا من الله عز وجل وفضلًا. ومن هذه التشريعات شريعة الزواج، والنهي عن القتل وسفك الدماء... إلخ. ومن ثم فلا يصح أن يَدَّعِي الواهمون عدم نبوة آدم عليه السلام.

١. مَغَبَّة: عاقبة.

الشبهة السادسة

الزعم أن آدم وحواء - عليهما السلام - قد أشركا بالله تعالى (*) ®

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن آدم عليه السلام قد أشرك بالله تعالى هو وزوجه حواء - عليهما السلام - حينما جاءهما الشيطان ونصحهما أن يُسميا ولدهما عبد الحارث [2]؛ كي يحيا، وكان لا يعيش لهما ولد قط.. ويستدلون على ذلك بقول الله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ (الأعراف)، كما يستدلون بحديث الصحابي الجليل سَمُرَةَ بن جُنْدُبٍ رضي الله عنه: "لما حملت حواء، طاف بها إبليس، وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سمّيه عبد الحارث؛ فإنه يعيش، فسمّوه عبد الحارث، فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره" [3]. ويهدفون من وراء ذلك إلى التشكيك في عصمة آدم عليه السلام.

(*) مكتبة شبكة التفسير، والدراسات القرآنية.
www.tafsir.com

® في "ثبوت عصمة آدم" طالع: الشبهة الثالثة، من هذا الجزء.

٢. الحارث: هو اسم إبليس.

٣. ضعيف: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الكوفيين، حديث سمرة بن جندب عن النبي صلى الله عليه وسلم (٢٠١٢٩)، والترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب سورة الأعراف (٣٠٧٧)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٣٤٢).

وجه إبطال الشبهة:

اتفق العلماء على تنزيه آدم عليه السلام وعصمته من الشرك واختلفوا في قبول الحديث وتأويل الآية على مذهبين:

- قبول الحديث والآية على ظاهرهما في قصة آدم وحواء - عليهما السلام - والقول أن الشرك لم يكن شركًا في العبادة بل شركًا في التسمية أو الطاعة.
- تضعيف الحديث وتأويل الآية في غير آدم وحواء، وإنما للجنس البشري عمومًا، فالشرك لم يقع منهما ولكن كان في ذريتهما من بعدهما.

التفصيل:

مذاهب العلماء في تفسير الآية والحديث:

اتفق العلماء على تنزيه مقام آدم عليه السلام من الشرك، وأن ذلك لم يقع منه، ولا من الأنبياء قط، وقد عدُّوا هذه الآية والحديث الوارد في تفسيرها من مشكلات التفسير، ولهم في تأويلها أقوال خلاصتها راجعة إلى مذهبين:

الأول: مذهب قبول الحديث، والآية على ظاهرهما في قصة آدم وحواء:

وهذا رأي الجمهور من المفسرين، حيث ذهبوا إلى أن الآية معني بها آدم وحواء - رضي الله عنهم جميعًا - حيث سميا ابنهما عبد الحارث. ورُوِي ذلك عن: أُبَي بن كَعْبٍ، وسمرة بن جندب، وابن عباس. وهو اختيار جمع من المفسرين كما سيأتي ذكرهم. واختلف هؤلاء في معنى الشرك المضاف إلى آدم وحواء - عليهما السلام - على أقوال:

القول الأول: أنه كان شركًا في التسمية، ولم يكن شركًا في العبادة كما روي عن قَتَادَةَ، والسُّدِّي، واختاره الطَبَري، والبَغَوِي، والأَلُوسِي... وغيرهم[1].

قال البغوي: جعلا له شريكًا إذ سمياه عبد الحارث، ولم يكن هذا إشراكًا في العبادة، ولا أن الحارث ربهما؛ فإن آدم عليه السلام كان نبيًّا معصومًا من الشرك، ولكن قصد إلى أن الحارث كان سبب نجاة الولد وسلامة أمه، وقد يُطْلَق اسمُ العبد على من يراد به أنه معبود هذا، كالرجل إذا نزل به ضيف يسمي نفسه عبد الضيف، على وجه الخضوع، لا على وجه أن الضيف ربه، ويقول للغير أنا عبدك، وقال يوسف عليه السلام لعزيز مصر: ﴿وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (يوسف)[2]، ولم يُرِد به أنه معبوده، كذلك هذا.

القول الثاني: أنه كان شركًا في الطاعة، ولم يكن شركًا في العبادة. وهذا هو المروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وقتادة.

القول الثالث: أن أي إشراك وقع من حواء لا من آدم عليه السلام ولم يشرك آدم قط، وأما قوله: "جعلا له شركاء فيما آتاهما" بصيغة المثنى فلا ينافي ذلك؛ لأنه قد يسند فعل الواحد إلى الاثنين، بل إلى جماعة، وهو شائع في كلام العرب وهذا قول القِنَّوْجِي[3].

واعترض عليه من قال: بأن الله تعالى قال: "جعلا"

---

١. انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج٧، ص٣٣٨. مكتبة شبكة التفسير والدراسات القرآنية. www.tafsir.com

٢. هَيْت لك: هلُمَّ وأقبل علي.

٣. تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، دار الفكر، بيروت، ١٩٧١م، ٨/ ٣٦٧.

حيث نسب الجعل إليهما، والأصل حمل اللفظ على ظاهره، وبأن آدم عليه السلام قد أقرَّ حواء على ذلك، وبأنه في حديث سمرة رضي الله عنه التصريح بأنهما سمياه بذلك معًا[1].

أدلة هذا المذهب:

استدل القائلون بأن الآية معنيٌّ بها آدم وحواء بأدلة منها:

- حديث سمرة رضي الله عنه، وقد صرح بعضهم بصحته، والآخر سكت بما يشعر بإقراره بصحة الحديث.
- أن هذا المذهب هو المروي عن سمرة، وأُبي بن كعب، وابن عباس رضي الله عنهم، ومثل هذا لا يقال بالرأي، فدل على أن للقصة أصلًا؛ فيكون لها حكم الرفع.

الاعتراض على هذا المذهب:

اعتُرِض على هذا المذهب بقوله تعالى في آخر الآية: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ (الأعراف) بصيغة الجمع، فلو كان المراد آدم وحواء عليهما السلام لقال: يشركان، بصيغة التثنية، وفي هذا دلالة واضحة بأن الآية معنيٌّ بها الذرية لا آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ.

ردهم على الاعتراض:

وقد أجابوا بأن آخر الآية معنيٌّ بها مشركو العرب من عبدة الأوثان، وأن الخبر عن آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ قد انقضى عند قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ وهذا رأي الطبري، والسُّيُوطِيِّ وغيرهم[2].

المذهب الثاني: مذهب تضعيف الحديث، وتأويل الآية في غير آدم وحواء.

حيث ذهب آخرون إلى تضعيف حديث سمرة رضي الله عنه، وأن الشرك المذكور في الآية معنيٌّ به غير آدم وحواء عليهما السلام، واختلفوا في المعني به على أقوال:

القول الأول: أن الشرك نُسِبَ إلى آدم، وحواء ظاهرًا، والمعني به أولادهما، كاليهود، والنصارى، والمشركين. وآدم وحواء ـ عليهما السلام ـ بريئان من الشرك، والآية فيها انتقال من ذكر النوع إلى الجنس؛ فإن أول الكلام في آدم وحواء عليهما السلام، ثم انتقل الكلام إلى الجنس من أولادهما.

وقد اشتهر هذا القول عن الحسن البصري، ورُوِي عن ابن عباس في إحدى الروايات عنه[3].

قال الحسنُ البَصْرِي في تفسير الآية: "كان هذا في بعض أهل المِلَل[4] ولم يكن بآدم"، وعنه قال: "عني بهذا ذرية آدم من أشرك منهم بعده". وعنه قال: "هم اليهود، والنصارى رزقهم الله أولادًا فهوَّدوا، ونَصَّرُوا".

واختار هذا القول جمع من المفسرين منهم: النَسَفِي، والقُرْطُبِي، وابنُ الْقَيِّمِ، وابنُ كَثِيرِ، والسَّعْدِي، ... إلخ.

قال الزَمَخْشَرِي: في قوله عز وجل: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾:

---

1. روح المعاني، الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت، ٩/ ١٨٩.
2. الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٨٧م، ١/ ٢٨١.
3. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٧، ص٣٣٨، ٣٣٩.
4. المِلَل: جمع مِلَّة، وهي الشريعة والدين، وهي اسم لما شرَع الله لعباده بواسطة أنبيائه؛ ليتوصلوا به إلى السعادة في الدنيا والآخرة، وتطلق كذلك على الطائفة الدينية، وهي المجموعة المتحدة بعقيدة مشتركة، وتحت اسم واحد، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ﴾ (الكهف: ٢٠).

أي جعل أولادُهما له شركاءَ، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وكذلك فيما آتاهما، أي آتى أولادهما.

وآدم وحواء عليهما السلام بريئان من الشرك، ومعنى إشراكهم فيما آتاهم الله: تسميتهم أولادَهم بعبد العُزَّى، وعبد مَنَاة، وعبد شمس، وما أشبه ذلك، فكان عبد الله، وعبد الرحمن، وعبد الرحيم[1].

وقال الحافظ ابن كثير: وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري ـ رحمه الله ـ في هذا، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته، فذكر آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ أولًا كالتَّوْطِئة[2] لما بعدهما من الوالدين، وهي كالاستطراد[3] من ذكر الشخص إلى الجنس، كما في قوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ﴾ (المؤمنون)، وقوله تبارك تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ ﴾ (الملك).

ومعلوم أن المصابيح، وهي النجوم التي زُيِّنت بها السماء، ليست هي التي يُرمَى بها، وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها، ولهذا نظائر في القرآن، والله أعلم".

الاعتراض على هذا القول:

اعترض على هذا القول بأن فيه تشتيتًا للضمائر، والأصل اتساق الضمائر، وعودها لمذكور واحد.

أي أن الضمائر في الآية للمثنى فكيف يقصد بها الجمع.

القول الثاني: أن الآية معني بها المشركون من بني آدم عمومًا، وليس فيها تعرض لآدم وحواء ـ عليهما السلام ـ بوجه من الوجوه. وهذا اختيار: ابن حَزْمٍ، والرَّازِي، والقَفَّال، وابن عُثَيْمِين... وغيرهم.

قال القَفَّال: "ذكر الله تعالى هذه القصة على سبيل ضرب المثل، وبيان أن هذه الحالة صورة من حالة هؤلاء المشركين في جهلهم، وقولهم بالشرك، وتقرير هذا الكلام، كأنه تعالى يقول: هو الذي خلق كل واحد منكم من نفس واحدة، وجعل من جنسها زوجها إنسانًا يساويه في الإنسانية، فلما تغشى الزوج زوجته وظهر الحمل؛ دعا الزوج والزوجة ربهما لئن آتيتنا ولدًا صالحًا سويًّا لنكونن من الشاكرين لآلائك[4]؛ فلما آتاهما الله ولدًا صالحًا سويًّا جعل الزوج والزوجة لله شركاء فيما آتاهما؛ لأنهم تارة ينسبون ذلك الولد إلى الطبائع، كما هو قول الطبائعيين، وتارة إلى الكواكب كما هو قول المنجمين، وتارة إلى الأصنام والأوثان كما هو قول عبدة الأصنام، ثم قال تعالى: "فتعالى الله عما يشركون": أي تنزه الله عن ذلك الشرك"[5].

واعترض على هذا القول:

١. بأن قوله عز وجل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ

---

١. الكشاف، الزمخشري، طبعة البابي الحلبي، القاهرة، د. ت، ٢/ ١٨٠.

٢. التَّوْطِئة: التمهيد.

٣. الاستطراد: الخروج.

٤. الآلاء: جمع الأَلَى أو الإِلى، أي النعمة.

٥. مفاتيح الغيب، الرازي، مرجع سابق، ١٥/ ٧١. محاسن التأويل، القاسمي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص٢٤٠.

﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (الأعراف:١٨٩) لا يصح حمله على غير آدم وحواء - عليهما السلام -؛ فهي ضمائر تثنية عائدة على المذكورة في أول الكلام وهي آدم وحواء.

٢. وبقوله: "دعوا الله ربهما" فإن كل مولود يولد من الجنسين لا يكون منهما عند مقاربة وضعه هذا الدعاء[1]. أي أن الزوجين وخاصة الكفار لا يكون منهما هذا الدعاء قبل وضع الولد.

القول الثالث: أن المشركين كانوا يقولون: إن آدم عليه السلام كان يعبد الأصنام ويرجع إليها في طلب الخير ودفع الشر، فذكر تعالى قصة آدم وحواء - عليهما السلام - وحكى عنهما أنهما قالا: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٨٩) أي ذكرا أنه تعالى لو آتاهما ولدًا سويًّا صالحًا لاشتغلوا بشكر تلك النعمة، ثم قال: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ (الأعراف) فقوله: "جعلا له شركاء" ورد بمعنى الاستفهام على سبيل الإنكار، والتبعيد، والتقرير، والمعنى: أجعلا له شركاء فيما آتاهما؟ ثم قال: "فتعالى الله عما يشركون" أي: تعالى الله عن شرك هؤلاء المشركين الذين يقولون بالشرك وينسبونه إلى آدم عليه السلام.

ذكر هذا التأويل: الفَخْرُ الرَّازِي في تفسيره[2].

ويرده أن هذه الآية الكريمة وردت بصيغة الخبر، وحملها على معنى الاستفهام يفتقر إلى دليل، وليس ثمة دليل.

القول الرابع: أن الخطاب لقريش، الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ، وهم آل قصي.

والمراد من قول الله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي قصي وجعل من جنسها زوجها، عربية قرشية ليسكن إليها، فلما آتاهما ما طلبا من الولد الصالح السوي جعلا له شركاء فيما آتاهما، حيث سميا أولادهما الأربعة بعبد مناف، وعبد العزى، وعبد قصي، وعبد اللات، وجعل الضمير في "يشركون" لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما في الشرك. ذكر هذا التأويل: الزمخشري، والبيْضَاوِي.

الاعتراض على هذا القول:

قال ابن جزي: وهذا القول بعيد لوجهين:

أحدهما: أن الخطاب على هذا خاص بذرية قصي من قريش، والظاهر أن الخطاب عام لبني آدم.

والآخر: أن قوله: "وجعل منها زوجها" فإن هذا يصح في حواء؛ لأنها خلقت من ضلع آدم، ولا يصح في زوجة قصي.

القول الخامس: أن الضمير في قوله: "جعلا" راجع إلى الولد الصالح، والمعنى جعل ذلك الولدُ الصالحُ - الذي رزقهما الله إياه - جعل لله شركاء، وإنما قال: "جعلا" لأن حواء كانت تلد في كل بطن ذكرًا وأنثى. ذكره ابن الجَوْزِي، والجَصَّاص[3].

---

١. فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت، ٢/ ٤٠١.

٢. مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، مرجع سابق، ١٥/ ١٧.

٣. أحكام القرآن، الجصاص، دار إحياء التراث، بيروت، د. ت، ٣/ ٤٩. زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٤هـ، ٣/ ٢٣١.

الترجيح[1]:

الراجح لدينا - والله تعالى أعلى وأعلم - أن الآية ليست في آدم وحواء - عليهما السلام -، وإنما هي خطاب للمشركين من قريش وغيرهم، والمقصود بها ضرب المثل، وأن هذه حالة المشركين، فهو سبحانه يذكر أنه خلق كل واحد منهم من نفس واحدة، وجعل من جنسها زوجها، ولما كان من طبيعة البشر حب الولد ذكر الله تعالى أن هذين الزوجين كانا حريصين على أن يُرزقا بولد صالح لينتفعا به، وأنهما قد عاهدا الله لإن آتاهما صالحًا ليكونن من الشاكرين، فلما آتاهما صالحًا جعلا لله شركاء فيما آتاهما، حيث نسبا هذه النعمة لغير الله، وعبَّدا أولادهما لغير الله، ثم أخبر سبحانه أنه بريء مما يشرك به هؤلاء، وغيرهم؛ فقال: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ (الأعراف).

والآية الكريمة مراد بها ذكر الجنس لا النوع؛ فقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾؛ أي من جنس واحد، وقوله: "وجعل منها زوجها" أي وجعل من هذا الجنس زوجة هي على شاكلته، ولم يجعلها من جنس آخر، ولفظ النفس قد يطلق ويراد به الجنس كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ (آل عمران)، أي من جنسهم.

أدلة هذا المذهب:

الدليل الأول: قوله تعالى في آخر الآية: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ (الأعراف)، وهذا يدل على أن الذين أتوا بهذا الشرك جماعة، ولو كان المراد آدم وحواء - عليهما السلام -، لعبر عنهما بصيغة التثنية.

الدليل الثاني: أنه تعالى قال بعد هذه الآية: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ (الأعراف)، وهذا يدل على أن المقصود من هذه الآية الرد على من جعل الأصنام شركاء لله تعالى، وليس المراد بها آدم وحواء - عليهما السلام -.

الدليل الثالث: لو كان المراد إبليس لقال: أيشركون "من" لا يخلق شيئًا ولم يقل "ما"؛ لأن العاقل إنما يذكر بصيغة "من" لا بصيغة "ما".

الدليل الرابع: أن هذا القول فيه تنزيه لمقام آدم عليه السلام من الشرك والقول الذي فيه تنزيه وإجلال لمقام الأنبياء، مقدم في التفسير على القول الذي فيه قدح بعصمتهم، وحط من منزلتهم.

الدليل الخامس: أن المروي عن سمرة رضي الله عنه في تفسير الآية لم يثبت بسند صحيح، وعليه فلا يصح حمل الآية على أمور مُغَيَّبةٍ لم يثبت فيها دليل من كتاب أو سنة.

الدليل السادس: أنه لو كانت هذه القصة في آدم وحواء - عليهما السلام -، لكان حالهما إما أن يتوبا من ذلك الشرك أو يموتا عليه، فإن قلنا ماتا عليه، كان في هذا القول فرية عظيمة؛ لأنه لا يجوز موت أحد من الأنبياء على الشرك.

وإن كانا قد تابا من الشرك، فلا يليق بحكمة الله وعدله ورحمته أن يذكر خطأهما ولا يذكر توبتهما منه،

---

1. التحقيق فيما نسب إلى آدم وحواء، أحمد بن عبد العزيز القصير، شبكة التفسير والدراسات القرآنية، في تفسير سورة الأعراف، آية ١٩٠: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَـٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾.

فيمتنع غاية الامتناع أن يذكر الله الخطيئة من آدم وحواء - عليهما السلام - وقد تابا، ثم لا يذكر توبتهما، والله تعالى إذا ذكر خطيئة بعض أنبيائه ورسله ذكر توبتهم عنها، كما في قصة آدم نفسه عليه السلام حين أكل من الشجرة هو وزوجه - عليهما السلام - وتابا عن ذلك.

الدليل السابع: أنه ثبت في حديث الشفاعة أن الناس يأتون إلى آدم عليه السلام يطلبون منه الشفاعة فيعتذر بأكله من الشجرة التي عصى الله تعالى بالأكل منها في الجنة، فلو كان وقع منه الشرك، لكان اعتذاره منه أقوى وأولى وأحرى.

الدليل الثامن: أن الله تعالى أسند فعل الذرية إلى آدم وحواء - عليهما السلام -؛ لأنهما أصل لذريتهما، كما في قوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾ (الأعراف)، أي بتصويرنا لأبيكم آدم عليه السلام؛ لأنه أصلكم، بدليل قوله بعده: "ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم".

الدليل التاسع: أن الله تعالى قال في هذه الآية: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ (النساء)، وآية النساء معنيٌّ بها آدم، وحواء - عليهما السلام - باتفاق، وعبّر بقوله: ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾؛ لأن حواء مخلوقة من نفس آدم عليه السلام، وأما في آية الأعراف فقال: ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ (الأعراف: ١٨٩) لأن المراد ذكر الجنس، لا ذكر النوع وهو آدم عليه السلام، والفرق بين الخلق والجعل: أن الخلق هو ابتداء الشيء من غير مثال سابق، وأما الجعل فهو إيجاد شيء وتكوينه منها[1]، وهذا هو حال كل فرد من بني آدم؛ فإنهم يتناسلون ويتوالدون من بعضهم البعض، وأما حواء فإنها خلقت ابتداء من آدم عليه السلام من غير أم ولا أب.

وقد وردت عدة آيات تدل على أنه إذا ورد لفظ "جعل" فالمراد به الجنس، منها: قوله عز وجل: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ (النحل)[2]، وقال عز وجل: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (الزمر)[3]، وقال عز وجل: ﴿ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ (الشورى).

الدليل العاشر: ومما يؤكد أن الآية معني بها المشركون على وجه العموم: أنه لم يصرح بذكر آدم وحواء - عليهما السلام - في الآية، والمتأمل في قصص الأنبياء الواردة في القرآن الكريم يلاحظ التصريح بذكر أسمائهم، ومن هؤلاء آدم عليه السلام؛ فإنه إذا ذكرت قصته يذكر باسمه الصريح غالبًا.

الدليل الحادي عشر: ويدل على أن الآية في المشركين

---

١. انظر تفاسير: الكشاف، الزمخشري، مرجع سابق. مفاتيح الغيب، الرازي، مرجع سابق. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق. تفسير النسفي، النسفي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د. ت، عند تفسير آية الأعراف التي نحن بصددها.

٢. حَفَدَة: حفدة الرجل: أولاد أولاده.

٣. فأنّى تُصْرَفُون: عجبًا! كيف تصرفون عبادتكم لغيره؟

عامة: الاستطراد في الآيات التي بعد هذه الآية في وصف حال مشركي العرب، وهي صريحة بأنهم هم المرادون بهذا الشرك، وليس آدم وحواء عليهما السلام.

قال ﷻ: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ (الأعراف).

الدليل الثاني عشر: أنه لم يثبت دليل على أن الآية معنى بها آدم وحواء - عليهما السلام - إلا ما رُوي من حديث سمرة ﷺ، وهو ضعيف - كما تقدم - وما روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في الآية يُعدُّ من الإسرائيليّات[1] الملفقة التي أُخِذَت عن أهل الكتاب، وإنما التَبس على كثير من المفسرين الأمر، وظنوا أنها في آدم وحواء - عليهما السلام - بسبب هذه الروايات، وهذه آفة من آفات الإسرائيليات، والتي تعتبر من الدخيل السيئ في التفسير[2].

وفي هذا الصدد يقول الأستاذ سيد قطب: "إن بعض الروايات في التفسير تذكر هذه القصة على أنها قصة حقيقية وقعت لآدم وحواء - عليهما السلام - إذ كان أبناؤهما يولدون مشوهين، فجاء إليهما الشيطان فأغرى حواء أن تسمي ما في بطنها "عبد الحارث"... والحارث اسم لإبليس؛ ليولد صحيحًا ويعيش؛ ففعلت وأغرت آدم ﵇ معها. وظاهرٌ ما في هذه الرواية من طابع إسرائيلي، ذلك أن التصور الإسرائيلي المسيحي - كما حرفوا ديانتهم - هو الذي يُلقي عبء الغواية على حواء وهو مخالف تمامًا للتصور الإسلامي الصحيح... ولا حاجة بنا إلى هذه الإسرائيليات لتفسير هذا النص القرآني... فهو يصور مدارج الانحراف في النفس البشرية... ولقد كان المشركون على عهد رسول الله ﷺ وقبله، يَنذِرون بعض أبنائهم للآلهة أو لخدمة معابد الآلهة تقربًا وزُلْفَى[3] إلى الله! ومع توجههم في أول الأمر لله، فإنهم بعد دحرجة قمة التوحيد إلى درك الوثنية كانوا يَنْذِرُون أبناءهم لهذه الآلهة لتعيش وتصبح وتُوقَّى المخاطر"[4].

الخلاصة:

- اتفق العلماء على تنزيه مقام آدم ﵇ من الشرك وأن ذلك لم يقع منه ولا من الأنبياء قط، وقد عدُّوا هذه الآية والحديث الوارد في التفسير عند بعضهم من مشكلات التفسير، ولهم في تأويلها أقوال خلاصتها راجعة إلى مذهبين:

الأول: مذهب قبول الحديث والآية على ظاهرهما في قصة آدم وحواء - عليهما السلام - مع القول الشرك المضاف إليهما هنا ليس شركًا في العبادة، وإنما هو شرك في التسمية أو الطاعة.

الثاني: مذهب تضعيف الحديث، وتأويل الآية في

١. الإسرائيليّات: الأخبار المنقولة عن اليهود في كتب التفسير أو التاريخ وغيرهما.

٢. انظر: التحقيق فيما نسب إلى آدم وحواء، عبد الرحمن بن عبد العزيز القصير، مرجع سابق، في تفسير آية ١٩٠ من سورة الأعراف.

٣. الزُّلْفَى: القُرْبَى.

٤. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج٣، ص١٤١٢.

غير آدم وحواء - عليهما السلام -، وإنما هي في أولادهما، والمعني بها المشركون من بني آدم عمومًا وليس فيها تعرض لآدم وحواء - عليهما السلام - بوجه من الوجوه، وهذا هو الراجح.

كلا المذهبين يبرئ آدم عليه السلام من الشرك؛ لأنه لا يصح أن يقع من نبي من أنبياء الله، فهم معصومون بعصمة الله تعالى من ذلك وغيره، مما لا يليق بمقام الأنبياء.

الشبهة السابعة

الزعم أن القرآن أخطأ في ذكر اسم إدريس عليه السلام وقصة رفعه حيًّا إلى السماء(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن القرآن الكريم أخطأ في قصة إدريس عليه السلام، ويستدلون على زعمهم هذا بأن اسمه في التوارة ليس إدريس ولكنه أخنوخ، كما يزعمون أن قوله تعالى في إدريس عليه السلام: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ (مريم) مستوحى من بعض الأساطير التي ذكرت أنه شخص كُتب له الخلود وأُدخل الجنة حيًّا.

وجوه إبطال الشبهة:

1) وردت أسماء مختلفة لنبي الله إدريس عليه السلام في ثقافات مختلفة (المصرية - السامرية - اليونانية)، وهذا جائز لاختلاف طبيعة اللغات، فلماذا يُنْكَر ذلك على القرآن الكريم وهو مقدم على غيره لثبوت صحته؟! ولا ينكَر على غيره من الثقافات والديانات المحرفة؟!!

2) من أساسيات عقيدة الإسلام أن البقاء والخلود لله وحده، وأن الفناء والموت من صفات المخلوقين ولا يُسْتَثنى من ذلك أحد.

3) لم ينص القرآن الكريم ولا السنة على خلود إدريس عليه السلام أو أنه رفع إلى السماء حيًّا.

4) اتفقت أقوال المفسرين على أن إدريس عليه السلام قُبض ومات شأنه شأن المخلوقات جميعًا، وما ورد بخلاف ذلك، هو محض روايات أسطورية لا تتفق مع حقائق الإسلام بشأن قبض الأرواح.

التفصيل:

أولا. ورود أسماء مختلفة للشخص الواحد في اللغات المتعددة أمر طبيعي:

الاسم الواحد لمعين سواء كان عَلَمًا على شخص أو مكان أو غير ذلك، قد يرد مختلفًا من لغة أو ثقافة إلى أخرى. وهذا لا يعني خطأً في لغةٍ وصوابًا في أخرى، بل إن ذلك الاختلاف ناشئ من اختلاف النطق والهجاء والتركيب، وكذلك قواعد النحو والنظام الصوتي.

ولقد ورد اسم إدريس عليه السلام في التوراة السامرية "أخنوخ"، وذلك في سفر التكوين "وسار أخنوخ مع الله، ولم يُوجَد لأن الله أخذه". (التكوين ٥: ٢٤). وهو في اليونانية أرميس، وعُرِّبَ بهرمس، ومعنى أرميس عطارد، وهو عند المصريين هرمس الهرامسة، وفي القرآن الكريم إدريس، وقيل: سمي إدريس لكثرة دراسته كتاب الله عز وجل، إذ روي أن الله تعالى أنزل عليه

(*) موجز دائرة المعارف الإسلامية، فريق المستشرقين، مرجع سابق.

ثلاثين صحيفة، وأنه أول من خط بالقلم ونظر في علم النجوم والحساب، قال عز وجل: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦ ﴾ (مريم)، علمًا بأن التوراة اليونانية تضيف حرف السين في آخر الاسم ليعلم أنه اسم مثل: يوسيفوس، وإدريس في آخره السين، وكذلك يونس عليه السلام وهو في العبرية "يونان"، وعيسى عليه السلام في اليونانية "إيسوس" وفي العبرية "يهوشوع"، وينطق أحيانا "أيشوع" و "يسوع"[١].

وهكذا نجد أن اسم سيدنا إدريس عليه السلام قد اختلف من لغة إلى أخرى ومن ثقافة إلى أخرى، فلماذا يُنكَر على القرآن الكريم مع العلم بأنه الكتاب الوحيد الذي ثبت عدم تحريفه أو تغييره؛ بل هو محفوظ كما نزل من عند الله وذلك بشهادة الدارسين المحايدين من المسلمين وغير المسلمين من أهل الاختصاص في هذا المجال.

وعلى النقيض تمامًا فقد أثبتت الدراسة المحايدة من أهل الاختصاص تحريف وتبديل ما عدا القرآن الكريم من الكتب السماوية، فضلًا عن الثقافات البشرية التي ليس لها ما لتلك الكتب من العصمة والقداسة.

ومعلوم أن ما ثبتت حجته مقدم على ما لم تثبت حجته، ومع هذا فإننا لا ننكر الأسماء السابق ذكرها لسيدنا إدريس عليه السلام في الثقافات والديانات الأخرى، وذلك أن الخلاف في الاسم خلاف شكلي لا يعني بالضرورة خطأ الاسم عندنا أو عند غيرنا.

١. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط٢، ١٤٢٥/ ٢٠٠٤م، ص٤٨٤.

ثانيًا. الدوام والخلود لله وحده في عقيدة التوحيد الإسلامية:

يجب أن نثبت قواعد الإسلام العقائدية قبل مناقشة أي مجادل، فمن أوائل القواعد العَقَدِيَّة في الإسلام: قاعدة مبدأ الفصل بين صفات الله وصفات الخلق، فأول صفات الله عز وجل صفة الوحدانية، وهي تَفَرُّدُ الله تعالى بصفات الألوهية وحده، ومنها البقاء بلا نهاية، أي: دوام البقاء والخلود، فالله باق بذاته ولا شريك له في هذه الصفة، فلا يوصف نبي ولا رسول بهذه الصفة عند المسلمين.

أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فإنهم اعتادوا الخلط بين صفة الخالق سبحانه وصفة الخلق، لذلك نسبوا إلى الله الزوجة والولد، وعندهم اختلط اللاهوت والناسوت[٢]، فلا عجب أن يقول اليهود: عُزَيْرٌ ابن الله ويعطونه صفات الألوهية ومنها الخلود، ويقول النصارى: المسيح ابن الله ويعطونه صفات الألوهية ومنها الخلود، أما المسلمون فلا خلط عندهم بين صفات الخالق وصفات المخلوق، فلا يعطون الخلود لمخلوق قط، قال عز وجل: ﴿ وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ٣٤ ﴾ (الأنبياء).

والخلود قسمان: خلود الذات، وخلود الزمان، فأما خلود الذات فهو وصف لله وحده لا يشاركه فيه أحد من خلقه، وأما خلود الزمان فهي صفة الخلق في الجنة والنار، والصفتان مستحيلتان في الدنيا، فليس في

٢. اللاهوت والنَّاسوت: اللاهوت: الألوهية في مقابل الناسوت لطبيعة الإنسان، وعلم اللاهوت علم يبحث عن العقائد المتعلقة بالله، وربما أطلق الأول على الروح، والثاني على البدن، أو أطلق الأول على العالم العلوي، والثاني على العالم السُّفلي.

الدنيا خلود ذاتي ولا مكاني ولا زماني: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ (الرحمن)، ونقصد دنيا الخلق ولا يدخل فيها الخالق ﷻ.

ونحن نسأل هؤلاء: هل كتب الله سبحانه الخلود لأحد من خلقه في دنيا الناس من حولنا؟ عقيدتنا ـ والواقع يؤكدها ـ أن أحدًا لا يمكن أن يجيب عن هذا السؤال بالإيجاب؛ لأن الفناء شأن المخلوقات جميعًا، ولا خلود في اعتقادنا ـ نحن المسلمين ـ لبشر مهما عظمت منزلته وارتفعت درجته، وقد كتب الله الموت على رسوله محمد ﷺ وهو أفضل الرسل وأحبهم إلى الله، وإذا كان الله ﷻ قد كتب الموت على محمد ﷺ فلماذا يكتب الخلود لإدريس ؑ؟!

فلا خلود في اعتقادنا ـ نحن المسلمين ـ لبشر وإنما البقاء لله وحده، ولا يَعنينا ما فهمه بعضهم من بعض الروايات من معنى الخلود أو البطولة الأسطورية مما يوافق روايات يهودية أو نصوص توراتية، فالثابت أن هذه الكتب السماوية السابقة على القرآن قد حُرِّفت عن أصولها السماوية الصحيحة، خصوصًا ما توجَّه لبني إسرائيل الذين حكم القرآن بأنهم يحرفون الكلم عن مواضعه.

وهذا ـ كما هو معروف ـ دَيْدَنُ[1] المغالطين من المستشرقين ممن يقعون على الروايات الضعيفة، والأخبار المنقطعة والآراء المرجوحة، فيُبْرِزونها ويجعلونها أصلا، لا سيّما إذا توافقت مع مقولة في التوراة أو الإنجيل المحرَّفَيْنِ، ليؤيدوا القول بأن القرآن مشتق منهما، وأن محمدًا ﷺ قد لفَّقه من كتب الأقدمين؛ وذلك لإنكارهم نبوَّة محمد ﷺ وسماوية القرآن، ويسلكون لإثبات ذلك كل سبيل.

ثالثًا. لم ينص القرآن الكريم ولا السنة النبوية على خلود إدريس ؑ أو أنه رفع إلى السماء:

إن الذي يُحسَب على الإسلام هو ما صرح به القرآن الكريم، وما جاء في صحيح السنة، وأمَّا ما جاء في غيرهما على ألسنة المفسرين فيؤخذ منهم ويُرد عليهم، وما نقلوه عن أهل الكتاب إن وافق ما في الكتاب والسنة قبلناه، وإن خالفهما رددناه، وإن لم يوافقه، ولم يخالفه لا نصدقه، ولا نكذبه، بل هو قول يحتمل الصدق والكذب.

والذي جاء في القرآن الكريم عن إدريس ؑ قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ (الأنبياء). فهو ؑ نبي مرسل صابر صالح له مكانة عالية رفيعة عند الله ﷻ، وهو ممن أدخلهم الله سبحانه في رحمته.

وأما أهل التوراة فليس عندهم من العلم بشأن إدريس ؑ إلا أن أخنوخ وُلد له وَلَدٌ، وهو ابن خمس وستين سنة، وعاش بعد ذلك ثلاثمائة سنة، ولم يوجد بعد، لأن الله أخذه، فالله تعالى أعلم بشأنه.

وأما قوله ﷻ: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾ (مريم). لم تنص على أن إدريس ؑ رفع حيًّا إلى السماء، إن معنى الآية: ورفعنا ذكره وأعلينا قدره بشرف النبوة والزُّلفى عند الله[2].

---

١. دَيْدَنُ: شَأْن.

٢. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٣٨، ٣٩..

وما جاء في حديث المعراج[1] من أن النبي ﷺ لقيه عليه السلام في السماء الرابعة ليس دليلًا على رفعه حيًّا؛ فقد لقي ﷺ في السماوات موسى وهارون ويوسف ويحيى وإبراهيم - عليهم السلام - ولم يُرفَعوا أحياء؛ أما ما ورد في كتاب "تاريخ الحكماء" للقِفْطِي من أن إدريس أول من أنذر بالطوفان، فخاف من ذهاب العلم، فبنى الأهرام والبرابي؛ المِسَلَّات في صعيد مصر، وصور فيها الصناعات، ورسم فيها العلوم حرصًا منه على تخليدها لمن بعده[2]؛ فهي أخبار لم تُؤَيَّد بنقل صحيح، ولم يُعَضِّدها[3] نص قاطع نشهد به على الله تعالى أنه صنعه لعبده ونبيه إدريس عليه السلام، وكلها أقوال مما جمعها حُطَّاب الليل من المفسرين الذين لا همَّ لهم إلا جمع كل شاردة وواردة، دون النظر إلى صحتها، ومعظمها أشبه ما تكون بالخرافات.

لذلك فإن الباحثين في هذه الأمور وأهل التاريخ القديم لا يجدون في بحوثهم ما يؤيد هذه الأخبار، بل يجدون ما يناقضها من العلم بأسماء بناة الأهرام والملوك الأولين الذين قاموا بالدولة في مصر مثل مينا، وخوفو، وخفرع وغيرهم، من الذين شيدوا المعابد، ونقشوا عليها ما هو ماثل اليوم، وذلك كله بخطوط خاصة يقرءونها ويفسرونها[4].

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٣٠٣٥)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات (٤٢٩).

٢. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٤٤.

٣. يُعضدِّها: يُقوِّيها.

٤. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٤٤ بتصرف.

رابعًا. اتفقت أقوال المفسرين على أن إدريس عليه السلام قُبض ومات، شأنه شأن المخلوقات جميعًا، وما ورد بخلاف ذلك هو محض روايات لا تتفق مع حقائق الإسلام بشأن قبض الأرواح:

لقد أوضحنا أنه ليس هناك ثمة نص يدل على خلود إدريس عليه السلام ورفعه حيًّا إلى السماء، أمّا قوله عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ (مريم)، فهذا لا يدل على رفعه إلى السماء حيًّا، بل قد لا يكون المراد منه الرفع الحقيقي، ولهذا قال جماعة من المفسرين: هو رفع مجازي، وأما حديث الإسراء فلا حجة فيه أنه رفع إلى السماء حيًّا قبل موته؛ لأنه ذكر فيه عدَّة أنبياء وُجِدوا في السماوات[5].

هذا وقد ذكر كثير من المفسرين في معنى قوله عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ (مريم) في حق إدريس عليه السلام أن الله أوحى إليه: أني أرفع لك في كل يوم مثل جميع عمل بني آدم، فأَحبَّ أن يزداد عملًا، فأتاه خليل له من الملائكة، فقال له: إن الله أوحى إليّ كذا وكذا، فكلِّم ملك الموت حتى أزداد عملًا، فحمله بين جناحيه وصعد به إلى السماء، فلما كان في السماء الرابعة تلقَّاه ملك الموت منحدرًا، فكلم ملك الموت في الذي كلمه فيه إدريس، فقال: وأين إدريس؟ قال: هو ذا على ظهري، فقال ملك الموت: يا للعجب! بعثت وقيل لي: اقبض روح إدريس في السماء الرابعة. فجعلت أقول له: كيف أقبض روحه في السماء الرابعة، وهو في الأرض؟ فقبض روحه هناك.

---

٥. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس، د. ت، مج٨، ج١٦، ص١٣١ بتصرف.

وفي رواية أخرى: أنه رُفِعَ ولم يمت، قيل: أُريد بها أنه رفع حيًّا إلى السماء، ثم قبض هناك؛ فهذا لا ينافي ما تقدم، وأمّا إن أريد بها أنه لم يمت حتى الآن ففيه نظر؛ إذ يتصادم مع قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الزمر)، فإدريس وعيسى - عليهما السلام - وغيرهما بشر، والبشر من شأنهم الفناء جميعًا بالموت، لا يبقى إلا الحي الذي لا يموت ﷻ، فهذا من ثوابت العقيدة الإسلامية. وقيل: قُبِضَ في السادسة، والمتفق عليه أنه في السماء الرابعة، وقيل: عليًّا؛ أي: إلى الجنة.

أما ما ورد بخلاف ذلك من روايات فلا تقوم بها حجة؛ إذ هي روايات موضوعة ومَنْحُولة[1]؛ فقد رُوي أن ملك الموت سأل الله أن يزور إدريس، فجاءه على صورة إنسان، ودعاه في الليل إلى مائدته، ولكن إدريس عليه السلام أبى، فكرر ملك الموت دعوته تلك مرتين متتاليتين، وفي المرة الثالثة سأله إدريس عن شخصه، فلما أجابه طلب منه إدريس أن يقبض روحه ساعة من الزمن، ثم طلب منه بعد أن يرد روحه أن يرفعه إلى السماء، ليراها ويرى الجنة فلما دخل الجنة أبى أن يخرج منها، واعتصم بآيتين من القرآن هما: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (الأنبياء). والثانية: ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (الحجر)، ولذلك أبقاه الله فيها.

وقيل: إنَّه بينما إدريس في رحلة، إذ اشتد عليه الحر؛ فطلب من الله أن يخفف وطأتها عليه ملك الشمس، مقابل أن يؤخر ملك الموت أجله، فحمله هذا الملك إلى مطلع الشمس، وأبلغ في سؤاله ملك الموت، ولم يستطع ملك الموت إجابة سؤاله، فأطلعه ملك الشمس على يوم موته، ولما فتح ملك الموت ديوانه لم يجد فيه وفاة إدريس، وقد وجده ملك الشمس ميتًا بالفعل.

هاتان الأسطورتان لا تتفقان مع حقائق الإسلام التي تنص على أن ملك الموت مُكلَّف من قبل الله تعالى بقبض الأرواح، وأنه لا يستشار أحد من الخلق في وفاته، ولا تتفقان مع الأدب في الحديث عن الأنبياء - عليهم السلام - وذلك لأنهم - صلوات الله عليهم - يعلمون أن لكل أجل كتابًا، ولا يطلبون إلا ما يقرُّه الشرع والعقل، كما أن العلم يُكذِّب ويُفنِّد[2] تلك الخرافات.

الخلاصة:

- إن عدم ذكر اسم إدريس عليه السلام في التوراة لا يعني إنكار وجوده في التاريخ؛ لأن التوراة المحرفة ليست حجة فيما تذكر، فضلًا عن أنها ليست حجَّة فيما لم تذكره، لكن الحجة فيما تفرد القرآن الكريم بذكره؛ فهو كلام رب العالمين أنزله على النبي الأمي ﷺ الذي قال تعالى فيه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ (النجم)، أما الكتاب المقدس فقد ثبت تناقضه ومخالفته للعقل السليم، فما ورد به غير موثوق فيه، وما لم يرد به لا حجة على بطلانه أو عدم وقوعه.
- من قواعد الإسلام العقائدية ضرورة الفصل بين صفات الله تعالى وصفات الخلق، فمن صفات الله

١. المَنْحُولة: المدَّعاة.

٢. يُفَنَّد: يُضعَّف ويُخَطَّأ.

البقاء، ومن صفات الخلق جميعًا ـ بلا استثناء ـ الفناء والموت. والخلود لا يكون إلا لله وحده، فهو صفة له وحده لا يشاركه فيها أحد من خلقه مهما بلغ من المنزلة والمكانة.

- لم نر حولنا في دنيا الناس من كتب الله له الخلود، بل كتب الله الموت على جميع خلقه، ومنهم محمد ﷺ وهو أفضل الرسل وأحبهم إلى الله تعالى.
- ما ورد من الأساطير حول رفع إدريس عليه السلام حيًّا وعدم استطاعة ملك الموت قبض روحه لا يتفق مع حقائق الإسلام التي تنص على أن ملك الموت مكلف من قبل الله تعالى بقبض الأرواح، وأنه لا يستشار أحد في وفاته، وكذلك لا تتفق مع الأدب في الحديث عن الأنبياء، الذين يعلمون أن لكل أجل كتابًا، وأنهم لا يطلبون ما لا يقره الشرع أو العقل، كما بيَّنّاه.
- إن الذي يُحسب على الإسلام هو ما صرح به القرآن الكريم، وما جاءت به السنة النبوية الشريفة الصحيحة، وأما أقوال المفسرين فيؤخذ منها ما وافق الكتاب والسنة ويطرح ما عداه، والذي جاء في القرآن عن إدريس عليه السلام أنه كان صديقًا نبيًّا، ذا مكانة عالية رفيعة عند الله عز وجل وهو صابر صالح، وأدخله الله تعالى في رحمته، وما جاء في السنة من حديث المعراج أنه ﷺ قد لقي إدريس عليه السلام ليس دليلًا على أنه عليه السلام رفع حيًّا، فقد لَقِي النبي ﷺ العديد من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ولم يرفعوا أحياء.

الشبهة الثامنة

الفهم الخاطئ لدعاء نوح عليه السلام على قومه بالهلاك (*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن نوحًا عليه السلام أخطأ حينما دعا على قومه بالهلاك بما فيهم أطفالهم، كما في قوله عز وجل: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) ﴾ (نوح). فيزعمون أنه عليه السلام دعا على قومه بالهلاك بما فيهم الأطفال الذين لا ذنب لهم، ويتساءلون: كيف يدعو على ذريَّتهم بالهلاك مع احتمال أن يولد منهم من يؤمن بالله؟! كما يزعمون أنه استغفر لنفسه عقب الدعاء عليهم بالهلاك في قوله عز وجل: ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا (٢٨) ﴾ (نوح)، وأنه اعتذر يوم القيامة عن الشفاعة بهذه الدعوة التي دعا بها على قومه. ويتساءلون: ألا يُعدُّ هذا متنافيًا مع ما يتصف به الأنبياء من العصمة؟!

وجوه إبطال الشبهة:

١) دعاء نوح عليه السلام على قومه بالهلاك جاء بعد أن أوحى الله له أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن.

٢) الهلاك كان رحمة للأطفال قبل أن يجري عليهم القلم، ولا سيما أن الله أوحى إلى نوح أنه لن يؤمن أحد إلا من قد آمن، وقيل: مُنعوا الإنجاب قبل الطوفان

(*) عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق. موقع الكلمة. www.alkalema.net

بأربعين عامًا؛ فلم يكن لديهم أطفال يوم الطوفان.

٣) اعتذار نوح ﷺ يوم القيامة عن الشفاعة، بل واعتذار جميع الأنبياء لا لأخطاء ارتكبوها، ولكن لشدة وقع أهوال القيامة عليهم.

التفصيل:

أولا. دعاء نوح ﷺ على قومه بالهلاك جاء بعد أن أوحى الله إليه أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن:

قال ﷻ: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾(هود: ٣٦) فبعد تسعمائة وخمسين سنة من إقامة نوح ﷺ بين قومه يدعوهم لم ير منهم "إلا آذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا، وعقولًا متحجرة، لقد كانت نفوسهم أشدَّ من الصخر، وأفئدتهم أصلب من الحديد، لم ينفعهم نصح أو تذكير، ولم يزجرهم وعيد أو تحذير، وكلما ازداد لهم نصحًا ازدادوا عنادًا، وكلما ذكّرهم بالله زادوا ضلالًا وفسادًا، وظلوا في طريق الضلال سائرين، لا يلتفتون إلى دعوة نوح ﷺ ولا يبالون بتحذيره وإنذاره"[١]. وقد ظل فيهم داعيًا، مذكّرًا ناصحًا، وكانت دعوته لهم ليلًا ونهارًا، وسرًّا وجهارًا، ومع كل ذلك لم تلِن قلوبهم، بل قابلوا الإحسان بالإساءة، واللطف بالشدة ومالوا عليه بالضرب والأذى، وهو لا يَفْتَأُ يقول: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون".

قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠﴾ (نوح)[٢].

رَوى المفسرون: أن نوحًا ﷺ كان يأتي قومه؛ فيدعوهم إلى الله، فيجتمعون عليه ويضربونه الضرب المبرِّح[٣] ويخنقونه حتى يُغْشَى عليه ثم يلفُّونه في حصير ويرمون به في الطريق، ويقولون: إنه سيموت بعد هذا اليوم، فيُعيد الله ﷻ إليه قوته فيرجع إليهم ويدعوهم إلى الله فيفعلون به مثل ذلك، وهكذا ظلَّ يُؤذى ويُعذَّب، وهو مع ذلك صابر لا يدعو على قومه بالعذاب؛ وإنما كان يَأمُل فيهم أو في أبنائهم الخير والصلاح، ويقول: "لعل الله يخرج من أصلابهم من يستجيب لدعوتي ويؤمن بالله".

ولكن مع هذه المدة الطويلة لم يؤمن معه إلا قليل منهم، وكان كلما انقرض جيل جاء من بعده جيل أخبث وألعن، فلقد كانوا يوصون أبناءهم بعدم الإيمان له، وكان الوالد يقول لولده إذا بلغ وعقل: يا بني احذر هذا لا يغرَّنك عن دينك وآلهتك. قال ﷻ: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾(هود)، ولهذا دعا عليهم بعد أن يئس من إيمانهم، فقال: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٧﴾(نوح). فكان بعد ذلك الطوفان[٤].

---

١. النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، مرجع سابق، ص١٤٠.

٢. استغشوا ثيابهم: غطُّوا رؤوسهم بثيابهم.

٣. المبرِّح: الشديد.

٤. النبوة والأنبياء، الصابوني، مرجع سابق، ص١٤٠، ١٤١.

ثانيًا. الهلاك كان رحمة للأطفال:

أما قولهم: ما ذنب أطفالهم حتى يهلكوا؟ وكأن الشفقة قد ألهبت قلوب هؤلاء المبطلين تجاه الأطفال الصغار الذين لا جَرِيرة[1] لهم فيما ارتكبه آباؤهم المجرمون، وكأنهم أَلْطَفُ من الله بعباده وأرحم لهم من خالقهم، غير أنه الحنان الكاذب والشفقة المتوهمة، فالله تعالى أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وما كان ليعذب إنسانًا بوزر آخر، فضلًا عن طفل بريء.

ولقد بينت السنة أن كل إنسان سوف يبعث على ما مات عليه حسب قصده ونيته وإن عمَّ البلاء الجميع في الدنيا، فعن رسول الله ﷺ أنه قال: يغزو جيشٌ الكعبةَ حتى إذا كانوا ببَيْداء[2] من الأرض يخسف بأولهم وآخرهم. قالت: قلت: يا رسول الله، كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم؟ قال: "يخسف بأولهم وآخرهم ثم يبعثون على نياتهم"[3].

ولقد علم نوح بالوحي والتجربة أن نسل قومه سيكون على شاكلة الآباء في الإصرار على الكفر، فقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ (العنكبوت: ١٤) ففي هذه المدة الطويلة عرف طبائعهم وجَرّبهم حتى قيل: إن الرجل فيهم كان ينطلق بابنه إلى نوح، ويقول له: احذر هذا فإنه كذّاب وإنَّ أبي أوصاني بمثل هذه الوصية؛ فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك مما قطع الأمل في إيمانهم، وبذا يكون الخير والراحة في هلاكهم لتتخلص الأرض من شرورهم باستئصالهم، وأما أطفالهم فعلى قول من قال: إن الله تعالى يَبَّسَ أصلاب رجالهم، وأَعْقَمَ نساءهم قبل الطوفان بأربعين سنة أو سبعين سنة، فلا إشكال لعدم وجود أطفال فيهم، وقد يُستأنس لهذا بقوله ﷺ: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ (نوح)، فإنه يفيد ـ بحسب المفهوم ـ أنهم إذا لم يستغفروا فإن الله تعالى لا يمدهم بالبنين.

وأما على قول من قال بوجود الأطفال فيهم، فإن عذاب الله لهم لم يكن على وجه العقاب لهم والصيرورة بعد ذلك إلى عذاب النار كآبائهم، بل كان ذلك لزيادة تعذيب الآباء والأمهات إذا أبصروا أطفالهم يغرقون ثم لا يعذب الأطفال في الآخرة[4].

وحتى ندرك مدى الرحمة بهؤلاء الأطفال في هلاكهم قبل أن يجري عليهم القلم على رأى من قال بوجود الأطفال وقت الهلاك، نبين حكم هؤلاء الأطفال في الآخرة.

أما عن أطفال المشركين، فقد اختلفت الآراء فيهم على النحو التالي:

- **الرأي الأول:** التوقف فيهم وعدم الجزم بحكم معين؛ لأن الله تعالى هو الذي خلقهم، وهو أعلم بما كانوا سيعملونه ـ لو عاشوا ـ وذلك لأن النبي ﷺ سُئل

١. الجَرِيرة: الذنب.

٢. البَيْدَاء: الصحراء.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب ما ذكر في الأسواق (٢٠١٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت (٧٤٢٦).

٤. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٥٧.

عن أولاد المشركين فقال: "الله إذ خلقهم أعلم بما كانوا عاملين"[1].

- **الرأي الثاني:** أنهم في الجنة؛ لقوله ﷺ: "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجِّسانه، كمثل البهيمة، تنتج البهيمة هل ترى فيها جَدْعاء"[2][3].

ويؤيده ما جاء من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا: "سألت ربي اللاهين من ذرية البشر ألَّا يعذبهم فأعطانيهم"[4]. وورد تفسير "اللاهين" بأنهم الأطفال من حديث ابن عباس مرفوعًا(٥)، وأخرج أحمد من طريق حسناء بنت معاوية بن صُرَيْم عن عمها قال: قلت للنبي ﷺ: من في الجنة؟ قال: "النبي في الجنة والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة والوَئِيدفي الجنة[6].

واحتجوا أيضًا بقوله عن أطفال المشركين: "هم خدم الجنة"[7]، والقول بأنهم في الجنة هو قول جمع من أهل العلم، وهو اختيار أبي الفرج بن الجوزي وصححه النووي ورجحه القرطبي.

- **الرأي الثالث:** وقد ذهب إليه جمع من أهل العلم، وهو أنهم في مشيئة الله تعالى[8]، وهذا منقول عن حمّاد بن زيد، وحمّاد بن سَلَمَة، وابن المبارك، وإسحاق، ونقله البَيْهَقِي في "الاعتقاد"، عن الشافعي في حق أولاد الكفار خاصة، قال ابن عبد البرّ: وهو مقتضى صنيع مالك، وليس عنده في هذا شيء منصوص، إلَّا أن أصحابه صرحوا بأن أطفال المسلمين في الجنة، وأطفال الكفار خاصة في المشيئة، والحجة في حديث: "الله أعلم بما كانوا عاملين"[9].

وهذا القول حكاه أبو الحسن الأَشْعَرِي عن أهل السنة والجماعة[10]، وهو اختيار شيخ الإسلام، فقد اختار أن الأطفال المشركين في مشيئة الله، وأنهم يُمتحنون في يوم القيامة، وعزا القول بذلك إلى أبي الحسن الأشعري والإمام أحمد، قال شيخ الإسلام: والصواب أن يقال فيهم: الله أعلم بما كانوا عاملين، ولا يُحكمُ لُمعيِّن

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين (١٣١٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٦٩٣٦).

٢. الجَدْعاء: قطع لها طرف من أطرافها.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين (١٣١٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٦٩٢٦).

٤. حسن: أخرجه أبو يعلى في مسنده (٧/ ١٣٨) برقم (٤١٠١)، والطبراني في المعجم الأوسط (٦/ ١١١) برقم (٥٩٥٧)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٩٢).

٥. إسناده حسن: أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٣٣٠)، باب العين: أحاديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (١١٩٠٦)، وحسن إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة (١٨٨١).

٦. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الكوفيين، حديث رجال من الأنصار رضي الله عنهم (٢٠٦٠٢)، وأبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في فضل الشهادة (٢٥٢٣)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٢٠٠).

٧. صحيح: أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٧/ ٢٤٤)، باب السين: سمرة بن جندب رضي الله عنه (٦٩٩٣)، وفي الأوسط (٢/ ٣٠٢) برقم (٢٠٤٥) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٤٦٨).

٨. الجنة والنار، د. عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، الأردن، دار السلام، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ج٧، ص١٩٤.

٩. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين (١٣١٨)، وفي موضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٦٩٣٣).

١٠. مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط١، ١٣٩٨هـ، ٤/ ٤٠٤، ٢٤/ ٣٧٢.

منهم بجنة أو نار، وقد جاء في عدة أحاديث أنهم يوم القيامة يُمتحنون في عَرَصَات [1] القيامة يُؤمرون وينهون، فمن أطاع دخل الجنة، ومن عصى دخل النار، وهذا الذي ذكره أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة والجماعة [2].

وقال في موضع آخر: أطفال المشركين الذين لم يكلفوا في الدنيا يكلفون في الآخرة، كما وردت بذلك أحاديث متعددة، وهو القول الذي حكاه الأشعري في أطفال المشركين، كما تقدم في الصحيح عن النبي ﷺ أنه سئل عنهم؛ فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين [3].

وقد ذكر ابن حَجَرٍ أنهم يمُتحنون في الآخرة بأن تُرفع لهم نار، فمن دخلها كانت عليه بردًا وسلامًا، ومن أبى عُذِّب. وحكى البيهقي في كتاب "الاعتقاد" أنه المذهب الصحيح.

ويدل على هذا القول ما ورد في محكم القرآن في قصة العبد الصالح الذي رحل نبي الله موسى إلى لقائه في مجمع البحرين، فإنه قال مبيِّنًا السر في قتله الغلام: ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ (الكهف)، وفي صحيح مسلم عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ في الغلام الذي قتله الخَضِر: "طُبع يوم طُبع كافرًا، ولو تُرك لأرهق أبويه طغيانًا وكفرًا" [4].

قال ابن تيمية مُعلِّقًا على الحديث: "يعني طَبَعه الله تعالى في أم الكتاب، أي أثبته وكتبه كافرًا، أي إنه إن عاش كفر بالفعل".

وهنا يتبين لنا أن الرحمة كانت في هلاك هؤلاء الأطفال مع آبائهم قبل أن يجري عليهم القلم وينشئوا على الكفر ويكونوا من أصحاب الجحيم.

ثالثًا. اعتذار نوح ﷺ يوم القيامة عن الشفاعة؛ قد يكون لهول هذا اليوم أو لتركه ما كان يجب أن يفعله وهو ترك أمر قومه إلى الله وليس في هذا معصية لله:

لم يدْعُ نوح ﷺ على قومه إلَّا بعد أن أخبره الله ﷻ أنه لن يؤمن من قومه غير من قد آمن، قال ﷻ: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (هود) [5]، وأما عن اعتذاره عن الشفاعة كما في الحديث: "إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعد مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري.." [6].

فالواضح من هذا الحديث أن اعتذار نوح ﷺ عن الشفاعة لقومه لم يكن لخطأ قد ارتكبه فحُرِم من الشفاعة، ولكن لأنه كانت له دعوة مستجابة فدعا بها على قومه ولو أخرها لدعا واستشفع بها في هذا اليوم. وفي هذا يقول النبي ﷺ: "لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها وأريد أن أختبئ دعوتي شفاعة

١. العَرَصَات: أهوال القيامة وشدائدها.

٢. الجنة والنار، د. عمر سليمان الأشقر، مرجع سابق، ص١٩٥.

٣. مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مرجع سابق، ٤/ ٢٨١.

٤. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب مسند فضائل الخضر ﷺ (٦٣١٥).

٥. قصص الأنبياء، الشعراوي، مرجع سابق، ص٤٣، ٤٤.

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قول الله ﷻ: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ (نوح) (٣١٦٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (٥٠١).

لأمتي في الآخرة"[1].

وعلى هذا فإن اعتذار نوح عليه السلام عن الشفاعة يوم القيامة يكون لتركه الأولى؛ إذ كان الأولى أن يوكِّل أمر قومه إلى الله إن شاء أهلكهم وإن شاء أبقاهم.

كما صنع إبراهيم عليه السلام إذ قال: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦)﴾ (إبراهيم). وكما صنع عيسى عليه السلام إذ قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾ (المائدة).

فلما دعا نوح عليه السلام بإهلاك قومه كان قد تَرَكَ الأولى، وتَرْكُ الأولى ليس ذنبًا كما يدعي بعض الواهمين ومع هذا يستغفر منه الأنبياء؛ لسمو درجتهم عند الله وهذا ما فعله نوح. عليه السلام[2].

أما استغفار نوح عليه السلام بعد ذلك: "رب اغفر لي ولوالدي" فلأن النبي ﷺ مهما أطاع وجاهد وعبد فإنه بشر مُعرَّض للخطأ والتقصير، وهذا هو قمة الأدب مع الله تعالى من أنبيائه، وتعليم لنا ألا نستكثر أعمالنا وجهادنا على الله تعالى، بل إننا إذ وفقنا فمن الله تعالى، وعلى الإنسان أن يستغفر الله تعالى حتى بعد عمل الصالحات كما كان النبي ﷺ يستغفر الله تعالى في اليوم والليلة، أكثر من سبعين مرة[3].

وفي رواية: مائة مرة[4]، وليس ذلك لمعصية ارتكبها أو لخطأ فعله.

الخلاصة:

- لم يَدْعُ نوح عليه السلام على قومه إلَّا بعد أن أوحى الله إليه وأيقن أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ (هود)، وعرف أن نسلهم سيكون على شاكلة الآباء في الإصرار على الكفر، فقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، وفي هذه المدة عرف طباعهم وجربهم حتى يقال: إن الرجل منهم كان يحذِّر ابنه من نوح، ويقول له: احذر هذا فإنه كذَّاب، وهذا مما قطع الأمل في إيمانهم، وبذا يكون الخير في هلاكهم، لتتخلص الأرض من شرهم.
- وأما أطفالهم: فعلى قول من قال: إن الله تعالى يَبَّسَ أصلاب رجالهم، وأَعْقَم أرحام نسائهم قبل الطوفان بأربعين سنة، أو سبعين سنة، فلا إشكال، لعدم وجود أطفال فيهم.
- وأما على قول إغراق الأطفال فإن ذلك لم يكن على وجه العقاب للأطفال والصيرورة بعده إلى عذاب النار كآبائهم، بل لزيادة تعذيب الآباء إذا أبصروا أطفالهم يغرقون ثم لا يعذَّب الأطفال في الآخرة.
- اعتذار نوح عليه السلام يوم القيامة من الشفاعة لتركه ما كان يجب أن يفعله، وهو ترك أمر قومه إلى الله إن شاء أهلكهم وإن شاء أبقاهم لا أن يدعو عليهم.

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب لكل نبي دعوة مستجابة (٥٩٤٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمته (٥٠٨).

٢. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٥٨.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة (٥٩٤٨).

٤. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه (٧٠٣٣).

الشبهة التاسعة

ادِّعاء أن طُوفان نوح أسطورةٌ وليس حقيقة كما ورد في القرآن(*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المشككين حادثة الطوفان الواردة في قصة نوح عليه السلام في القرآن الكريم، ويدَّعون أنه أسطورة وردت في الكتب القديمة. مستدلين على ذلك بأنه لا يمكن حدوث مثل هذا السيل الذي يغطي الكرة الأرضية كلها بجبالها الشاهقة، كما أن سفينة نوح عليه السلام لا يمكن أن تسع كل أصناف الحيوانات ومهما تكن فهي أضيق من أن تضم كل حيوانات الأرض[1].

وجوه إبطال الشبهة:

١) أثبتت البحوث التاريخية والأركيولوجية[2] أن الطوفان العظيم غَمر بلاد الرافدين القديم مما يؤكد صحة وجود الطوفان.

٢) توصل علماء المناخ والجيولوجيا[3] إلى أن الجزيرة العربية مرَّت بعصور مطيرة تسببت في فيضانات غامرة[4].

٣) الأدلة العلمية ترجح ما ورد في القرآن الكريم وأقوال المفسرين على ما ورد في التوراة بخصوص الطوفان.

(*) آراء يهدمها الإسلام، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، بيروت، ط٥، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

١. جاء في كتاب "الرياضيات المسلية" لـ "ياكوف بيريلمان"، فصل: الرياضيات وأسطورة الطوفان حرفيًّا ما يلي: نجد من بين الأساطير البالية الواردة في الكُتب القديمة أسطورة تقول: إن العالم كله قد غرق في غابر الأزمان بفعل أمطار كانت أعلى من أعلى الجبال، وحسب ما يرد فإن الرَّب كان قد ندم مرة على أن خلق الإنسان على الأرض، وقال: سأُهلك البشر الذين خلقتهم على سطح الأرض. وكان الإنسان الوحيد الذي أراد الله أن يرحمه عندئذ هو التَّقي نوح، لذلك فقد حذَّره الرَّب مما يجري من تحضيرات لهلاك العالم، فأمره ببناء سفينة كبيرة سُمِّيَت "الفُلْك" بالمقاييس الآتية: "طول الفلك ٣٠٠ ذراع، وعرضه ٥٠ ذراعًا، وارتفاعه ٣٠ ذراعًا، ويتألَّف من ثلاثة طوابق، وكان يجب أن ينجو على هذه السفينة نوح وأسرته وأُسَر أبنائه وأصناف الحيوانات على الأرض، وأصدر الرَّب أمره إلى نوح أن يأخذ في الفُلْك زَوْجًا واحدًا من كل أصناف الحيوانات، واختار الرَّب الفيضان الناجم عن الأمطار لإهلاك كل ما هو حي. ويذكر في الكتب القديمة أنه بعد سبعة أيام جاءت مياه الفيضان وهطلت الأمطار مدة ٤٠ يومًا و٤٠ ليلة، وارتفع الفلك فوق الماء وغطَّت المياه كل الجبال العالية تحت السماء وارتفعت فوقها بمقدار ١٥ ذراعًا، فهلك كل موجود على سطح الأرض وبقي نوح فقط وفُلْكُه، وتروي الأسطورة أن المياه بقيت فوق الأرض مدة ١١٠ أيام أخرى ثم اختفت، وغادر نوح الفُلك ومعه كل الأحياء التي أُنقذت لكي يعمر الأرض الخالية مرة أخرى. ثم يتساءل هؤلاء:

١. هل كان ممكنًا حدوث مثل هذا السَّيْل الذي غطَّى الكرة الأرضية كلها؟

٢. هل كان يستطيع فُلْك نوح أن يتَّسع لكل أصناف حيوانات الأرض؟

ثم أجابوا عن الأول بأنه غير ممكن؛ لأن مياه الجو لا تكفي لإحداث الفيضان، وأجابوا عن الثاني بأن السفينة كانت ضيِّقة، فلا يمكن أن تتَّسع لكل الحيوانات.

وانتهى هؤلاء إلى ما يأتي: إنَّ الأسطورة القديمة عن الطُّوفان العظيم لا تتَّفق مع الحسابات الرِّياضية اليسيرة، لدرجة أنه من الصعب أن نجد فيها ولو جزءًا صغيرًا يطابق الواقع، وأغلب الظن أنها أُسْتُوحِيَتْ من فيضان جزئي استغرق جزءًا من الكرة الأرضية، أما الباقي فهو من ابتداع الخيال الشرقي الفني. (الرياضيات المسَلية، بيريلمان، ترجمة د. إبراهيم محمود شوشة طباعة دار أمير للطباعة والنشر، موسكو، ١٩٧٧م. فصل الرياضيات وأسطورة الطوفان، ص٢٣٦).

٢. الأركيولوجيا: Archaeology ــ Archeology علم الآثار القديمة، أو آثار حضارة أو شعب ما.

٣. الجولوجيا: علم طبقات الأرض Geology، وتطلق أيضًا على دراسة المادة الصلبة من جرم سماوي؛ كالقمر.

٤. الغامرة: المُغْرِقة المُغطِّية لمعالم الأرض.

٤) تجمعت عدة أدلة عقلية تثبت أن أحداث الطوفان كانت حدثًا واقعيًّا وحقيقيًّا. وأنه لم يكن ضربًا من الأساطير.

٥) الطوفان معجزة إلهية، والمعجزات لا مدخل للعقل في النظر إليها، وكذلك صنع السفينة كان بوحي من الله وتعليم من الملائكة.

٦) إن السياق القرآني لقصة الطوفان العظيم سياق وعظي، رام إلى اتخاذ العبرة والعظة من قوم أشركوا بالله وعصوا الرسول نوحًا ﷺ، فحل بهم العقاب ـ الطوفان العظيم ـ فلم يكن حديث خرافة وإنما كان حديث حق.

التفصيل:

أولا. تاريخ بلاد الرَّافدَين القديم والكشف عن آثار الطوفان:

أثبتت البحوث التاريخية والأركيولوجية أن الطوفان العظيم غمر بلاد الرافدين القديم مما يؤكد صحة وجود الطوفان، فلقد مرَّ التاريخ القديم لبلاد الرَّافدين بالعصور الآتية[1]:

١. **العصر الحجري القديم**: اكتشف العالم سويلي آثار هذا العصر سنة ١٩٥٤م في كهف شانيدار شمالي شرقي المُوصِل، حيث عثر على بقايا هياكل عَظْميَّة تعود إلى هذا العصر.

٢. **العصر الحجري الحديث**: ويتضمن ما يأتي:

- **حضارة جرمو**: عثر الأستاذ بريد وود سنة ١٩٤٨م على مركز هام من مراكز هذا العصر في قرية جرمو الواقعة في غربي مدينة السُّليمانية، وأرجع العلماء تاريخ هذا المركز إلى نحو ٦٥٠٠ ق. م، أي إلى ما بعد ظهور المجتمعات القرويَّة الزراعية بقليل.

- **حضارة عصر تل حَسُّونة**: ويقع جنوبي المُوصِل، ويرجع عهد هذا العصر إلى حوالي سنة ٥٧٥٠ ق. م. وكانت بعثة مديرية الآثار العراقية قد نقَّبت في هذا التل سنة ١٩٤٣م، ومن أغرب ما عَثَرَتْ عليه البعثة تماثيل فُخَّار صغيرة الحجم، تمثل أشكالًا مصنوعة من الطين الفُخَّاري، مما يدل على ظهور نوع من العبادات الوثنية. ووجد العالم مالوان سنة ١٩٣١م نماذج مماثلة لـ "حضارة تل حسُّونة" في نينوي بالقرب من المُوصِل، واكتشف نماذج أخرى من هذه الحضارة في أماكن متعددة في شمالي العراق.

- **حضارة تل حلف**: عثر عليها العالم الألماني البارون فون أوبنهايم في قرية تل حلف، بالقرب من ناحية رَأس العِين في سورية[2].

- **العصر النحاسي الحجري في وادي الرَّافدين**: تمثل حضارة هذا العصر في ثلاثة مواقع هامة وهي:

  - **تل العبيد**: قرب مدينة أُور القديمة جنوبي بلاد الرَّافدين، وقد اكتشفته بعثة المُتْحَفة البريطانية برئاسة د. هول، وتابع التَّنقيب[3] المؤرِّخ ليونانرد وُولي، وعثر في أُور على دُمًى[4] من الطِّين ذات مغزى ديني.

  - **حضارة عصر أوروك (الوركاء)**: عَثَرت عليها

---

١. الشرق الأدنى القديم، عبد العزيز عثمان، كلية الآداب، جامعة دمشق، سوريا، ١٩٦٢م.

٢. رَأس العِين: مدينة سورية إلى الغرب من القامشلي، وهي نبع نهر الخابور.

٣. التَّنْقِيب: البحث عن الشيء والكشف عنه.

٤. الدُّمَى: جمع دُمْيَة، وهي الصورة المتمثلة من العاج وغيره، ويضرب بها المثل في الحسن.

بعثة ألمانية.

○ حضارة عصر جمدة نَصَّر: اكتشف آثار هذا العصر العالم الأثري لانكدون Langdon سنة ١٩٢٠م في تل صغير يقع بالقرب من مدينة كيش القديمة يدعى جمدة نصر.

وفي نهاية هذا العصر ـ كما تقول كُتب التاريخ ـ حصل الطُّوفان العظيم الذي غمر بلاد ما بين الرَّافدين فقضى على معظم السُّكان، ولم يبقَ منهم إلا عدد ضَئِيل[١]، وقد أثبتت الحفريَّات التي حُفِرَت في أُور وأُورك وكيش وشوروباك، حدوث فيضان عظيم بين عصر العبيد وعصر السُّلالات الأولي، فيضان عظيم حصل في آخر عصر جمدة نَصَّر. وقد وجد العالم الأثري وُولي طبقات كثيفة من الْغِرْيَن في مدينة أُور بعمق مترين ونصف. ووجد وولي آثار السُّكْنَى البشريَّة فوق هذه الطبقات وتحتها، واستنتج من ذلك أن هذا الْغِرْيَن قد أتت به مياه فيضانات دِجْلَة والفُرَات، وقد قدَّر مساحة الأرض التي غمرها الفيضان بأربعمائة ميل طولًا، وألف ميل عرضًا.

ثانيًا. نظرة مناخيَّة وتضاريسيَّة:

لقد مرَّت الجزيرة العربية بعصور مَطِيرَة (البلايستوسيين) وهي اليوم جافة تجري فيها سيول عند سقوط المطر، فالظروف المناخية الحالية تختلف عن تلك التي كانت موجودة في المنطقة قديمًا، فبينما كانت أوربا تمرُّ بالعصر الجليدي في بدء الدور الجيُولُوجي الرابع، كان الشرق الأدنى يمرُّ بالعصر المَطِير (البلايستوسين)، وكانت المناطق الصحراوية الممتدة في وسط إفريقية وجزيرة العرب وإيران ذات مناخ معتدل يشبه مناخ أوربا الغربية الآن.

وقرَّر العلماء نتيجة لما سبق، أن الإنسان لم يكن في ذلك العصر المَطِير يعيش في الشرق الأدنى القديم على ضفاف الأنهار؛ لكثرة الفيضانات والمُسْتَنْقَعَات، بل كان يعيش فوق المناطق الجبلية، وفوق الهِضَاب التي كانت أمطارها ومياهها ونباتاتها كثيرة، ولكنها أصبحت بعد ذلك من المناطق الصحراوية بانتهاء عصر (البلايستوسين) المَطِير، وما تزال كذلك حتى اليوم، ذلك أن الدفء والجفاف أخذا ينتشران فيها شيئًا فشيئًا، بينما كانت الثلوج تذوب في أوربا ويعتدل مناخها[٢].

هذا من ناحية المناخ.. أما من الناحية التضاريسية.. فبلاد الرَّافدين كانت رُقْعتها أصغر، حتى إن دِجْلة والفُرَات اللذَيْن يصبَّان اليوم معًا كانا في التاريخ القديم يبعُدان عن بعضهما حوالي ٨٠ كيلو مترًا، وتشكَّلَ السهلُ الجنوبي في العراق من رواسب هذين النَّهْرَين؛ إذ كانت مياه الخليج العربي تغمر جزءًا كبيرًا من هذا السهل، ويقدر العلماء أن الساحل الحالي يبعد ما يقرب من ١٩٠ كيلو مترًا عن الساحل القديم، وأن الأرض اليابسة كانت تكسب من البحر ما يزيد عن أربع كيلو مترات كل مائة سنة[٣].

---

١. الضَّئيل: القليل.

٢. تاريخ الشرق الأدنى القديم، عبد العزيز عثمان، مرجع سابق، ص١١.

٣. آراء يهدمها الإسلام، د. شوقي أبو خليل، مرجع سابق، ص٩٢.

ثالثًا. الأدلة العلمية ترجح ما جاء في القرآن وأقوال المفسرين على ما ورد في التوراة بخصوص الطوفان:

ويؤكد جمهور العلماء على أن الطُّوفان كان في الظاهر عامًّا مُهْلكًا لكل الكافرين، وحفظ الله تعالى منه نبيه نوحًا عليه السلام ومن آمن معه، وقال بعض المفسرين: إن ظواهر الآيات تدل بمعونة القرائن على أنه لم يكن في الأرض كلها في زمن نوح عليه السلام إلا قومه، وأنهم هلكوا كلهم بالطوفان، ولم يبقَ فيها بعده غير ذُريَّته، وهذا يقتضي أن يكون الطوفان في البقعة التي كانوا فيها من الأرض سهلها وجبالها لا في الأرض كلها، فالطوفان كان خاصًّا؛ لأن النوع الإنساني لم يكن في جميع الكُرة الأرضيَّة، بل كان منحصرًا في بلاد الرافدين حيث نوح عليه السلام وقومه.

وإذا ذكرت التوراة أن الأرض قد علاها الماء خمسة عشر ذراعًا، وأباد الله كل ذي حياة من إنسان ووحش وطير على وجه الأرض، وذكرت أبعاد السفينة كما ذكرها أصحاب هذا الادِّعاء، كل ذلك لا يؤخذ به؛ لثبوت أن التوراة كُتبت بعد موسى عليه السلام بزمن بعيد، فاعتراها التَّحريف زيادة ونقصًا حسب آخر الأبحاث العلمية.

أما القرآن الكريم الذي ثبتت علميًّا صِحته، وأن كل ما فيه حقائق ثابتة، فقد وصف السفينة بأنها: ﴿الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩)﴾ (الشعراء)، وبأنها: ﴿ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣)﴾ (القمر).

رابعًا. الأدلَّة العقليَّة على حدوث الطُّوفان:

تجمَّعت عدة أدلة عقلية تثبت أن حدث الطوفان كان حدثًا واقعيًّا وحقيقيًّا، وأنه لم يكن ضربًا من الأساطير كما يقال:

١. الرُّقُم التي اكتُشفت في مكتبة آشور بانيبعل، والتي ذكرت صراحة قصة الطُّوفان، وذكرت أنه بانتهاء الطُّوفان عادت الحياة إلى الأرض فابتدأت بذلك العصور التاريخية، وهذه الرُّقم تعود إلى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

٢. اكتشاف العالم الأثري وولي طبقات كثيفة من الغِرْيَن في مدينة أُور بعمق مترين ونصف، وفيها آثار السُّكْنَى البشرية فوق هذه الطبقات وتحتها.

٣. وجود الأصداف والأسماك المُتحجِّرة في أعالي الجبال، وهذه الأشياء لا تتكوَّن إلا في البحار، فظهورها في رءوس الجبال دليل على أن الماء صعد إليها مرة من المرات، ولا يكون ذلك إلا إذا كان الطوفان بلغ ذُرَاها[1]، وصعود الماء إلى الجبال لمدة أيام معدودة يكفي لوجود الأصداف والأسماك المتحجرة في قمم الجبال.

٤. حدوث الطوفان في أواخر العصر المَطِير (البلايستوسين)، أي: في ظروف مناخية وتغيرات جغرافية غير الظروف والتغيرات الحالية.

٥. وجود قصة الطوفان في كُتب الأَقْدَمين من هنود وفرس وآشوريين.. يجعل الحدث حدثًا معروفًا عالميًّا.

٦. في بعض أرجاء الكرة الأرضية اليوم مناطق جافة، بل معدَّل أمطارها صِفْر مِلَم في السَّنة، ومع ذلك فقد يحدث فيها فيضانات أحيانًا، كما هو الحال في أسوان وسواحل البحر الأحمر؛ حيث مُعَدَّل المطر

---

١. ذُراها: أعلاها.

المعروف صفر ملم، وقد حصلت عام ١٩٧٩م سيول جارفة وفيضانات رهيبة تركت عشرات الضحايا وآلاف المُشَرَّدِين، مع أن مدة هُطُول الأمطار في هذه المناطق الجافة لم يستمر إلا لبضع ساعات فقط[1].

٧. هذا، ونشرت مجلة (السَّفير) مقالة في عددها يوم الأحد ٢٦/٨/ ١٩٨٤م تحت عنوان (البعثة الأمريكية إلى جبل أرارات تعلن اكتشاف بقايا سفينة نوح)، نظَّم الرحلة رائدُ الفضاء السابق جيمس أروين، الذي أصبح مُتَدَيِّنًا بعدما سار على القمر عام ١٩٧١م أثناء رحلة أبولو ١٥، وطالبت البعثةُ الأمريكيةُ الحكومةَ التركية أن تأذن لها بإغلاق المنطقة التي عُثِرَ فيها على الاكتشاف على ارتفاع ١٥٨٥ مترًا[2].

خامسًا. الطوفان معجزة إلهية فلا يقاس بالعقل وكذلك السفينة كانت بوحي من الله وتعليم الملائكة:

وبعد هذا بالإمكان أن نقول: إن هؤلاء المدَّعين أخطئوا في أمور ثلاثة في مُقدِّماتهم، فجاءت نتائجهم واستنتاجاتهم خطأ، وهذه الأمور الثلاثة هي:

١. أن الطُّوفان عَمَّ الكرة الأرضية كلها، وهذا خطأ قَطْعًا برأي جمهور العلماء. وعليه فالسفينة حملت زوجين من كل الحيوانات الموجودة في هذه البقعة التي شملها الطوفان فقط وهذا ممكن. وحتى لو افترضنا أن الطوفان عمّ جميع الأرض على رأي بعضهم - وهم قلة - فإن السفينة كانت عظيمة جدًّا بحيث تسع أن تحمل زوجين من كل المخلوقات؛ ولذلك ورد في بعض كتب التفسير أن طولها كان ألف ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وكانت ثلاث طبقات طبقة فيها للوحوش والدواب وطبقة فيها للأنس وطبقة فيها للطير[3].

٢. الظروف المناخية الحالية التي اعتمد عليها هؤلاء في قياساتهم وحساباتهم، تختلف عن الظروف المناخية قبل آلاف السنين، ومن الخطأ الفادح أن تعتمد في حسابات هؤلاء، فكميّة الأمطار في أواخر العصر المطير (البلايستوسين) غير كمية الأمطار اليوم، وهذه حقيقة علميَّة أضحت بدهيَّة عند الباحثين، فكيف تناساها هؤلاء المدَّعون؟!

٣. وطوفان نوح معجزة إلهية لنوح عليه السلام، والمعجزة خَرْقٌ[4] للقوانين المألوفة لدى البشر، أما الله عز وجل فلا تعجزه هذه القوانين فهو الذي أبدعها، وهو القادر على تغييرها فتكون معجزة خارقة، فالموضوع إذن موضوع إيمان أو لا إيمان.

والطُّوفان ذُكِرَ في القرآن العظيم - كما مرَّ معنا - ولمحات القرآن الكريم العلمية أثبتها العلم الحديث، بل جاء العلم الحديث مطابقًا لها تمامًا؛ مما جعل العلماء من غير العرب يقولون بالسَّبْق العلمي للقرآن في كل لمحاته الكَوْنِيَّة والطبيَّة والطبيعيَّة.

يقول د. موريس بوكاي: "صِحَّة القرآن التي لا تقبل الجدل تعطي النص مكانة خاصة بين كُتُب

١. هذا ما حدث بتاريخ ٢٣ - ١٢ - ١٩٨٥م في منطقة تبوك والعلا في المملكة العربية السعودية؛ حيث جرفت السيول والفيضانات ما اعترضها، تاركة وراءها أكثر من ثلاثين قتيلًا.

٢. آراء يهدمها الإسلام، د. شوقي أبو خليل، مرجع سابق، ص٩٥.

٣. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٩، ص٣٢.

٤. الخَرْق: المخالفة.

التنزيل، ولا يشترك مع نص القرآن في هذه الصحة لا العهد القديم ولا العهد الجديد"[1].

ويقول عن "رواية الطوفان في القرآن": "يقدم القرآن رواية شاملة مختلفة ولا تثير أي نقد من وجهة النظر التاريخية، فالقرآن يقدِّم كارثة الطوفان باعتبارها عقابًا نزل بشكل خاص على شعب نوح ، وهذا يُشكِّل الفرق الأساسي الأول بين الروايتين - رواية التوراة ورواية القرآن الكريم - وهذا يجعلنا نقول بضرورة - بل بحتمية - دراسة الأمور العلميَّة والتاريخيَّة الواردة في الكتب المُقدَّسة[2] على ضوء القرآن الكريم فقط، دون سواه، فهو وحده لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث"[3].

وربما كانت قصة الطُّوفان المذكورة في الكُتب المقدَّسة أقدم من هذا الطُّوفان بعصور كثيرة، فقد أَرْجَعها العالِمِ الأثري كونتنو نقلًا عن العالِمِ دي مورغان إلى العصر المطير الذي تبع عصر الجليد في نهاية الدور الرابع؛ حيث هلك عدد كبير من الناس، وقد خلَّدت الرُّقُم التي اكتُشِفَت في مكتبة آشور بانيبعل هذا الطُّوفان، وبعد انتهاء الطُّوفان تذكر هذه الرُّقُم أن الملكيَّة عادت إلى الأرض، فابتدأت بذلك العصور التاريخيَّة، وفي بدء هذه العصور اشتدت قوة السُّومَرِيِّين، فسيطرت بعض السُّلالات على بعض المدن، وسُمِّي أول عصر تاريخي بـ "عصر فجر السُّلالات" أو "عصر السُّلالات الأولى القديمة"[4].

عصر السُّلالات الأولى: أهم الكتابات عن هذا العصر كتبها المؤرخ البابلي بوحوشا أو بيروسوس، فقد ترك سجلًّا تاريخيًّا بأسماء ملوك سُومَر وأَكَاد، وينقسم هذا السجل التاريخي إلى قسمين، الأول منهما لملوك ما قبل الطُّوفان، وهو ينتهي بالجملة الآتية: "وبعد ذلك جاء الفيضان، وبعد الطُّوفان هبطت الملكية مرة أخرى من السماء".

سادسًا. الطُّوفان في القرآن الكريم:

إن السياق القرآني لقصة الطوفان العظيم، سياق وعظي رام إلى اتخاذ العبرة والعظة من قوم أشركوا بالله وعصوا الرسول نوحًا ، فحل بهم العقاب الذي هو الطوفان العظيم فلم يكن حديث خرافة، وإنما كان حديث حق، ولقد ورد ذكر نوح في ثلاثة وأربعين موضعًا من القرآن الكريم، وذَكَرَت قصته مفصَّلةً في السور التالية: الأعراف، وهود، والمؤمنون، والشعراء، والقمر، ونوح.

وأوضحت القصة أن قوم نوح عكفوا على عبادة غير الله تعالى، واتَّخذوا لهم أصنامًا يعبدونها من دونه، فأرسل الله نوحًا إليهم، واجتهد غاية الجهد في دعوتهم، وبذل منتهى وُسْعِه[5] لكي يتَّبعه قومه في الإيمان بالله، ويُقلعوا عن عبادة تلك الأصنام، وطال

١. دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، موريس بوكاي، دار المعارف الأمريكية، مصر، د. ت، ص١٥.

٢. الكتاب المُقدَّس: العهد القديم عند اليهود، ومجموع العهدين عند النصارى.

٣. دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٤٦، ٣٤٧.

٤. تاريخ الشرق الأدنى القديم، عبد العزيز عثمان، مرجع سابق، ص٢١٣.

٥. وُسْعِه: جهده.

الزمن، وهو يقدِّم النُّصح والموعظة سرًّا وعلانية، وهم لا يزدادون إلا إعراضًا وتأبِّيًا[١] عن طريقته، حتى تبرَّموا به[٢]، فَأَنَالُوه الأذى، فَيَئِس نوح عليه السلام من هداية قومه، فأمره الله عز وجل بعمل الفُلك؛ لتكون أداة لنجاته ومن معه من الغرق فسخِر قومه منه، استبعادًا منهم لوقوعه، فكان هو أيضًا يسخر منهم، ومن غفلتهم عن الحق، وبلادتهم عن أخذ الحَيْطة لأنفسهم باتباعه بإحسان وتَنْجِيَة أنفسهم، وصار نوح عليه السلام يتهدَّدهم بذلك العذاب[٣].

فلما استووا على ظهر السفينة هَطَلَتْ[٤] الأمطار، وانفجرت عيون الأرض، وحملت المياه السفينة ومن فيها، ومكثت ما شاء الله أن تمكث، إلى أن غرق كل ما على الأرض من إنسان وحيوان، ثم استقرت السفينة على الجُودِي من جبال أرارات من ديار بكر، وخرج مَن في السفينة، وبارك الله عز وجل فيهم فكثُروا.

وصفوة القول: أن قوم نوح عليه السلام كفروا وعصوا الرسول فأغرقهم الله بالطُّوفان، ونجَّى نوحًا ومن معه في الفُلْك، وجعل ذُرِّيَّته هم الباقين، قال الله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ (هود)[٥]، وقال تعالى أيضًا: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ

---

١. تأبِّيًا: رفضًا.

٢. تبرَّموا: سئموا منه وتضايقوا.

٣. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٤٨ بتصرف.

٤. هَطَلَت: سقطت وأمطرت بغزارة.

٥. يُخْزِيه: يذله. فار التَّنُّور: وجه الأرض؛ أي: نبع الماء منه. مَعْزِل: مكان منعزل. حال: فرق، وقف عائقًا. غِيْض الماء: نقص وغار في الأرض.

عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ ﴾ (القمر)[1].

الخلاصة:

- كان للاكتشافات الأثرية الحديثة في بلاد الرافدين أثر كبير في الكشف عن آثار وجود طوفان عظيم حدث في العصور القديمة، مما يؤيد إمكانية حدوث مثل هذه الكارثة الأرضية.
- النظرة المناخية التضاريسية للجزيرة العربية تبين أن الإنسان في الشرق الأدنى القديم كان لا يعيش على ضفاف الأنهار لكثرة الفيضانات، بل كان يعيش فوق المناطق الجبلية والهضاب خوفًا من المياه.
- وورود قصة الطوفان في الكتب المقدسة - وإن كانت متباينة في تفصيلاتها والمعلومات التي أوردتها - يؤكد وقوعها من الناحية التاريخية.
- الطوفان مُعْجِزة[2] خارقة للعادة وبالتالي فليس من الصواب أن يكون العقلُ - ومجال عمله القوانين المطرده - هو المرجع في الحكم عليها بالنفي أو الإثبات، وكذلك السفينة كانت بوحي من الله تعالى وتعليم الملائكة. فالمسألة مسألة إيمان قبل أي شيء، لأن القرآن لم يذكر تفصيلاتها وإن كان العلم الحديث جاء مطابقًا لما في القرآن تمامًا.
- حديث القرآن الكريم عن الطوفان وقصة السفينة وهلاك الناس حديث صحيح، وقد أكدت الاكتشافات الحديثة العثور على بقايا سفينة نوح عليه السلام عند جبل أرارات من ديار بكر.

1. آراء يهدمها الإسلام، د. شوقي أبو خليل، مرجع سابق، ص٩١ وما بعدها.
2. المُعْجِزَة: الأمر الخارق للعادة يظهره الله على يد نبي؛ تأييدًا لنبوَّته، وتكون من جنس ما نبغ فيه قومه. وقيل: هي أمر نادر الحدوث يعجز الإنسان العادي عن الإتيان بمثله.

الشبهة العاشرة

التشكيك في أبوّة نوح عليه السلام لابنه(*)

مضمون الشبهة:

يشكك بعض المتوهمين في أبوَّة نوح عليه السلام لابنه، الذي هلك في الطوفان، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ ﴾ (هود: ٤٦)، بل يدَّعي بعضهم أنه ابن زنا؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ ﴾؛ ولأن أمه كانت خائنة كما ذكر القرآن عنها وعن امرأة لوط: ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ (التحريم: ١٠). ويتساءلون: كيف يدَّعي نبي معصومٌ الكذبَ ويَنْسِبُ إليه ابنًا ليس من صلبه إذ قال: ﴿ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي ﴾ (هود: ٤٥).

ويهدفون من وراء ذلك إلى الطعن في عصمة نبي الله نوح عليه السلام.

وجها إبطال الشبهة:

١) القرآن الكريم ينفي أن يكون ابن نوح من أهله المؤمنين الذين وعد الله بإنجائهم، ويثبت كونه من صلبه حقيقة لقوله عز وجل: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ ﴾ (هود: ٤٢)، وعليه فلم يَكذب نوح عليه السلام في قوله: ﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي ﴾ (هود: ٤٥) كما يدّعي هؤلاء.

(*) عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

٢) قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ يعني الكفر، والخيانة في قوله تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ راجعة إلى مخالفة الدين والعقيدة لا إلى خيانة الفراش.

التفصيل:

أولا. ابن نوح ليس من أهله الناجين:

القرآن الكريم يثبت الأبوة لنوح عليه السلام، وأن هذا الابن من صلبه؛ لقول الله عز وجل: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾، فلو لم يكن ابنه لما صرّح بالبنوة، وإنما ينفي الصلة الإيمانية بين نوح عليه السلام وابنه، فأهل الإيمان تجمعهم صلة العقيدة والدين، وهذا الولد وإن كان ابنه فليس من أهل الإيمان، أو ليس من أهله المؤمنين الناجين؛ لكفره وخروجه عن دين الله تعالى وعدم اتباعه أباه الذي هو رسول الله إلى الناس، ولو كان المقصود نفي بنوة النسب لقال: إنه ليس ابنك جوابًا على قول نوح عليه السلام: إن ابني من أهلي، ولكن قال: "إنه ليس من أهلك"، فنفى دخوله معه في مجموع أهل الإيمان لم ينف البنوة؛ لأن المقصود "بأهلك" في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ (هود: ٤٦)، ليس أهل بيتك وعشيرتك، بل هم أهل دينك وعقيدتك، وعلى هذا لم يَكذب نوح عليه السلام في قوله "إن ابني من أهلي" فهو ابنه حقيقة لصلبه لقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ (هود:٤٢).

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ (هود: ٤٦)؛ فمعناه: إما أنه ليس من أهل دينك، فمدار الأهلية هو الصلة الدينية، وقد انقطعت بالكفر، فلا علاقة بين مسلم وكافر؛ ولذا لا يتوارثان[1]، وحُكِي هذا عن ابن عباس - رضي الله عنهما -، وإما أنه ليس من أهلك الذين أمرتك بحملهم في الفلك لخروجه عنهم بالاستثناء، وحكي هذا عن ابن جَرِير وعِكْرِمَة.

وعلى هذين القولين فالمعنى: "ليس من أهلك الذين وعدتك بإنجائهم"[2].

نعم، كان ابنه ولكن كان مخالفًا له في النية والعمل والدين... وهذا يدل على أن الاتفاق في الدين أقوى من حكم النسب[3].

وعلى هذا المعنى يؤكد الشيخ الطاهر ابن عاشور إذ يقول: "ومعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ نفي أن يكون من أهل دينه، ولكنه إعلام بأن قرابة الدين بالنسبة لأهل الإيمان هي القرابة، وهذا المعنى شائع في الاستعمال قال النابغة يخاطب عيينة بن حصن:

إذا حاولتَ في أَسَدٍ فُجُورًا

فإنِّي لَسْتُ مِنْكَ ولَسْتَ مِنِّي

وقال عز وجل: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ (التوبة) "[4].

ويوضح الشيخ الشعرواي أن النبوة ليس لها بنوّة، بل لها أتباع فيقول: "وحتى نعلم أن الأنبياء لا بنوة لهم إلا بنوة الاتباع نجد المثل في إبراهيم - خليل الرحمن -

١. لا يتوارثان: لا يرث أحدهما الآخر.

٢. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٦٠.

٣. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٩، ص٤٦.

٤. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٦، ج١٢، ص٨٥، ٨٦.

عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ـ حين قال الحق تعالى فيه: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ (البقرة).

ويريد الحق تبارك وتعالى أن يلفت نبيه نوحًا عليه السلام إلى أن أهلية الأنبياء ليست أهلية الدم واللحم، ولكنها أهلية المنهج والاتباع، وإذا قاس نوح عليه السلام ابنه على هذا القانون فلن يجد ابنًا له.

إذن فالبنوة بالنسبة للأنبياء هي بنوة اتباع لا بنوة نسب، وانظر إلى دقة الأداء في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ثم يأتي الحق سبحانه بالعلة والحيثية لذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ﴾ فكأن البنوة هنا عمل، وليست ذاتًا، فالذات منكورة هنا، والمذكور هو العمل، فعمل ابن نوح عليه السلام جعله غير صالح أن يكون ابنًا لنوح. وهكذا نجد أن المحكوم عليه في البنوة للأنبياء ليس الدم، وليس اللحم، إنما هو الاتباع بدليل أن الحق وصف ابن نوح عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ﴾ ولو كان عملًا صالحًا لكان ابنه"[1].

وجاء في "ظلال القرآن": رب إن ابني من أهلي، وقد وعدتني بنجاة أهلي وإن وعدك الحق، وأنت أحكم الحاكمين فلا تقضي إلا عن حكمة وتدبير.. قالها يستنجز ربه وعده، ويستنجز حكمته في الوعد والقضاء.. وجاء الرد بالحقيقة التي غفل عنها، فالأهل ـ عند الله وفي ميزانه ودينه ـ ليسوا قرابة الدم، إنما هم قرابة العقيدة، وهذا الولد لم يكن مؤمنًا، فليس إذن من أهله وهو النبي المؤمن، جاء الرد هكذا في قوة وتقرير وتوكيد، وفيما يشبه التَّقريع[2] والتأنيب والتهديد: "إنه ليس من أهلك.." إنها الحقيقة الكبرى في هذا الدين، حقيقة العُرْوَةِ التي ترجع إليها الخيوط جميعًا، عروة العقيدة التي تربط بين الفرد والفرد ما لا يربطه النسب والقرابة، "إنه ليس من أهلك.." فهو مُنْبَتٌّ[3] عنك وأنت منبت عنه، ولو كان ابنك من صلبك، فالعُرْوَة الأولى مقطوعة، فلا رابطة بعد ولا وَشِيجة[4][5].

ومما يؤكد نسبة هذا الولد لسيدنا نوح عليه السلام أن المؤرخين والمفسرين ذكروا أن ابن نوح هذا هو ابن رابع في أبنائه من زوج ثانية لنوح كان اسمها "واعِلة" غرقت، وأنها المذكورة في آخر سورة التحريم، قيل: كان اسم ابنه "يَامَا"، وقيل: اسمه "كَنْعَان"، وهو غير كنعان بن حام جد الكنعانيين[6].

وبهذا البيان تحقق أن نوحًا عليه السلام لم يكذب ـ وحاشاه أن يكذب ـ وهو نبي معصوم، إنما كذب المدّعون.

ثانيًا. قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ﴾ يعني الكفر، والخيانة في قوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ راجعة إلى مخالفة الدين والعقيدة لا إلى الفراش:

فمعنى العمل غير الصالح هو الكفر وليس الزنا كما قد يدّعي بعضهم، وأطلق على الكفر "عمل"؛ لأنه

---

1. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج١١، ص٦٤٨١: ٦٤٨٤ بتصرف.

2. التَّقريع: التَّوبيخ.
3. المُنْبَتّ: منقطع الصلة.
4. الوَشِيجة: القرابة المشتبكة المتصلة.
5. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٤، ص١٨٨٠.
6. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٦، ج١٢، ص٨٥، ٨٦.

عمل القلب ولأنه يظهر أثره في عمل صاحبه كامتناع ابن نوح من الركوب الدال على تكذيبه بوعيد الطوفان[١].

وقرأ بعضهم: "إنه عَمِلَ غَيرَ صالح" أي من الكفر والتكذيب، وقُرِئَ "عملٍ" أي: ابنك ذو عمل غير صالح فحذف المضاف[٢].

وأما قوله تعالى عن امرأة نوح عليه السلام وامرأة لوط عليه السلام: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ فليس المعنى: أنهما خانتا زوجيهما بالزنا، فما زنت امرأة نبي قط، وقد اتفق أئمة التفسير على أن الخيانة راجعة إلى الدين، لا إلى الفراش.

قال القُرْطُبِي: "والمقصود الخيانة في الدين، لا في الفراش؛ وذلك أن امرأة نوح عليه السلام كانت تقول للناس: إنه مجنون، وذلك أنها قالت له: أما ينصرك ربك؟ فقال لها: نعم. قالت: فمتى؟ قال: إذا فار التَّنُّور. فخرجت تقول لقومها: يا قوم، والله إنه لمجنون، يزعم أنه لا ينصره ربه إلا أن يفور هذا التنور. فهذه خيانتها، وخيانة امرأة لوط أنها كانت تدلُّ قومها على الأضياف إذا نزلوا عند لوط"[٣].

وتعقب الرازي الزعم أن ابن نوحٍ ولد زنا قائلًا: "وهذا قول خبيث يجب صَوْنُ مكانة الأنبياء عنه، لا سيما وهو على خلاف نص القرآن، أما قوله تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ فليس فيه أن تلك الخيانة إنما حصلت بالسبب الذي ذكروه، قيل لابن عباس: ما كانت تلك الخيانة؟ فقال: كانت امرأة نوح عليه السلام تقول: زوجي مجنون، وامرأة لوط عليه السلام تدل الناس على ضيفه إذا نزلوا به"[٤].

والدليل القاطع على فساد القول بأن المقصود هو خيانة الفراش - قول الله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ (النور)، وأيضًا قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ (النور).

وقال أبو السُّعود: وما يقال من أنه كان لغير رشده - أي: ولد زنا - لقوله تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ فارتكاب عظيمة لا يقادر قدرها، فإن جناب الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - أرفع من أن يشار إليه بأصبع الطعن، وإنما المراد بالخيانة الخيانة في الدين. ومثل هذا ذكره أيضًا البَيضَاوِي، والألُوسِي وغيرهما.

فهذه أقوال عدد من أئمة التفسير تستبعد أن تزني إحدى نساء الأنبياء. ومستند عدم وقوع الزنا من إحدى نساء الأنبياء النقل والعقل:

- **أما النقل**: فالآيات القرآنية الدالة على هذا كثيرة، ومنها الآيات التي نزلت ببراءة السيدة عائشة مما رُمِيت به زورًا وبهتانًا؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ

١. المرجع السابق، ص٨٦.
٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٩، ص٤٦.
٣. المرجع السابق، ص٤٦، ٤٧. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٦٢.
٤. أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٣/ ٤٩٧) سورة التحريم، آية ١٠.

﴿ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ (النور)[1].

- **وأما العقل**: فلأن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مبعوثون إلى الكفار لدعوتهم إلى الله؛ فلزم ألَّا يكون معهم ما ينفِّر الكفار منهم، ومن أعظم المنفِّرات عن الإنسان أن تكون زوجته مُسافحة، فزنا نساء الأنبياء - لو وقع - ينفِّر اتباعهم ويخلّ بحكمة البعثة، لهذا حفظ الله تعالى نساء الأنبياء من الزنا؛ حتى لا يعود ذلك بالانتقاص والإخلال بمهمتهم في دعوة الناس إلى الله[2].

وبهذا يتبين لنا ضلال هذا الادعاء الذي يزعم أصحابه أن نبي الله نوحًا عليه السلام قد وقع في الكذب مما يقدح في عصمته كنبي، كما تبطلُ الحجة التي يستند إليها هؤلاء من أن ابنه كان ابن زنا وليس من صلبه، فهو ابنه بشهادة القرآن، وخيانة زوجته كانت في الدين لا في الفراش®.

الخلاصة:

- القرآن الكريم يثبت أن ابن نوح عليه السلام هو ولده من صلبه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ ﴾ وعليه فلم يكذب نوح عليه السلام في قوله: ﴿ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾؛ فهو ابنه حقيقة لصلبه؛ لقول الله تعالى: ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (هود). أما المراد بقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ إما إنه ليس من أهل الإيمان، وإمَّا إنه ليس من أهلك الذين أمرتك بحملهم في الفلك، وعلى القولين: ليس من أهلك الذين وعدتك بإنجائهم، وبهذا تحقق أن نوحًا لم يكذب حتى يكون قد ارتكب المعصية.
- الخيانة في قوله تعالى: ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ عند امرأة نوح وامرأة لوط عليه السلام راجعة إلى الخيانة في الدين والعقيدة، لا إلى الخيانة في الفراش، وليس معناه أنهما خانتا زوجيهما بالزنا، فما زنت امرأة نبي قط.

الشبهة الحادية عشرة

ادعاء وقوع نوح في الخطأ؛ بسؤاله المولى عز وجل أن ينجِّي ابنه الكافر من الغرق(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن نوحًا عليه السلام قد أخطأ عندما سأل ربَّه نجاةَ ابنه الكافر، مع أن الله قد نهاه أن يطلب منه نجاة أحد من الكافرين، ويستدلون على ذلك بقوله: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (هود). ويهدفون من

---

١. الإفْك: أسوأ أنواع الكذب والبُهْتان. العُصْبة: الجماعة. تولَّى كِبْرَه: تحمل معظم هذا الإفك.

٢. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٦١: ٢٦٣.

® في "المقصود بخيانة امرأة لوط" طالع أيضًا: الوجه الثالث، من الشبهة الثلاثين، من هذا الجزء.

(*) عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

وراء ذلك إلى الطعن في عصمة سيدنا نوح عليه السلام.

وجه إبطال الشبهة:

إن سؤال نوح عليه السلام ربه أن ينجي ابنه لا يخلو من حالين:

- أن ذلك بعد الغرق، فيكون سؤال كشف واستعلام عن حال ابنه، وقيل: دعاء بالمغفرة في الآخرة فلم يكن ثمة نهي عن الدعاء.
- أن ذلك قبل الغرق، فيكون دعاؤه ليتوب الله على ابنه ويهديه للإيمان فينجو.

وليس في كلا الحالين أي معصية أو مخالفة تقدح في عصمة نبي الله نوح عليه السلام.

التفصيل:

أولا. إذا كان سؤال نوح عليه السلام بعد الغرق، فهو سؤال استعلام عن حال ولده، وقيل: دعاء لابنه بالمغفرة:

- **سؤال كشف واستعلام عن حال ولده:**

ذهب بعض المفسرين إلى أن سؤال نبي الله نوح ربه نجاة ابنه كان بعد الغرق ومنهم ابن كثير الذي قال: هذا سؤال استعلام وكشف من نوح عليه السلام عن حال ولده الذي غرق: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (هود). أي: وقد وعدتني ربي بنجاة أهلي، ووعدك الحق الذي لا يُخلَف، فكيف غرِق وأنت أحكم الحاكمين؟ ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (هود). أي: ليس من أهلك الذين وعدتك بإنجائهم؛ لأني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك، ولهذا قال: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (هود). فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق لكفره، ومخالفته أباه نبي الله نوحًا عليه السلام.

- **دعاء بالمغفرة في الآخرة:**

وذلك تأسيسًا على أن ابنه قد غرق مع من غرق من الكافرين فلم يبق إلا الدعاء بالمغفرة والرحمة والنجاة من عذاب الآخرة، يقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: "موقع الآية يقتضي أن نداء نوح عليه السلام هذا كان بعد استواء السفينة على الجودي نداءً دعاه إليه داعي الشفقة؛ فأراد به نفع ابنه في الآخرة بعد اليأس من نجاته في الدنيا؛ لأن الله أعلمه أنه لا نجاة إلا للذين يركبون السفينة، وقد علم أنه لا وسيلة إلى نجاته، فكيف يسألها من الله، فتعين أنه سأل له المغفرة، ويدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾. والنداء هنا نداء دعاء فكأنه قيل: ودعا نوح ربه؛ لأنّ الدعاء يصدّر بالنداء غالبًا، والتعبير عن الجلالة بوصف الربِّ مضافًا إلى نوح عليه السلام تشريف لنوح عليه السلام وإيماء[1] إلى رأفة الله به، وأن نهيه الوارد بعده نهي عتاب.

فالمعنى أن نوحًا عليه السلام لا يجهل أن ابنه كافر، ولذلك فسؤال المغفرة له عن علم بأنه كافر، ولكنه يطمع لعل الله أن يعفو عنه لأجل قرابته به، فسؤاله له المغفرة؛ بمنزلة الشفاعة له عند الله تعالى، وذلك أخذًا بأقصى دواعي الشفقة والرحمة بابنه.

١. الإيماء: الإشارة.

وقرينة ذلك كله قول الله تعالى: ﴿ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (هود) المفيد بأنه لا رادّ لما حكم به وقضاه، ولكنه مقام تضرع وسؤال ما ليس بمحال.

وقد كان نوح عليه السلام غير منهي عن ذلك، ولم يكن تقرر في شرعه العلم بعدم المغفرة للكافرين، فكان حال نوح عليه السلام كحال النبي ﷺ حين قال ل لعمه أبي طالب: لأستغفرن لك ما لم أُنْه عنك قبل أن ينزل قول الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾ (التوبة).

والاقتصار على هذه الجمل الثلاث: "إن ابني من أهلي - وإن وعدك الحق - وأنت أحكم الحاكمين" في مقام الدعاء تعريض بالمطلوب؛ لأنه لم يذكره، وذلك ضرب من ضروب التأدب والتردد في الإقدام على المسئول استغناءً بعلم المسئول كأنه يقول: أسألك أم أترك كقول أمية بن أبي الصلت.

أَأَذْكُرُ حاجَتِي أَمْ قَدْ كَفانِي

حَياؤُكَ إِنَّ شِيمَتَكَ الحَياءُ[1]

ثانيًا. السؤال كان دعاء إلى الله بهداية ابنه للإيمان:

وذهب آخرون إلى أن سؤال نوح عليه السلام ربه نجاة ابنه كان قبل الغرق، ومنهم المفسران أبو السعود، والألوسي اللذان علّلا ما ذهبا إليه، بأنه لو كان السؤال بعد الغرق عن موجب إغراقه لما نهى الله نوحًا عليه السلام عن استفسار ما لم يعلم: ﴿ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ فإن النهي عن استفسار ما لم يعلم غير موافق للحكمة؛ إذ عدمُ العلم بالشيء داعٍ إلى الاستفسار عنه لا إلى تركه.

وعلى هذا الرأي فالأمر في سؤال نوح عليه السلام ربه نجاة ابنه لا يخلو من ثلاثة أوجه عقلية:

الوجه الأول: سؤال نوح عليه السلام ربه نجاة ابنه وهو يعتقد إيمانه، وقد ذهب إلى هذا القول بعض العلماء منهم الماتريدي الذي قال: ظن نوح عليه السلام أن ابنه على دينه، إذ كان يظهر له ذلك، ويبطن كفره نفاقًا - هنالك - وإلّا لما تأتّى له أن يقول: ﴿ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ (هود: ٤٥).

وذكر هذا أيضًا الشِّهاب الخَفاجي، وعلي القاري، والزمخشري، والقرطبي، وابن المنير الذي قال: لم يكن نوح عليه السلام كاشفًا لحال ابنه، ولا مطّلِعًا على باطن أمره، بل معتقدًا بظاهر الحال أنه مؤمن. وحجتهم في ذلك: أن الله تعالى نهى نوحًا عليه السلام قبل سؤاله هذا أن يسأله نجاة أحد من الكافرين: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (هود)، فلا يليق بنوح عليه السلام أن يسأل ربه نجاة ابنه مع علمه بكفره.

ويرى هؤلاء العلماء أن قوله: ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (هود) لا يدل على أنه كافر عنده، بل المقصود به النهي عن الدخول في غمارهم، والقطع بأن ذلك يوجب الغرق، وأن اعتزال ابن نوح عليه السلام عنه، وقصده الالتجاء إلى الجبل ليس بنص في الإصرار على الكفر؛ لجواز أن يكون ذلك لجهله بانحصار النجاة في الفلك، وزعمه أن الجبل

---

[1]. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٦، ج١٢، ص٨٣: ٨٥ بتصرف.

أيضًا يجري مجراه.

ويكون معنى قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (هود). على هذا هو: فلا تطلب مني نجاة ابنك بناء على أنه مؤمن - فليس لك علم بحاله، إذ هو كافر، وأنا الذي أعلم كفره.

وعلى هذا فسؤال نوح عليه السلام نجاة ابنه - بناء على اعتقاده بإيمانه - الذي هو غير الواقع فيه ترك للأولى، إذ كان عليه - وقد ظل يدعو إلى الله سنين كثيرة - أن يعرف من آمن حقيقة، ومن لم يؤمن، وخاصة ابنه الذي يخالطه كثيرًا فالقرائن، والأمارات الكاشفة عن أحوال الناس في الإيمان والكفر لا تخفى على من خالطهم، مثل هذه المدة الطويلة، فلما خفي عليه هذا كان مخالفًا للأولى فيه، وسمّاه البعض خطأ في الاجتهاد، كالخطيب الشربيني الذي ذكر أن قوم نوح عليه السلام كانوا على ثلاثة أقسام: كافر يُظهر كفره، ومؤمن يُخفي إيمانه، ومنافق لا يعلم حاله في نفس الأمر.

وقد كان حكم المؤمنين هو النجاة، وحكم الكافرين هو الغرق، وكان ذلك معلومًا، وأما أهل النفاق فبقي أمرهم مخفيًّا، وكان ابن نوح عليه السلام فيهم، وكان يجوز فيه كونه مؤمنًا، وكانت الشفقة التي تكون للأب في حق الابن تَحمِلُه على حمل أعماله وأفعاله لا على كونه كافرًا، بل على الوجوه الصحيحة، فأخطأ في ذلك الاجتهاد.

ورغم كثرة القائلين بهذا الرأي - وهو نفاق ابن نوح عليه السلام - فإننا نرى ضعفه والحديث للدكتور أبو النور الحديدي، وذلك للأسباب الآتية:

- أن نوحًا عليه السلام وهو في معرض الإرشاد، والقيام بأعباء الدعوة تلك المدة المتطاولة لا يشتبه عليه أمر ابنه، ولا يفوته العلم بحاله من إيمان أو كفر، ولكل منهما ما يدل عليه.
- أن اعتزال ابن نوح عليه السلام عنه، وقصده الالتجاء إلى الجبل، وتصميمه عليه بعد أن قال له أبوه: ﴿ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (هود). يرجح مجاهرة الابن بالكفر والإصرار عليه، خلافًا لما يراه بعض المفسرين من أنه ليس بنص في الإصرار على الكفر.
- أن قول نوح عليه السلام لابنه: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ واضح في أن الابن كان مجاهرًا بالكفر، والقول بأنه لا يدل على أنه كافر عنده، بل هو نهي عن الدخول في غمارهم - قول ضعيف.

لو كان نوح يعتقد إيمان ابنه لقال وهو يسأل ربه نجاته: رب إن ابني مؤمنًا، والله قد أعلمه بنجاة المؤمنين من أهله ومن غيرهم في ضمن الأمر بحملهم في قوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾ ﴾ (هود)، ولو كان ابنه منافقًا لقال له الله: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾ (هود: ٤٦) إنه منافق - بدل: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ وبهذا ظهر ضعف القول: إن ابن نوح عليه السلام كان منافقًا، وثبت رجحان أنه كان كافرًا، مجاهرًا بكفره.

الوجه الثاني: سؤال نوح ربه نجاة ابنه لأنه من أهله: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾ (هود: ٤٥)،

يفيد أن المبرر لنوح عليه السلام في سؤال نجاة ابنه الكافر هو: أنه من أهله، وقد وعده ربه إنجاء أهله، فهو يستنجز وعد الله بذلك.

ويُعْتذر لنوح عليه السلام بأنه أخذ بظاهر لفظ الأهل من غير نظر لحقيقته، وفُهِم أنه يشمل الابن الكافر، فكان ما وقع منه خطأ في الاجتهاد، وأن أهل المؤمن من كانوا مؤمنين، أما الكافر منهم فليس بأهل ولا قريب للمؤمن، والكفر يقطع القرابة القريبة.

وهذا القول مستبعد جدًّا؛ إذ كيف يغيب هذا عن نوح عليه السلام ويطلب نجاة ابنه الكافر، وقد نهاه الله عن طلب رفع العذاب عن الكافرين: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ (٣٧)﴾ (هود)، وأمره أن يحمل معه في السفينة من كل زوجين اثنين وأهله إلا من سبق عليه القول ومن آمن: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ (٤٠)﴾ (هود).

وذلك واضح في أن من سبق عليه القول بالكفر لا يُحمل في السفينة، ولا يحق لنوح عليه السلام أن يطلب نجاته، ابنًا كان أو غير ابن.

الوجه الثالث: سؤال نوح عليه السلام ربه نجاة ابنه كان بشرط الإيمان، وقد ذكره الفَخْر الرّازِي بقوله: لا نسلِّم أنه دعا لابنه مطلقًا. بل بشرط الإيمان وهذا القول هو الأرجح عندنا. على هذا الرأي الثاني القائل بأن سؤال نوح عليه السلام كان قبل الغرق؛ وذلك لأن الله تعالى نهى نوحًا عليه السلام أن يسأله نجاة الكافرين في قوله: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ (٣٧)﴾ (هود) بعد أن سأل نوح عليه السلام ربه أن يهلك الكافرين جميعًا بقوله: ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا (٢٦)﴾ (نوح)، واللائق بنوح عليه السلام ألاّ يخالف هذا النهي الصريح، ويكون معنى قوله: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾ أسلم واركب معنا، وممن فسر بهذا النّسَفِي، وابن كثير الذي قال: وقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾ هذا هو الابن الرابع واسمه يام، وكان كافرًا، دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يؤمن ولا يغرق مثلما يغرق الكافرون.

وهذا المعنى هو المناسب، إذ لا يليق بنوح أن يدعو ابنه للركوب مع كفره المستمر، ويكون المقصود من قوله: ﴿ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ طلب هدايته للإيمان ونجاته، فكأنه قال: رب إن ابني من أهلي فاهْدِه للإيمان ونَجِّهِ، فالإنسان يحب الخير لأهله، ولا خير أحسن من الهداية والنجاة، وقد وعدتني إنجاء أهلي، ومن آمن، وعلى هذا يكون معنى ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾ إنه ليس من أهلك الذين يؤمنون، فيستحقون النجاة؛ لأنه كفر كفرًا مستمرًا لا ينتهي حتى يهلك، لِسَبْقِ القول عليه بذلك، ويكون النهي المتوجّه إلى نوح عليه السلام في قوله: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ﴾ لتحذيره من طلب الهداية والنجاة لابنه في هذا الوقت، فلن يجاب له هذا المطلب؛ حيث إن الابن ممن سبق عليه القول بعدم الإيمان في علم الله، ونوح عليه السلام لا يعلم بذلك، فنهاه الله أن يسأل إيمان ونجاة من لا يعلم، إن كان ممن سبق عليه القول أنه لا يؤمن، أو كان ممن يمكن إيمانهم[1].

---

١. عصمة الأنبياء، د. الحديدي، مرجع سابق، ص٢٦٥: ٢٧٠.

وبهذا يتبين أن سؤال نوح عليه السلام ربه أن ينجي ابنه ليس فيه أي مخالفة تقدح في عصمته بل هو أمر مشروع، سواء كان هذا السؤال قبل الغرق أم بعده كما بينًا.

الخلاصة:

لقد سأل نوح عليه السلام ربه تعالى أن ينجي ابنه، وهذا الأمر من حيث زمنه لا يخلو من حالين:

- أن ذلك بعد الغرق فيكون السؤال حينئذ إما: سؤال استعلام وكشف عن حال ولده الذي غرق، أو هو دعاء بالمغفرة، ولا سيما وأن صيغة الكلام "إن ابني من أهلي وأنت أحكم الحاكمين" تحتمل كلا الوجهين، فليست صريحة في النص على أيها.
- أن ذلك قبل الغرق؛ فيكون السؤال هنا دعاء من نوح عليه السلام إلى الله تعالى أن يهدي ابنه للإيمان حتى تُحقَّق له النجاةُ مع المؤمنين، وهذا ما عناه بعضهم بقولهم: إن سؤال نوح عليه السلام ربه نجاة ابنه كان بشرط الإيمان.

وعلى كلا الرأيين يكون السؤال مشروعًا وليس فيه أي مخالفة أو معصية تقدح في عصمة نبي الله نوح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

الشبهة الثانية عشرة

الزعم أن نوحًا عليه السلام لم يؤمن به أحد من قومه(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن نوحًا عليه السلام لم يؤمن به أحد من قومه مستدلين على ذلك بقوله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ (الصافات) فلو آمن معه أحد من قومه غير أهله لنجا وبقيت له ذرية مثل نوح عليه السلام، ويستأنسون لذلك بما ورد في العهد القديم من أن نوحًا لم يدخل معه في السفينة إلا امرأته وأولاده ونساء أولاده وهم ليسوا سِفْلَةً[1] وهذا يتصادم مع قوله عز وجل: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ (هود: ٢٧) الذي يُفهم منه أن نوحًا عليه السلام كان له أتباع من قومه غير أهله، وأنهم كانوا من ضعفاء القوم. ويهدفون من وراء ذلك إلى إنكار حقائق قرآنية وردت عن قصة نوح عليه السلام، كما يرمون إلى ضرب القرآن بعضه ببعض.

وجوه إبطال الشبهة:

١) أرسل الله عز وجل نوحًا عليه السلام إلى قومه؛ لهدايتهم، فمنهم من آمن به، ومنهم من كفر.

٢) لم يصف القرآن الكريم أتباع نوح عليه السلام بأنهم أراذل، ولكن الكافرين هم الذين وصفوهم بذلك.

٣) القرآن الكريم هو معيار الصدق والحق؛ لثبوت حجته، فهو حجة على الكتب المنقطعة الحجة والسند؛ لذا يجب تصديقه فيما أخبر به عن قصة نوح عليه السلام مع قومه.

٤) قول الله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ (الصافات) لا يعني أن نوحًا لم يؤمن به أحد من قومه؛ بل معناه أن البركة والتناسل جُعلت في ذرية نوح عليه السلام فبقوا وغيرهم لم يكن لهم نسل.

(*) موقع الكلمة. www.alkalema.net.

١. السِّفْلَة: الغوغاء وقليلو القَدْر.

التفصيل:

أولا. أرسل الله ﷻ نوحًا عليه السلام إلى قومه؛ لهدايتهم، فمنهم من آمن به، ومنهم من كفر:

أرسل الله ﷻ نوحًا عليه السلام إلى قومه؛ ليدعوهم إلى عبادة الله، فلما بلّغ رسالة ربه ونصحهم، أعرضوا عن دعوته، ورفضوا نصيحته، وزعموا أنه لا يستحق أن يكون رسولًا إليهم؛ لأنه بشر مثلهم، ولأن متّبعيه هم الضعفاء والفقراء: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (هود)[1]. وأن الله لو شاء إرسال رسول إليهم؛ لأنزل ملكًا من الملائكة، كما زعموا ـ كذبًا ـ أن الذي دعا نوحًا عليه السلام إلى هذا هو رغبته في أن يتفضل عليهم، ويكونوا أتباعًا له، ولكن نوحًا عليه السلام لم يَثْنِه[2] تكذيب قومه إياه عن الاستمرار في دعوته، فواصل تأدية الرسالة، ولبث فيهم تسعمائة وخمسين عامًا، لا يَكَلُّ، ولا يَمَلُّ من دعوتهم، حتى أهلكهم الله بالطوفان، قال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (العنكبوت). ولكن لم يزدهم ذلك إلا فرارًا من دعوته، فأوحى الله تعالى إليه أنه لن يؤمن من قومه إلا من آمن ـ وهم قليل ـ وعند ذلك أمره ـ ﷻ ـ أن يصنع السفينة؛ ليركب فيها؛ فينجو هو ومن آمن، ونهاه أن يطلب منه نجاة أحد من الذين كفروا؛ لأنه قد حكم على كل الكافرين بالغرق[3]؛ قال ﷻ: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (هود).

ثانيًا. القرآن لم يصف المؤمنين أتباع نوح عليه السلام بأنهم أراذل وإنما هذا ما رماهم به الكافرون:

أما وصف المؤمنين أتباع نوح عليه السلام بأنهم "أراذل" فهو وصف أطلقه المجرمون ـ من قومه ـ الذين لم يؤمنوا به حسدًا وكيدًا لأولئك المؤمنين الذين أنعم الله تعالى عليهم بنعمة الإيمان التي حُرم منها هؤلاء الجاحدون المعاندون.

فالحقيقة أن هؤلاء المؤمنين، ليسوا هم الأراذل، بل هم الأصفياء الذين اصطفاهم الله تعالى على غيرهم بأن حبَّب إليهم الإيمان وزيّنه في قلوبهم.

وعليه، فإن كل من ركب في السفينة مع نوح عليه السلام هم الأخيار المصطفون، وليسوا الأراذل أو سفلة القوم.

ثالثًا. القرآن الكريم كلام الله ﷻ، فهو أصدق من الكتب البشريَّة المحرَّفة؛ فيجب تصديقه بما أخبر في كل شيء عن قصة نوح عليه السلام مع قومه:

لم ينف القرآن الكريم إيمان ثلة من أهل نوح ومن قومه؛ حيث يقول ﷻ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (هود). فالآية تثبت أن من أهل نوح من آمن ومنهم من كفر، ومن الذين لم يؤمنوا من أهله زوجته، فقد ضربها الله

---

١. الأَرَاذِل: السِّفْلَة والفقراء والضُّعفاء.

٢. لم يُثْنِه: لم يبعده أو يمنعه.

٣. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٥٤.

مثلًا للذين كفروا قال ﷻ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ (التحريم)، وكذلك ابنه كان من الكافرين، قال ﷻ: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ (هود)، وقال ﷻ: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ (هود). كما آمن به عدد قليل من قومه.

وقول قومه المكذبين له كما حكى عنهم القرآن الكريم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ (هود). لا ينفي إيمان بعض قومه وأهله، فالكفار بكبرهم يرون كل من آمن بنوح عليه السلام أراذل، "وأن الشرف عندهم والرفعة والرشد في نظرهم هو البقاء على الكفر، ومتى كان قول أهل الباطل حجة على أهل الحق؟!

رابعًا. ذرية نوح عليه السلام الباقية هم أهل الإيمان ومن تناسل منهم:

قال ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ (الصافات) يستدل بعض المتوهمين بهذه الآية على أن نوحًا عليه السلام لم يؤمن به أحد، وهذا خطأ؛ لأن الآية لم تنص على ذلك ولقوله ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ (هود) وإنما قيل في تفسير هذه الآية: إن نوحًا عليه السلام ظل بعد الطوفان زمنًا يعلِّم المؤمنين أمور دينهم، ويزكِّي نفوسهم بما أوحاه الله إليه من المواعظ والعبر، حتى لقي ربه ﷻ، وقد مات المؤمنون الذين كانوا معه في السفينة واحدًا بعد الآخر، ولم يتركوا من بعدهم ذرية تخلُفهم في الأرض إلا أولاد نوح عليه السلام، وهم سَام وحَام ويَافِث، فإنهم قد تركوا من خلفهم ذرية تفرقوا في الأرض وعمروها، فكان جميع أفراد البشر من نسلهم، فسام أبو العرب والعبرانيين، وحام أبو السودان والحبشة وغيرهم من الأفارقة، ويافث أبو الترك وغيرهم من العجم، وقد حفِظ الله لنوح عليه السلام ذكراه العطرة في كل أمة من العالمين؛ فكل مؤمن يذكره يسلِّم عليه تحية له وتعظيمًا لمكانته؛ فهو الأب الثاني للبشرية، وهو أول من دعا إلى الله على بصيرة، وتعرض للأذى من قومه في سبيل دعوته، وهو من أولي العزم، وأصحاب الهمم العالية والأخلاق السامية، وهو المثل الأعلى لغيره من الأنبياء والمرسلين[1].

قال ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ (الصافات)، قال الطاهر ابن عاشور: وظاهر هذا أن من آمن مع نبي الله نوح عليه السلام من غير أبنائه لم يكن لهم نسل، قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: لما خرج نوح من السفينة مات من معه من الرجال والنساء إلا وُلْده ونساءه"،

١. قصص القرآن، محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٤٨.

وبذلك يندفع التعارض بين هذه الآية وبين قوله ﷻ في سورة هود: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ۚ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠)﴾ (هود) [1].

الخلاصة:

- أرسل الله ﷻ نوحًا عليه السلام إلى قومه؛ لهدايتهم ودعوتهم إلى عبادة الله وحده فآمن به بعضهم وكفر به الأكثرون، وليس كما يدَّعي بعضهم أنه لم يؤمن به أحد من قومه.
- أثبت القرآن الكريم إيمان بعض قوم نوح عليه السلام من أهله ومن غيرهم قال ﷻ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ۚ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠)﴾.
- القرآن الكريم لم يصف أتباع نوح عليه السلام المؤمنين بأنهم أراذل، ولكن القرآن يحكي وصف الكافرين لأتباعه وكيدهم للمؤمنين، فهذا الوصف إنما جاء على لسان هؤلاء المجرمين.
- قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧)﴾ لا يعني أنه لم يؤمن بنوح عليه السلام أحد من قومه غير أهله ولكن يعني حفظ الله ﷻ لنوح عليه السلام ذكراه العطرة في كل أمة من العالمين، وكان جميع أفراد البشر من نسله عليه السلام، فهو الأب الثاني للبشرية، وهو أول من دعا إلى الله سبحانه وتعالى على بصيرة؛ لذلك فكل مؤمن يذكره يسلِّم عليه تحية له وتعظيمًا لمكانته.

الشبهة الثالثة عشرة

التشكيك في صحة قصة نوح عليه السلام في القرآن (*)

مضمون الشبهة:

يشكِّك بعض المتوهمين في قصة نوح عليه السلام التي جاء ذكرها في القرآن الكريم؛ إذ يصفونها بالاضطراب، لأنه يذكر مرة أنه نجَّى نوحًا وأهله في قوله ﷻ: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦)﴾ (الأنبياء)، ثم يذكر القرآن أن أحد أبناء نوح كان مصيره الغرق؛ وذلك في قوله ﷻ: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣)﴾ (هود).

وجه إبطال الشبهة:

ذكر القرآن الكريم أن الله تعالى نجَّى نوحًا عليه السلام ومن آمن معه من أهله وقومه استجابة لدعوته عليه السلام، وأما الكافرون فالهلاك والغرق كان مصيرهم، وإن كانوا من أهله، ولا اضطراب ولا تناقض فيما أخبر به القرآن بشأن نوح عليه السلام وقصته.

التفصيل:

لم يقل القرآن الكريم إن أهل نوح عليه السلام نجوا جميعًا،

1. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١١، ج٢٣، ص١٣١.

(*) Ebnmaryam.com .

وذِكْره في بعض الآيات أن أهله نجوا لا يتنافى مع ذكره أن بعض أهله لم ينج، قال ﷻ: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴾ (الأنبياء)، قال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴾ (الصافات)، وقال ﷻ: ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (الصافات)، قال ﷻ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (هود).

وذكر القرآن أن من الذين لم يؤمنوا به ولم يتبعوه، ابنه وزوجته قال ﷻ: ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (هود)، قال ﷻ: ﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (هود).

فالقرآن يفسر بعضه بعضًا. والمطلق فيه يحمل على المقيد فلا تناقض إذن، فأهل نوح هم المتقون الذين آمنوا به، ومن لم يؤمن به ـ ولو كان ابنه ـ لم يستحق أن يُنسب إليه قال ﷻ: ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (هود). ونسبة الإيمان تجعل من صاحبها أهلًا للنبي، وإن لم يكن بينه وبين النبي نسب.

استجاب الله ﷻ لدعوة نبيه نوح ﵇ ونجاته وأهله من الكرب العظيم:

قال ﷻ: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴾ (الأنبياء).

يخبر الله تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح ﵇ حين دعا من قبل إبراهيم ولوط ومحمد ـ عليهم أفضل الصلاة والسلام ـ أن يهلك الله قومه الذين كذبوا الله فيما توعدهم به من وعيد، وكذبوه فيما أتاهم به من الحق من عند ربه قال ﷻ: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ ﴾ (نوح). (فاستجبنا له) دعاءه (ونجيناه وأهله) يعني بأهله أهل الإيمان من ولده وحلائلهم: ﴿ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴾؛ أي: العذاب الذي حلَّ[1] بالمكذبين من الطوفان والغرق، وقال ﷻ: ﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ (الأنبياء) أي ونصرنا نوحًا ﵇ على القوم الذين كذبوا بحججنا وأدلتنا، فأنجيناه منهم فأغرقناهم أجمعين إنهم كانوا قوم سوء، أي: يسيئون الأعمال فيعصون الله ويخالفون أمره[2].

الخلاصة:

- ذكر القرآن الكريم أهل نوح ﵇ الحقيقيين وهم من آمن به، أما من انقطعت صلة الإيمان عنهم؛ فلا يستحقون أن يُنسَبوا إليه، أو أن يكونوا من أهله، قال ﷻ: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴾ (الأنبياء).

---

١. حلّ: نزل بهم.

٢. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٥٨. وانظر: قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ص٢٦: ٣٦. النبوة والأنبياء، الصابوني، مرجع سابق، ص١٣٣: ١٤٤.

وقال الله ﷻ: ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (هود). فنسبة الإيمان تجعل من صاحبها أهلًا للنبي وإن لم يكن بينه وبين النبي نسب.

- استجاب الله تعالى لدعوة نبيه نوح ؑ ونجَّاه وأهله من الكرب العظيم، ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ (الصافات)، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ (الأنبياء)، أي: ونصرنا نوحًا ؑ على القوم الذين كذبوا بحججنا وأدلتنا فأنجيناه منهم وأغرقناهم أجمعين إنهم كانوا قوم سوء فاسقين.

الشبهة الرابعة عشرة

ادِّعاء خطأ القرآن في ذكر قصة هود ؑ، التي لا وجود لها في التوراة(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن القرآن يخالف التاريخ في إيراده قصة هود ؑ، ويستدلون على ذلك بالآيات (٥٠ ـ ٥٩) من سورة هود[1]، وبما ذكره أحد المفسرين من أن قبيلة عاد عاقبها الله بإهلاكهم بالرِّيح العقيم[2] بعد إمساك المطر عنهم ثلاث سنوات. ويتساءلون: من أين أتى القرآن بهذه القصة التي لا وجود لها في التوراة؟! ألا يعد هذا مخالفًا لوقائع التاريخ والتوراة؟!

وجها إبطال الشبهة:

١) التوراة ليست مرجعًا معتمدًا لمعرفة التاريخ حتى نحاكم بها القرآن ونتخذها معيارًا للحكم على القرآن.

٢) كشفت البحوث الحديثة عن وجود قوم عاد، وعن ديارهم، وهذا دليل على أن القرآن الكريم لا يخالف حقائق التاريخ.

التفصيل:

أولا. التوراة ليست حجة، ولا معيارًا للحق:

القرآن الكريم جاء بما لم تأت به التوراة والكتب السابقة؛ ليثبت للعقلاء أن النبي ﷺ لم يتلق القرآن من أحد من البشر، كما أن القرآن الكريم ذكر الكثير والكثير من قصص السابقين التي تؤكد أن ما جاء به النبي ﷺ هو الحق والصدق قال ﷻ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ

(*) هل القرآن معصوم؟ موقع إسلاميات.
www.islameyat.com

١. الآيات هي قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَـٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾ (هود).

٢. الرِّيح العقيم: التي لا تسوم سحابًا ولا تُلقِّح شجرًا.

﴿الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ (النجم). وهذه القصة لم ترد في التوراة؛ لأن القرآن لم يتابع التوراة - المحرفة بأيدهم - في قصصه وأخباره، بل إنه صحح أخطاءها وأكمل ناقصها، ولو كان النبي ﷺ ناقلًا من التوراة لأخذ كل ما فيها دون تمييز بين حق وباطل، ولو حاول التخلص من باطلها مرة لوقع فيه مرات، فالقرآن كتاب مستقل بذاته، كما أنه مُهَيْمِن على الكتب السماوية كلها، وكذلك فإن التوراة لم تجمع وتستوعب التاريخ كله، حتى نجعلها حكمًا على ما ذكره القرآن من قصص.

كما أن التاريخ نفسه ليس حجة على القرآن الكريم؛ إذ هو من صنع البشر الذين لا يتخلصون من العاطفة في أحسن الأحوال عندما يدونون التاريخ فضلًا عن النزوات والأغراض والأهواء التي تسيطر على كتاب التاريخ وهم يسجلون وقائعه، أضف إلى ذلك عدم إحاطتهم بكل جوانب الأحداث ومختلف الظواهر التي يرصدونها، فإنهم لا يرصدون إلا ما يتراءى لهم، وأعظم من ذلك كله أن أيدي البشر لا تنفك عن العبث في أحداث التاريخ ووقائعه وتغييره بما يوافق مصالحهم وأغراضهم حتى في التاريخ المعاصر والحديث، وكم من أحداث تُزَيَّفُ حقائقها، وكم من وقائع تُغيَّر معالمها. وإذا كان البشر قد امتدت أيديهم إلى الكتب المقدسة فحرفوها فهل سيَتَوَرَّعون[1] عن العبث بحقائق التاريخ الذي لا قداسة له وهذا لا يعني أن كل أحداث التاريخ أو التوراة مزيفة غير أن هذا يؤكد أن القرآن الكريم هو الحق، وما عداه يؤخذ منه ويرد، وكم من آثار وأحداث ماضية ذكرها القرآن الكريم؛ ليبين بها صدق النبي ﷺ فيما جاء به؛ لأن القصص القرآني ليس تأريخًا للبشرية على النمط الذي يسلكه علماء التاريخ والسير في تتابع الأحداث وتسلسلها، وتحليلها وتعليلها في أزمانها وأماكنها المختلفة، ولكنه قصص مختار من التاريخ بالقدر الذي يخدم الدعوة إلى الله ﷻ، ويفتح للناس أبوابًا واسعة للتأمل والنظر، والعظة والاعتبار. قال ﷻ: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾ (فصلت).

ثانيًا. البحوث الحديثة كشفت عن وجود آثار قوم عاد:

كشفت البحوث الحديثة اليوم عن وجود آثار قوم عاد، وديارهم التي وصفها الله ﷻ بقوله: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨﴾ (الفجر)[2]، ويقول د. زغلول النجار: كان علماء التاريخ يشككون في حقيقة قوم عاد؛ لأنهم لم يجدوا لها أثرًا على الإطلاق، وفي رحلة من رحلات الفضاء زودوا المكُّوك بجهاز رادار له قدرة اختراق كبيرة، فصوّر مجرى نهرين، وأنهما يصبان في بحيرة قطرها يزيد على أربعين كيلو مترًا في جنوب شرق الربع الخالي، وصوّر المكوك بين مصبي النهرين وعلى ضفاف البحيرة عمرانًا لا تعرف البشرية له نظيرًا في ضخامته، فجمعوا علماء التاريخ، وعلماء الآثار، وعلماء الأديان، وقالوا: ماذا يمكن أن يكون هذا العمران، فأجمعوا على أنه قصور إرم التي وصفها القرآن الكريم، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨﴾ (الفجر) فقالوا

---

١. سيَتَوَرَّعون: سيَتَحَرَّجون.

٢. إِرَم: لقب القبيلة. العِماد: صاحبة القوة.

في تقريرهم: إن البشرية لم تعرف في تاريخها الطويل عمرانًا في ضخامة هذا العمران، واكتشفوا - حينما بدءوا في إزالة الرمال عن هذه المدينة - قلعة ثمانيّة الأضلاع على أسوار المدينة، مقامة على أعمدة ضخمة عديدة، وذكر التقرير أن هذه الحضارة التي لم يكن ينافسها في زمانها حضارة أخرى طَمَرتها[1] عاصفة رملية غير عادية، وقد سبق القرآن هذه الاكتشافات بأكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان، فقال ﷻ: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) ﴾ (الذاريات). ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) ﴾ (فصلت).

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) ﴾ (القمر)، فما ذكرته الأبحاث ما هو إلا تحصيل حاصل في تصديق كتاب الله ﷻ في كل ما جاء به، وكذلك فإنه أسطع برهان لهؤلاء المنكرين حتي يرجعوا عن أفكارهم وكذبهم، وسيبقى القرآن كتاب الله المعجز في الكون، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) ﴾ (فصلت).

الخلاصة:

- إن القرآن الكريم كلام الله المعجز، ومن إعجازه أنه يتحدث عن الأخبار السالفة ويبينها للناس، فهو منهج تربوي حكيم ليس له نظير؛ فلا يستطيع أحد أن يشكك في شيء مما جاء به؛ لأن الله تبارك وتعالى تولّى حفظه، قال تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ (الحجر).
- أما التوراة فقد حرَّفها أصحابها، حتى توافق أهواءهم وشهواتهم، ثم بعد ذلك يريدون أن يجعلوها حكمًا على ما جاء في القرآن الكريم.
- أثبتت الدراسات الحديثة ما جاء به القرآن؛ حيث أثبتت البحوث الحديثة وجود قوم عاد، وظهرت ديارهم لتصدق القرآن فظهر الحق جليًّا، وبطل ما يدعون قال ﷻ: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) ﴾ (فصلت).

الشبهة الخامسة عشرة

ادعاء أن ناقة صالح عليه السلام خرافة تتنافى مع العقل(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن ناقة صالح عليه السلام خرافة غير معقولة؛ فليس من العقل أن تلد الصخرة ناقة تشرب كل ماء البئر ليوم كامل، ثم تسقي كل أهل المدينة من لبنها، ويرمون من وراء ذلك إلى التشكيك في معجزة صالح وإنكار نبوته عليه السلام.

وجوه إبطال الشبهة:

١) ناقة صالح عليه السلام معجزة إلهية، والله ﷻ يؤيد رسله بالمعجزات، فَلِمَ العجب والمؤيِّدُ هو الله ﷻ؟

---

١. طَمَر: ستر.

(*) موقع الكلمة. www.alkalema.net.

٢) المعجزة أمر خارق للعادة، وهذا ما حدث في قصة الناقة، وهي كغيرها من معجزات الأنبياء، مثل إحياء الموتى وخلق الطائر الناتج عن النفخ فيه، وهما معجزتان لعيسى عليه السلام، ومثل تفجير الحجر عيونًا وفلق البحر، وهما معجزتان لموسى عليه السلام.

٣) التشكيك في معجزة صالح عليه السلام التي أيده الله بها مرده القصور في عقول المنكرين، ولو نظروا في الكون لأبصروا العجب العجاب، والتقدم العلمي الحديث خير دليل على قدرة الله تعالى.

التفصيل:

أولا. الناقة معجزة إلهية، والله يؤيد رسله بالمعجزات، فمن أين العجب والمؤيد هو الله عز وجل؟

إن الله عز وجل يؤيد رسله بالمعجزة؛ فالرسل مبعوثون من قِبلِهِ تعالى إلى الناس، ودعواهم النبوة ليست دعاوى معتادة؛ لأن رسالتهم أتت من مصدر سماوِي، وليس من مصدر أرضي معتاد؛ لذا كان لا بد من معجزة تؤيدهم فيما يقولون، وتدل على صدقهم؛ فأيدهم الله عز وجل بهذه المعجزات؛ لتكون برهانًا واضحًا على صدقهم، وحتى لا يجد الجاحد سبيلًا إلا الإيمان قال عز وجل: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (الحج).

ومن هنا عَرَّف العلماء المعجزة: بأنها أمر خارق للعادة، يظهره الله على يد من اصطفاه تصديقًا له في دعوته، ولما كانت المعجزة فعلًا من أفعال الله عز وجل فأي استحالة في وقوعها؟ إن وقوع المعجزة ليس أعجب من خلق السماوات والأرض وما فيها، وليس بأعجب من خلق الحياة المتجددة كل يوم.

وأي عجب في أن تخرج ناقة من صخرة على سبيل خرق العادة، ونحن نرى الكائنات الحية كالديدان تخرج من موات؟ ألا يقلب المرء صخرة أو يشق تمرة أو يقطع عودًا من أعواد النبات، أو يضرب الأرض بفأس أو يشقها بمجراف فيجد في داخل هذه الأشياء ديدانًا، وكائنات حية تخلقت من داخلها، ولم تأت في بدء أمرها من زوجين اثنين؟ إن الذي أوجد هذه الكائنات الحية الدقيقة في هذه الجمادات والنباتات، هو الذي يوجد كائنًا حيًّا من صخرة، وليس في قدرته كبير وصغير، ومعلوم لدى العلماء أن الإعجاز والدقة في الكائن الصغير، لا تقل درجته عن الإعجاز والدقة في الكائن الكبير.

ومتى كان الشيء الغريب المخالف للمألوف مَدْعَاةً للحكم عليه بالاستحالة العقلية؟ إننا لو سلَّمنا بهذا؛ لحكمنا بالاستحالة العقلية على ما لم نألفه، بل لما ثبت شيء في الوجود أصلًا!!، إذ كل واحد منا يعتاد أشياء لا يعتادها ولا يألفها الآخرون، وهكذا ينتهي بنا إنكار غير المألوف إلى إنكار كل شيء، فوجب علينا أن نثق ونؤمن بقصة الناقة؛ لأنها من فعل الله عز وجل.

ثانيًا. الناقة معجزة الله تعالى لنبي الله صالح عليه السلام جاءت آية على صدق نبوته:

إن الله يؤيد أنبياءه بالبينات، والبينة هي: الدليل على الصدق في البلاغ عن الله تعالى، كما أنه عز وجل يؤيدهم بالمعجزات والمعجزة هي الأمر الخارق للعادة.

والله قد أيَّد صالحًا عليه السلام بالناقة؛ فحين قام سيدنا صالح عليه السلام بدعوته، تحداه السادة من قومه، وقالوا:

نقف نحن وأنت، نستنجد نحن بآلهتنا، وأنت تستنجد بإلهك، فإن غلبت آلهتنا تتبعنا، وإن غلب إلهك نتبعك، وجلسوا يدعون آلهتهم، فلم يحدث شيء من تلك الآلهة، وهنا قالوا لسيدنا صالح: إن كنت صادقًا في دعوتك، فهذه صخرة منفردة أمامك في الجبل، اسمها "الكَاثِبة" فليُخْرِج ربك لنا من هذه الصخرة ناقة عَشْرَاء كالبُخْت ـ أحسن أنواع الإبل ـ فدعا الله ﷻ، وانشقت الصخرة عن الناقة، وخروج الناقة من الصخرة لا يدع مجالًا للشك في أنها آية من الله ظهرت أمامهم.

إنها البينة الواضحة لقد انشقت الصخرة عن الناقة، ووجدوها ناقة عشراء، وبرَاء ـ أي كثيرة الوَبَر ـ يتحرك جنينها بين جنبيها، ثم أَخَذَها المخاض، فولدت فصيلًا، وهكذا تتأكد الآية بدون أن يجرؤ أحد على التشكيك فيها[1].

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ (الأعراف). وهي كغيرها من معجزات الأنبياء، مثل: إحياء الموتى، وخَلْق الطائر الناتج عن النفخ فيه وهما معجزتان لعيسى ﷺ، ومثل: تفجير الحجر عيونًا، وفَلْق البحر وهما معجزتان لموسى ﷺ، وغير ذلك من معجزات الرسل، وإذا كان النصارى قد اغترّوا بما أجرى الله على يد عيسى ﷺ من معجزات، وبالغوا في ذلك حتى جعلوه إلهًا بسببها، فَلِمَ ينكرِونها في حق نبي الله صالح ﷺ، وهو رسول ـ مثل عيسى ﷺ ـ صدَّقه الله بمعجزة الناقة؟!

وهل يُقبل من كل أحد إنكاره ـ بلا دليل ـ معجزةً من المعجزات أو كرامة من الكرامات، ويقول: إنها خرافة من الخرافات، لا لشيء إلا لأنها استحالت في عقله القاصر؟

ثالثًا. التشكيك في معجزة صالح ﷺ ناتج عن ضيق أفق هؤلاء المنكرين، وعجزهم عن إدراك الأمور على حقيقتها:

فلو نظروا في الكون لوجدوا أشياء كثيرة كنا نُعُدُّها مستحيلة ولكنها الآن متاحة، وهذا من فعل البشر، وهم عاجزون، فما بالك بفعل الله ﷻ القادر العلي المتعال.

إننا نرى اليوم أجهزة تتحدث، ولو كان هذا في زمن السابقين لحكموا على ما يرونه أمامهم بأنّه ضرب من السحر.

ولا سبيل إلى إنكار معجزة صالح ﷺ؛ لأن ما يثبت من معجزات الأنبياء كمعجزة عيسى ﷺ يثبت لمعجزة صالح ﷺ وغيره من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ أجمعين، فإذا كان هناك من يشكّك في معجزة الناقة، ويؤمن بمعجزة إحياء الموتى لعيسى ﷺ، فإن هذا مما يتنافى مع العقل السليم ويدخل في باب الإيمان بالهوى قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ (البقرة: ٨٥).

الخلاصة:

- إن معجزة الناقة كانت تأييدًا من الله ﷻ لنبيه

---

1. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج٧، ص٤٢١٧، ٤٢١٨.

صالح عليه السلام، فكيف يكون العجب، والصانع هو الله عز وجل؟ أليس الله بقادر على كل شيء؟! وهو الذي خلق السماوات والأرض والجبال والأنهار، فمن ينكر خلق الناقة ـ وهي من فعل الله عز وجل ـ، فهل يستطيع أن ينكر باقي أفعاله تبارك وتعالى؟ إنه في هذه الحالة سينكر وجودَ نفسَه ولن يستطيع، فتثبت المعجزة لصالح عليه السلام؛ لأنها فعلٌ من أفعال الله تعالى، وقوعها ليس بأعجب من خلق السماوات والأرض وما فيها، وليس بأعجب من خلق الإنسان، كما أنه سبحانه هو الذي خلق أول ناقة، أليس بقادر على إخراج ناقة من الصخرة؟

- هل يقبل قول كل من ينكر شيئًا ـ بغير دليل ـ لمجرد الإنكار والحكم بالخرافة؟ ولو كان ذلك مقبولًا؛ لأدخلَنا في نفق مظلم من الخرافات التي لا نهاية لها. ولكننا نُذكِّر هؤلاء المنكرين بمقولة هي: إذا كنت مدّعيًا فأين الدليل، وإلا فكلامك محض افتراء لا فائدة منه.

- إن التطور العلمي في شتى المجالات، في عصرنا الحاضر ولا سيما في وسائل المواصلات والاتصالات لحَرِي بأن يذهب بالألباب، وتُنكره العقول لو كان في زمان الأولين، الذين لم يعهدوا مثل هذا قط، ولا خطر على بالهم طرفة عين، وليس ذلك إلا لقصور عقولهم عن تقدُّم البشر، فما بالنا بفعل الله عز وجل الذي خلق هؤلاء البشر؟!!

الشبهة السادسة عشرة

ادِّعاء وقوع إبراهيم عليه السلام في الشرك(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن سيدنا إبراهيم عليه السلام عبد الكواكب والقمر والشمس، ويستدلون على ذلك بقول الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨)﴾ (الأنعام).[1] كما يستدلون على وقوعه في الشرك أيضًا بأنه نظر في النجوم ليتعرف على حاله وما يحدث له، وذلك لقوله عز وجل: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩)﴾ (الصافات). ويتساءلون: كيف يغفر الله هذا الشرك، مع أنه سبحانه قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨)﴾ (النساء). ويرمون من وراء ذلك الادعاء إلى الطعن في عصمة سيدنا إبراهيم عليه السلام.

وجوه إبطال الشبهة:

١) قول إبراهيم عليه السلام: (هذا ربِّي) على كل من: الشمس، والقمر، والكواكب من باب النظر والاستدلال ومحاجّة قومه، وليس من باب الإقرار بعبوديتها. وقيل: إنه كان مناظر، ولم يكن ناظرًا.

(*) موقع المتنصرين. mutenusserin.net

١. جنَّ: أظلم.

٢) لم يقع شرك من إبراهيم عليه السلام، وإنما استخدم ما يسمى في الجدل بـ "مُجاراة الخصم" للوصول إلى الإقناع بالصواب.

٣) نظرُ إبراهيم عليه السلام في السماء كان للتفكر والتدبر وليس اعتقادًا منه في تأثير أوضاع النجوم في حاله وما يحدث له؛ إذ كيف ينهاهم عن الشرك ثم يقع فيه؟!

التفصيل:

أولا. قول إبراهيم عليه السلام: (هَـٰذَا رَبِّي) على كل من: الشمس، والقمر، والكواكب من باب النظر والاستدلال ومحاجّة قومه، وليس من باب الإقرار بعبوديتها:

إن الله تعالى اصطفى سيدنا إبراهيم عليه السلام وآتاه رُشْدَه[1] قبل أن يبعثه فكان حنيفًا مسلمًا مخلصًا لله رب العالمين، وبدأ دعوته مع قومه بالحكمة والموعظة الحسنة فبين لهم مدى الضلال والفساد العقلي، حين يعبد الإنسان أصنامًا لا تضر ولا تنفع، وأن المستحق للعبادة وحده هو الله الخالق المتفضل عليهم بسائر النعم، واتخذ معهم طرقًا كثيرة في سبيل إقناعهم بالعقل والحجة والمنطق والبرهان، وكان من بين هذه الطرق تلك المحاجة التي استخدم فيها أسلوبًا من أساليب المناظرة في الاستدلال على قوله وإلزامهم الحجة.

ويبدو أن إبراهيم عليه السلام كان سائرًا مع فريق من قومه يشاهدون الكواكب، وكان قوم إبراهيم عليه السلام من الصابئة الذين يعبدون الكواكب، ويصورون لها أصنامًا، وكانت تلك ديانة الكلدانيين قوم إبراهيم عليه السلام، فرأى كوكبًا ظاهرًا بإشراقه عن سائر الكواكب، فأراد أن ينتهز تلك الفرصة السانحة في الاستدلال على بطلان عبادة الأصنام أمام قومه بالدليل العلمي المنطقي من الواقع، فقال على سبيل الفرض جريًا على معتقد قومه ليصل بهم إلى نقض اعتقادهم: ﴿هَـٰذَا رَبِّي﴾، فأظهر أنه موافق لهم ليهَشُّوا[2] إلى ذلك، ثم يكرُّ عليهم بالإبطال إظهارًا للإنصاف وطلب الحق، ولا يريبك في هذا صدور ما ظاهره كفر على لسانه عليه السلام؛ لأنه لما رأى أن ذلك طريق إلى إرشاد قومه وإنقاذهم من الكفر، واجتهد فرآه أرجى للقبول عندهم، ساغ له التصريح به لقصد الوصول إلى الحق وهو لا يعتقده، ولا يزيد قوله هذا قومه كفرًا، كالذي يُكره على أن يقول كلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان؛ فإنه إذا جاز ذلك لحفظ نفس واحدة وإنقاذها من الهلاك كان جوازه لإنقاذ فريق من الناس من الهلاك في الدنيا والآخرة أولى، وقد يكون فعل ذلك بإذن من الله تعالى بالوحي[3].

والدليل على ذلك أن الله تعالى وصفه قبل هذه الآية مباشرة بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ (الأنعام) والموقن هو العالم علمًا لا يقبل الشك، والمراد الإيقان في معرفة الله تعالى وصفاته، وقوله: ﴿نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ فهذه الرؤية الخاصة التي اهتدى بها إلى طريق عجيب في إبْكاته[4] لقومه مُلجئ إياهم للاعتراف بفساد معتقدهم هي فرع من تلك الإرادة التي عمّت ملكوت السموات

١. الرُّشْد: تمام العقل.

٢. يَهَشُّ: ينشرح صدره.

٣. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٤، ج٧، ص٢١٩، ٢٢٠.

٤. إبْكاته: تقريعه وتوبيخه.

والأرض[1].

فإبراهيم لم يقل ذلك إخبارًا، وإنما قاله فرضًا واستدراجًا لقومه ليُظهِر لهم الحقيقة، حتى أوصلهم لفساد هذا الفرض قال: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ (الأنعام)، ويفصِّل د. الحديدي القول في هذه القضية مختارًا هذا الرأي من آراء العلماء لأدلة منها[2]:

الأول: أن القول بربوبية الكواكب كفر، والكفر غير جائز على الأنبياء بالإجماع. قال الخطيب الشربيني: لا يجوز أن يكون لله تعالى رسول يأتي عليه وقت من الأوقات إلا وهو له موحد، وبه عارف، ومن كل معبود سواه بريء.

الثاني: أن الله تعالى أخبر عنه قبل هذه الواقعة أنه قال لأبيه آزر: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ (الأنعام)؛ فهذا يدل على أن الخليل إبراهيم عليه السلام قد عرف ربه قبل هذه الواقعة.

الثالث: أنه دعا أباه إلى التوحيد، وترك عبادة الأصنام برفق، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ (مريم).

وفي هذه الواقعة دعاه إلى هذا بالكلام الحسن، والرفق يُقدَّم عادة على العنف؛ فدل هذا على أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن دعا أباه إلى التوحيد مرارًا، وهو لا يدعو غيره إلى الله إلا إذا كان عارفًا به، فثبت أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن عرف ربه بمدة.

الرابع: أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن أراه الله ملكوت السموات والأرض، وقد أكسبته تلك الرؤية يقينًا؛ قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ (الأنعام)، أي: ليكون بسبب تلك الإراءة من الموقنين، ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ (الأنعام)، والفاء تقتضي الترتيب؛ فدل هذا على أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن صار إبراهيم عليه السلام من الموقنين العارفين بربهم.

الخامس: النص في أكثر من موضع في القرآن الكريم على أن هذه المحاجة كانت مع قومه، وذلك يتضح من قوله لهم: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾ (الأنعام)، وفي قوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ (الأنعام)، في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ (الأنعام)، فهذا يدل على أنه كان في هذا المقام مناظرًا لقومه فيما كانوا عليه من الشرك، وليس متأملا أو متحيرًا.

---

1. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، ص٣١٧.
2. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٧٠: ٢٧٦.

السادس: إخبار الله تبارك وتعالى عنه بأنه آتاه رشده من قبل، وكان عالمًا باستحقاقه الرسالة لتجنبه الشرك وسوء الفِعال[1]، وقبيح الصفات، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ (الأنبياء) [2]، وقال عنه أيضًا: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ (الصافات) [3]، أي: لم يشرك قطُّ - كما قال القرطبي.

وقال تعالى عنه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ (النحل).

فهذه الأدلة على أن إبراهيم عليه السلام كان في هذا المقام مناظرًا قومه، ومعنى هذا أن قول الخليل عن كل من الكواكب والقمر والشمس: "هذا ربي" ليس عن اعتقاد؛ لأنه من قبيل استدراج الخصم بإظهار موافقته؛ ليسمع الحجة، ويتم إلزامه؛ فإنك عندما ترى الخصم عنيدًا لا يسمع لقولك ودليلك لو صرّحت بمقصودك يكون من الأوفق - لتصل إلى هدفك - أن تتكلم بما يوهم في الظاهر أنك توافقه على مذهبه - وأنت تخالفه باطنًا - لكنك فعلت هذا استدراجًا له؛ حتى يأنس إليك، ويستمع لقولك، وحجتك التي تتمكن بها من إبطال مذهبه، وقول الخليل عليه السلام: "هذا ربي" من هذا القبيل، فإنه أراد أن يُبطل قولهم بربوبية الكواكب، إلا أنه كان قد عرف - من تقليدهم لأسلافهم وبُعد طباعهم عن قبول الحق - أنه لو صرَّح بالدعوة إلى الله تعالى لم يقبلوا ولم يلتفتوا إلى ما يقول؛ فمال إلى طريقة تُقبِل بهم إليه، وعمد إلى أسلوب يستدرجهم إلى استماع الحجة، وذلك بأن يتكلم بما يوهم أنه موافق لهم وعلى منهجهم - مع أن قلبه مطمئن بالإيمان - ومقصوده من ذلك أن يتمكن من إقامة الدليل على إبطال معتقدهم.

ومعلوم أثر أسلوب الاستدراج في انقياد الخصم، وتعريفه خطأه، وقوم إبراهيم عليه السلام على خطأ فاحش، وضلال مبين، ولا يقبلون المصارحة بخطئهم وضلالهم؛ فلا مناص من اللجوء إلى أسلوب الاستدراج؛ فإنه الأسلوب الأمثل - حينئذ - في تسكين الخصم، وانتزاع عناده، حتى إذا سَلِس[4] قياده، وأنس إلى من يحاجه، واستمع إلى قوله أمكن إقامة الدليل على بطلان مذهبه ومعتقده؛ فيتم المراد من إبطال باطله، وإظهار الحق الذي يلزمه.

ومحاجة الخليل عليه السلام لقومه المعاندين لا تستغني عن هذا الأسلوب، ولا يجُدي معهم غيره، وكما قال العلامة أبو السعود: لو صدع إبراهيم عليه السلام بالحق من أول الأمر لتمادوا في المكابرة، والعناد، ولَجُّوا في طغيانهم يعمهون[5][6].

١. سوء الفِعال: الأفعال السيئة.

٢. عاكفون: مُقْبِلون على عبادتها.

٣. قَلْب سليم: خالٍ من العيوب، خالص من الذنوب.

٤. سَلِس: لان وسهل وانقاد.

٥. لَجُّوا في طغيانهم يعمهون: تمادوا في ضلالهم يتحيَّرون.

٦. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٧٣: ٢٧٦.

ثانيًا. لم يقع من إبراهيم شرك، وإنما هو مُجاراة للخَصْم [1] للاستدلال عليه:

فلو أن إبراهيم عليه السلام بادرهم بالنقد والتقريع والتأنيب لما اهتموا به ولا سمعوا له، بل أعرضوا عنه، لكن إبراهيم عليه السلام استخدم ما يسمى في الجدل بـ"مجاراة الخصم"؛ ليَسْتَمِيل[2] آذانهم ويأخذ قلوبهم معه، وليعلموا أنه غير متحامل عليهم من أول الأمر فيأخذ بأيديهم معه، فكأنه قال: سلّمنا ـ جدلًا ـ أنه ربكم، ولكنه يأفل ويغيب عنكم فقوله: ﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ (الأنعام) يعني أنه غير متعصب ضدهم، وهكذا يثبت لهم أن كل كوكب ـ حتى الشمس ـ مصيره إلى أفول، فكأنه قد وصل بهم بالمنطق إلى أن عبادة الكواكب لا تصلح، واستخدم المنطق الذي يحقق به نيته أن ينكر هذه الربوبية ويستأنس به آذان من يسمعه"[3].

والقرآن يؤكد حنيفية إبراهيم عليه السلام وإسلامه، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (آل عمران)، والحنيف: هو المائل عن كل باطل إلى الحق. والله عز وجل يخبر عن نبيه وخليله إبراهيم عليه السلام أنه آتاه رشده من قبل؛ أي: من صغره ألهمه تعالى الحق والحجة على قومه، كما قال عز وجل: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾ (الأنعام). والمقصود هنا: أن الله عز وجل أخبر أنه آتى نبيه إبراهيم رشده من قبل؛ أي: من قبل ذلك، وقال عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ (الأنبياء)؛ أي: أنه أهّله لذلك.

فإذا كان الله عز وجل آتاه رشده منذ الصغر، وأهّله من بواكير حياته لحمل الرسالة، وإقامة الحجة على بطلان الشرك بكل صوره، فهل يتفق مع ذلك وصفه بالشرك، وهو الذي أُوتي الحجة والرشد على بطلان الشرك منذ الصغر؟!

والله عز وجل ذكر الآيات التي استدلوا بها على شرك إبراهيم عليه السلام خطأً، وذكر قبلها وبعدها ما يُبرئ ساحة إبراهيم عليه السلام من الشرك، ويجعلنا نجزم أنه أراد بقول: "هذا ربي" الاستدراج للخصم لإبطال زعمه الفاسد.

فقبل هذه الآيات يقول الله: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (الأنعام)، وبعد هذه الآيات يقول تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾ (الأنعام). فكيف ينكر إبراهيم على أبيه الشرك ويقع فيه[4]؟!

---

١. مُجاراة الخَصْم: طريقة جَدَليَّة يستخدمها المناظر لإبطال حُجَّة خصمه؛ وذلك بإظهار موافقته على قوله استدراجًا له ليسلم بالحق بعد ذلك.

٢. يَسْتَمِيل: يستعطف.

٣. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج٦، ص٣٧٥٠.

٤. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٧٥، ٢٧٦.

ثالثًا. نظرُ إبراهيم عليه السلام في السماء للتفكر والتدبر ولم يكن اعتقادًا منه بتأثير أوضاع النجوم في حاله وما يحدث له؛ إذ كيف ينهاهم عن الشرك ثم يقع فيه؟!

إن نظر إبراهيم عليه السلام في النجوم لم يكن ليتعرف حاله من تأثيرها وإنما للتفكّر والتدبّر فيها، وهذا طاعة لله تعالى، قال ﷻ: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (يونس: ١٠١). بالإضافة إلى أنه في هذا الوقت خاصةً كان ينظر في النجوم تفكُّرًا فيما يُلهَم به.

وفيما يعتذر به عن الخروج معهم، قال النسفي: نظر في النجوم راميًا بصره إلى السماء متفكرًا في نفسه كيف يحتال.

وقد ذكر بعضهم أن إبراهيم عليه السلام نظر في النجوم ليوهم قومه بهذا النظر ـ بطريق التعريض ـ أنه ينظر فيها ليتعرف حاله من تأثيرها على حسب زعمهم واعتقادهم بتأثير أوضاع النجوم في أحوالهم، وما يحدث لهم؛ لكي يتوصل بذلك إلى مقصده من الانفراد بالأصنام وتكسيرها، وهذا وإن كان يبدو مقبولًا لتنزيه إبراهيم عن الشرك؛ ولأن المَعارِيض[1] هنا جائزة وفيها مندوحة عن الكذب من أجل إحقاق الحق، فإن الحق الذي تؤيده أدلة القرآن من الأمر بالتفكر في السموات والأرض وجعله من سمات أولي الألباب النابهين، وكذلك ما هو معلوم من سيرة أبي الأنبياء عليه السلام في القرآن الكريم وتفكره في ملكوت السموات والأرض، كل ذلك يدل على أنه نظر في النجوم متفكرًا كيف يحتال لا أن يقع فيها.

وهذا ما يرجحه محمد الطاهر ابن عاشور في تفسيره وينقل في تأييده كلام المفسرين والعلماء، فقد قال ابن كثير في تفسيره: قال قتادة: والعرب تقول لمن تفكر: نظر في النجوم، يعني قتادة أنه نظر إلى السماء متفكرًا كيف يلهيهم بها. وفي تفسير القرطبي عن الخليل والمبرد: يقال للرجل إذا فكر في شيء يدبره؛ لأن المتفكر يرفع بصره إلى السماء لئلا يشتغل بالمرئيات فيخلو بفكره للتدبر فلا يكون المراد أنه نظر في النجوم وهي طالعة ليلًا بل المراد أنه نظر في السماء التي هي قرار النجوم وذكر النجوم جرى على المعروف من كلامهم.

وجنح الحسن إلى تأويل معنى النجوم بالمصدر، أي أنه نظر فيما نجم له من الرأي، يعني أن النجوم مصدر نجم بمعنى ظهر.

وعن ثعلب: نظر هنا، أي: تفكر في كلامهم لما سألوه أن يخرج معهم إلى عيدهم ليدبر حجة. والمعنى: ففكر في حيلة يخلو بها بأصنامهم، فقال: ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ (الصافات) ليلزم مكانه ويفارقوه فلا يُرِيبهم[2] بقاؤه حول أصنامهم، ثم يتمكن من إبطال معبوداتهم بالفعل[3]. فلم ينطق إبراهيم بأن النجوم دلته على أنه سَقِيم[4] ولكنه لما جعل قوله: "إني سقيم" مقارنًا لنظره في النجوم ربما توهم قومه أنه عرف ذلك من دلالة النجوم حسب أوهامهم.

ويقول الطاهر ابن عاشور أيضًا: وما وقع في

---

١. المَعارِيض: جمع مِعْراض، وهو الستر والتَّوْرِية، خلاف التصريح.

٢. يُرِيب: يُشكِّك.

٣. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١١، ج٢٣، ص١٤٢ بتصرف.

٤. السَّقِيم: المريض.

التفاسير في معنى نظره في النجوم وفي تعيين سقمه المزعوم كلام لا يستقيم لدى أصحاب العقول والأفهام، وليس في الآية ما يدل على أن للنجوم دلالة على حدوث شيء من حوادث الأمم ولا الأشخاص، ومن يزعم ذلك فقد ضل دينًا، واختل نظرًا وتخمينًا، وقد دوَّنوا كذبًا كثيرًا في ذلك وسموه علم أحكام الفلك أو النجوم[1].

وبهذا يتبين أن سيدنا إبراهيم عليه السلام لم يقع في الشرك سواء عند محاجة قومه أو عندما نظر في النجوم، وكيف يشرك بالله وهو ينهى أباه وقومه عن الشرك؟!

الخلاصة:

- إبراهيم عليه السلام لم يقر عبادة الأصنام، وإلا فلماذا كان ينكر على أبيه وقومه عبادتها: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ (٥٢)﴾ (الأنبياء)؟
- استخدم نبي الله إبراهيم أسلوب الاستدراج والاستدلال في محاجه قومه؛ ليُظهر بطلان معتقداتهم، وهو ما يسمى في علم الجدل بـ "مجاراة الخصم" فأظهر أنه يوافقهم لينصتوا، ثم كرَّ عليهم بالإبطال إظهارًا للإنصاف وطلبًا للحق: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣)﴾ (الأنعام).
- إبراهيم عليه السلام حينما نظر في النجوم كان نظره للتفكر فيما يحتال به على قومه، أو كيف يدبر لهم حجة يلهيهم بها عنه حتى يتولوا عنه ويخلو هو إلى معبوداتهم فيبطلها بالفعل تحطيمًا، ولم يكن نظره في النجوم اعتقادًا منه بتأثيرها في حاله؛ إذ إن الاعتقاد بتأثير أوضاع النجوم أو أدلتها على حدوث شيء من حوادث الأمم والأشخاص كفر وشرك وهو معتقد قومه الذي يحاربه ويحاجهم من أجلهم؛ فكيف يقع فيه ولو على سبيل الخطأ وهو ينهاهم عنه؟!

الشبهة السابعة عشرة

توهم أن إبراهيم عليه السلام وقع في الكذب(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن إبراهيم عليه السلام وقع في الكذب ثلاث مرات، ويستدلون على ذلك بما ورد في الحديث الصحيح: لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات... قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩)﴾ (الصافات)، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ (الأنبياء: ٦٣)، وقوله عن زوجته سارة إنها أخته. ويتساءلون: كيف يكون نبيًّا معصومًا، ثم يقع في مثل هذا الكذب؟

وجوه إبطال الشبهة:

١) الإخبار بقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩)﴾ (الصافات) أي: سقيم من أفعالكم الكُفْريّة التي تُمْرِض القلب.

٢) الجواب بقوله عليه السلام: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ (الأنبياء: ٦٣) كان تهكُّمًا[2] وسخرية أو تبكيتًا لهم وإلزامًا

---

١. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١١، ج٢٣، ص١٤٣ بتصرف يسير.

(*) عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

٢. التَّهكُّم: الاستهزاء والاستخفاف.

للحجة عليهم، وتنبيهًا على خطأ عبادتهم للأصنام.

٣) المقصود بقول إبراهيم عليه السلام عن زوجته سارة: "إنها أخته" أي الأخوة في الإسلام.

٤) تسمية هذا الكلام كذبًا في الحديث؛ نظرًا لما فهمه الغير منه لا بالنسبة إلى ما قصده المتكلم.

التفصيل:

أولا. الإخبار بقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩)﴾ أي: سقيم من أفعالكم الكفرية التي تمرض القلب:

إن إبراهيم عليه السلام لم يدّخر أي جهد في سبيل دعوة قومه إلى الله تعالى، وقد استخدم معهم كل أنواع الأدلة والبراهين العقلية؛ ليثبت لهم بطلان معتقداتهم ويثبت الحق الذي عجزت أفهامهم السقيمة وعقولهم المغلقة التي تأبى أن تتفتح للنور أن تستوعبه فقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩)﴾ إشارة إلى السبب الرئيسي لكفرهم وعنادهم لعدم شعوره بالراحة، وفي ذلك يقول صاحب الظلال:

"ويُروى أنه كان للقوم عيد - ربما هو عيد النيروز - يخرجون فيه إلى الحدائق والخلوات، بعد أن يضعوا النار بين يدي آلهتهم لتباركها، ثم يعودون بعد الفسحة والمرح فيأخذون طعامهم المبارك! وأن إبراهيم عليه السلام بعد أن يئس من استجابتهم له، وأيقن بانحراف فطرتهم الانحراف الذي لا صلاح له، اعتزم أمرًا، وانتظر هذا اليوم الذي يبعدون فيه عن المعابد والأصنام لينفّذ ما اعتزم، وكان الضيق بما هم فيه من انحراف قد بلغ منه أقصاه، وأتعب قلبه وهواه، فلما دعي إلى مغادرة المعبد قلّب نظره إلى السماء، وقال: "إني سقيم" لا طاقة لي بالخروج إلى المتنزهات والخلوات، فإنما يخرج إليها طلاب اللذة والمتاع أخلياء القلوب من الهم والضيق، وقلب إبراهيم عليه السلام لم يكن في راحة، ونفسه لم تكن في استرواح.

قال ذلك معبرًا عن ضيقه وتعبه، وأفصح عنه ليتركوه وشأنه، ولم يكن هذا كذبًا منه، إنما كان له أصل في واقع حياته في ذلك اليوم وإن الضيق ليُمرض ويُسقِم ذويه"[1].

وإذا كان صاحب "الظلال" يرى أن إبراهيم عليه السلام قد مرض من أفعالهم مرضًا حقيقيًّا وليس في ذلك استخدام للمعاريض، فإن بعض العلماء يرى أنه لما كانت الأصنام مصدر حزنه وسقمه عليه السلام، شعر بأنه ما لم يهدم هذه الأصنام، ويكسرها فلن يجد طعمًا للراحة، وعندما قال لمن حوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩)﴾ ظنوه مريضًا من الناحية الجسدية فتولوا عنه، وكانوا يصرون على استصحابه معهم لمشاركتهم في احتفالهم الديني... وما إن خرجوا من عنده، حتى أسرع ليحطم الأصنام مبينًا بذلك السبب الحقيقي لسقمه، غير أنه استعمل في كلامه معهم تعريضًا، يفهمون منه شيئًا غير المقصود الحقيقي، ولكنه لم ينحرف في كلامه هذا إلى الكذب أبدًا، وكل ما هنالك أن قومه لم يفهموا قصده الحقيقي، وليس هذا بغريب على قومه الذين صموا آذانهم عن الاستماع إلى الحق، وكان هذا هو مصدر الخطأ[2].

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٥، ص٢٩٩٣.

٢. العصمة النبوية، محمد فتح الله كولن، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ط٣، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م، ص٥٢.

ثانيًا. الجواب بقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ كان تهكّما وسخرية أو تبكيتًا لهم وإلزامًا للحجة عليهم، تنبيهًا على خطأ عبادتهم للأصنام:

وفي هذا يبين صاحب الظلال أن قوله ﷺ: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ (الأنبياء) هو من قبيل التهكم والسخرية فلا يسمى كذبًا، يقول: والتهكم واضح في هذا الجواب الساخر، إنما أراد أن يقول لهم: إن هذه التماثيل لا تدري من حطمها إن كنت أنا أم هذا الصنم الكبير الذي لا يملك مثلها حراكًا، فهي جماد لا إدراك لها أصلًا، وأنتم كذلك مثلها مسلوبو الإدراك لا تميزون بين الجائز والمستحيل فلا تعرفون إن كنت أنا الذي حطمها أم أن هذا التمثال هو الذي حطمها! ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ (الأنبياء: ٦٣)[1].

فأراد إبراهيم عليه السلام أن يقنعهم أنه لو كانت هذه آلهة ـ كما تدّعون ـ لدافعت عن نفسها، أو دافع عنها الصنم الأكبر، أو حتى تنطق فتخبركم بما حدث ومن فعل بها ذلك.

يقول الشيخ ابن عاشور: وقوله تعالى: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ الخبر مستعمل في معنى التشكيك، أي لعله فعله كبيرهم؛ إذ لم يقصد إبراهيم عليه السلام نسبة التحطيم إلى الصنم الأكبر؛ لأنه لم يدعِ أنه شاهد ذلك، لكنه جاء بكلام يفيد ظنه بذلك حيث لم يبق صحيحًا من الأصنام إلا الكبير، وفي تجويز أن يكون كبيرهم هذا الذي حطمهم إخطار دليل انتفاء تعدد الآلهة؛ لأنه أوهمهم أن كبيرهم غضب من مشاركة تلك الأصنام له في العبودية، وذلك تدرج إلى دليل الوحدانية، فإبراهيم عليه السلام في إنكاره أن يكون هو الفاعل أراد أن يلزمهم الحجة على انتفاء ألوهية الصنم العظيم، وانتفاء ألوهية الأصنام المحطمة بطريق الأولى على نية أن يكرّ على ذلك كله بالإبطال، ويوقنهم بأنه الذي حطم الأصنام، وأنها لو كانت آلهة لدافعت عن أنفسها، ولو كان كبيرهم كبير الآلهة لدافع عن حاشيته وقرنائه؛ ولذلك قال: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ (الأنبياء) تهكمًا بهم وتعريضًا بأن ما لا ينطق ولا يُعرب عنه نفسه غير أهل للإلهية.

وشمل ضمير ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ﴾ جميع الأصنام ما تحطم منها وما بقي قائمًا، والقوم وإن علموا أن الأصنام لم تكن تتكلم من قبل، إلا أن إبراهيم أراد أن يقنعهم بأن حدثًا عظيمًا مثل هذا يوجب أن ينطقوا بتعيين من فعله بهم، وهذا نظير استدلال علماء الكلام على دلالة المعجزة على صدق الرسول بأن الله لا يخرق عادة لتصديق الكاذب، فخَلْقه خارق العادة عند تحري الرسول دليل على أن الله أراد تصديقه[2].

ولو اعتبرنا أن ذلك تعريضًا بقومه في بداية كلامه فلا يعد كذبًا؛ لأن الكلام لا يحكم عليه حتى يتم كالكلام المعقب بشرط استثناء؛ يقول الشيخ ابن عاشور:

فهذا الإضراب ـ يعني بقوله: بل ـ كان تمهيدًا للحجة على نية أن يتضح لهم الحق بآخره؛ ولذلك

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٤، ص٢٣٨٥.

٢. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٨، ج١٧، ص١٠١.

قال كما جاء القرآن: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ ﴾ (الأنبياء).

أما الإخبار بقوله: ﴿ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ فليس كذبًا، وإن كان مخالفًا للواقع ولاعتقاد المتكلم؛ لأن الكلام والأخبار إنما تستقر بأواخرها وما يعقبها، كالكلام المعقب بشرط أو استثناء، فإنه قصد تنبيههم على خطأ عبادتهم للأصنام، مهد لذلك كلامًا هو جار على الفرض والتقدير، فكأنه قال: "لو كان هذا تعين أن يكون هو الفاعل لذلك، ثم ارتقى في الاستدلال بأَنْ سَلَبَ الإلهية عن جميعهم بقوله: ﴿إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ (الأنبياء).

ويجمع د. أبو النور الحديدي أقوال العلماء والمفسرين في هذه المسألة، وجميعها توضح عصمة سيدنا إبراهيم عليه السلام وتُبَرِّئه عن الوقوع في الكذب، ويمكن تصنيف هذه الأقوال على النحو التالي:

الأول: نَسَبَ إبراهيم عليه السلام الفعل إلى كبيرهم، وقَصْدُه تقريره لنفسه وإثباته له بأسلوب تعريضي؛ تبكيتًا لهم وإلزامًا لهم بالحجة؛ لأنهم إذا نظروا النظر الصحيح علموا عجز كبيرهم، وأنه لا يصلح إلهًا، فإن إثبات فعل ـ دائر بين اثنين أحدهما عاجز عنه، والآخر قادر عليه ـ إلى العاجز منهما استهزاء به وإثباته للقادر، وهنا تكسير الأصنام إما أن يكون من إبراهيم عليه السلام، وإما أن يكون من كبيرهم، وكبيرهم عاجز عنه قطعًا، فنسبته إليه استهزاء، وإثباته لإبراهيم عليه السلام بأسلوب تعريضي يتحقق به غرضه من إلزام قومه الحجة، وتبكيتهم على عبادة ما لا يصلح إلهًا؛ حيث لا يقدر على شيء.

وهذا الوجه اختاره كثير من المفسرين كالزمخشري، والفخر الرازي، والألوسي، وذكره غير هؤلاء مرجحًا له، كابن كثير، والقاسمي.

الثاني: أنه لم يسند الفعل إلى الكبير اعتقادًا، بل أسنده حكاية لما يلزم على جوازه، كأنه قال لهم: كيف تنكرون أن يفعله كبيرهم، وحق من يُعْبد ويُدَّعى إلهًا أن يقدر على هذا، وأكثر منه؟ وإذا سلمتم أنه لا يقدر على هذا؛ فكيف تعبدونه، وتدعونه إلهًا؟ إن ذلك يكون عين الجهل، وغاية الغباء.

الثالث: أن إسناد الفعل إلى الكبير مشروط بقوله: ﴿إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ (الأنبياء) وأيضًا قوله: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ ﴾ جملة معترضة، جعل النطق شرطًا للفعل وأراد به أنهم إن قدروا على النطق قدروا على الفعل؛ فلما ظهر عجزهم عن النطق تبين عجزهم عن الفعل.

الرابع: أن إسناد الفعل إلى الكبير من قبيل إسناده إلى السبب الحامل عليه؛ فإنه عليه السلام لما رأى الأصنام مصطفَّة مزينة يعظمها المشركون، ورأى زيادة تعظيمهم لكبير الأصنام، وتخصيصهم إياه بمزيد التواضع، والخضوع له اشتد غيظه منه فحمله ذلك على تكسير الأصنام، وأبقى الكبير ـ مع أنه السبب ـ ليورد عليهم هذا القول؛ فيظهر جهلهم وضلالهم في عبادة الأصنام.

وهذه الوجوه الأربعة هي أصح ما تدل عليه الآية ـ والأول أصحها ـ وكل واحد منها ينفي حصول الكذب من الخليل عليه السلام.

وأَرْجَح وجه من هذه الوجوه الأربعة، هو الوجه الأول؛ لأن الخليل إبراهيم عليه السلام إنما أراد أن يبين للقوم

فساد اعتقادهم في عبادتهم الأصنام، بحجة تُلزمهم، واعتراف يصدر من جهتهم بعد التأمل في شأن آلهتهم بأنها لا تقدر على شيء؛ حيث هي جماد، وكبيرهم لا يصدر عنه هذا الفعل؛ لأنه مثلهم في الجمادية، وبذلك تقوم الحجة عليهم بأنهم كيف يعبدون ما لا يصلح إلها؛ لعجزه عن جلب النفع، ودفع الضر، يدل على هذا الآيات الكريمة التي تلي هذه الآية، وهي: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ (الأنبياء) [١] [٢].

ثالثًا. المقصود بقول إبراهيم عن زوجته سارة: "إنها أخته" أي الأخوة في الإسلام:

وأما عن قول إبراهيم عليه السلام عن سارة - زوجته -: إنها أخته، فهو: ليس كذبًا؛ لأنه إنما يقصد الأخوة في الإسلام، والدين الحق الذي كانا عليه، لا أخوة النسب، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ (الحجرات: ١٠)، وفي الحديث: "المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يُسْلِمه" [٣].

فالإيمان هو الرباط الأول، الذي يربط الإنسان بالآخرين، وفي غياب هذه العلاقات؛ فإن الذين يولدون من أب واحد وأم واحدة قد يكونون أعداءً، كما أن اختلاف الزمان والمكان، لا يكون حائلًا بين أخوّة الإيمان، فالمؤمنون والمؤمنات إخوَة فيما بينهم، دون نظر إلى تفرقة بين ذكر أو أنثى، أو بين قطر وآخر.

وأما نقاط التقارب؛ فإنها تأتي بعد ذلك، النبي إبراهيم عليه السلام قد أشار إلى هذه العلاقة - وهي الرابطة - في قوله: "ليس على الأرض مؤمن غيري وغيرك" [٤] ®.

رابعًا. تسمية هذا الكلام كذبًا؛ نظرًا لما فهمه الغير منه، لا بالنسبة إلى ما قصده المتكلم:

أما ما جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: اثنتين منها في ذات الله عز وجل قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٞ ﴿٨٩﴾﴾، وقوله: ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا﴾، وقال: بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبّار من الجبابرة، فقيل له: إن ها هنا رجلًا معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه عنها، فقال: من هذه؟ قال: أختي، فأتي سارة فقال: يا سارة، ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني، فأرسل إليها، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده، فأُخِذ، فقال: ادعي الله ولا أضرك، فدعت الله فأطلق. ثم تناولها الثانية فأُخِذ مثلها أو أشد، فقال:

---

١. نكسوا: انقلبوا وعادوا للمجادلة. أُفٍّ: اسم فعل مضارع بمعنى: أتضجر من قبيح أعمالكم.

٢. عصمة الأنبياء، د. أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٩١ وما بعدها.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم ولا يسلمه (٢٣١٠)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٦٧٤٣).

٤. العصمة النبوية، محمد فتح الله كولن، مرجع سابق، ص٥٥.

® في "حقيقة أخوّة سارة لإبراهيم" طالع أيضًا: الوجه الثاني، من الشبهة التاسعة عشرة، من هذا الجزء.

ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت فأطلق، فدعا بعض حَجَبَته فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان، إنما أتيتموني بشيطان، فأخدمها هاجر"[1]، فورد إشكال من نسبة الكذب إلى نبي.

ودفع الإشكال: أن تسمية هذا الكلام كذبًا منظور فيه إلى ما يُفهمه أو يعطيه ظاهر الكلام، وما هو بالكذب بل هو من المعاريض، أي أني مثل السقيم في التخلف عن الخروج، أو في التألم من كفرهم، وأن قوله: "هي أختي" أراد أخوة الإيمان، وأنه أراد التهكم في قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ لظهور قرينة أن مراده التغليظ[2].

وهذا هو رأي أكثر العلماء المفسرين، أما الشيخ الطاهر ابن عاشور فيرى أن ذلك سُمي كذبًا على لغة قومه الذين لا يعرفون البلاغة ولا المجاز ولا أساليب التهكم والسخرية يقول: وجوابه عندي: أنه لم يكن في لغة قوم إبراهيم عليه السلام التشبيه البليغ، ولا المجاز ولا التهكم، فكان ذلك عند قومه كذبًا، وأن الله أذن له فعل ذلك وأعلمه بتأويله، كما أذن لأيوب أن يأخذ ضغثًا[3] من عِصّي فيضرب به ضربة واحدة ليبرَّ قسمه؛ إذ لم تكن الكفارة مشروعة في دين أيوب عليه السلام[4].

ورأي الشيخ ابن عاشور هنا لا يختلف كثيرًا عن الرأي الأول بل إنه يعود فينص عليه في موضع آخر من تفسيره إذ يقول: فالمراد من الحديث أنها كذبات في بادئ الأمر، وأنها عند التأمل يظهر المقصود منها، وذلك أن النهي عن الكذب إنما علته خدع المخاطب وما يتسبب على الخبر المكذوب من جريان الأعمال على اعتبار الواقع بخلافه، فإذا كان الخبر يعقب بالصدق لم يكن ذلك من الكذب بل تعريضًا أو مزحًا أو نحوهما.

وأما ما ورد في حديث الشفاعة فيقول إبراهيم: "لست هناكم"[5] ويذكر ثلاث كلمات كذبها، فمعناه أنه يذكر أنه قال كلامًا خلافًا للواقع بدون إذن من الله بوحي، ولكنه ارتكب قولًا خلاف الواقع لضرورة الاستدلال بحسب اجتهاده، فخشي ألَّا يصادف اجتهاده الصواب من مراد الله، فخشي عتاب الله فتخلص من ذلك الموقف[6].

الخلاصة:

- **الفهم الصحيح لهذه النصوص الثلاثة: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾، وقوله: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ (الأنبياء)، وقوله عن سارة: "إنها أختي" - أنها من المعاريض، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب - كما قيل - فمعنى "إني**

1. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قول الله ﷻ: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ (النساء: ١٢٥) (٣١٧٩)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل عليه السلام (٦٢٩٤).
2. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١١، ج٢٣، ص١٤٣.
3. الضِّغْث: حزمة من حشيش أو غيره.
4. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١١، ج٢٣، ص١٤٣.
5. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة البقرة (٤٢٠٦)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (٤٩٥).
6. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٨، ج١٩، ص١٥٢.

سقيم" قيل: ربما كان عليه السلام مريضًا من قبل، وقيل: سقيم القلب لكفرهم وعنادهم وهو سقم معنوي، وهم فهموه على أنه سقم حسي.

- جاء قوله: "بل فعله كبيرهم" تعريضًا؛ وليرجعوا إلى أنفسهم ويتذكروا إذا كان كبيرهم عجز عن حمايتهم علموا أنه لا يصلح إلهًا، ونسبة تكسير الأصنام إليه استهزاء، وبذلك يكون الخليل عليه السلام بين لهم فساد اعتقادهم في الأصنام، وأنها عاجزة عن جلب النفع أو دفع الضرر.
- وقوله عن سارة: "إنها أخته" ليس كذبًا أيضًا؛ لأنه قصد الأخوة في الإسلام (الدين) والإيمان هو الرابط الأول الذي يربط بين الناس، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)﴾ (الحجرات).
- أما تسمية الحديث ذلك كذبًا فهو بالنظر لما فهمه الغير منه لا بالنسبة إلى ما قصده المتكلم، وربما لأنه استخدم التعريض في أول كلامه، ولكن العبرة بالخواتيم إذ إنه يعقب بالصدق في كلامه وإنما يستخدم ذلك تمهيدًا للاستدراك عليهم وإلزامهم الحجة.
- أما اعتذاره عن الشفاعة بقوله: "لست هناكم" ويذكر ثلاث كذبات، فمعناه أنه ارتكب قولًا خلاف الأولى لضرورة الاستدلال بحسب اجتهاده، فخشي أن لا يصادف اجتهاده مراد الله تعالى فيعاقب؛ لذلك اعتذر.

الشبهة الثامنة عشرة

إنكار لقاء إبراهيم عليه السلام بالنمروذ(*) ®

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المتوهمين لقاء إبراهيم عليه السلام مع النمروذ - الذي قيل: إنه كان مَلِكًا وقت نبوة إبراهيم عليه السلام - ويدّعون أن عهد النمروذ سابق على زمن إبراهيم عليه السلام بثلاثمائة سنة، فكيف يلتقي به إبراهيم عليه السلام؟! وعلى هذا فهم ينكرون قصة محاجَّة إبراهيم عليه السلام مع النمروذ، وقصة إلقاء النمروذ إبراهيم عليه السلام في النار، ويهدفون من وراء ذلك إلى التشكيك فيما أورده القرآن بشأن إبراهيم عليه السلام.

وجوه إبطال الشبهة:

١) القرآن الكريم ذكر المُناظَرة[1] التي دارت بين إبراهيم عليه السلام وأحد ملوك عصره، ولم يذكر اسم هذا الملك.

٢) القول أن إبراهيم عليه السلام لم يقابل النمروذ ولم يكن معاصرًا له، قول يفتقر إلى التوثيق، فهو خالٍ من الأدلة التي تُثبت صحته، ومن ثم فلا يصح أن تُبنى عليه أيّة أحكام.

٣) لم يخبر القرآن الكريم بأن النمروذ هو الذي ألقى بإبراهيم عليه السلام في النار بل أخبر أن الذي فعل ذلك قومه.

(*) عصمة الأنبياء، د. أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

® في "إبطال إبراهيم دعوى النمروذ" طالع أيضًا: الشبهة العاشرة، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد عليها).

١. المُناظَرة: المناقشة والمباراة في المحاجَّة.

التفصيل:

أولا. القرآن الكريم ذكر المناظرة التي دارت بين إبراهيم عليه السلام وملك عصره، ولم يذكر اسم هذا الملك:

إن القرآن الكريم في معرض حديثه عن الخليل إبراهيم عليه السلام أورد نص مناظرة دارت بين إبراهيم عليه السلام وأحد الملوك، ولم يحدد اسم الملك الذي حاجَّ إبراهيم في ربه؛ لأن قصد القرآن من القصص هو مضمون المحاجة والعبرة، ومعرفة اسم الملك لا تقدم ولا تؤخر في المضمون.

وكما أن القرآن لم يذكر اسمه، فكذلك سكتت السنة عنه، وما ورد عن اسمه بأنه النمروذ، وبأن الزمن الذي حدثت فيه هذه المناظرة هو زمن وجوده لم يقل به إلا بعض المفسرين في تفسير بعض آيات وقصص القرآن الكريم، وما أورده بعض المفسرين غير مُلزِم للقرآن الكريم، ومن ثم فهو لا يصح أن يكون مأخذًا على القرآن الكريم.

وقد ذكر المؤرخون أن لقب ملوك تلك البلاد التي وُجد فيها الخليل إبراهيم عليه السلام هو "النمروذ" على اختلاف أسمائهم، كما هو الحال بالنسبة للفراعنة والقياصرة والأكاسرة... إلخ، ومن ثم ربما كان كل ملك يحكم العراق في ذلك الزمان يسمى نمروذًا، وهو أمر مقبول عقلًا.

ثانيًا. إن القول بأن إبراهيم عليه السلام لم يقابل النمروذ خالٍ من الأدلة التي تثبت صحته:

إن المنكرين لم يذكروا مصادرهم في توثيق تلك المعلومة التاريخية القديمة، مما يشكك في صحتها.

والقرآن الكريم أورد محاجة إبراهيم عليه السلام لملك عصره، باعتبارها حلقة من حلقات جهاد الخليل إبراهيم عليه السلام في الوقوف أمام قوى الشرك كلها، ومقاومة الشرك بكل صوره، وليقرر أن إبراهيم عليه السلام لم يكن يتهيب في ذلك أحدًا، ولم تكن تأخذه في الله لومة لائم.

والمحاجَّة ثابتة بالتاريخ والقرآن الكريم، وأكبر دليل على ذلك سكوت اليهود، والنصارى - خاصة الأحبار والرهبان منهم - زمن رسول الله ﷺ عن الطعن في الآيات التي وردت بشأن الملك الكافر الذي حاجّه إبراهيم عليه السلام، ولو كان فيها شيء من الغلط لما سكتوا عنه، ولاتخذوه ذريعة للطعن في القرآن الكريم، ونبوة محمد ﷺ، وتلك كانت غاية ما يَصْبُون إليه[1].

ثالثًا. القرآن الكريم لم يخبر أن النمروذ هو الذي ألقى بإبراهيم عليه السلام في النار، بل أخبر أن الذي فعل ذلك قومه:

لم يرد في القرآن الكريم أن النمروذ هو الذي أحرق إبراهيم عليه السلام ولم تذكر الآيات التي تناولت هذا الموضوع شخصًا محددًا، وإنما نسب الإحراق إلى قومه عبدة الأصنام، قال تعالى: ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) ﴾ (الأنبياء)، وقال تعالى: ﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) ﴾ (الصافات).

وسواء أكان الملك الذي ناظره إبراهيم عليه السلام هو النمروذ أو غيره فإن القصة ثابتة بخبر القرآن، وخبر القرآن أصدق من خبرهم؛ لأنه خبر من المولى تبارك

---

١. يَصْبُون إليه: يهدفون إليه.

وتعالى والقصص فيه حق وصدق تشهد بذلك التوراة والإنجيل، على ما فيهما من تحريف، قال ﷻ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾ (يوسف).

وكلام بعض المفسرين الذين يستعينون بالإسرائيليات في التفسير ليس بحجة على القرآن الكريم؛ فالمفسر قد يخطئ وقد يصيب، ولكن كتاب الله لا يقربه الخطأ؛ قال تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) ﴾ (فصلت)، وليس لأحد من المسلمين قداسة أو عصمة، كما هو الشأن عند غير المسلمين، ولا عصمة إلا للأنبياء، عليهم السلام.

ومن ثم فقول بعض المفسرين المتشبعين بالإسرائيليات ليس حجة على القرآن؛ لأنهم يعتمدون على القصص التاريخي غير الموثق وغير المحقق.

ويحكي القرآن محاجة إبراهيم عليه السلام للملك في سورة البقرة: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) ﴾ (البقرة).

والقرآن الكريم لم يُسَمّ الملك الذي حاجَّ الخليل إبراهيم عليه السلام في ربه؛ لأن قصد القرآن من القصص هو مضمون المحاجَّة، والعبرة منها.. واسم الملك لا يقدم ولا يؤخر في المضمون واستخلاص العبرة، أما تسمية هذا الملك - الذي حاجَّه إبراهيم عليه السلام - بـ "النمروذ"، والاختلاف في نطق اسمه ومدة ملكه فغير ملزم للقرآن الكريم.

وليس لدينا في التاريخ الموثَّق والمحقق ما يثبت أو ينفي أن اسم الملك الذي حاج إبراهيم الخليل عليه السلام في ربه هو النمروذ، وإنما هو قصص تاريخي يحتاج إلى تحقيق.

وإن كانت "دائرة المعارف الإسلامية" التي كتبها المُسْتَشْرِقون [1] - والتي قد حَرَّر مادة إبراهيم فيها إيزبرغ - قد ذكرت الملك نمروذ في قصة إبراهيم؛ فإنها ذكرته وأشارت إليه دون اعتراض.. وإن كانت تلك الموسوعة المعرفية أيضًا قد عَزَت تلك الإشارة إلى بعض المصادر العبرية التي جاء فيها اسم النمروذ؛ فليس هناك ما يمنع تكرار اسم "نمروذ" لأكثر من ملك في أكثر من عصر وتاريخ، وإذا كانت هناك شبهة فهي خاصة بالتاريخ، ولا علاقة لها بالقرآن الكريم [2].

الخلاصة:

- القرآن الكريم لم يصرح بأن النمروذ هو الذي أحرق إبراهيم عليه السلام، ولم تذكر آية واحدة منه ذلك، بل نسب الإحراق إلى قومه عبدة الأصنام، فقال تعالى: ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) ﴾ (الأنبياء)، وقال تعالى: ﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) ﴾ (الصافات). **والذي يفهم اللغة العربية يعرف أن واو الجماعة تأتي للمجموع وليس للفرد.**

---

١. المُسْتَشْرِقون: جمع مُسْتَشْرِق، وهو مَنْ له اهتمام من الأوربيين بدراسة شئون الشرق وثقافاته ولغاته.

٢. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص٢٩٢، ٢٩٣ بتصرف يسير.

- لم يذكر القرآن الكريم أن النمروذ هو الذي حاجَّ إبراهيم عليه السلام في ربه، بل ذكر المحاجة فقط للعبرة والعظة.
- كلام بعض المفسرين الذين يستعينون بالإسرائيليات في التفسير ليس بحجة على القرآن الكريم؛ لأن معظم قصص التاريخ يحتاج إلى توثيق وتحقيق.

الشبهة التاسعة عشرة

ادِّعاء أن إبراهيم عليه السلام تزوَّج من سارة، وهي أخته(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن سيدنا إبراهيم عليه السلام تزوج سارة وهي أخته، حيث يذكر الكتاب المقدس أنها كانت أختًا غير شقيقة لإبراهيم عليه السلام، ويتساءلون: ألا يعد ذلك ارتكابًا لُمحَرَّم شرعًا؟ هادفين من ذلك إلى الطعن في عصمة سيدنا إبراهيم عليه السلام.

وجها إبطال الشبهة:

١) الكتاب المقدس ثبت أنه محرَّف؛ فما ورد فيه ليس بحجة.

٢) الثابت في الأحاديث النبوية الصحيحة أن سارة لم تكن أخت إبراهيم عليه السلام من النسب، وإنما المراد الأخوة الإيمانية، وهذا هو مقصود إبراهيم عليه السلام من التعريض بأنها أخته، حين دخوله مصر حفاظًا عليها من الملك المتجبر.

التفصيل:

أولا. الكتاب المقدس ثبت أنه محرف؛ فما ورد فيه ليس بحجة:

يقول جراهام سكروغي من معهد مودي في مدينة شيكاغو، وهو عالم مسيحي مشهور في كتابه "الكتاب المقدس كلام الله": إنه من وضع البشر إلا أنه سماوي. ويقول أيضا: نعم إن الكتاب المقدس من وضع البشر، ولو أن الكثيرين ينكرون ذلك لشدة تعصبهم، لقد مرت هذه الأسفار في عقول البشر وكتبت بلغة البشر ودبجت بأقلامهم وبأساليبهم[1].

ويقول عالم مسيحي آخر مشهور وهو كنث كراغمطران القدس الإنجليكاني في كتابه "نداء المِئذنة"، يقول عن الكتاب المقدس: "إنه نتاج ملخّص مكثّف مختار منسوخ، وكما جاء في أسفار العهد الجديد: إن هذه الأسفار خلاصة تجربة وتاريخ".

وفي مقال بمجلة "استيقظوا" وهي مجلة طائفة مسيحية تُدْعى "شهود يَهُوه" تصدر في بروكلين، نيويورك، في عددها الصادر في ٨ أيلول ١٩٥٧م، تحت عنوان "٥٠ ألف خطأ في الكتاب المقدس" يقول المقال: استيقظوا... حانت الآن الساعة، لنستيقظ من النوم، ٥٠ ألف خطأ في الكتاب المقدس[2]؟

فكيف تكون المعلومات الواردة بهذا الكتاب حجة،

(*) قناة الحياة، زكريا بطرس، الحلقة ١٧.

١. أضواء على المسيحية: دراسة تحليلية للكتاب المقدس، أحمد ديدات، ترجمة: د. عادل جلول، دار القارئ، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٨٦.

٢. المرجع السابق، ص٩٨.

وهذه هي شهادات أهل الكتاب أنفسهم؟ وهناك كثير غيرها في كتبهم لكن المجال لا يتسع، والمشكلة الأعظم التي تظهر للعيان ناصعة لا تحتاج إلى برهان هي: أننا إذا تصفحنا الكتاب المقدس تبين لنا من نصوصه ما يؤكد على تحريفه وتغييره، فإن اليهود قد اختلقوا كثيرًا من الأكاذيب التي لا تليق بالأشخاص العاديين ولصقوها - زورًا وبهتانًا - بالأنبياء؛ حيث يصورون الأنبياء بأقبح الأوصاف، فهم لصوص وزناة وقَتَلَة وسفّاكون للدماء، يرتكبون الجرائم البشعة التي يترفع عنها البشر العاديون، فضلا عن الأنبياء خير خلق الله تعالى، فكيف يحتجون بالمعلومات التي جاءت في هذا الكتاب بشأن إبراهيم عليه السلام®؟

إن الأعظم جُرمًا من ذلك، هو وصفهم القبيح لله تعالى؛ فقد صوروه عز وجل وكأنه إنسان يغفل، ويسهو، وينام، ويُجهَد، فيستريح، ويعقوب عليه السلام يصارعه، ويغلبه، ولا يفكّه حتى يباركه: "لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت". (التكوين ٣٢: ٢٨)، ومن ذلك أن الله تعالى ندم على خلق الإنسان: "فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه". (التكوين ٦: ٦)، والله عز وجل استراح بعد أن خلق السماوات والأرض: "في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض، وفي اليوم السابع استراح وتنفس". (الخروج ٣١: ١٧)[1] ®.

وبهذا يتبين لنا حقيقة كتابهم المقدس، وأنه من صنع البشر الذين حرّفوه حسب أهوائهم الفاسدة فلا يصح أن تؤخذ منه أخبار أو معلومات لعدم الوثوق به؛ وعليه يبطل زعمهم واستدلالهم®.

ثانيًا. الثابت في الأحاديث الصحيحة والتاريخ أن سارة لم تكن أخت إبراهيم عليه السلام من النسب، وإنما المراد الأخوة الإيمانية:

إننا لو وقفنا على نسب إبراهيم عليه السلام لعلمنا أنه إبراهيم بن تارح ابن ناصور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالخ بن ارفكشاد بن سام بن نوح، أما السيدة سارة فقد ذكر ابن كثير- رحمه الله - في تاريخه عن نسبها أنها ابنة ملك حران، والمشهور أنها ابنة عمه هاران.

فهذا النسب يغاير نسب السيدة سارة؛ فبطل قولهم بأنها أخته من النسب، وإلا فما الدليل على قولهم؟

ولقد رُوي في الصحيح أنه قد عمَّ القحط وشمل الجدب بلاد الشام وفلسطين كلها، فرحل إبراهيم عليه السلام إلى مصر، تصحبه زوجته سارة وكانت ذات جمال باهر، فوشى بها أحد بطانة السوء إلى الملك وكان رجلًا جبارًا، وهو أحد ملوك العرب العماليق، واسمه

® في **"مقام الأنبياء في الكتاب المقدس"** طالع أيضًا: الوجه الأول، من الشبهة الثانية، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان). والوجه الثالث، من الشبهة الرابعة والستين، من الجزء العاشر (الأنبياء والرسل٢). وفي **"مقام الأنبياء بين القرآن والتوراة"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثالثة، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

١. أضواء على المسيحية: دراسة تحليلية للكتاب المقدس، أحمد ديدات، مرجع سابق، ص٢٠، ٢١.

® في **"مقام الألوهية في التوراة"** طالع أيضًا: الوجه الأول، من الشبهة الثانية، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

® في **"تحريف التوراة والإنجيل"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثامنة عشرة، من الجزء الحادي عشر (سلامة القرآن الكريم).

سنان بن علوان، وكان من عادة هذا الطاغية أنه لا يسمع برجل عنده امرأة جميلة إلا وأخذها منه اغتصابًا، فلما نزل إبراهيم عليه السلام أرض مصر أراد هذا الفاجر أن يعتدي على سارة زوج إبراهيم ويستأثر بها لنفسه؛ فدعاه وسأله عما يربطها به من قرابة، فقال له إبراهيم: هي أختي وقصد بذلك أخوة الدين ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات: ١٠)، فأمر به فأُخرِج.

فأتى سارة فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي؛ فإنك أختي في الإسلام، ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، فأرسل إليها الملك الجبار فأتى بها، فلما دخلت عليه فُتِنَ بجمالها، فسألها عن إبراهيم عليه السلام، فأخبرته أنها أخته، ولكن الفاجر أراد بها السوء، فمد يده إليها يريد أن يجذبها نحوه، فيَبِسَت يده[1] فلم يعد يستطيع حراكها، واضطربت حتى كاد يُصعق من شدة الهول والفزع، فقال لها: ادعي لي ولا أضرك، فدعت الله فأطلقه، فلما عاد إلى حالته الأولى حدثته نفسه بالغدر بها مرة ثانية، فأخذ مثل الأولى أو أشد، فطلب منها أن تدعو الله له على أن يطلق سراحها ولا يمسها بسوء، فدعت الله فعاد كما كان، فدعا بعض حَجَبَته فقال: إنك لم تأتني بإنسان إنما أتيتني بشيطان، فأمر بها أن تُطلق، وأخدمها جارية من جواريه تُسمَّى هاجر، وكان إبراهيم عليه السلام من وقت ذهابها إلى الملك قام يصلي لله عز وجل ويسأله أن يدفع عن أهله السوء، فلما أقبلت أومأ إليها إبراهيم عليه السلام بيده يسألها، فقالت: ردّ الله كيد

١. يَبِسَت يده: شُلَّت.

الكافر في نحره وأخدمني هاجر، قال أبو هريرة رضي الله عنه: "فتلك أمكم يابني ماء السماء"[2]، فعصمها الله وصانها إكرامًا لإبراهيم عليه السلام[3].

فالمراد كما في هذا الحديث الصحيح: أنها أخته في الإسلام والدين الحق الذي كان عليه، لا أخوة النسب؛ لأن الأخوة تطلق أصلًا على المشاركة في النسب، وتطلق على المشاركة في الصفات مجازًا أو استعارة، وهي هنا من هذا القبيل، فقد أطلقت على المشاركة في الدين الحق، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ (الحجرات). وفي الحديث: "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه"[4].

ويدل أيضًا على أنها أخوة الدين ما ورد في القرآن من أن زوجات النبي صلى الله عليه وسلم هن أمهات المؤمنين رغم أنهن لسن أمهات المؤمنين حقيقة قال الله تعالى: ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ ﴾ (الأحزاب).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قول الله عز وجل: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ (٣١٧٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل (٦٢٩٤).

٣. النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، مرجع سابق، ص١٥٨، ١٥٩.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه (٢٣١٠)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٦٧٤٣).

ويدل على ذلك أيضًا قول إبراهيم عليه السلام لسارة: كما في الحديث الصحيح: "ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك"[١]. فثبت أنها أخته في الإسلام وأنها ليست أخته من النسب[٢].

مما سبق ينتفى أن تكون السيدة سارة أخت سيدنا إبراهيم عليه السلام، والصحيح أن إبراهيم عليه السلام لم يتزوج أخته من النسب بل إن كلمة الأخوة هنا تعني أخوة الدين لا النسب[٣].

الخلاصة:

- لا يصح أن نجعل من الكتاب المقدس حجة ومرجعية؛ لأن الثابت - حتى في الدراسات التي قام بها كثير من علماء اليهود والنصارى - أن هذا الكتاب المقدس قد أعيدت كتابته، وأصابه التحريف حذفًا أو زيادة.. كما أن ترجماته قد أدخلت عليه كثيرًا من التغييرات؛ فلا يمكن الوثوق بما ورد فيه.
- من خلال نسب إبراهيم عليه السلام والسيدة سارة يتضح أنها ليست أخته، إنما المراد بقوله: أنها أخته التعريض حفاظا عليها من الملك الجبار، أي أنها أخته في الإسلام، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ (الحجرات)، ولقول إبراهيم عليه السلام للسيدة سارة: "ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك".

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب شراء المملوك من الحربي وهبته وعتقه (٢١٠٤)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل عليه السلام (٦٢٩٤).

٢. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص١١١.

٣. النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، مرجع سابق، ص١٥٨.

الشبهة العشرون

إنكار ذهاب إبراهيم عليه السلام إلى الجزيرة العربية، وبنائه الكعبة(*) ®

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المشككين ذهاب إبراهيم إلى الجزيرة العربية، وبناءه الكعبة، قائلين إن البيت الحرام كان لعبادة الأوثان. مستدلين على ذلك بعدم ذكر الذهاب إلى الجزيرة العربية في الكتاب المقدس. ويتساءلون: لماذا يقرر الإسلام ذهابه إلى الجزيرة العربية وبناءه الكعبة وهذا مخالف لحقائق الكتاب المقدس؟!

وجوه إبطال الشبهة:

١) الحق ما ورد في القرآن الكريم؛ لأنه الكتاب السماوي الوحيد المعصوم من التحريف.

٢) **ذهاب إبراهيم عليه السلام إلى بطن الجزيرة العربية ثابت تاريخيًا، وما ثبت بالتاريخ ثبتت صحته كالمتواتر، هذا فضلًا عن ذكر التوراة هذا الذهاب.**

٣) **بناء إبراهيم عليه السلام الكعبة من أجل عبادة الله**

(*) قناة الحياة، زكريا بطرس، الحلقة ١٧.

® في "ثبوت ذهاب إبراهيم إلى مكة" طالع أيضًا: الشبهة الثلاثين، من الجزء الحادي عشر (سلامة القرآن الكريم). وفي "ثبوت قصة بناء إبراهيم للكعبة في القرآن دون التوراة" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة والعشرين، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

وحده ثابت تاريخيًّا، وإن حدث بعد ذلك ما يخالف هذا الأصل.

التفصيل:

أولا. الحق ما ورد في القرآن الكريم؛ لأنه الكتاب السماوي الوحيد المعصوم من التحريف:

الكتاب المقدس كتاب محرف؛ فلا يدل ورود الخبر فيه على ثبوته، كما لا يدل عدم ذكر الشيء به على نفيه، فإن المُعَوَّل عليه[1] في إثبات أخبار الأنبياء وغيرهم هو القرآن الكريم دون غيره من المصادر الأخرى؛ فهو الذي ثبت بالأدلة القطعية حفظه من التحريف والتبديل.

وأوثق ما عرف عن إبراهيم عليه السلام وأصدقه، هو ما جاء في كتاب الله الحكيم - القرآن الكريم - ومن أصدق من الله حديثًا؟

وقد ذكر القرآن الكريم أن إبراهيم عليه السلام ذهب إلى مكة، ومن الثابت في القرآن أنه التقى بولده إسماعيل، وأخبره أمر الله له ببناء الكعبة؛ فبناها إبراهيم وإسماعيل معًا، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (١٢٧)﴾ (البقرة).

ثانيًا. ذهاب إبراهيم إلى مكة ثابت تاريخيًّا، وقد ذُكِر في التوراة:

قبل نزول القرآن الكريم، كان معلومًا بناء إبراهيم عليه السلام للكعبة، حتى إن قريشًا - التي كانت تعبد الأصنام في الكعبة - كانت تقر ببناء إبراهيم عليه السلام لها، وتعلم ذلك علم اليقين، ولو لم تكن تعلم ذلك، أو حتى لو كان لديها أدنى ذرة من الشك، يمكن لها من خلالها تكذيب محمد ﷺ لما تباطأت في إظهار ذلك التشكيك.

وما دام لم يظهر شيء من هذا القبيل؛ فإن ذلك أدل الأدلة على كون إبراهيم عليه السلام ذهب إلى مكة، وبني الكعبة.

ومع ثبوت ذهاب إبراهيم عليه السلام إلى مكة، بالقرآن والتاريخ، وذلك كافٍ، فإن التوراة قد أشارت إلى أن إبراهيم عليه السلام ذهب إلى مكة؛ فقد جاء في سفر التكوين بعد أن حكت قصة انتقاله من موطنه إلى أرض كنعان: "ثم ارتحل أبرام ارتحالًا متواليًا نحو الجنوب". (التكوين ١٢: ٩).

والجنوب بالنسبة لفلسطين - أرض كنعان - هو الجزيرة العربية، ويلاحظ أن التوراة تؤكد على ارتحاله، وأن هذا الارتحال تمَّ في أماكن بعيدة إلى الجنوب، وما ذلك إلا دخوله بطن الجزيرة العربية.

وإن كانت هذه العبارة سبقت الحديث عن رحلته إلى مصر، فإن ذلك لا يمنع أن تكون رحلاته إلى الجنوب من أرض كنعان جاءت بعد عودته من الرحلة إلى مصر، واضطراب التوراة أمر معهود لكل من يقرؤها.

ثالثًا. بناء إبراهيم عليه السلام الكعبة ثابت تاريخيًّا. وكان البناء لعبادة الله وليس لعبادة الأوثان:

إن نفي بناء إبراهيم عليه السلام للكعبة لا دليل عليه، كما أن ادعاء بنائها لعبادة الأصنام، ما هو إلا هُراء[2] لا

١. المُعَوَّل عليه: المعتمد عليه.

٢. الهُراء: الكلام الفاسد الذي لا نظام له.

دليل عليه.

فنسبتها إلى إبراهيم عليه السلام أمر معلوم بالتواتر بين الأجيال؛ فأصبح بذلك قطعي الثبوت، مثل كل ما ثبت بالتواتر من البلاد، والأحداث. والثابت تاريخيًّا أن الأصنام، وعبادتها أمر دخيل على الكعبة، والبلد الحرام؛ فأول من أدخلها عمرو الخزاعي، ناقلًا لها من بلاد الشام إثر[1] عودته منها.

وقد جاء إبراهيم عليه السلام بالتوحيد الخالص: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١)﴾ (النحل). وتوارث أبناؤه من بعده ملته ومنهاجه الذي بُعث به من توحيد لله وعبادته، والوقوف عند حدوده، وتقديس حرماته، وفي مقدمة ذلك: تعظيم البيت الحرام وتقديسه واحترام شعائره والذَّوْد عنه[2]، فلما امتدت بهم القرون وطال عليهم الأمد أخذوا يخلطون الحق الذي توارثوه بكثير من الباطل الذي تسلل إليهم شأن سائر الأمم عندما يَغْشاها[3] الجهل ويبعد بها العهد ويَنْدَسُّ[4] بين صفوفها المُشَعْوِذون[5] والمبطلون فدخل فيهم الشرك واعتادوا عبادة الأصنام.

وكان أول من أدخلها فيهم وحَمَلهم عليها[6] هو عمرو بن لحي الخزاعي الذي ذهب إلى الشام فرآهم يعبدون الأصنام فقال: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدونها؟، قالوا له: هذه أصنام نعبدها نَسْتَمْطِرها[7] فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: أفلا تعطونني صنمًا فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه، فأعطوه صنمًا يقال له: هبل، فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته.

وهكذا انتشرت عبادة الأوثان فيهم، واستبدلوها بدين إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام -[8].

فهل يقال بعد هذا: إن الكعبة بُنيت لعبادة الأصنام؟! وإذا كانت بُنيت لعبادة الأصنام فمن الذي بناها لأصل هذا الغرض؟!

لقد كانت قريش تعبد الأصنام في البيت تقربًا إلى الله، قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ (٣)﴾ (الزمر)، فهذا الاعتراف من الكفار أنفسهم، بأن عبادة الأصنام ما هي إلا قربى لله عز وجل.

وجاء الإسلام فطهَّر البيت الحرام من عبادة الأصنام، وكانت نهاية عبادتها بفتح مكة؛ إذ دخل النبي صلى الله عليه وسلم البيت الحرام وبيده قَضِيب[9] يشير إلى الإطاحة بها وهو يقول: "جاء الحق وزَهَق[10]

---

١. إثر: عَقِب.
٢. الذَّوْد عنه: الدفاع عنه.
٣. يَغْشاها: ينتشر فيها.
٤. يَنْدَسُّ: يدخل في خفاء.
٥. المُشَعْوِذون: جمع مشعوذ، وهو من يقوم بأعمال احتيالية مُدَّعيًا أنه يمتلك موهبة أو معرفة، ولكنه لا يمتلكها، مأخوذ من قولهم: شعوذ الرجل؛ أي: مهر في الاحتيال؛ بحيث يُريك الشيء على غير حقيقته معتمدًا على خداع الحواس.
٦. حَمَلَهم عليها: أغراهم بها.
٧. نَسْتَمْطِرها: نطلب منها المطر.
٨. فقه السيرة، محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الدعوة الإسلامية، القاهرة، ط٧، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص٣٩، ٤٠.
٩. القَضِيب: العَصا.
١٠. زَهَق: ذهب وزال.

الباطل"[1].

وقال رسول الله ﷺ في حَجّة الوداع: "إن الشيطان قد يئس أن يعبد في بلدكم هذا..."[2]، ومن ثم فالكعبة بيت الله، بناه إبراهيم عليه السلام لعبادة الله لا لعبادة الأصنام كما ادّعى هؤلاء المبطلون.

الخلاصة:

- الكعبة بناء قائم على مر العصور، والأجيال تواترت على نسبة بنائها إلى إبراهيم عليه السلام ولم تختلف الأجيال والأمم المتلاحقة على ذلك - على الرغم من اختلافها في أشياء كثيرة - وهذا التَّواتُر[3] القطعي يفيد اليقين الذي يفيده وجود الكعبة نفسها على الأرض.
- النص القرآني أثبت أن إبراهيم عليه السلام ذهب إلى الجزيرة العربية، وبنى الكعبة، كما جاء ذلك أيضًا في التوراة (التكوين ١٢: ١ - ٩)، كذلك كان بناء الكعبة والبيت الحرام لعبادة الله عز وجل وحده، ولم تُعرف عبادة الأوثان فيهما إلا مؤخّرًا قبل بعثة النبي ﷺ، والذي أَدخل عبادتها إلى الجزيرة العربية هو عمرو الخزاعي عند عودته من بلاد الشام.

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب هل تكسر الدنان التي فيها الخمر أو تخرق الزقاق (٢٣٤٦)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب إزالة الأصنام من حول الكعبة (٤٧٢٥).

٢. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الفتن، باب دماؤكم وأموالكم عليكم حرام (٢١٥٩)، وابن ماجه في سننه، كتاب المناسك، باب الخطبة يوم النحر (٣٠٥٥)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٤٧٩).

٣. التَّواتُر: النقل المتتابع عن بعضه.

الشبهة الحادية والعشرون

ادِّعاء تباين القرآن المدني عن المكّي بشأن إبراهيم عليه السلام؛ استمالة لليهود (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغرضين أن إبراهيم عليه السلام ورد ذكره في القرآن المكي على أنه رسول أنذر قومه، ولم تُذكَر له أي علاقة بإسماعيل، ووضع قواعد البيت الحرام إلا في القرآن المدني، الذي ذكر أنه كان أول المسلمين حنيفًا قانتًا؛ وذلك من أجل استمالة اليهود في المدينة - بعدما ناصبوا القرآن ونبيه العداء في مكة - عن طريق الاتصال بيهودية إبراهيم عليه السلام واعتباره أبًا للعرب وبانيًا للبيت الحرام. ويستدلون على أنه لا علاقة للعرب بإبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - وأنهما لم يرسَلا إلى العرب بقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ (السجدة: ٣).

وجوه إبطال الشبهة:

١) آيات القرآن يُكمل بعضها بعضًا حسب المقام ومقتضى الحال والأغراض التي تساق من أجلها، وليس معنى ذلك أن القرآن يتباين أو يختلف في اتخاذ المواقف والإخبار عن الأمور.

٢) القرآن المكي ذكر - في سورة إبراهيم - صلة إبراهيم بإسماعيل - عليهما السلام - وقصة مجيئه إلى مكة وبناء البيت الحرام، فكيف يُفترى كذبًا ويُقال: إن هذه الأحداث لم تُذكر بالقرآن المكي؟! وادعاء قطع صلة

(*) موجز دائرة المعارف الإسلامية، فريق من الباحثين، مرجع سابق. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق. دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ط٥، ٢٠٠٢م.

إبراهيم بإسماعيل - عليهما السلام - يهدم التوراة قبل أن يُسيىء إلى القرآن؛ لأنها ذكرت صلة إبراهيم بإسماعيل - عليهما السلام -.

٣) لم يكن بمكة تجمعات يهودية حتى يقال: إن النبي ﷺ أراد الاعتماد عليهم ولكنهم عادوه، ثم هل يُعقل أن يلتمس التقرب إليهم في المدينة بعدما اتخذوا حياله خطة عداء بمكة؟! حسب زعمهم!!

٤) إن إبراهيم عليه السلام ما كان يهوديًّا ولا نصرانيًّا حتى يتمسَّحوا به، أو يكون الحديث عنه، أو الانتساب إليه تقربًا إليهم، ولكن إبراهيم عليه السلام كان حنيفًا مسلمًا، والنبي محمد ﷺ بعث بالحنيفية السمحاء.

٥) قوله ﷻ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ (السجدة: ٣)؛ أي: بعد أن تميزوا وتحققت قوميتهم، وانتهت رسالة إسماعيل عليه السلام الخاصة بأهله وأصهاره من جُرْهُم[1] فلم تكن عامة ولا دائمة.

التفصيل:

أولا. آيات القرآن يكمل بعضها بعضًا حسب المقام ومقتضى الحال وإنما التفاوت والتباين في عقول المشككين:

لقد جاء ذكر نبي الله إبراهيم عليه السلام في كثير من آيات القرآن الكريم، وكل الآيات التي جاءت في قصته يكمل بعضها بعضًا، حسب سياق الآيات وما يتطلبه الحال؛ ففي سورة العنكبوت مثلًا يخبر عن دعوة إبراهيم عليه السلام لقومه وأبيه إلى عبادة الله تبارك وتعالى وحده وتَرْك عبادة الأصنام مُبينًا لهم بالدليل العقلي بطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام وداعيًا إيَّاهم إلى النظر في الكون وما فيه من أسرار القدرة الإلهية ودلائل الربوبية والألوهية بالبرهان الواضح والمنطق السليم:

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ (العنكبوت).

وفي سورة مريم يدعو أباه إلى عبادة الله بكل أدب يتناسب مع مقام الوالد حتى ولو كان كافرًا - بالحكمة والموعظة الحسنة، حتى إنه عندما يقسو عليه ويهدده بالرجم يتركه إبراهيم عليه السلام قائلًا له: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ

---

١. جُرْهُم: اسم القبيلة التي تزوَّج منها سيدنا إسماعيل عليه السلام.

﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ٤٧﴾ (مريم)[1].

وفي سورة الأنعام يحاجّ قومه، ويبطل لهم بالدليل والبرهان عبادة غير الله تعالى من الكواكب والنجوم والشمس والقمر، وبالأحرى عبادة الأصنام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٧٤ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٧٩ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠﴾ (الأنعام).

وفي سورة البقرة وسورة إبراهيم يحكي قصة بناء البيت ودعاءه إلى الله ﷻ هو وإسماعيل ولده عليهما السلام.. وهكذا تتكرر قصة إبراهيم عليه السلام في كثير من سور القرآن وفي كل مرة يحكي القرآن جانبًا من حياته ومواقفه في سبيل الدعوة إلى الله تعالى وطاعته لأمر الله ﷻ.

ومن اللافت للنظر أن السور التي تحدثت عن الخليل إبراهيم عليه السلام في القرآن المكي يغلب عليها جانب التركيز على جهاده في الدعوة إلى الله تعالى وتوحيده، ومقاومة الشرك بكل صوره بالحكمة والموعظة الحسنة والبرهان القوي، من ذلك نقرأ قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٧٤﴾ (الأنعام).

ونلاحظ ذلك أيضًا في قوله ﷻ: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ٤١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـٔٗا ٤٢ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ٤٣ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيّٗا ٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيّٗا ٤٥﴾ (مريم)، وفي قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ٥١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ٥٢﴾ (الأنبياء)، وغير ذلك من السور الكريمة التي تحدثت عن ترسيخ[2] جانب التوحيد في نفوس الناس في بداية الدعوة الإسلامية.

أما القرآن في مرحلة ازدهار الدعوة الإسلامية، فنجد فيه التشريعات والقوانين الإلهية التي بلّغها رسول الله للناس لكي يسيروا على هداها، وكان من بين هذه التشريعات فريضة الحج، التي تعود بالمسلمين إلى عمارة المسجد الحرام والتي بدأت في عهد الخليل إبراهيم عليه السلام بعد بناء البيت الحرام على يد إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، ومن المناسب في هذا المقام أن يذكر بناء إبراهيم عليه السلام للكعبة وتكليفه بأن يؤذن في الناس بالحج إلى بيته الحرام، وأن يذكر أمة الإسلام بأنها

---

١. حَفِيًّا: بليغًا بي في البر واللُّطف.

٢. ترسيخ: تثبيت.

امتدادٌ للحنيفية التي جاء بها إبراهيم عليه السلام وإن كانت قصة بناء البيت وترك إسماعيل عليه السلام وأمه عنده وحدهما ذُكرت من قبل في القرآن المكي بسورة إبراهيم، ولكن ليس بهذا التفصيل؛ لأنها كانت مسوقة لغرض آخر هناك، وهذا يؤكد ما سبق أن قررناه من أن حديث القرآن عن قصة إبراهيم عليه السلام جاء مناسبًا للمقام الذي نزلت فيه تلك السور، ومن هنا يظهر مدى التوافق الذي بين آيات السور دون أدنى اختلاف أو تباين، كما يدعي هؤلاء المغرضون.

ثانيًا. قصة بناء البيت الحرام، وصلة إبراهيم بإسماعيل ـ عليهما السلام ـ مذكورة في القرآن المكي:

إن الزعم القائل أن القرآن المكي لم يذكر صلة لإسماعيل بإبراهيم ـ عليهما السلام ـ هو محض افتراء على كتاب الله تعالى ويعد كذبًا وزورًا؛ وذلك لأن الذي أصدر مثل هذا الحكم يُفترض فيه أنه استقصى كل المواضع التي تحدثت في القرآن عن علاقة إبراهيم بإسماعيل عليهما السلام ـ مكية كانت أو مدنية ـ فمثل هذا الحكم لا يكون إلا بعد استقصاء وحصر؛ وإلا عُدّ هذا افتراءً ناتجًا عن خطأ أو عن جهل، وإذا كان الحكم بدون علم وعن جهل جريمة لا تغتفر فإن الافتراء عن عمد وسابق علم هو أشد شناعة وأفظع جرمًا.

والذي افترى تلك الفرية إنما يروّج لفكرةٍ يُراد الوصول إليها ـ وهي أن محمدًا ﷺ ظل بعيدًا عن صلة العرب بإبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ إلى أن هاجر إلى المدينة فبدت له فكرةٌ هي أن يصل حبل العرب الذين هو منهم باليهود عن طريق إسماعيل وإبراهيم، مع أنه لا صلة للعرب بإبراهيم وإسماعيل حسب افترائهم.

وهذه الفكرة تهدم التوراة قبل أن تسيء إلى القرآن؛ لأن التوراة ذكرت صلة إبراهيم بإسماعيل ـ عليهما السلام ـ وأنه جَدُّ عدّة قبائل في بلاد العرب، وحين عدّ المفترون السور المكية عمدوا إلى التي يذكر فيها إبراهيم مجردًا عن الصلة بإسماعيل والعرب؛ لذلك تخطّوا سورة إبراهيم وهي مكية، وقد شهدت بعكس ما يقولون، وآياتها شاهدة بأن إبراهيم وإسماعيل بنيا البيت، وأنهما كانا يدعوان الله عز وجل بالهداية، وأن إبراهيم عليه السلام كان يدعو الله عز وجل أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام ـ ويذكر أنه أسكن من ذريته بواد غير ذي زرع عند بيت الله الحرام، ويدعو الله أن يرزقهم من الثمرات ويحمد الله عز وجل أن وهب له إسماعيل وإسحاق[1].

ولذا يقول القرآن على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ

١. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٩٨.

ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ (إبراهيم)[1].

أما زعمهم أن إبراهيم عليه السلام لم يُذكر بأنه حنيف إلا في السور المدنية فهذا أيضًا كذب مفترى، فقد ذُكر بأنه كان حنيفًا في سورة الأنعام مرتين، وفي سورة النحل كذلك وهما مكيتان:

أما سورة الأنعام فقد ورد قوله عز وجل: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ (الأنعام)، وقوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ (الأنعام)[2].

وأما سورة النحل فقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ (النحل).

وبهذا يتبين فساد تلك الدعوى المضللة لبطلان أدلتها؛ بل يتضح مدى الحقد الذي يُكِنُّه[3] أصحاب تلك الدعوات على الإسلام والمسلمين، فيزيفون الحقائق ويكذبون على القرآن الكريم افتراءً على الحق من أجل تشويهه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (التوبة).

ثالثًا. لم يكن بمكة تجمعات يهودية:

لم يذكر التاريخ أن مكة كان بها يهود، ولقد ذكرت كل مصادر السِّير أحداث الدعوة المحمدية في مكة، وأتت عليها تفصيلًا لكل الجزئيات وتحليلًا لكل المواقف ولم نجد من بين تلك الأحداث شيئًا يتعلق باليهود؛ إذ لم يكن لهم ذكر بمكة يترتب عليه حدث تاريخي أو أثر في الأحكام، بل إن المشركين في مكة لما عجزوا عن تكذيب النبي محمد ﷺ وأرادوا أن يستعينوا في حربهم ضده بأهل الكتاب ربما يجدون عندهم شيئًا يطعنون به في نبوته ورسالته - لعلمهم بالكتاب الأول - بعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة - يثرب - يسألونهم رأيهم في دعوته ﷺ وهم يطمعون أن يجد لهم الأحبار ما لم يهتدوا إليه مما يواجهون به تكذيبهم إياه، قالوا: فإن اليهود أهل الكتاب الأول وعندهم من علم الأنبياء - أي صفاتهم وعلاماتهم - علم ليس عندنا، فَقَدِم النضر وعقبة ووصفا لليهود دعوة النبي ﷺ وأخبراهم ببعض قوله، فقال لهم أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث؟ فإن أخبركم بهن فهو نبي، وإن لم يفعل فالرجل متقوِّل[4]، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأوَّل ما كان أمرهم، وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وسلوه عن الروح ما هي، فرجع النضر وعقبة فأخبرا قريشًا بما قاله أحبار اليهود[5].

فأنزل الله سورة الكهف وشطرًا من سورة الإسراء

---

١. اجنُبْني: ابعدني عن، واحفظني من.
٢. قِيَمًا: مستقيمًا.
٣. يُكِنُّ: يُخفِي.

٤. المُتَقَوِّل: الذي يفتري ويختلق القول كذبًا.
٥. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٧، ج١٥، ص٢٤٢، ٢٤٣ بتصرف.

على رسوله ﷺ فيهما إجابة على أسئلة المشركين وإثبات نبوته ﷺ.

والشاهد من هذه القصة أنه لو كان بمكة يهود لما احتاج المشركون أن يسافروا إلى المدينة ليسألوهم عما سألوهم عنه، فكيف يفتري هؤلاء المغرضون ويقولون: إن النبي محمدًا ﷺ "أراد أن يعتمد على اليهود في مكة فما لبثوا أن اتخذوا حياله خطة عداء ـ فلم يكن له بدٌّ من أن يلتمس غيرهم ناصرًا ـ هناك هداه ذكاءٌ مسدد إلى شأن جديد لأبي العرب ـ إبراهيم عليه السلام ـ وبذلك استطاع أن يخلص من يهودية عصره ليصل حبله بيهودية إبراهيم عليه السلام، تلك اليهودية التي كانت ممهدة للإسلام ـ ولما أخذت مكة تشغل جل تفكير الرسول ﷺ أصبح إبراهيم عليه السلام أيضًا المشيد لبيت هذه المدينة المقدس"[١].

هذه هي عبارة بعض الذين نصّبوا أنفسهم لحرب الإسلام وإلصاق النقص به والعيب على القرآن وستر محاسنه؛ ليظهروه في صورة لا تكاد تختلف عن كتبهم المحرفة فهم كما قال ﷻ: ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ (النساء: ٨٩)[٢].

إن العبارة السابقة تشير إلى ما تُكِنّه نفوسهم من حقد على الإسلام والمسلمين، هذا الحقد الذي جعل صاحبه غير متزن الفكر بعيدًا عن الالتزام بمعطيات المنهج العلمي من النزاهة والدقة والبحث من أجل إبراز الحقائق لا من أجل طَمْسها[٣] إشباعًا لأهواء النفس الجامحة؛ فيدعي كذبًا أن القرآن المكي لم يذكر صلة إبراهيم بإسماعيل ـ عليهما السلام ـ وقصة بناء البيت، وذلك مذكور فيه ولكن تجاوُزه عمدًا كان لغرض التدليل على أحكام مسبقة اعتقدها هؤلاء، وليست ناتجة عن بحث علمي نزيه.

وأكثر من ذلك ـ اضطرابًا في الفكر والفهم ـ أن يَكذب عليه ويَدَّعي أحداثًا لم يسجلها مثل ادعائه أن اليهود كان لهم كِيان بمكة وأراد محمد ﷺ أن يعتمد على هذا الكيان وذلك على عكس حقائق التاريخ التي لم يرد فيها أي أثر للتجمعات اليهودية بمكة.

والأغرب من ذلك أن يُدّعى أن النبي ﷺ لما فشل في أن يجذب اليهود إليه في مكة واتخذوا ضده خطة عداء راح يستميلهم في المدينة عندما ذكر إبراهيم عليه السلام وصلته بالعرب وقصة بناء البيت. هذه أفكار مشوهة ونتائج مضطربة لا يمكن أن ينسجم بعضها مع بعض، ولا يمكن أن يقبلها العقل السليم أو تسير مع قواعد المنطق؛ إذ كيف يعقل أن يلتمس النبي ﷺ التقرب إلى اليهود بالمدينة بعدما ناصبوه العداء بمكة ـ حسب زعمهم ـ بل إن الذي يفهمه العقل الرشيد، والذي تبرزه نتائج المنطق السديد أن من يناصبني العداء فلا بد من أن أعاديه لاأن ألتمس التقرب إليه.

نعم لم يكن بمكة يهود ـ كما أسلفنا ـ ولكن كان بالمدينة طوائف منهم، ولما ذهب النبي ﷺ إلى المدينة وعلموا أنه نبي آخر الزمان الموصوف عندهم في كتبهم وكانوا يستفتحون[٤] به من قبل على العرب ويبشرون

١. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٩٧.

٢. المرجع السابق، ص٩٧.

٣. طَمْسها: إخفائها أو تشويهها.

٤. يستفتحون: يستنصرون على الكفار بقولهم: إن نبيًّا يبعث فيهم.

بقرب بعثته، كان المنتَظَر منهم أن يؤمنوا به ويصدّقوه وخاصة أنهم كانوا أهل توحيد، ويجانبون عبادة الأصنام ويعادون أهلها، فلما جحدوا وكفروا عن علم، استكبارًا أو حسدًا، صاروا كغيرهم لا فضل لهم على بقية الناس ولا ميزة؛ لأن الكفر كله ملة واحدة، لذلك ما أمل النبي ﷺ أن يعتز بهم يومًا، ومع ذلك لم يظلمهم النبي ﷺ بل عقد معهم وثيقة المدينة، وكانت معاهدة عادلة بين المسلمين واليهود فلما خانوا ونكثوا العهد وناصبوه العداء لم يكن بدٌّ من حربهم والقضاء عليهم.

وإننا لنتساءل كيف يلتمس النبي محمد بن عبد الله ﷺ التقرب من اليهود في المدينة والقرآن المدني يقول: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ (المائدة: ٨٢)، و أيضًا كيف يكون الانتساب إلى إبراهيم عليه السلام تقربًا إلى اليهود، و الخليل إبراهيم عليه السلام ما كان يهوديًا ولا نصرانيًّا؟!

رابعًا. إبراهيم عليه السلام ما كان يهوديًّا ولا نصرانيًّا، بل كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين:

الخليل نبي الله إبراهيم عليه السلام لم يكن يهوديًّا كما يدعي أصحاب هذه الشبهة؛ لأن اليهودية ديانة موسى عليه السلام وهو من نسل إسحاق بن إبراهيم، ولم تأت التوراة إلا من بعده، فكيف تُنسب إلى إبراهيم عليه السلام؟! وهل يعقل أن ينسب الأصل إلى الفرع أم العكس؟! قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ (آل عمران).

واليهودية، والنصرانية [1] لم تتفقا مع الإسلام في الأصول والعقيدة - فضلًا عن الفروع - فكيف يذكر أن رسول الله يستميل اليهود، ولو حاول الرسول ﷺ أن يفعل ذلك لكان أولى الناس بذلك أهله وعشيرته وقومه من مشركي مكة، ولكن رسول الله ﷺ رفض كل صور الاستمالة التي عرضت عليه من قبل قومه ومن قبل غيرهم.

وإبراهيم عليه السلام لم يكن أبا العرب بل هو جدهم ويشترك معهم في ذلك بنو إسرائيل، وجاء وصفه في القرآن بأنه أبو المسلمين في قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ (الحج)، والأبوة في الآية ليست أبوة نسب فقط بل أبوة أيضًا انتماء كالأخوة في الإسلام، أما إسماعيل عليه السلام فهو أبو العرب العدنانيين.

ولم يلفق النبي ﷺ قصة بناء الكعبة وينسبها إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، بل هي حادثة ثابتة تاريخيًّا بالتواتر عن العرب وغيرهم من الأمم.

يقول الشيخ محمد الغزالي عن هؤلاء المشككين من المستشرقين: وقد استبدَّ بهم الحماس [2] في هذا الوهم حتى أفقدهم كل اتزان علمي، فالمستشرق مرجيلوث يري أن الآيات القرآنية التي تحكي مجيء إبراهيم عليه السلام

---

٢. انظر: قصص الأنبياء، الشيخ محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق.

٢. استبدَّ بهم الحماس: غلبهم فلم يقدروا على ضبطه.

إلى مكة واستيطان ذريته بجوار البيت بعدما بناه هو وابنه إسماعيل آيات مفتعلة دعت إلى افتعالها رغبة الرسول ﷺ في تألف اليهود، وإثبات صلة قرابة بينهم وبين العرب؛ لذلك جاء في سورة البقرة وهي مدنية، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ (البقرة)، والمستشرق الذي يوجه هذا الاتهام إلى القرآن الكريم ينسى في غمرة حماسه أمرين:

الأول: أن الحديث عن إبراهيم عليه السلام وزيارة مكة واتصاله بالعرب لم يبدأ في المدينة تأليفًا لقلوب اليهود، وإنما بدأ في مكة حيث لا يهود فيها، وفي القرآن الكريم سورة اسمها "إبراهيم" جاء فيها قول الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (إبراهيم).

الثاني: أن العهد القديم الذي يرى هذا المستشرق أنه مقدس أثبت قدوم إبراهيم عليه السلام وابنه إلى بلاد العرب، فكيف يقول مستشرق متّزن الفكر أن آيات سورة البقرة غير صحيحة، وأنها قيلت استرضاءً لليهود، وأنها تخالف القرآن المكي[1]؟

وعليه؛ فإن ادعاء اليهود أن إبراهيم عليه السلام كان يهوديًا، أو أنهم على شريعة إبراهيم عليه السلام وملته، ومثله ادعاء النصارى ومشركي مكة أنهم على شريعة نبي الله إبراهيم عليه السلام وملته ادعاء باطل ينقضه التاريخ والواقع والعقل، بل ينقضه جهلهم بالحنيفية السمحاء فإنهم لا قبل لهم بالمعرفة بدين إبراهيم عليه السلام، ومن أين يعلمونه ولا مستند لهم في علمهم بأمور الدين إلا التوراة والإنجيل؟ وقد نزلا من بعد إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ (آل عمران).

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ (آل عمران) يدل على أن الله أخبر في القرآن بأنه أرسل محمدًا ﷺ بالإسلام دين إبراهيم عليه السلام، وهو أعلم منكم بذلك، ولم يسبق أن امتن عليكم بمثل ذلك في التوراة والإنجيل، فأنتم لا تعلمون ذلك، فلما جاء الإسلام وأنبأ بذلك أردتم أن تنتحلوا هذه المزية، واستيقظتم لذلك حسدًا على هذه النعمة، فنهضت الحجة عليكم[2].

ويذكر الشيخ الطاهر ابن عاشور في قول اللهتبارك وتعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (آل عمران) نتيجة للاستدلال إذ قد تحصحص من الحجة الماضية أن اليهودية والنصرانية غير الحنيفية، إذ لم يؤثر ذلك عن موسى وعيسى - عليهما السلام - لم يخبرا بأنهما على الحنيفية، فأنتج أن إبراهيم عليه السلام لم يكن على حال

---

١. دفاع عن العقيدة ضد مطاعن المستشرقين، محمد الغزالي، مرجع سابق، ص٣٠.

٢. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٣، ج٣، ص٢٧١ وما بعدها.

اليهودية أو النصرانية، إذ لم يؤثر ذلك عن موسى ولا عيسى - عليهما السلام -، فهذا سنده خلو كتبهم عن ادعاء ذلك، وكيف تكون اليهودية أو النصرانية من الحنيفية مع خلوها من فريضة الحج، وقد جاء الإسلام بذكر فرضه لمن تكمن منه.

ومما يؤيد هذا ما ذكره الإمام ابن عطية في تفسير قوله تعالى في هذه السورة: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ (البقرة) عن عكرمة قال: لما نزلت الآية قال أهل الملل: قد أسلمنا قبلك، ونحن المسلمون، فقال الله له: فحجهم يا محمد وأنزل الله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (آل عمران: ٩٧) فحج المسلمون وقعد الكفار، ثم تمم الله ذلك بقوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ (آل عمران) فأبطلت دعاوى الفرق الثلاث.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ (آل عمران) أما الاستدراك بعد نفي الضد حصرًا لحال إبراهيم عليه السلام فيما يوافق أصول الإسلام؛ لذلك بُين "حنيفًا "بقوله: ﴿مُّسْلِمًا﴾؛ لأنهم يعرفون معنى الحنيفية ولا يؤمنون بالإسلام، فأعلمهم أن الإسلام هو الحنيفية، وقال: فنفي عن إبراهيم عليه السلام موافقة اليهودية، وموافقة النصرانية، وموافقة المشركين وأنه كان مسلمًا فثبتت موافقته الإسلام[1].

وبذلك يتبين أن الانتساب إلى إبراهيم عليه السلام لم يكن تقربًا من اليهود؛ لأن إبراهيم عليه السلام لم يكن يهوديًّا كما ادعى هؤلاء المغرضون بقولهم "يهودية إبراهيم "، بل كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين®.

خامسًا. العرب لم يُرسل إليهم رسول منذ أن تحققت قوميتهم:

أما استدلالهم بقوله ﷻ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ (السجدة: ٣) وغيرها من الآيات - على إنكار صلة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - بالعرب؛ فباطل إذ لو كانا رسولين إلى العرب لتناقض ذلك مع هذه الآية التي تخبر بأن العرب لم يأتهم نذير من قبل محمد ﷺ، حسب توهمهم.

والحقيقة أن هذه الآية الكريمة ونظائرها مثل قول الله تعالى في سورة يس: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾﴾ (يس) واضحة في أن هؤلاء العرب المعاصرين لرسالة النبي محمد ﷺ وآباءهم إلى جدهم الأعلى لم يأتهم نذير، أما رسالة إسماعيل عليه السلام فكانت خاصة في أهله وأصهاره من جرهم، ولم يكن مرسلًا إلى من بعده فتوقفت رسالته بموته، وكذلك أسلاف هؤلاء العرب مثل قوم عاد وثمود الذين أتتهم الرسل، فقد كان ذلك قبل أن تتحقق قومية خاصة بهم، وبذلك يسقط استدلالهم بهذه الآية على نفي رسالة إسماعيل وإبراهيم - عليهما السلام - وصلتهما بالعرب، بل الدليل قائم على رسالة إبراهيم وإسماعيل وبنائهما

---

١. المرجع السابق، ص٢٧٤، ٢٧٥ بتصرف.

® في **"حقيقة دين إبراهيم عليه السلام وأنه كان حنيفًا مسلمًا"** طالع أيضًا: الوجه الرابع، من الشبهة الثلاثين، من الجزء الحادي عشر (سلامة القرآن الكريم). وفي **"ردّ القرآن الكريم على ادعاء أن إبراهيم عليه السلام كان يهوديًّا أو نصرانيًّا"** طالع: الشبهة الثامنة والخمسين، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد عليها).

البيت في القرآن والتوراة، فمعنى الآية: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ منذ أن تحققت قوميتهم بعد انقضاء رسالتي إسماعيل وإبراهيم - عليهما السلام -.

يقول ابن عاشور في تفسير آية سورة يس: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ (يس): والقوم الموصوفون بأنهم لم تنذر آباؤهم: إما العرب العَدْنانيُّون[1] فإنهم مضت قرون لم يأتهم فيها نذير، ومضى آباؤهم لم يسمعوا نذيرًا، وإنما يُبتدأ عد آبائهم من جدهم الأعلى في عمود نسبهم الذي تميزوا به جذمًا وهو عدنان؛ لأنه جدُّ العرب المستعربة، أو أريد أهل مكة، وإنما باشر النبي ﷺ في ابتداء بعثته دعوة أهل مكة وما حولها، فكانوا هم الذين أراد الله أن يتلقوا الدين وأن تتأصل منهم جامعة الإسلام.

ثم كانوا هم حملة الشريعة وأعوان الرسول ﷺ في تبليغ دعوته وتأييده، فانضم إليهم أهل يثرب وهم قحطانيون فكانوا أنصارًا، ثم تتابع إيمان قبائل العرب[2].

ثم يوضح الشيخ ابن عاشور هذه المسألة ويفصلها ويبين المراد منها أو الغرض الذي سيقت له، وذلك عندما يفسر قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾ (السجدة) إذ يقول: ووصف القوم بأنهم: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ قبل رسول الله ﷺ، والنبي حينئذ يدعو أهل مكة ومن حولها إلى الإسلام وربما كانت الدعوة شملت أهل يثرب وكلهم من العرب، فظهر أن المراد بالقوم العرب الذين لم يأتهم رسول قبل محمد ﷺ فإما أن يكون المراد قريشًا خاصة، أو عرب الحجاز أهل مكة والمدينة وقبائل الحجاز، وعرب الحجاز جذمان عدنانيون وقحطانيون؛ فأما العدنانيون فهم أبناء عدنان وهم من ذرية إسماعيل عليه السلام، وإنما تقومت قوميتهم في أبناء عدنان: وهم مضر، وربيعة، وأنمار، وأياد، وهؤلاء لم يأتهم رسولٌ منذ تقومت قوميتهم.

وأما جدهم إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - فإنه وإن كان رسولًا نبيًّا كما وصفه الله ﷻ في سورة مريم، فإنما كانت رسالته خاصة بأهله وأصهاره من جرهم ولم يكن مرسلًا إلى الذين وجدوا بعده؛ لأن رسالته لم تكن دائمة ولا منتشرة، قال ﷻ: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ (مريم: ٥٥).

وأما القَحْطانيُّون[3] القاطنون[4] بالحجاز مثل الأوس والخزرج وطيء، فإنهم قد تغيرت فرقهم ومواطنهم بعد سيل العرم، وانقسموا أقوامًا جُددًا، ولم يأتهم نذير منذ ذلك الزمن، وإن كان المنذرون قد جاءوا أسلافهم مثل هود وصالح وتُبع، فذلك كان قبل تقوُّم قوميتهم الجديدة.

وإما أن يكون المراد العرب كلهم بما يشمل أهل اليمن واليمامة والبحرين وغيرهم ممن شملتهم جزيرة العرب وكلهم لا يعْدون أن يرجعوا إلى ذَيْنِك

١. العَدْنانيُّون: هم العرب المنحدرة من صُلْب إسماعيل عليه السلام، ويُسمَّون بالعرب المستعربة، وهم عرب الشمال.

٢. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١١، ج٢٢، ص٣٤٨.

٣. القَحْطانيُّون: هم العرب المنحدرة من صُلْب يَعْرُب بن يشحب ابن قحطان، وتسمى "بالعرب العادية"، وهم عرب الجنوب، مهدها بلاد اليمن.

٤. القاطنون: الساكنون.

الجِذْمَين[1]، وقد كان انقسامهم أقوامًا ومواطن بعد سيل العرم، ولم يأتهم نذير بعد ذلك الانقسام كما تقدم في حال القحطانيين من أهل الحجاز، وأما ما ورد من ذكر حنظلة بن صفوان صاحب أهل الرَّسّ، وخالد بن سنان صاحب بني عَبْس فلم يثبت أنهما رسولان واختلف في نبوتهما، وقد روي أن ابنة خالد بن سنان وفدت إلى النبي ﷺ وهي عجوز، وأنه قال لها: "مرحبًا بابنة نبي ضيّعه قومه"، وليس لذلك سند صحيح، وذكره الإمام الذهبي في ميزان الاعتدال (٨/ ٢٢١) وقال: لا يصح هذا، ويرد عليه الحديث الصحيح: "أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم ليس بيني وبينه نبي"[2].

وأيًا ما كان فالعرب كلهم أو الذين شملتهم دعوة الإسلام يومئذ يحق عليهم وصف ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ من وقت تحقق قوميتهم.

والمقصود به تذكيرهم بأنهم أحوج الأقوام إلى نذير، إذ لم يكونوا على بقية من هُدى وإثارة هممهم، لاغتباط أهل الكتاب ليتقبلوا الكتاب الذي أنزل إليهم ويسبقوا أهل الكتاب إلى اتباعه فيكون للمؤمنين منه السبق في الشرع الأخير كما كان لمن لم يُسلم من أهل الكتاب السبق ببعض الاهتداء وممارسة الكتاب السابق[3].

وهناك رأي آخر في توجيه هذه المسألة وهو أن قوله تعالى: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي ما أرسلنا نذيرًا أو رسولًا شرع لهم هذه الشرائع الشركية التي يشركون بها مع الله تعالى آلهة أخرى؛ يقول عبد الوهاب النجار: كان دين كثير من العرب عبادة الأوثان، وكان لهم قرابين يقدمونها إليها وقد سَيَّبوا السَّوائب[4] وبحَّروا البحائر[5] ووَصَلوا الوَصِيلة[6] وسنُّوا لهم قواعد ما أنزل الله بها من سلطان؛ فجاء محمد ﷺ لينذر هؤلاء القوم الذين يدعون أنهم على دين، وأن الله قد أمرهم بما هم عليه، مع أن الله ما أرسل إليهم نذيرًا شرع لهم هذه الشرائع الباطلة؛ لأنهم كانوا إذا ظلموا أنفسهم بشرائعهم الباطلة، قالوا: وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها - وقد ناقشهم الله في ذلك ورد عليهم في غير موضع من القرآن كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (الأعراف).

وفي سورة الصافات بعد أن ذكر دعاوى الوَثَنِيِّين[7] بقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ

---

١. ذَيْنِكَ الجِذْمَين: هذين الفرعين لعدنان.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام (٦٢٨٠).

٣. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١٠، ج٢١، ص٢٠٩، ٢١٠ بتصرف.

٤. سيَّبوا السَّوائب: تركوها دون ركوب، لا يُحْلَب لبنها إلا لضيف، وتركوها للأصنام، والسوائب: الناقة التي تنتج عشرة أبطن من الإناث.

٥. بحَّروا البحائر: الناقة التي تلد خمسة أبطن آخرها ذَكَر كانوا يبحرون - يشقُّون - أذنها، ويخلون سبيلها، فلا تُركب ولا تُحلب، ولا يُحمل عليها شيء.

٦. وَصَلوا الوَصِيلة: وهي الشاة التي إن ولدت أنثى فهي لهم، وإن ولدت ذكرًا فهو لآلهتهم، وإن ولدت ذكر وأنثى معًا قالوا: وصلت الأنثى أخاها، فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم.

٧. الوَثَنِيُّون: هم الذين يعبدون الأوثان؛ أي: التماثيل من خشب أو حجر أو نحاس أو فضة أو غير ذلك.

﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ (الصافات) ففي هذه الآيات الكريمة من الأنباء عن السخط العظيم والإنكار الفظيع لأقاويلهم، والتضعيف لعقولهم، واتهامهم مع الاستهزاء بهم، وفي قوله: ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ (الصافات)؛ أي الناطق بصحة دعواكم، والأمر فيه للتعجيز وإضافة الكتاب إليهم للتهكم، وفي قوله: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَـٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾ (الصافات) إضراب انتقالي من توبيخهم بما ذكر بتكليفهم ما لا يدخل تحت الوجود أصلًا؛ أي: بل ألكم حجة واضحة نزلت من السماء بأن الملائكة بناته تعالى ضرورة، فإن الحكم بذلك لا بد له من سند حسي أو عقلي وحيث انتفى كلاهما فلا بد من سند نقلي وهو لا يوجد عندهم.

فالمعنى في هذه الآيات مثله في قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾ (الأحقاف: ٤) تبكيت لهم بتعجيزهم عن الإتيان بسند نَقْلِي بعد تبكيتهم بالتعجيز عن الإتيان بسند عقلي، فهو من جملة القول؛ أي: ائتوني بكتاب إلهي كان من قبل هذا الكتاب - أي القرآن الناطق بالتوحيد وإبطال الشرك - دال على صحة دينكم، أو أثارة من علم - أي: بقية علم بقيت عندكم من علوم الأولين - شاهدة باستحقاقهم العبادة؟!

وهكذا كل آية وردت في هذا المعنى[1].

وبهذا يتبين بطلان الاستدلال بقوله تعالى: ﴿مَّآ أَتَـٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ على قطع الصلة بين العرب وأبيهم إسماعيل وجدهم إبراهيم - عليهما السلام -؛ لأنه لا ينفي رسالتهما بل معناه: ما أتاهم من نذير من قبلك بعد أن تحققت قوميتهم من بعد انقضاء رسالة إسماعيل عليه السلام الخاصة بأهله وأصهاره، أو ما أتاهم من نذير؛ أي رسول شرع لهم تلك الشرائع الباطلة قبلك يا محمد بل اخترعوها من أنفسهم وبوحي من شياطينهم.

الخلاصة:

- الادعاء أن قصة الخليل إبراهيم وابنه إسماعيل وصلتهما بالعرب وبناء البيت لم تذكر إلا في القرآن المدني تَقربًا لليهود واستمالة لهم بعد فشل الاعتماد عليهم في مكة والاستناد إلى قوله ﷺ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَـٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ (السجدة: ٣) في قطع صلة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - بالعرب وأنهما لم يرسلا إليهم... هذا الادعاء باطل ومردود من وجوه:
  - أن هذه القصة واردة في القرآن المكي بسورة إبراهيم المكية في الآيات من (٣٥ إلى ٤١) فكيف يُفْترى كذبًا خلوّ القرآن المكي من ذلك؟!
  - قطع صلة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - بالعرب يكذبه التاريخ وسلسلة نسب العرب المحفوظة في التاريخ أيضًا، وهذا القطع فكرة شيطانية تهدم التوراة قبل أن تُسيىء إلى القرآن؛ لأن التوراة ذكرت صلة إبراهيم بإسماعيل - عليهما السلام -، وأن إبراهيم هو جد قبائل عربية عدّة.
  - لم يكن بمكة يهود حتى يحاول النبي ﷺ أن يعتمد

---
[1]. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٩٩، ١٠٠.

عليهم، وهل يعقل أن يحاول النبي ﷺ أن يتقرب إلى اليهود في المدينة بعدما خذلوه واتخذوا حياله خطة عداء بمكة حسبما يزعمون.

- كيف يحاول النبي ﷺ أن يتقرب إلى اليهود بالمدينة والقرآن المدني يحذره خطرهم وغدرهم وخيانتهم؟ بل جاء في سورة المائدة المدنية: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ (المائدة: ٨٢).

- ما كان إبراهيم عليه السلام يهوديًّا ولا نصرانيًّا حتى يتمسحوا به، أو يكون الحديث عنه والانتساب إليه تقربًا إليهم، بل كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين والأدلة على ذلك كثيرة منها:

- أن كتبهم لم تذكر أن إبراهيم عليه السلام كان يهوديًّا أو نصرانيًّا ولم تأمرهم باتباع ملته.

- أنهم لا يمارسون كثيرًا من شعائره كالحج، ولا توجد في كتبهم مثل هذه الشعائر فكيف يدعون موافقته؟!

- أن اليهودية والنصرانية كانتا بعد إبراهيم عليه السلام فالتوارة أنزلت على موسى عليه السلام وهو من نسل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم السلام -، فكيف ينسب إبراهيم عليه السلام إليها وهل يعقل أن ينسب الأصل إلى الفرع؟!

- أن القرآن الكريم ذكر أن إبراهيم عليه السلام كان حنيفًا مسلمًا بل هو أول المسلمين وأمر المسلمين باتباع ملته وقرر عليهم معظم شرائعه، ومنها الحج.

- قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ لا ينفي رسالة الخليل إبراهيم و ابنه إسماعيل عليهما السلام - وبالتالي نفى علاقتهما بالعرب كما يدَّعي هؤلاء، وإنما معناه: لتنذر قومًا ما أتاهم من نذير من قبلك بعد أن تحققت قوميتهم وذلك بعد انقضاء رسالة إسماعيل الخاصة بأهله وأصهاره.

أو معناه لتنذر قومًا ما أتاهم من نذير أي رسول قبلك شرَّع لهم تلك الشرائع الشركية وإنما اخترعوها من تلقاء أنفسهم وبوحي من شياطينهم.

الشبهة الثانية والعشرون

الزعم أن إبراهيم عليه السلام شكَّ في قدرة الله على إحياء الموتى(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين وقوع الشك في قلب سيدنا إبراهيم عليه السلام حين سأل ربه عن كيفية إحياء الموتى؛ ليطمئن قلبه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ (البقرة: ٢٦٠). ويتساءلون: كيف يصدر ذلك عن نبي من أنبياء الله؟ قاصدين بذلك النيل من عصمة إبراهيم عليه السلام.

وجه إبطال الشبهة:

نبي الله إبراهيم عليه السلام لم يشك في قدرة الله تبارك وتعالى على إحياء الموتى، ولكن سأل عن الكيفية فقط؛ ليصل بها من علم اليقين إلى عين اليقين.

(*) عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

التفصيل:

إبراهيم ﷺ لم يشك في قدرة الله على إحياء الموتى، ولكن سأل عن الكيفية فقط؛ ليصل بها من علم اليقين إلى عين اليقين:

لقد عصم الله تبارك وتعالى أنبياءه ورسله من كيد الشيطان ووساوسه التي قد تنال من عمق إيمانهم ودرجة قربهم من الله تبارك وتعالى ومن أشهرهم سيدنا إبراهيم أبو الأنبياء ﷺ كما أخبر القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ (النحل).

وقوله "أمة "أي قدوة إمامًا مهتديًا داعيًا إلى الخير، يُقتدى به: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ أي خاشعًا له في جميع حالاته وسكناته ﴿حَنِيفًا﴾ أي مخلصًا على بصيرة ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾(النحل: ١٢١) أي قائمًا بشكر ربه بجميع جوارحه من قلبه ولسانه وأعماله؛ فكيف بمن هذا حاله، أيشك في قدرة المولى ﷻ على إحياء الموتى؟!!

وكيف يشك في هذا الأمر، وقد حاجّ طاغية عصره في هذه القضية، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ (البقرة)، ومن ثم فكيف يسوغ لمن حاج خصمه بقضية الإحياء والموت، أن يشك فيها بعد ذلك؟! ألا يدل ذلك على جهل هؤلاء المدعين وكذبهم على أنبياء الله تعالى؟! إن الخليل إبراهيم ﷺ لا يتكلم في الإحياء، وإنما كان شكه في أن الله سبحانه قد لا يستجيب لطلبه في أن يريه ويطلعه على كيفية إحياء الموتى، ولنضرب مثالا على ذلك، ولله المثل الأعلى. إن الواحد منا يقول للمهندس: كيف بنيت هذا البيت؟ إن صاحب السؤال يشير إلى حدث وإلى مُحْدث وهو البيت الذي تم بناؤه. فهل معرفة الكيفية تدخل في عقيدة الإيمان؟ لا. إذن فالاطمئنان جاء لمراد في كيفية مخصوصة تخرجه من متاهات كيفيات مقصورة ومتخيلة[١].

واستنادًا إلى ما سبق فقد كان سؤال إبراهيم ﷺ عن كيفية إحياء الموتى، وكيفية جمع الأجزاء لا عن الإحياء نفسه، فإنه ثابت ومقرر، ويدل على ذلك وقوع السؤال بكيف التي تسأل عن الهيئة والكيفية، والإنسان يؤمن بما لا يعرف كيفيته، وفي فطرته الرغبة في استكناه أشياء هو مؤمن بها، ولكنه يود لو يقف على أسرارها وخفاياها، وطلب الخليل ﷺ رؤية كيفية إحياء الموتى من هذا القبيل، فهو طلب للطمأنينة فيما تنزع إليه نفسه من معرفة خفايا أسرار الربوبية، لا طلب للطمأنينة في أصل الإيمان بالبعث، الذي عرفه بالوحي والبرهان، دون المشاهدة والعِيان[٢].

فالمعرفة التفصيلية أقوى وأرسخ من المعرفة الإيمانية المُفْضِية إلى[٣] التردد بين الكيفيات المتعددة مع الطمأنينة إلى القدرة على الإحياء.

يقول الشيخ محمد عبده في قوله تعالى لخليل

---

١. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج٢، ص١١٣٩، ١١٤٠ بتصرف.

٢. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٨٢.

٣. المُفْضِية إلى: المُؤدِّية إلى.

إبراهيم عليه السلام: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ - وهو أعلم بإيمانه ويقينه - إرشاد إلى ما ينبغي للإنسان أن يقف عنده، ويكتفي به في هذا المقام، فلا يتعداه إلى ما ليس من شأنه، كأنه يقول: إن الإيمان بهذا السر الإلهي، والتسليم فيه لخبر الوحي، ودلالته، وامتثاله هو منتهى ما يطلب من البشر، فلو كان وراء الإيمان والتسليم مطلع لناظر لبيَّنه الله تعالى لك، وفي هذا الإرشاد لخليل الرحمن عليه السلام تأديب للمؤمنين كافة، ومنع لهم عن التفكر في كيفية التكوين وإشغال العقول بما استأثر الله تعالى به، فيما لا يليق بهم البحث عنه[1].

إذن، فالسؤال ليكف الفكر عن تخيل كيفيات الإحياء؛ إذ تتعين عنده كيفية إحياء الموتى[2].

ذلك، وقد وردت في الآية أقوال عديدة، تنفي الشك عن إبراهيم عليه السلام، وأول هذه الأقوال قول النبي ﷺ: "نحن أحق بالشك من إبراهيم، إذ قال: رب أرني كيف تحيي الموتى..."[3].

والحديث ينفي الشك عن إبراهيم عليه السلام؛ حيث إن النبي ﷺ لما سمع من يقول: إن إبراهيم عليه السلام شك، ومحمد ﷺ لم يشك؛ فرد عليهم بهذا الحديث، أي: إذا لم نشك نحن، فإبراهيم أولى ألا يشك.

فالسؤال كان لزيادة الإيمان واليقين؛ لأن درجاته تتفاوت بالمعاينة،[4] ينتقل الإنسان فيه من علم اليقين إلى عين اليقين، والعلم ينقسم إلى ضروري - وهو الحاصل من غير استدلال لظهوره - ونظري - يتوقف على نظر واستدلال لكونه غير بَدَهِي[5]، والشك ممتنع في الضروري، ومحتمل في النظري، وقد أراد الخليل أن ينتقل من النظري إلى الأعلى منه وهو الضروري. وليس معنى هذا أن إبراهيم عليه السلام وقع منه شك في علمه النظري، بل إن النظري من حيث هو يجوز جريان الشك عليه، وفرق بين الشك وجوازه[6].

وبهذا يتبين لنا أن سؤال إبراهيم عليه السلام عن كيفية إحياء الموتى كان من أجل أن ينتقل من علم اليقين، الذي يؤمن به إيمانًا لا شك فيه ولا تردد إلى عين اليقين الذي يزيد القلب اطمئنانًا بما يراه ويشاهده.

الخلاصة:

لم يشك سيدنا إبراهيم عليه السلام في قدرة الله عز وجل على إحياء الموتى، ولكنه أراد أن يتحوَّل من علم اليقين الذي أوحاه الله عز وجل إليه إلى عين اليقين وهو ما تراه العين وتشاهده، حتى يزداد القلب اطمئنانًا على ما به من إيمان، وكيف يشك إبراهيم عليه السلام في إحياء الله الموتى، وقد حاج الملك

1. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ط٢، د. ت، ج٣، ص٥٣، ٥٤.
2. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٨٣.
3. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قوله عز وجل: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾﴾ (الحجر) (٣١٩٢)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ (٦٢٩١).
4. المعاينة: رؤية بالعين لا شك فيها.
5. البَدَهِي: الطبيعي.
6. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٨١، ٢٨٢.

وبرهن له على قدرة الله - تبارك وتعالى - على كل شيء ومنها إحياء الموتى، فكيف يحاجج الملك بما يشك فيه؟! إن هذا إن دل فإنما يدل على كذبهم في دعواهم وافترائهم على أنبياء الله تبارك وتعالى ورسله الكرام، الذين عصمهم الله ﷻ في عقولهم وقلوبهم وأجسامهم.

الشبهة الثالثة والعشرون

إنكار وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام (*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المتوهمين وجود إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - ويزعمون أن ورود قصتهما واسميهما في التوراة والإنجيل والقرآن، لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي.

وجها إبطال الشبهة:

١) إنكار وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، لا دليل عليه، وهو مناقض للعقل، وللمنهج العلمي.

٢) اتفاق الكتب السابقة والقرآن على ذكر قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، يُعَدُّ دليلًا قاطعًا على وجودهما؛ لأن ذلك من قبيل المتواتر الذي لا يقبل التَّواطُؤ[١] على الكذب، ولأن هناك أحداثًا لا يعرفها الإنسان إلا عن طريق الوحي الإلهي.

التفصيل:

أولا. إنكار وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، لا دليل عليه، ومُناقض للعقل، وللمنهج العلمي:

إن إنكار وجود إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - هو إنكار لجزء من الدين، وهو بِدْعَة[٢] كانت شائعة في القرن التاسع عشر، فقد كان الغالب في ذلك القرن أن التواريخ الدينية لا تصلح أن تكون أساسًا للتواريخ العلمية.

وهذا الانطباع السَّائد[٣] آنذاك قد تغير في معيار البحث الحديث؛ لأنه مناقض للعلم نفسه، عدا ما هو ظاهر من مناقضة للدين، فقد ثبت اليوم أن الأخبار الدينية سبقت المباحث الحفرية والمقارنات العلمية إلى تقرير أحكام التاريخ، التي صحت في رأي المتأخرين بالبراهين الحديثة.

وعلى أننا إذا سلّمنا - جدلًا - بأن إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - ليسا هما اللذين رفعا قواعد البيت الحرام وأن قصة مجيئهما إلى أرض العرب ليست حقيقة فمن الذي رفع قواعد البيت؟! وإلى من تنسب قبائل العرب؟! إن الذي ينكر أمرًا لا بد أن يعلل الأسباب التي من أجلها أنكر ذلك الشيء، والذي ينفي عن زيد القيام بعمل ما وآثاره موجودة في الواقع لا بد أن يثبته لعمرو وإلا كان كلامًا وادعاءً بلا حق... ثم إننا نسأل أيضًا إلى من تنسب العرب العدنانيون والقحطانيون إذا لم يكونوا أبناء إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام؟!

(*) موقع الكلمة. www.alkalema.net.

١. التَّواطُؤ: الاتفاق.

٢. البِدْعَة: كلّ حادث لم يوجد في الكتاب والسُّنَّة، سواء أكان في العادات أم في العبادات، وسواء أكان مذمومًا أم غير مذموم.

٣. السائد: المنتشر.

إن هذا الادعاء مجرد زعم لا دليل عليه، وليس كل من ينكر شيئًا، أو يشكك فيه، يُقبل منه إنكاره وتشكيكه.

ثانيًا. اتفاق الكتب السابقة مع القرآن على ذكر قصة إبراهيم وإسماعيل يُعَدُّ دليلا قاطعًا على وجودهما، وأن هناك أحداثًا لا يستطيع الإنسان معرفتها إلا عن طريق الدين:

لو سلمنا بهذا الزعم، وهو عدم وجود سيدنا إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - والقول بأسطورية قصتهما؛ لأنكرنا - قياسًا على ذلك - كثيرًا من الحقائق التي لا مصدر لها إلا الدين، مثل خلق آدم عليه السلام، وحياته، وخلق الكون، وتفاصيل الأمم التي لا يعرف التاريخ عنها شيئًا إلا عن طريق الدين.

واتفاق الكتب الدينية، التي بأيدي أتباع الملل اليوم على ذكر إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - مهما اختلفت في بعض التفاصيل، وتناقُل الأتباع والأمم قصتهما عبر الأجيال - ينهض دليلًا قاطعًا على وجودهما؛ لأن ذلك من قبيل المتواتر الذي لا يقبل التواطُؤ على الكذب فيه عادة، فهو أشبه بثبوت البلدان النَّائية[1] عند من لم يرها.

من اليقين لدى المؤمن أن الرسول ﷺ لم يتقوّل القرآن الكريم، وأن القرآن لم يختلق قصص السابقين: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾ (يوسف).

بل ذكرها آية على صدق النبي ﷺ قال تبارك وتعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) ﴾ (هود)، وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) ﴾ (يوسف)

فالقول بأن قصة أي نبي - بما في ذلك زعمهم أن قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام - أسطورة ينطوي على اتهام صريح للقرآن بأنه يتضمن ما لا حقيقة له، ويُعدُّ هذا من قبيل مشاركة الكفار في كفرهم؛ إذ قالوا: ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) ﴾ (الأنعام)[2].

وحاشا لكتاب الله أن يكون كذلك، بل هو تنزيل من رب العالمين.

يقول الشيخ الغزالي عمّن ادعى أن حادثة وجود إبراهيم وابنه إسماعيل - عليهما السلام - أسطورة: وعنده أن اليهود الذين استوطنوا بلاد العرب اخترعوها قبيل الإسلام أو بعده، وهو يرى في اختراعهم لها نوعًا من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب، وبين الإسلام واليهودية، وبين القرآن والتوراة... وعنده أن هذه الأسطورة غير مأذون لها أن تدخل دائرة التاريخ وإن شفع لها التوراة والزبور والإنجيل والقرآن الكريم!! إذ نحن إذ رجعنا إلى التوراة نجدها تتحدث عن إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - وبني إسماعيل في الإصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين، وفي الإصحاح الأول من أخبار اليوم الأول، وهذان الموضعان من التوارة لا سيما

---

١. النَّائية: البعيدة.

٢. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص١٤٢.

الأول منها من أقدم أسفار التوراة لأنهما معاصران لموسى عليه السلام.

فهل يتفضل علينا صاحب هذا الافتراء على العلم فيخبرنا كيف تَسَنَّى [1] لهؤلاء الدساسين من اليهود الذين استوطنوا بلاد العرب أن يدسوا هذه الأسطورة قُبيل الإسلام أو بُعيد الإسلام في أسفار منسوبة إلى عصر أقدم من الإسلام بأزمان كثيرة جدًّا؟! وكيف دسوا هذه الدسيسة في التوراة وهم في يثرب أو في خيبر أو في غيرهما من بلاد العرب، ولم يشعر بهم سائر يهود العالم[2]؟!

الخلاصة:

من المعلوم أن عدم وجود مؤرخ يكتب قصة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام -، لا ينفي أنها موجودة في سجل الحياة؛ فإنَّ الجد الذي يكمل العشرة من أجدادي، لم أعلم اسمه ولم يسجله تاريخ، فهل معنى ذلك أنه ليس لي جد عاشر؟ وعلى النافي أن يثبت أن حوادث عصرهما مسجلة، كبيرها وصغيرها بيد مؤرخين كانوا في تلك الأمكنة، تسجيلًا يخالف ما ورد في القرآن الكريم. ومن ناحية أخرى فإن الأخبار الواردة عن إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - أخبار متواترة والتواتر حجة قطعية، وبالتالي فلا يجوز الشك فيها أو الطعن عليها.

١. تَسَنَّى: جاز.

٢. دفاع عن العقيدة ضد مطاعن المستشرقين، محمد الغزالي، مرجع سابق، ص٣١.

الشبهة الرابعة والعشرون

ادعاء أن الذبيح هو إسحاق عليه السلام وليس إسماعيل عليه السلام(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين اليهود أن الذبيح هو إسحاق، وليس إسماعيل - عليهما السلام - كما جاء في القرآن الكريم، ويهدفون من وراء ذلك إلى نسبة الشرف والتضحية والفداء لأنفسهم وأجدادهم، مجردين العرب من كل فضل.

وجوه إبطال الشبهة:

١) سياق الآيات في القرآن يدل على أن الذبيح هو إسماعيل، وليس إسحاق عليه السلام، وكذلك السنة المطهرة.

٢) النصوص الواردة في التوراة بشأن الذبيح تدل على أنه إسماعيل عليه السلام، وقد أصابها التحريف بحذف اسم إسماعيل عليه السلام، ووضع إسحاق عليه السلام مكانه؛ ليرفعوا من شأن من انتُسبوا إليه.

٣) اقتداء المسلمين بأبيهم إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - في مناسك الحج يدل على أن الذبيح إسماعيل، وإلا فلماذا اختص المسلمون دون غيرهم من اليهود بأداء هذه المناسك؟!!

التفصيل:

أولا. السياق القرآني الكريم يدل على أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام وليس إسحاق عليه السلام، وكذلك السنة:

جاءت آيات سورة الصافات ناطقة بأن الذبيح هو

(*) دراسات لغوية مقارنة، د. محمد صالح توفيق، مطبعة الزهراء، القاهرة، د. ت. موقع صيد الفوائد.

إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام -؛ قال الله تبارك وتعالى على لسان نبيه الخليل إبراهيم: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣) ﴾ (الصافات).

ولا شك أن الضمير في "عليه" راجع إلى الذبيح وهو إسماعيل عليه السلام، فالآيتان صريحتان بالبشرى بإسحاق عليه السلام بعد ذكر القصة، في أن إسحاق عليه السلام غير الغلام الذي ابتلى الله إبراهيم عليه السلام بذبحه، وعود الضمير إلى الغلام الذبيح، وذكر اسم إسحاق عليه السلام معه صريحًا يقتضي التغاير بين الذبيح وإسحاق عليه السلام.

وأما القصة في التوراة فبطلها إسحاق عليه السلام، حشر اليهود اسمه في هذه القصة؛ حرصًا منهم على أن يكون أبوهم هو الذبيح الذي جاد بنفسه صغيرًا في طاعة الله، وذلك لينالوا التشريف والتكريم الإلهي.

والآيات ذكرت سؤال إبراهيم عليه السلام ربه أن يهبه من الصالحين، وهو سؤال يُشعر بأنه صدر منه قبل إنجابه فتكون إجابة الله بأن رزقه ابنه الأول وهو إسماعيل عليه السلام.

والله تعالى وصف الغلام الموهوب بأنه حليم فقال: ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) ﴾ (الصافات)، بينما وصف إسحاق بأنه عليم فقال: ﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) ﴾ (الحجر)، حيث كانت أمه - سارة - حاضرة هذه البشرى العظيمة وتوضحها آية هود: ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) ﴾ (هود).

إن الآيات في سورة الصافات بعد أن فرغت من قصة الذبيح أخبرت أن الله كافأ الوالد على صبره على البلاء بأمرين، أولهما: فداء ابنه بذبح عظيم، ثانيهما: بشارته بإسحاق نبيًّا من الصالحين.

وعطف الحديث عن إسحاق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) ﴾ (الصافات) على قوله تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) ﴾ (الصافات)، يدل على أن الذبيح غير إسحاق؛ لأن العطف يقتضي المغايرة وما ذاك إلا إسماعيل عليه السلام.

ويؤكد ذلك أن الضمير في كلمة "عليه" في قوله تعالى: ﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ﴾ (الصافات: ١١٣) يعود على الغلام الحليم ولا يعود على إبراهيم عليه السلام؛ لأنه لو عاد عليه - أي إبراهيم - لكان في ذكر إسحاق عليه السلام عبث يتنزه الكلام عنه؛ لأن إسحاق عليه السلام من ذرية إبراهيم عليه السلام، فكأنه ذكر مرتين.

إن الله عز وجل قد بشر سارة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب - عليهما السلام -، فكيف يأمر الله إبراهيم بذبح إسحاق عليه السلام، وقد أخبره أنه سيكبر ويتزوج ويولد له ولد اسمه يعقوب[1]؟

١. قصص القرآن، محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٨١.

"وقال محمد بن إسحاق عن بريدة عن سفيان بن فزوة الأسلمي، عن محمد بن كعب: أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز ﷺ وهو خليفة إذ كان معه بالشام يعني استدلاله بقوله بعد العصمة: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ (هود)، فقال له عمر: إن هذا الشيء ما كنت أنظر فيه وإني لأراه كما قلت، ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام، كان يهوديًّا فأسلم وحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علمائهم، قال: فسأله عمر بن عبد العزيز: أَيُّ ابن إبراهيم عليه السلام أُمر بذبحه؟ فقال: إسماعيل عليه السلام والله يا أمير المؤمنين، وإن اليهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر فيه، والفضل الذي ذكره الله منه لصبره لما أُمر به، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق عليه السلام؛ لأن إسحاق عليه السلام أبوهم"[1].

ثانيًا. دلت التوراة على أن الذبيح هو إسماعيل، وليس إسحاق عليه السلام:

إن المتصفح لما ورد في التوارة بشأن الذبيح، يجد أن الأوصاف التي ذكروها عن الذبيح تنطبق تمامًا على إسماعيل دون إسحاق ـ عليهما السلام ـ وهذا يدل صراحة على تحريف اليهود قصة الذبيح حيث جعلوا إسحاق مكان إسماعيل ـ عليهما السلام ـ، والدليل على ذلك من التوراة نفسها؛ حيث وصفت الذبيح بأنه ولد إبراهيم عليه السلام الوحيد، أي: الذي ليس له سواه، وهو ما يدل على سخاوة نفس إبراهيم عليه السلام بولده الوحيد بذبحه امتثالًا لأمر ربه له في المنام، أما إسحاق فلم يكن وحيدًا لإبراهيم في يوم من الأيام؛ لأن إسحاق عليه السلام وُلد وإسماعيل عنده أربع عشرة سنة، كما صرّحت التوراة بذلك، وبقي إسماعيل عليه السلام إلى أن مات أبوه إبراهيم عليه السلام، وحضر إسماعيل عليه السلام وفاته ودفنه، وكذلك فإن قضية ذبح إسحاق عليه السلام تناقض الوعد الذي وُعد به إبراهيم عليه السلام؛ من أن إسحاق عليه السلام سيكون له نسل[2].

فهذه مصارحة بأن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، ولكن الحقد والحسد والكراهية اليهودية للعرب تدفعهم إلى نكران كل حقيقة، وتبديل كل نص صحيح.

وثمة دليل آخر من التوراة يثبت أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام؛ لأن إسماعيل عليه السلام هو الذي أقام بمكة وليس إسحاق.

جاء في سفر التكوين: "فبكّر إبراهيم صباحًا وأخذ خبزًا وقِرْبة ماء وأعطاهما لهاجر واضعًا إياهما على كتفها والولد وصرفها. فمضت وتاهت في برية بئر سبع". (التكوين٢١: ١٤)، "وسكن في برية فاران وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر". (التكوين٢١: ٢١).

والذي يلاحظ من العددين السابقين من سفر التكوين أن البلاد التي سكنها إسماعيل عليه السلام وأمه إنما هي برية بئر سبع، ثم ذهب إلى فاران. ولم يذكر الوادي الذي هو مكة اليوم، وفاران تطلق على مواضع منها جبال مكة.

ويدل على أن إسماعيل عليه السلام سكن مكة ما جاء في

١. قصص الأنبياء، ابن كثير، تحقيق: محمد عبد الملك الزغبي، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ص١٢٧.

٢. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص١٣٥، ١٣٦.

سفر التكوين: "وسكنوا من حَوِيلة إلى شُور التي أمام مصر حينما تجيء نحو أَشُّور. أمام جميع إخوته نزل". (التكوين ٢٥: ١٨)[1].

فهل ذهب إسحاق عليه السلام إلى مكة؟! والأدلة الثابتة تاريخيًّا تؤكد وتثبت أن قصة الذبح تمت في مكة.

وبهذا يتضح جليًّا بطلان زعم اليهود بأن الذبيح هو إسحاق عليه السلام. كما يتضح أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام بنص التوراة والقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

ثالثًا. إسماعيل عليه السلام هو الذي أقام بمكة وليس إسحاق عليه السلام:

لقد أقام سيدنا إسماعيل عليه السلام بمكة منذ أن جاء مع أمه طفلًا رضيعًا في القصة المشهورة، ثم أتم بناء البيت مع أبيه؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)﴾ (البقرة)، ثم دُفن نبي الله إسماعيل بالحِجر مع أمه هاجر، وكان عمره يوم أن مات مائة وسبعًا وثلاثين سنة[2].

وبناء على هذا فلو كان الذبيح إسحاق عليه السلام لكانت مسألة الذبح والفداء وما يتعلق بهما من مناسك قد وقعت بأرض الشام، حيث عاش هناك سيدنا إسحاق، أما وهي تُفعل في أرض الحجاز حيث وُلد وعاش إسماعيل عليه السلام، فهذا دليل من الواقع على أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام[3].

ومما يؤكد هذا: أن إبراهيم بنى بيتًا لله بمكة قبل أن يبني بيتًا آخر بنحو أربعين سنة، كما في حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، ومن شأن بيوت العبادة في ذلك الزمان أن تُقرَّب فيها القرابين، فقربان أعز شيء على إبراهيم عليه السلام هو المناسب لكونه قربانًا لأشرف هيكل، وقد بقيت في العرب سنة الهدايا في الحج كل عام، وما تلك إلا تذكرة لأول عام أُمر فيه إبراهيم عليه السلام بذبح ولده وأنه الولد الذي بمكة... ولقد وردت روايات في حكمة تشريع الرمي في الجمرات من عهد الحنيفية، أن الشيطان تعرض لإبراهيم عليه السلام ليصده عن المعنى من ذبح ولده، وذلك من مناسك الحج لأهل مكة، ولم تكن لليهود سنة "ذبح معين"[4].

وقال سفيان: لم يزل قرنا الكبش معلقين في البيت حتى احترق البيت فاحترقا. وكذا رُوي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رأس الكبش لم يزل معلقًا عند ميزاب الكعبة حتى يبس[5].

مما سبق يتضح لنا أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، لأنه هو المقيم بمكة، ولا نعلم هل قدمها إسحاق عليه السلام في حال صغره أم لا، والله أعلم.

الخلاصة:

- تشير الآيات الواردة في القرآن الكريم إلى أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام؛ وذلك لأن الله تعالى بعد ما وضّح صبر إبراهيم عليه السلام وامتثاله لأمر الله عز وجل بشره بمولود له جديد اسمه إسحاق، ومن ذريته

١. قصص الأنبياء، ابن كثير، مرجع سابق، ص١٥٢.
٢. المرجع السابق، ص١٦٩.
٣. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج٢٠، ص١٢٨٠٥.
٤. التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١١، ج٢٣، ص١٥٨.
٥. قصص الأنبياء، ابن كثير، مرجع سابق، ص١٢٥.

يعقوب - عليهما السلام - وإلا فكيف يبشره بإسحاق ومن ورائه يعقوب عليه السلام، ثم يأمر إبراهيم عليه السلام أن يذبحه؟! والقرآن أقوى في حجته من التوراة؛ لأنه لم يصبه التحريف كالتوراة التي أخبرنا الله تعالى بتحريفها، ومن أصدق من الله قيلًا.

- تدل النصوص الواردة في التوراة على أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام وليس إسحاق، وذلك لأن الابن الوحيد والبكر لسيدنا إبراهيم هو سيدنا إسماعيل وليس إسحاق - عليهم السلام جميعًا - حيث تعترف التوراة بأن إسحاق عليه السلام وُلد وعمر إسماعيل عليه السلام أربع عشرة سنة، فكيف يكون البكر؟! وكيف يكون الوحيد؟! وهذا يدل على تحريف اليهود للتوراة بذكرهم إسحاق عليه السلام بدلًا من إسماعيل عليه السلام، ليكون لهم الفضل والرفعة والشرف دون أمة العرب أبناء إسماعيل عليه السلام.

- اختصاص الله عز وجل أمة النبي محمد ﷺ بأداء مناسك الحج، اقتداء بسنة أبيهم إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - فلماذا لم يؤمر اليهود بأداء هذه المناسك إن كان الذبيح هو إسحاق عليه السلام الذي ينتسبون إليه؟! ولماذا كانت هذه المناسك في مكة موطن إسماعيل، ولم تكن في الشام موطن إسحاق عليه السلام؟! ألا تعد كل هذه الدلائل كافية على أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام لا إسحاق عليه السلام!

الشبهة الخامسة والعشرون

ادِّعاء أن إسماعيل عليه السلام ليس نبيًّا من الأنبياء(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن إسماعيل عليه السلام ليس نبيًّا من الأنبياء كما جاء في القرآن، مستدلين على ذلك بما جاء في التوراة؛ من أن النبوة تكون في إسحاق وبنيه. ويتساءلون: كيف يكون إسماعيل عليه السلام نبيًّا والتوراة تصفه بأنه إنسان وحشي، يده على كل واحد ويد كل واحد عليه؛ أي: إنه سيكون سفَّاحًا وضيعًا؟

وجها إبطال الشبهة:

١) إسماعيل عليه السلام نبي من الأنبياء ورسول من الرسل بأدلة القرآن، ونَفْي بعضهم لنبوته عليه السلام جحد للحقائق.

٢) على الرغم من تحريف التوراة فقد صرحت بنبوة إسماعيل عليه السلام، لكنه الحقد اليهودي الذي يريد أن يسلب العرب كل فضل.

التفصيل:

أولا. إسماعيل عليه السلام نبي من الأنبياء، بأدلة القرآن والتوراة، ونفي بعض المشككين لنبوته جحد للحقائق:

- **النبوة ثابتة لإسماعيل عليه السلام بما جاء في القرآن الكريم:**

القرآن الكريم هو الحجة القاطعة؛ لأنه كلام رب العالمين، الذي لم تمتد إليه يد البشر بأي تحريف، مهما حاول المغرضون إخفاء هذه الحقيقة، فلا تزداد بمرور

(*) موقع إسلاميات. www.Islameyat.com .

الزمن إلا وضوحًا، فكل يوم يثبت للعلماء أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون كلام بشر، ولم يستطع أحد أن يأخذ عليه مأخذًا منذ نزوله حتى الآن، وكذلك لن يستطيع أحد أن يجد فيه ما يمكن أن يؤخذ عليه، فالقرآن هو الحَكَمُ فيما يثبت وفيما ينفي.

وقد أثبت القرآن الكريم نبوة إسماعيل عليه السلام في غير موضع، فقال: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا (٥٤) ﴾ (مريم)، وقال: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ (١٣٦) ﴾ (البقرة)، وقال: ﴿ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ (٨٤) ﴾ (آل عمران). فهذه كلها آيات بينات تثبت نبوة سيدنا إسماعيل عليه السلام.

- **العهد القديم ليس حجة بما ناله من تحريف على أيدي البشر:**

العهد القديم ليس حجة فيما يذكره، وما لا يذكره؛ لما ناله من تحريف وتبديل على أيدي البشر، فهو ليس كتابًا من عند الله تعالى، بل كتبه البشر بأيديهم؛ ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ (٧٩) ﴾ (البقرة). ووجود الأخطاء والتناقضات في الكتاب المقدس أمر شائع.

وقد ثبت التحريف من وجوه كثيرة سطرتها أيدي العلماء، في بحوثهم المجردة عن كل ميل[1].

وهب أن العهد القديم لم يذكر نبوة نبي من الأنبياء، فهل يعني ذلك نفيها؟ فكما أن الذكر فيه لا يثبت شيئًا، فكذلك لا يعني عدم ذكره لشيء أو حقيقة ما أن ذلك الشيء غير حقيقي، وعليه فلا مانع عقلًا من أن تثبت نبوة إسماعيل عليه السلام من طريق آخر، حيث أثبتها القرآن الكريم.

ثانيًا. على الرغم من تحريف التوراة فإنها صرحت بنبوة إسماعيل عليه السلام، ولكنه الحقد اليهودي الذي يريد أن يسلب العرب كل فضل:

ومع ذلك فإن التوراة صرَّحت بأن العهد ـ وهو تعبير توراتي عن النبوة ـ في نسل إبراهيم عليه السلام جميعًا إلى الابن، ونسل إبراهيم يشمل ابنيه إسماعيل وإسحاق ـ عليهم السلام جميعًا ـ وذريتهما، وجاء في سفر التكوين بعد ولادة إسماعيل وقبل ولادة إسحاق: "ولما كان أبرام ابن تسع وتسعين سنة، ظهر الرب لأبرام، وقال له: أنا الله القدير، سِرْ أمامي وكن كاملًا؛ فأجعل عهدي بيني وبينك... وأقيم عهدي بيني وبينك، وبين نسلك من بعدك، في أجيالهم عهدًا أبديًّا، لأكون إلهًا لك، ولنسلك من بعدك". (التكوين ١٧: ١ ـ ٨).

إن هذا النص صريح في أن عهد النبوة الذي وعد

---

١. خمسون ألف خطأ في الكتاب المقدس، هذه المقالة بالنص عن مجلة "Awoke" عدد ٨ سبتمبر ١٩٥٧م، وذلك في الصفحة الأخيرة تحت عنوان "الحقيقة عن الكتاب"، والذي قدر هذا العدد من الأخطاء هي هيئة من الخبراء الإنجليز عام ١٧٢٠م وليسوا عربًا أو مسلمين، وتفاصيل هذا الموضوع موجودة عند الداعية الإسلامي أحمد ديدات، المجموعة الثالثة، ترجمة: محمد مختار، رمضان الصفناوي، علي عثمان، مكتبة كتاب المختار، مصر.

الله به إبراهيم عليه السلام لجميع نسله، بلا تفرقة بين نسله من إسماعيل عليه السلام أو نسله من إسحاق عليه السلام، بل إن هذا النص جاء تحديدًا قبل بشارته بإسحاق عليه السلام.

ونسل إبراهيم عليه السلام يشمل إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، ومن جاء من نسلهما، ولكن اليهود أرادوا إخفاء هذه الحقيقة، فعادوا يقصرون العهد الإلهي على عهد إسحاق عليه السلام وبنيه، وراحوا ينفونها عن إسماعيل عليه السلام وبنيه؛ عداءً لإسماعيل عليه السلام وحقدًا وحسدًا للعرب الذين هم من نسل إسماعيل عليه السلام أن ينالهم شرف النبوة، ولو كان اليهود من نسل إسماعيل عليه السلام، والعرب من نسل إسحاق عليه السلام؛ لادعوا أن النبوة في إسماعيل دون إسحاق.

وبناء على ذلك راح كاتب سفر التكوين يزعم أن إبراهيم عليه السلام قال لله: "ليت إسماعيل يعيش أمامك، فقال الله: بل سارة امرأتك تلد لك ابنًا، وتدعو اسمه إسحاق، وأقيم عهدي معه عهدًا أبديًّا لنسله من بعده، وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرًا جدًّا". (التكوين١٧ : ١٨ ـ ٢٠).

ففي هذا السفر تجريد لإسماعيل عليه السلام من النبوة، بعد إثباتها له، وذلك التناقض في التوراة مألوف، وليس غريبًا عليها، فقد أنكرت ـ بعد تحريفها ـ كل نبوةٍ من غير نسل إسحاق عليه السلام، ثم راحوا يثبتونها لخمسة من الرسل ليسوا من نسل يعقوب بن إسحاق عليه السلام، وهم: ملكي صادق، ويثرون، وبلعان، وأيوب، ويونس.

فالهدف من نفي النبوة عن إسماعيل ونسله هو تجريد العرب عليه السلام من كل فضل ومنقبة، ومن ذلك نفي نبوة جدهم إسماعيل، ونسبة كل فضل لليهود وحدهم.

وأما عن وصف التوراة لإسماعيل عليه السلام بأنه "يكون إنسانًا وحشيًّا يده على كل واحد، ويد كل واحد عليه"، والتي يستدل بها الزاعمون على نفي نبوته، فالعبارة مُحَرَّفة، والعبارة كما كانت في التوراة حتى القرن السابع الهجري، حيث نقلها العلماء: "يده فوق كل واحد ويد الكل به".

ومعنى "إنسانًا وحشيًّا" أي: إنسانًا قويًّا.

وهذا يعني ريادة إسماعيل عليه السلام وذريته لكل الناس، وقوة الناس لا تحصل إلا باتباع إسماعيل وذريته. والريادة والقوة إذا جاءت في الوحي الإلهي فإنها بالدرجة الأولى تعني الريادة الدينية، التي تكفل سعادة الدنيا والآخرة، ولا يتحقق ذلك إلا بالنبوة.

الخلاصة:

- القرآن الكريم هو الحجة القاطعة في إثبات نبوة إسماعيل عليه السلام؛ لأنه لم تمتد إليه يد التحريف، وقد أُثبتت نبوة إسماعيل عليه السلام في آيات عديدة منها: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ (مريم).
- العهد القديم الذي ينفي نبوة إسماعيل عليه السلام ليس حجة؛ لما فيه من تحريف شهد به علماء اليهود والنصارى أنفسهم.
- إن التوراة ـ على الرغم من تحريفها ـ قد صرحت بأن العهد "النبوة" يكون في نسل إبراهيم عليه السلام ولم تستثن من ذلك إسماعيل عليه السلام، ولكنه الحسد والحقد اليهودي الذي يريد أن يحرم العرب من كل فضل ومنقبة.



الشبهة السادسة والعشرون

ادِّعاء وجود صراع بين إسماعيل وإسحاق عليهما السلام(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن إسماعيل وإسحاق - عليهما السلام - كانا في صراع دائم، وكان يحسد كل منهما الآخر على ما آتاه الله ﷻ من فضله، ويتمنى أن يعلو المنازل على حساب أخيه، وهذا حسبما ورد في الكتاب المقدس، هادفين من وراء ذلك إلى تكريس حالة الصراع بين العرب واليهود بتأصيلها تاريخيًا.

وجوه إبطال الشبهة:

١) الكتاب المقدس - بعد ثبوت تحريفه - ليس مصدرًا موثَّقًا ولا يعتمد عليه في نقل الأخبار ولا تُؤخذ منه الأحكام.

٢) ليس غريبًا على الكتاب المقدس أن يصف إسماعيل وإسحاق - عليهما السلام - على هذا النحو الشائن، فقد فعلوا أكثر من هذا في حق الله ﷻ، وفي حق أنبيائه - عليهم السلام -.

٣) أخبار الأنبياء وأخلاقهم لا تؤخذ إلا من الكتاب المعصوم، وهو القرآن الذي يصفهم بما يليق بعصمتهم.

التفصيل:

أولا. الكتاب المقدس المحرَّف ليس مصدر ثقة ولا يعتمد عليه في نقل الأخبار ولا تؤخذ منه الأحكام:

لقد أخبر الله تعالى في كتابه العزيز عن تحريف أهل الكتاب لكتابهم فقال رب العزة: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ (النساء: ٤٦)، وقال أيضًا: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٧٩). والآيات القرآنية على ذلك كثيرة، هذا وقد أثبتت الدراسات العلمية المحايدة أن الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد كتاب محرف، وليس هو المنزّل من عند الله تبارك وتعالى، بعدما لعبت به أيدي البشر وعبثت به أقلامهم؛ فانتقصوا منه وزادوا عليه ما ليس منه، وغيروا وبدلوا حسبما أملته عليهم أهواؤهم.

فلقد تعرضت التوراة إلى عمليات سَطْو[١] من قراصنة اليهود، وإلى عوامل بَتْر[٢] بشرية وعوامل تغيير جَسِيمة[٣] وخطيرة للغاية، كما تعرضت في إعادة التدوين إلى اللامبالاة، وإضافات توحي بمذاهب وعقائد المحررين والنساخ... ، وأخيرًا شهدت المجامع المسكونية موجة رهيبة لتدوين المخطوطات المقدسة، والأدلة كثيرة على ما أصابها من تحوير وتنقيح، وزيادة ونقص، وحذف وإقحام، فكانت هذه البصمات البشرية في تدوين الكتاب المقدس غشاوة سميكة تخفي الحقيقة.

يقول **cutkuhl** في كتابه" ***The old testament: its original composition, London,*** ١٠٦١ ***pp*** ٤٧, ٥١ ٥٢": إن الكتاب المقدس المتداول حاليًا لا يحتوي على التوراة والإنجيل المنزلين من الله، ولقد اعترف علماء وباحثون باللمسات البشرية في إعداد هذا

(*) موجز دائرة المعارف الإسلامية: فريق من المستشرقين، مرجع سابق.

١. السَّطْو: الاستيلاء والسرقة.

٢. البَتْر: النقص والتغيير.

٣. الجسيمة: الكبيرة بشكل مَهُول.

الكتاب...[١]، ونشرت مجلة "لوك" مقالة بعنوان "الحقيقة عن الكتاب المقدس" وكُتب على الغلاف "خمسون ألف خطأ في الكتاب المقدس"، وهذه المقالة بالنص عن مجلة Awake عدد ٨ سبتمبر ١٩٥٧م، وقد جاء فيها أنه في عام ١٩٢٠م قامت هيئة من الخبراء الإنجليز بتقدير عدد الأخطاء في الكتاب المقدس، وأثبتت أنها تصل إلى خمسين ألف خطأ، وذلك بعد عكوف الدارسين على الدراسة الجادة للمخطوطات القديمة[٢].

وبناء عليه فليس الكتاب المقدس مصدر ثقة، ولا يُعتمد عليه في نقل أي أخبار، خاصة إذا تعارضت مع القرآن الكريم.

ثانيًا. ليس غريبًا على الكتاب المقدس أن يصف إسماعيل وإسحاق على هذا النحو الشائن، فقد فعلوا مثل هذا في حق الله ﷻ، وأنبيائه:

لقد حوى الكتاب المقدس بعض الصفات التي لا تليق بالله ولا برسله ولا بملائكته، فلقد وصفوا الرب بأنه يغفل وينام وينسى ويندم على خلق الإنسان، بل يصارعه يعقوب ويغلبه ولا يفكه إلا بعد أن يباركه... وأوصاف عديدة لا تليق بالله تعالى يصفون بها إلههم - سبحانه وتعالى عما يقولون علوًّا كبيرًا - ولكن المجال لا يتسع لذكر ذلك، غير أننا نود الإشارة السريعة إلى أخلاق الأنبياء وصفاتهم - حسب زعمهم الباطل - في كتابهم المحرف، حيث نجد أنبياء الكتاب المقدس عبارة عن مجرمين وسفّاحين وقتلة وزناة وخونة ولصوص!!

وإن تعجب من أمر، فما أعجب من قصص وقُصَّاص التوراة، الذين أطلقوا العنان لخيالهم المريض، وأفكارهم الخبيثة، التي تَبثُّ[٣] سمومها وأمراضها على صفحات كتاب يُفْترض أن يكون مقدسًا، ولا ندري مصدر القداسة في هذه القصص القبيحة، أو الحكايات الأسطورية الفاضحة، أو الخيالات الماجنة[٤] عن أشخاص أكمل الله لهم الخُلق والخَلق، وجعلهم للناس قادة وللبشر سادة، فما بال هؤلاء القوم يجعلون منهم أضحوكة الأجيال إلى الحد الذي دعا مؤلفو قاموس الكتاب المقدس إلى أن يقولوا: وقد ارتكب داود خطيئته الشنيعة ضد أوريا الحثي - حيث قتله غدرًا لتحل له امرأته - أثناء حربه مع العمونيين، وقد وبَّخه النبي ناثان على هذه الخطيئة، بل أعلن لهم العقاب السماوي الذي يحل به، وحتى بعد أن أعلن داود توبته فلم تكن توبته كاملة، وإنما خففت ذنبه إلى حد ما.

يقول المؤرخ ليوتاكسل في كتابه "التوراة": "وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشَّى على سطح بيت الملك، فرأى من على السطح امرأة تستحمُّ. وكانت المرأة جميلة المنظر جدًّا. فأرسل داود وسأل عن المرأة، فقال واحد: "أليست هذه بَثْشَبَع بنت أَلِيعام امرأة أُورِيَّا الحِثّي؟" فأرسل داود رسلًا وأخذها، فدخلت إليه، فاضطجع معها وهي مطهرة من طَمثها.

١. محمد والأنبياء في المصادر اليهودية والمسيحية، السيد سلامة غنمي، مطابع الوليد، مصر، ٢٠٠٣م، ص١٣، ١٤ بتصرف يسير.

٢. مؤلفات أحمد ديدات، المجموعة الثالثة، ترجمة: محمد مختار، رمضان الصفناوي، علي عثمان، مرجع سابق، ص٥ بتصرف.

٣. تَبثُّ: تنشر.

٤. الماجِنة: المازحة التي تخلط الجِدَّ بالهَزْل.

ثم رجعت إلى بيتها. وحبلت المرأة، فأرسلت وأخبرت داود وقالت: "إني حُبْلَى". فأرسل داود إلى يوآب يقول: "أرسل إليَّ أوريَّا الحثِّي". فأرسل يوآب أوريا إلى داود". (صموائيل ١١: ٢ ـ ٦).

وتذكر التوراة كذلك أن لوطًا زنا بابنتيه، فحملتا منه سفاحًا، وذلك بعد أن لعب الخمر برأسه، وسلبه عقله ورشده.

ويكمل ليوتاكسل شرح النص فيقول: أما تقديم لوط ابنتيه البريئتين بدلًا من الملاكين أو الإلهين، فهو أمر أكثر خِسَّة[1] وإثارة للاشمئزاز[2]، فكل ما في هذه الرواية يدل على دناءة هذا القديس.

فهل زنا داود بزوجة القائد أوريا، وجرَّه عشقه لها وهيامه بها أن دفع زوجها إلى الجيش حتى قُتِل غدرًا بوشية من داود إلى أحد قادته في جيش أُورِيَّا[3]؟!

إلى غير هذا من الافتراءات التي افتراها هؤلاء على أنبياء الله تعالى. هل يقبل هذا عقل سليم؟ ألا ينكر هذا على غير الأنبياء؟ فما بالنا بصفوة الخلق؟!

أما وصف الكتاب المقدس لإسماعيل عليه السلام فيقول: "إنه يكون إنسانًا وحشيًّا. يده على كل واحد ويد كل واحد عليه". (التكوين: ١٦: ١٢).

فهكذا تصف التوراة إسماعيل عليه السلام بالوحشية والغلظة التي لا تليق به كنبي كما أخبر القرآن الكريم عنه.

وبمثل ما وصف الكتاب المقدس إسماعيل فقد وصف إسحاق عليهما السلام يقول: "فَقَدَّم له فأكل. وأَحْضر له خمرًا فشرب". (التكوين ٢٧: ٢٥).

فهي تصف إسحاق عليه السلام بأنه بعدما قدم له ابنه الطعام شرب الخمر، وهذا يخالف ـ أيضًا ـ ما جاء في القرآن من صفات إسحاق عليه السلام فما كان ليشرب شيئًا حرّمه الله عليه.

إن وصف الكتب المقدسة للأنبياء وصفًا تنكره الفطرة السليمة، إذ راح هؤلاء الفاسقون يصفون الأنبياء بأوصاف قبيحة، ويتجرءون عليهم بما لا يليق بالبشر العاديين، فضلًا عن أنبياء الله تعالى، وما كان عليه إسماعيل وإسحاق ـ عليهما السلام ـ من الصدق، والإخلاص، والصلاح والتقى وحب الآخرين وحسن الخلق، والعشرة، والحلم، والعلم، يتنافى مع كونهما يتصارعان غَيْرةً من بعضهما البعض، فالمؤمنون ـ لا سيما الأنبياء منهم ـ يمتازون بصفاء القلب، وسلامة الضمير، ونقاء الفكر، ويتصفون بكل الصفات الحميدة التي تؤهلهم ليكونوا دعاة إلى الله يجمعون شمل الناس حولهم، ويوحدون صفهم؛ وذلك ليكونوا يدًا واحدة. وصدق ربنا العظيم لما قال في صفات أحبائه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ٤ ﴾ (الصف)، وقال الله تعالى عن إسماعيل وإسحاق ـ عليهما السلام ـ : ﴿ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ١١٣ ﴾ (الصافات).

وليس من العدل ولا من الإنصاف أن يأتي هؤلاء المدّعون، وينسبون إلى هذين النبيين الكريمين التّشاجر

---

١. الخِسَّة: الحقارة والدَّناءة.

٢. الاشمئزاز: الضيق بالأمر والنفور منه.

٣. محمد والأنبياء في المصادر اليهودية والمسيحية، السيد سلامة، مرجع سابق، ص٣٠: ٣٣ بتصرف.

والضَّغِينة[1]؛ ليثبتوا أن العداوة بين العرب واليهود قديمة متأصلة. وإنما نبع هذا الاتهام من فهم المدَّعين للنبوة وبنظرتهم إلى الأنبياء فالنبوة في التوراة - وكذا في الإنجيل - نبوة كهانة، وعرافة، ورؤى، وأحلام، وتنجيم، ونبوة شعر، وخطابة، ونبوة تهويمات، وتَمْويه[2]؛ بل نبوة شعوذة ودجل، وكذب، ونبوة افتراء، وتَقوُّل على الله[3].

فإن كان هذا تصورهم للنبوة والأنبياء، فلا غرابة أن يصفوا إسماعيل وإسحاق - عليهما السلام - بالصراع الدائم، وإن لم يفصحوا لنا عن أسباب هذا الصراع، وعلى أي شيء كان.

ولو أن هؤلاء الزاعمين احتكموا إلى تصور الإسلام للنبوة والأنبياء لما اجترءوا على هذين النبيين الكريمين بهذا الوصف.

فالأنبياء في الإسلام أصحاب رسالة واحدة، هي البلاغ لكل ما جاء من عند الله، والدعوة إلى الحق والخير، وأهل الحق لا يتصارعون، ولا يتنازعون، بل يتعاونون ويتكاملون، ويعضد بعضهم بعضًا.

ولم يقدم لنا القرآن الكريم صورة واحدة لنبيين متعاصرين يتصارعان، بل قدم لنا صورًا لأنبياء عاشوا في عصر واحد فتعاونوا على أداء رسالة الله، التي كلفوا ببلاغها والجهاد في سبيل إعلائها، مثل هارون وموسى، ولوط مع إبراهيم، ومثل ما جاء في السنة عن يحيى وعيسى - عليهم السلام جميعًا -، ولم يكن للأنبياء طموحات دنيوية كما تصور التوراة الأنبياء، حتى ينشب بينهم صراع حولها، بل أخلصوا للحق دعوة واتّباعًا، فهم عباد الله المخلصون، وقد وصف الله إسماعيل عليه السلام بالحلم: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ (الصافات)، ووصف إسحاق عليه السلام بالعلم: ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ ﴾ (الذاريات).

ثالثًا. أخبار الأنبياء وأخلاقهم لا تؤخذ إلا من الكتاب المعصوم وهو القرآن الكريم الذي يصفهم بما يليق بعصمتهم:

لقد وصف القرآن الكريم الأنبياء الأبرار الأطهار بالصفات التي تليق بهم، وجعل الإيمان بهم وبرسالتهم من شُعب الإيمان الأصيلة، فمن الأمور المعلومة من الدين بالضرورة، والتي يكفر منكرُها، أن صفات جميع الأنبياء والرسل من: كمال الخلق، وحسن الخلق، وجمال الصورة، وشرف النسب، وقوة العقل، وصحة الفهم، وفصاحة اللسان، وقوة الحواس، وعزة القوم، وكَرَم المَنْبَت[4]... إلخ - من المعلوم أن مثل هذه الأوصاف مما أفاء الله عز وجل عليهم به معونة لهم على مهمتهم وتعريفًا بمكانتهم؛ إذ إن رتبتهم أشرف الرتب ودرجاتهم أرفع الدرجات، ويستحيل أن يتصفوا بضد هذه الصفات، أو ببعضها مما يتنافى مع الاصطفاء والاجتباء والاختيار.

يقول الله عز وجل: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ (الحج)، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ

١. الضَّغينة: الحقد الشديد.

٢. التَّمويه: الزخرفة وخلط الحق بالباطل.

٣. الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي، عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، د. ت، ص١٩٨.

٤. كَرَم المَنْبَت: أصالة النَّبْت وشرفه.

﴿ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤)﴾ (آل عمران)، وعرَّفنا بمقامهم الكريم عنده فقال ﷻ: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ (٤٧)﴾ (ص)، ويكفيهم شرفًا ويزيدهم كرمًا قول الله تعالى عنهم: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٢)﴾ (الدخان)، وقال ﷺ: "ما بعث الله تعالى من بعده - أي لوط عليه السلام - نبيًّا إلا في ذِرْوة من قومه"[1] [2]. وقال ﷺ: "ما بعث الله تعالى نبيًّا إلا حسن الوجه وحسن الصوت، وكان نبيكم حسن الصوت وكان لا يرجع"[3] [4].

كل هذه الصفات وغيرها من صفات أنبياء الله تعالى، وردت في القرآن والسنة الصحيحة، وهي صفات إجلال وإكرام، وفيما يلي بعض صفات نبي الله إسماعيل وإسحاق - عليهما السلام - التي جاءت في القرآن الكريم:

١. أخلاق إسماعيل عليه السلام تنفي ما يدّعون:

دعا الله تعالى إسماعيل عليه السلام بعشرين صفة في القرآن الكريم فهو: الغلام، والعليم، والحليم، والمسلم، والمستسلم، والآمر، والصابر، والمرضي، وصادق الوعد، والرسول، والنبي، والمذكور، والذبيح، والمطهر، والرافع، والمفضل على العالمين، والموهوب، والبار، والمصطفى من ولد إبراهيم عليه السلام، قال ﷻ: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (٨٦)﴾ (الأنعام)، وقد ذُكر في القرآن في اثني عشر موضعًا[5].

وكان إسماعيل عليه السلام مطيعًا لأبيه، منفذًا لوصاياه، صابرًا محتسبًا راضيًا بقضاء الله مسلمًا بقدره، فعندما أخبره أبوه أنه رأى في المنام أنه يذبحه فأجابه: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٠٢)﴾ (الصافات)، وكان إسماعيل عليه السلام رجلًا صالحًا تقيًّا ورعًا، يأمر أهله بعبادة الله من صلاة وزكاة وصوم وحج إلى شكر نعم الله، وإلى الصبر على الشدائد، وتحمل المكاره؛ فكان عند ربه مرضيًا، وعند الناس مُطاعًا[6]. وكان سيدنا إسماعيل عليه السلام فصيحًا حتى في أسلوبه ولغته. فكانت اللغة العربية من قبله يتحدث بها كلغة تفاهم، فطوعها سيدنا إسماعيل عليه السلام للشاعرية والخيال، وللكناية والمجاز، ولذلك يقولون: إنه أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة، ويقولون: إنه أول من تكلم العربية البينة.

ولعل مما يرجع إلى شهامته، ونبل أخلاقه، هذه الصفة الكريمة التي تحلى بها طيلة حياته، والتي هي من أخص خصائص الرجولة الحقة، ألا وهي صدق الوعد؛ يقول الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ

---

١. الذِّرْوَة من قومه: من أعلاهم وأحسنهم نسبًا.

٢. حسن: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب سورة يوسف (٣١١٦)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٦٨٦).

٣. صحيح: أخرجه الترمذي في الشمائل المحمدية، باب ما جاء في قراءة رسول الله ﷺ (٣٢١)، وصححه الألباني في مختصر الشمائل (٢٧٤).

٤. محمد والأنبياء في المصادر اليهودية والمسيحية، السيد سلامة غنمي، مرجع سابق، ص٣٦، ٣٧ بتصرف.

٥. المرجع السابق، ص٤٠، ٤١ بتصرف يسير.

٦. حياة وأخلاق الأنبياء، د. أحمد الصباحي عوض الله، مكتبة مدبولي، القاهرة، دار اقرأ، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص١١١ بتصرف.

رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ ﴾(مريم)، ثم يذكر الله تبارك وتعالى عملين لهما مغزاهما العميق، فيقول: ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾(مريم) لقد كان يتحلى بالصلاة ويأمر بها أهله، ويتحلى بالزكاة ويأمر بها أهله، أي أنه كان حريصًا على حسن صلته بالمجتمع ومظهر ذلك الزكاة، والزكاة هنا معناها: البذل والتضحية في سبيل الله في أعم صورة وأوسع نطاق[1].

لقد كان حسن الصلة بالله، حسن الصلة بالمجتمع، ومن أجل ذلك عقَّب الله تعالى على صفاته وأعماله بقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾(مريم).

٢. إسحاق عليه السلام في القرآن الكريم:

من يقرأ الآيات التي تحدثت عن إسحاق عليه السلام، يجد أن الله تعالى وصفه بالعديد من الصفات الحميدة، منها: الموهوب، والمبارك، والمبشر به، والنافلة، والمهدي، والموحى إليه، والبشرى، قال عز وجل: ﴿ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾(الصافات)[2].

ويبين القرآن أخلاق سيدنا إسحاق عليه السلام من خلال قصته في القرآن الكريم:

فقد كان رجلًا صالحًا صادقًا مباركًا لقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾(الصافات)، وقوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾(مريم).

وكان حليمًا عليمًا فقال لابنه العيص حينما غضب على أخيه يعقوب لفوزه بدعوة أبيه إسحاق وتهديده له بالقتل: "يا بني لا تغضب، فقد بقيت لك عندي دعوة فَهَلُمَّ[3] أدع لك بها، فتقدم إليه ودعا له بها"[4].

هل بعد ذلك العرض لأخلاق وصفات هذين النبيين يأتي متوهم ويقول بأنهما كانا يتصارعان ويتناضلان.

وبناء عليه فإن أنبياء الله أبعد ما يكونون عن هذه الأخلاق الذميمة أو ذلك الصراع البغيض، فهم أناس أصحاب رسالة سامية راقية، وقد عصمهم الله عز وجل من كيد إبليس ووساوسه في قلوبهم وعقولهم، ولكن هذه الأفكار القبيحة من اختراع اليهود، يريدون من ورائها تأصيل العداوة بينهم وبين المسلمين؛ ليصلوا إلى أهدافهم الخبيثة ومراميهم البغيضة التي وجدوها في كتبهم المحرفة.

الخلاصة:

- أخبرنا الله عز وجل في القرآن الكريم عن تحريف أهل الكتاب لكتبهم في غير ما آية من كتاب الله عز وجل، وقد أكد ذلك ما توصل إليه بعض علماء الغرب في العصر الحديث، حيث وجدوا أن الكتاب المقدس يحتوي على أكثر من خمسين ألف خطأ؛ ومن ثم فلا يصح أن نثق في أخبار الكتاب المقدس ولا في أحكامه.

١. مع الأنبياء والرسل، د. عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٩٠م، ص١٩٧، ١٩٨.

٢. محمد والأنبياء في المصادر اليهودية والمسيحية، السيد سلامة غنمي، مرجع سابق، ص٤١ بتصرف يسير.

٣. هلُمَّ: تعال.

٤. حياة وأخلاق الأنبياء، د. أحمد الصباحي عوض الله، مرجع سابق، ص١٥ بتصرف يسير.

• فإذا ثبت تحريف الكتاب المقدس باعتراف من يدينون به، فلا غرابة أن نجد مثل هذه الأوصاف التي لا تليق بهذين النبيين العظيمين، فقد تعدوا ذلك بمراحل فوصفوا الله ﷻ بصفات لا تليق ببشر عادي، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا، ووصفوا أيضًا ملائكته الأبرار الأطهار بصفات لا تليق بهم، وهاهم يصفون أنبياء الله ورسله بصفات قبيحة من غل وحقد، وزنا وعشق، وشدة ووحشية لا تليق بهم كأصحاب رسالات ودعوات.

• ولذلك فإن أخلاق الأنبياء وصفاتهم ومكانتهم ومنزلتهم عند الله ﷻ لا تؤخذ إلا من القرآن الكريم الذي تعهد الله بحفظه، وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم وجدنا أنه يصف جميع الأنبياء بصفات الجلال والعظمة والتواضع، وحسن الخلق وكماله، ومن هؤلاء الأنبياء الذين وصفهم بهذه الصفات إسماعيل وإسحاق عليهما السلام. فإسماعيل عليه السلام وصفه الله بأنه كان صادق الوعد، وبأنه كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة، وكان عند الله تعالى مرضيًّا، وإسحاق عليه السلام وصفه الله بأنه كان رجلًا صالحًا حليمًا عليمًا رحيمًا كما أخبر عنه القرآن الكريم.

• إن فكرة الصراع التي اخترعها اليهود لتأصيل العداوة بينهم وبين المسلمين، والتي أخذوها من كتبهم المحرفة ليس لها وجود أصلًا، ولا تليق أن تكون بين نبيين عظيمين من أمثال إسماعيل وإسحاق عليهما السلام.

الشبهة السابعة والعشرون

ادِّعاء أن النبوة مقصورة على إسحاق عليه السلام وولده دون إسماعيل عليه السلام(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغرضين أن النبوة التي في ولد إبراهيم عليه السلام مقصورة على إسحاق عليه السلام وذريته دون إسماعيل عليه السلام وذريته، ويزعمون أن النبي ﷺ لم يستطع أن يحدد من الذبيح، إسماعيل أم إسحاق ـ عليهما السلام ـ، ويهدفون من ذلك إلى تجريد العرب من كل فضل وشرف، وقصر النبوة على بني إسرائيل.

وجوه إبطال الشبهة:

١) النبوة في إسماعيل عليه السلام وولده ثابتة في القرآن الكريم والتوراة، رغم محاولة البعض طمس الحقائق أوتزييفها.

٢) التوراة تنفي اختصاص بني إسرائيل بالنبوة، إذ إنهم يؤمنون بخمسة رسل من غير بني إسرائيل مثل: أيوب، ويونس ـ عليهما السلام ـ وهذا يناقض زعمهم ويسقط حجتهم في أنها مختصة في إسحاق وبنيه فقط.

٣) الوحي القرآني وَضَّح قصة الذبيح ـ وليس النبي ﷺ ـ توضيحًا لا إخفاء ولا لبس فيه.

التفصيل:

أولا. نبوة إسماعيل عليه السلام ثابتة في القرآن الكريم والتوراة رغم محاولة طمس هذه الحقيقة:

إن نبوة إسماعيل عليه السلام وامتدادها في ولده وذريته

(*) هذا هو الحق، رد على مفتريات كاهن الكنيسة، ابن الخطيب، المطبعة المصرية،القاهرة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٧م.

ثابتة بالقرآن الكريم، فالآيات الكريمة التي تثبت نبوة إسماعيل عليه السلام كثيرة، مثل قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤)﴾ (مريم)، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ﴾ (النساء: ١٦٣)، وقوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦)﴾ (البقرة)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤)﴾ (آل عمران).

وكذلك فإن نبوة إسماعيل عليه السلام ثابتة في نصوص التوراة، فمن ذلك: ما جاء في معرض الكلام عن إبراهيم عليه السلام: "وأُثمِرُك كثيرًا جدًّا، وأجعلك أممًا، وملوكٌ منك يخرجون، وأقيم عهدي بيني وبينك، وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهدًا أبديًّا، لأكون إلهًا لك ولنسلك من بعدك". (التكوين ١٧: ٦، ٧).

ومعلوم أن نسل إبراهيم عليه السلام كل من جاء عن طريق أبنائه جميعًا وذرياتهم وفي مقدمتهم ابنه الأكبر إسماعيل عليه السلام، كما جاء في التوراة - العهد الأول - ما ينصرف إلى النبوة، فالنبوة ثابتة في إسماعيل عليه السلام وبنيه كما هي ثابتة في إسحاق عليه السلام وبنيه، لكن اليهود أرادوا إطفاء هذه الحقيقة، فقصروا العهد الإلهي على إسحاق عليه السلام وبنيه، وحرموا منه إسماعيل عليه السلام وبنيه عداءً لهم، بعد أن جمعهم الله مع إسحاق عليه السلام وبنيه؛ فكلهم ذريته ونسله: "وقال إبراهيم لله: "ليت إسماعيل يعيش أمامك!" فقال الله: "بل سارة امرأتك تلد لك ابنًا وتدعو اسمه إسحاق. وأقيم عهدي معه عهدًا أبديًّا لنسله من بعده. وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه. ها أنا أباركه وأُثمِره وأُكَثِّره كثيرًا جدًّا". (التكوين ١٧: ١٨ - ٢٠)®.

ثانيًا. التوراة تنفي اختصاص النبوة في بني إسرائيل:

على أننا إذا رجعنا إلى التوراة نجد أن التوراة نفسها - على علَّاتها - تنفي دعوى اختصاص النبوة ببني إسرائيل، فقد ذكرت خمسة رسل من غير بني إسرائيل، وهم: ملكي صادق، ويثرون، وبلعان، وأيوب، ويونس[1].

إن الهدف من ذلك الادعاء هو تجريد العرب من كل فضل ومنقبة تنسب إليهم وليس في المناقب أعظم من وجود النبوة فيهم، وفي جدهم إسماعيل عليه السلام ونسبة كل فضل إلى اليهود وحدهم واستئثارهم بذلك الفضل، والتوراة التي حرفوها تدور في هذا الفلك، وهو بناء أمجاد بني إسرائيل، واستعبادهم العالم وتسلطهم عليه، لذا فهم عندما يسودونه تتحقق وعود الله المزعومة لشعبه المختار.

® في "ثبوت نبوة إسماعيل" طالع أيضًا: الشبهة الخامسة والعشرين، من هذا الجزء.

١. الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي، د. عبد العظيم المطعني، مرجع سابق، ص٤٥٠.

ثالثًا. قصة الذبيح وضَّحها الوحي القرآني توضيحًا شافيًا، وليس النبي ﷺ:

أما افتراء أن النبي ﷺ لم يستطع أن يحدد من الذبيح أهو إسماعيل أم إسحاق عليهما السلام، فما كان النبي ﷺ ليحدد هذا الأمر أو غيره من تِلْقاء نفسه[1]، ولكنه وحي يوحى إليه، وقد امتحنه اليهود المعاصرون له في شأن أصحاب الكهف، وذي القرنين، والروح، وموسى عليه السلام، والعبد الصالح، ولم يستطيعوا تكذيبه فيما أُوحِي إليه، والله تعالى أخبر عن الذبيح بما يفيد أنه غير إسحاق عليه السلام.

فجاء الحديث عن إسحاق عليه السلام بعد الحديث عن الذبيح، ما يفيد أنه ليس بإسحاق عليه السلام، بل كانت البشرى نتيجة صبر إبراهيم عليه السلام على البلاء في تنفيذ أمر الله، وأخبرت التوراة أن الذبيح ابن إبراهيم عليه السلام الوحيد، ولم يكن إسحاق عليه السلام ابنه الوحيد، ولكنهم حشروا اسمه حشرًا، فظهر ضلالهم ®.

الخلاصة:

- النبوة في إسماعيل عليه السلام وولده ثابتة في القرآن الكريم والتوراة، رغم محاولة طمس الحقائق وتزييفها، لبناء أمجاد لبني إسرائيل، وتجريد العرب من كل فضل ومنقبة.
- القرآن الكريم هو القول الحق في إثبات نبوة إسماعيل عليه السلام؛ لأنه حجة ثابتة وقطعية الثبوت بالتواتر.
- التوراة تنفي اختصاص النبوة في بني إسرائيل، فقد ذكرت خمسة رسل من غير بني إسرائيل، وهم: ملكي صادق، ويثرون، وبلعان، وأيوب، ويونس، وهذا يناقض زعمهم بأن النبوة مقصورة على بني إسرائيل، وبهذا التناقض يسقط زعمهم وتبطل حجتهم.

الشبهة الثامنة والعشرون

الزعم أن لوطا عليه السلام عرض على قومه إتيان الفاحشة مع بناته (*)

مضمون الشبهة:

يزعم المتوهمون أن نبي الله لوطًا عليه السلام قد عرض على قومه إتيان الفاحشة مع بناته فداءً لأضيافه، ويستدلون على ذلك بقول الله تبارك وتعالى - على لسان لوط عليه السلام: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾ (هود)[2]. ويتساءلون: كيف يصح هذا من نبي يُوصف بالعصمة؟!

وجها إبطال الشبهة:

١) الغرض من حقيقة عرض لوط عليه السلام كما وضحه القرآن الكريم، هو إرشادهم إلى الطهارة والزواج من النساء.

---

١. تِلْقاء نفسه: من عند نفسه.

® في "من الذبيح: إسماعيل أم إسحاق؟" طالع أيضًا: الشبهة الرابعة والعشرين، من هذا الجزء.

(*) عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

٢. يُهْرَعون: يمشي مشيًا فيه اضطراب وسرعة.

٢) الأدلة العقلية والنقلية تثبت أن عرض لوط عليه السلام لا يخرج عن احتمالين: الأول: عرض بناته للزواج الشرعي، وليس بالزنا، والثاني: أن بناته هم نساء الأمة وبنات قريته، وعرضه للزواج الشرعي منهن أيضًا.

التفصيل:

أولا. الغرض من حقيقة عرض لوط عليه السلام كما وضحها القرآن الكريم:

لما أتت رسل الله - ملائكته - لوطًا عليه السلام، ورأى هيئاتهم وجمالهم حزن؛ لأنه حسبهم إنسًا؛ فخاف عليهم خُبْثَ قومه، وأن يعجز عن مقاومتهم ودفعهم وضاق من هذا صدره، وقال: هذا يوم شديد شره عظيم بلاؤه.

وجاءه قومه بعد أن علموا أن عند لوط عليه السلام أضيافًا حسان الوجوه، يسرعون كأنما يُدْفَعُون دفعًا، ومن قبل مجيئهم إلى لوط عليه السلام كانوا يأتون الرجال في أدبارهم.

فقال لهم لوط عليه السلام - لما جاءوا يراودونه عن ضيفه: هؤلاء بناتي فتزوجوهن فهن أطهر لكم، وأطهر إما بمعنى: أنظف، أو أحلّ، فعلى معنى أنظف يراد بالطهارة الطهارة الحسّية، وهي الطهارة عما في اللواط من الخبث والأذى، وعلى معنى أحلّ: يراد الطهارة المعنوية، وهي التَّنزُّه عن الفحش والإثم، فاتقوا الله تعالى، ولا تخزون في ضيفي، أي: ولا تهينوني ولا تفضحوني - من الخزي؛ أي: ولا تُخجلوني من الخزاية، وهي الحياء - في حق ضيوفي، فإنه إذا خزي ضيف الرجل، أو جاره فقد خزي الرجل. ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨)﴾ يهتدي إلى طريق الحق، وفعل الجميل، وترك السوء؛ فيأمر بقية القوم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر.

فأجابوه: لقد علمت ما لنا في بناتك من حاجة؛ لأن إتيان الإناث غير محبب إلينا، وإنما نحب ونبغي إتيان الذُّكران، وإنك لتعلم هذا.

والمعنى: ليس لنا في بناتك حق؛ لأنك دعوتنا إلى نكاحهن بشرط الإيمان؛ ونحن لا نجيبك إلى ذلك، فلا يكون لنا فيهن حق[1].

ثانيًا. الأدلة العقلية والنقلية تثبت أن عرض لوط عليه السلام لبناته لا يخرج عن احتمالين: إما أنه يعرض بناته بالتزويج، أو أنه يقصد ببناته نساء الأمة بالتزويج أيضًا:

الاحتمال الأول: أن لوطًا عليه السلام لم يعرض بناته على قومه بالزنا، وإنما بالتزويج وإتيانهن من حيث أمر الله تعالى، وإنما لم تصرح الآية بهذا؛ لأنه واضح، لا يحتاج إلى التنصيص عليه، حيث لا يعقل أن ينهى نبي عن منكر ويدعو في نفس الوقت إلى منكر آخر، ومع بناته، والمقام مقام ترجيح النساء على الرجال، لا كما يفعل قومه من ترجيح إتيان الذكران على ما خلق لهم ربهم تعالى من أزواجهم، قال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦)﴾ (الشعراء).

ففي هذا المقام أمر النكاح معلوم، والطهر ليس إلا فيه: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ لا في الزنا، ولا في إتيان الذكران؛ لذا استغنى عن ذكره. ويدل على أن

---

١. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٩٥، ٢٩٦.

لوطًا عليه السلام إنما عرض بناته بالتزويج أمور:

١. تعليله عرض بناته بقوله: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ ولا طهارة في الزنا، ولا يفهم من أفعل التفضيل أن عمل قوم لوط عليه السلام طاهر، وأن إتيان النساء بالتزويج أكثر طهرًا منه، لأن أفعل التفضيل ليس على بابه، وإنما هو بمعنى أصل الفعل، فلا يدل على أن إتيان الذكور كان طاهرًا.

٢. أنه لا يجمل بمن ينهى عن منكر أن يدعو في نفس الوقت إلى منكر مثله أو أشد، وهنا كيف ينهى لوط عليه السلام عن اللواط ويدعو إلى الزنا؟ كل منهما منكر قبيح يجب تركه.

٣. أنه لو كان يدعو قومه إلى الزنا لاحتجوا عليه بقولهم: الزنا واللواط محرمان في شريعتك فكيف تدعونا إلى ترك أحدهما دون الآخر؟! ولكان لهم أن يقولوا له: أنت تدعونا إلى محرم هو الزنا، ونحن ندعو إلى محرم هو اللواط، فقد تساوينا نحن وأنت في هذا الأمر، فليست استجابتنا لك بأولى من استجابتك لنا، ولكن لم يقولوا شيئًا من ذلك.

ثم هو عليه السلام قال لهم عُقيب عرض بناته عليهم: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨)﴾، أي: رجل يهتدي إلى طريق الحق، وفعل الجميل، والكفّ عن السوء، فلو كان لوط عليه السلام يدعو قومه إلى الزنا لقالوا له: وأنت الآخر لست رشيدًا، حيث تدعونا إلى الفسق، لكنهم لم يقولوا ذلك.

٤. أن لوطًا عليه السلام أنكر على قومه إتيان الذكران، وترك الزوجات في قوله: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦)﴾ (الشعراء)، فهذا صريح في أنه يعيب على قومه أمرين: إتيان الذكران وترك الزوجات، فهو إذن يدعوهم إلى إتيان ما خلق الله لهم من أزواجهم، أي: إتيان نسائهم الحلال وذلك نقيض الإتيان الحرام وهو الزنا[1].

وذكر السيوطي أن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: لما سمعت الفسقة بأضياف لوط عليه السلام جاءت إلى باب لوط، فأغلق لوط عليه السلام عليهم الباب دونهم، ثم اطّلع عليهم فقال: هؤلاء بناتي، فعرض عليهم بناته بالنكاح والتزويج، ولم يعرضهن عليهم بالفاحشة، وكانوا كفارًا وبناته مسلمات، فلما رأى البلاء، وخاف الفضيحة عرض عليهم التزويج[2].

وهنا يرد سؤال هو: كيف يعرض لوط عليه السلام على قومه الكفار التزوج ببناته المسلمات، وهل يصح تزوج الكافر بمسلمة؟ والجواب واحد من اثنين:

- أنه دعاهم إلى التزوج بهن شريطة أن يؤمنوا، وإليه ذهب الزجاج، وهو مبني على أن تزويج المسلمات من الكفار لم يكن جائزًا إذ ذاك.
- أن تزويج المؤمنات من الكفار كان جائزًا في شريعته، وهكذا كان في أول الإسلام؛ فقد زوَّج النبي صلى الله عليه وسلم ابنته زينب لأبي العاص بن الربيع، وابنته رقية لعتبة بن أبي لهب قبل الوحي، وكانا كافرين، إلا أن عتبة لم يدخل برقية، وفارقها بطلب أبيه حين نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١)﴾ (المسد)؛ فتزوجها

١. المرجع السابق، ص٢٩٧: ٢٩٩.

٢. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٨٣م، ج٣، ص٣٤٣.

عثمان ، وأما أبو العاص فكان قد دخل بزينب، فلما أُسِرَ يوم بدر، وفدى نفسه أخذ النبي ﷺ العهد عليه أن يردها إذا عاد، وأرسل ﷺ زيد بن حارثة ورجلًا من الأنصار في طلبها فجاءا بها، ثم إن أبا العاص أسلم، وأتى المدينة فردها ﷺ إليه.

ولوط عليه السلام وهو يعرض بنتيه أو بناته الثلاث بالنكاح فإنما يعرضهن على زعيمين أو ثلاثة مُطَاعِين في قومهم[1].

الاحتمال الثاني من قول لوط عليه السلام: ﴿هَٰؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ﴾(هود: ٧٨): أن لوطًا عليه السلام إنما يقصد ببناته نساء الأمة، فهو يعرض على الرجال أن يأتوا أزواجهم، وكأنه يقول لهم: هؤلاء أزواجكم فأتوهن، فهن أطهر لكم من إتيان الذكران. قال الزمخشري: ﴿هَٰؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾ إشارة إلى النساء؛ لأن كل أمة أولاد نبيها: رجالهم بنوه، ونساؤهم بناته، فكأنه قال لهم: هؤلاء بناتي فانكحوهن، وخلوا بَنِي فلا تتعرضوا لهم.

والجواب الأول أقوى - عرض الزواج من بناته -؛ إذ الإشارة بـ "هؤلاء" تكون للحاضر، ونساء الأمة غير حاضرات؛ ولأنه لو كان المقصود نساء الأمة لقال في هذا الوقت: أزواجكم اللائي خلق لكم ربكم أطهر لكم، كما قال في موضع آخر: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ۝١٦٦﴾ (الشعراء)؛ ولأنهم ردوا عليه بقولهم: ﴿قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ۝٧٩﴾ (هود) ولو كان المراد نساء الأمة لما قالوا هذا؛ إذ لهم الحق في أزواجهم، ولما لم يستجيبوا له، ولم يقبلوا ما عرض عليهم من أمر بناته قال ﷺ: ﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ۝٨٠﴾ (هود)[2]، والمعنى: لو أن لي بدفعكم قوة بالبدن، أو الولد، أو آوي إلى عشيرة كثيرة؛ لأنه كان غريبًا عن قومه، شبَّه العشيرة بركن الجبل في الشدة والمنعة، وجواب "أو" محذوف لدلالة الكلام عليه، أي: لحلت بينكم وبين ما تريدونه من أضيافي[3].

الخلاصة:

- عرض لوط عليه السلام بناته على قومه كما وضحه القرآن الكريم، هو إرشادهم إلى طريق الطهر والعفاف، وهو الزواج من بناته أو نساء بلدته أو أمته، بدلًا من هذه العادات السيئة التي وقعوا فيها، وهي "اللواط"، فهو لم يعرض عليهم الزنا - كما يزعم الزاعمون - بل عرض عليهم الزواج، إذ كيف ينهاهم عن المنكر ويدعوهم إلى منكر آخر هو الزنا؟!
- الأدلة العقلية والنقلية تثبت أن عرض سيدنا لوط عليه السلام لا يخرج عن احتمالين:

أولهما: هو عرض بناته بالزواج وهذا ينافي الزنا.

ثانيهما: أن المقصود ببناته: نساء الأمة، وأهل بلدته، وهذا زواج شرعي بعيد عن الزنا واللواط، ولكن الأقوى والأقرب إلى الصواب، هو أنهن بنات لوط عليه السلام.

---

١. روح المعاني، الآلوسي البغدادي، مرجع سابق، ج٣، ص٥٨٩.

٢. آوِي إلى رُكْنٍ شديد: ألجأ إلى حماة أشداء أقوياء يحمونني.

٣. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٩٩، ٣٠٠.

الشبهة التاسعة والعشرون

التشكيك في توكُّل لوط عليه السلام حق التوكُّل على الله (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهّمين أن لوطًا عليه السلام لم يكن متوكّلا على الله حق التوكل، ويستدلون على ذلك بقول الله تعالى: ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ (هود). ويتساءلون: هل يصح ذلك عن نبي من أنبياء الله تعالى؟!

وجها إبطال الشبهة:

١) التوكل على الله تعالى لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب المشروعة التي خلقها الله وأودعها في الكون.

٢) لا يقدح في عصمة نبِي مثل لوط عليه السلام طلب النصرة، ما دامت في الحق، بل إن الاجتماع والتناصر من أجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب شرعي.

التفصيل:

أولا. التوكُّل على الله لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب المشروعة:

لو لم يكن لوط عليه السلام متوكلًا على الله حق التوكل لما قال: ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ (هود)، لما جاءه قومه يراودونه عن ضيفه، والذين هم في الحقيقة ملائكة أرسلهم الله تعالى لإهلاك قوم لوط عليه السلام، ولوط عليه السلام لا يعلم ذلك.

والذي يتأمل مقولة لوط عليه السلام يجد توكلًا على الله تعالى ما أكمله وما أعظمه؛ وذلك لأن التوكل له معنى قد جهله هؤلاء الذين يتجرءون على أنبياء الله تعالى ورسله، ونوضح هذا المعنى لهؤلاء الغافلين في النقطة التالية:

معنى التوكل ومفهومه في الإسلام:

التوكل لغة: وَكَل بالله يَكِل وكلًا: استسلم إليه، ووكل إليه الأمر: سلَّمه إليه، وفوَّضه إليه. أوكل على الله وكل به، ووكل على فلان العمل: خلاه كله عليه. وكله: استكفاه أمره ثقة به، ووكله في الأمر فوضه إليه. اتكل على الله: استسلم إليه، واتكل على فلان في أمر: اعتمد ووثق به. تواكل: اتكل بعضهم على بعض، وتواكل القوم فلانًا: تركوه ولم يعينوه فيما نزل به.

وبعقد مقارنة سريعة بين التوكل والتواكل من خلال المعنيين السابقين يتضح أن التوكل أخذ بالأسباب واستنفاد للجهد والطاقة، والتواكل عكس ذلك أي أن يكون الإنسان بمقدوره أن يبذل جهدًا، وطاقة ثم نجده لا يفعل، وعليه فهو متواكل لا متوكل على الله.

أما التوكل اصطلاحًا: فهو الاعتماد على الله والرضا بقضائه وقدره، والرجوع إليه في كل شيء مع الأخذ بالأسباب؛ فالتوكل هو الأخذ بالأسباب، ثم الاعتماد على الله في تحصيل النتائج، وحث الله على ذلك حيث قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ (الأعراف)[1].

يقول الإمام أحمد: التوكل عمل القلب، ومعنى ذلك أنه عمل قلبي ليس بقول اللسان، ولا عمل

(*) عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

١. دراسات في العقيدة الإسلامية، د. محمد أحمد الخطيب، د. محمد الهزايمة، دار عمار، الأردن، ط٥، ١٩٩٧م، ص٢١.

الجوارح، ولا هو من باب العلوم والإدراكات[1].

وقال أبو سعيد الخرَّاز: التوكل اضطراب بلا سكون، وسكون بلا اضطراب.

ويريد بذلك أن يتحرك العبد في الأسباب بالظاهر والباطن، وأن يسكن إلى المسبب ويركن إليه، وقد أجمع علماء الأمة على أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب[2].

والتوكل هو صفة الأنبياء والمرسلين وجميع الصالحين، والتواكل هو صفة الكسالى منهم والعجزة؛ ومثال ذلك الرجل الذي دخل عليه الفاروق في المسجد فوجده يتعبد دون أن يغادر المسجد، فسأله عمن يطعمه، فقال: أخي يطعمني، فحكم الفاروق حكمًا حاسمًا بيِّنًا لا لبس فيه ولا غموض؛ حيث قال: "أخوك أعبد لله منك". وإذا أسقطنا هذا الكلام على موقف نبي الله لوط عليه السلام، لاتضح لنا كيف كان هذا النبي متوكلًا على الله حق التوكل.

إن المتأمل في موقف نبي الله لوط عليه السلام مع قومه لما راودوه عن ضيفه، يتبين له رجولة هذا النبي واستماتته في الدفاع عن أضيافة أمام هؤلاء الفسقة، على الرغم من أنه كان يقف وحده أمام هذه الجموع، إلا أنه دافعهم وحده؛ لأنه يعلم حقيقة التوكل على الله، قال تعالى: ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ (هود).

فسيدنا لوط عليه السلام يعلم مدى فسق قومه ومدى دنسهم، ومع ذلك يعرض عليهم بناته ليتزوجوا بهن، إنها قمة التوكل أن يستنفد الإنسان طاقته مع ركون قلبه وثقته في الله تعالى، وهل يُعْقَل أن يكون قلب نبي من أنبياء الله عز وجل غير ذلك؟!

ويتساءل العقلاء: كيف يكون لوط عليه السلام غير متوكل على الله، وجميع أنبياء الله عز وجل معصومون من الزَّلَل[3] والخطأ؟! كيف يكون غير متوكِّل على الله والأنبياء هم الأسوة الحسنة للناس وبهداهم يقتدي الناس؟ قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ﴾ (الممتحنة)، وقال تعالى: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (الأنعام).

والراجح أن الخطاب في قوله: ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ (هود) موجه إلى أضيافه؛ كأنه تمنى لو كان عدد ضيفه كثيرًا ليجد بهم قوة على مجاهدة قومه، وكفهم والإيقاع بهم، ولذلك ردوا عليه بقولهم: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ﴾ (هود:٨١)[4].

أما عن مفهوم قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ (هود) في ظل الحديث الصحيح: "ويرحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلى ركن

---

١. في الطريق إلى الله: التوكل، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ص١٧.

٢. المرجع السابق، ص١٨.

٣. الزَّلَل: الخطأ.

٤. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص١٥٠.

شديد"[1]. فيمكن توجيه وتفسير الآية مع الحديث والربط بينهما على النحو الآتي:

١. أنه لا جناح على لوط عليه السلام في طلب قوة من الناس تدفع عن أضيافه؛ إذ لا حرج على إنسان يرى الحق مضيَّعًا، والباطل سائدًا في أن يستعين بأناس يُحق بهم الحق، ويُبطل الباطل؛ فقوة جند الحق من قوة الله.

قال ابن حزم: لا جناح على لوط عليه السلام في طلب قوة من الناس؛ فقد قال عز وجل: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ (البقرة: ٢٥١)، وقد طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار والمهاجرين منعه حتى يبلغ كلام ربه... وإنما أخبر صلى الله عليه وسلم أن لوطًا عليه السلام كان يأوي إلى ركن شديد يعني من نصر الله له بالملائكة، ولم يكن لوط عَلِمَ بذلك، ومن اعتقد أن لوطا كان يعتقد أنه ليس له من الله ركن شديد فقد كفر؛ إذ نسب إلى نبي من الأنبياء هذا الكفر، وهذا أيضًا ظن سخيف؛ إذ من الممتنع أن يَظن نبي برب أراه المعجزات، هذا الظن[2].

٢. إن لوطًا عليه السلام التجأ إلى الله في باطنه، وهو ما يخبر عنه الحديث، وإنما قال: ﴿ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ (٨٠)﴾ (هود) أمام الأضياف اعتذارًا.

وقد نقل ابن حجر عن النووي قوله: إنه التجأ إلى الله في باطنه، وأظهر هذا القول للأضياف اعتذارًا!

ويُرجِّح د. الحديدي، الجواب الثاني لأمرين:

الأول: أن اللائق برسول الله أن يركن إلى الله لا إلى الناس، وكُلُّ رسولٍ كان يقف وحده في مواجهة الكثرة الكثيرة من خصومه ومُناوئيه[3]، فعلى من كان يعتمد؟

والرسل عليهم الصلاة والسلام حين كلَّفهم ربهم بالدعوة إلى سبيله، أعلمهم أنه معهم بتأييده وعنايته حتى لا يخافوا سطوة أقوامهم عليهم، وهل كان مثل فرعون في الناس تجبرًا وطغيانًا، لقد طمأن الله موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ عندما وجههما إليه أنه معهما: ﴿ اذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ (٤٤) قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) ﴾ (طه). والرسل عليهم الصلاة والسلام ما كانوا يلتجئون إلا إلى الله، قال الله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ (٨٦) ﴾ (يوسف).

الثاني: أن لوطًا عليه السلام قدَّر في نفسه في هذه اللحظة أن أضيافه ـ وهو لا يعلم أنهم ملائكة ـ سيتساءلون ولو في أنفسهم: أما لهذا الرجل ولد وعشيرة تدفع عنه؟!، فقال هذا القول اعتذارًا لهم بأن لا ولد له ولا عشيرة تحميه، أما في الباطن فكان ملتجئًا إلى الله تعالى متوكلا عليه[4] ®.

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قوله عز وجل: ﴿ وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ (٥١) ﴾ (الحجر) (٣١٩٢)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل عليه السلام (٦٢٩١).

٢. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٠١.

٣. مُناوئيه: أعداؤه.

٤. عصمة الأنبياء، د. محمد الحديدي، مرجع سابق، ص٣٠٢.

® في **"عدم منافاة التوكل للأخذ بالأسباب"** طالع أيضًا: الوجه الرابع، من الشبهة الثانية، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد). وفي **"دعوة السلف الصالح إلى الأخذ بالأسباب"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية والأربعين، من الجزء الرابع (التاريخ الإسلامي٢).

ثانيًا. لا يقدح في عصمة النبي طلب النصرة للحق، بل هو واجب شرعي:

أنبياء الله تبارك وتعالى مصطفون منه ﷻ، وهذا الاصطفاء جاء لأشياء أودعها الله فيهم يتميزون بها عن غيرهم، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ (آل عمران). فالآية تخبرنا أن الله اختار آدم ونوحًا، وآل إبراهيم، وهم إسماعيل وإسحاق، والرسل من ذريتهما، وآل عمران ـ وهم موسى وهارون ابنا عمران ـ عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين ـ على العالمين ـ بالرسالة[١].

وينقل أبو السعود قولًا في توضيح اصطفاء آدم ونوح ـ عليهما السلام ـ هو: اصطفى الله آدم عليه السلام بأن خلقه بيده في أحسن تقويم وبتعليمه الأسماء، وإسجاد الملائكة له، وإسكانه الجنة، واصطفى نوحًا عليه السلام بكونه أول من نسخ الشرائع، إذ لم يكن قبله تزويج المحارم حرامًا، وبإطالة عمره، وجعل ذريته هم الباقين، واستجابة دعوته في حق الكفرة والمؤمنين، وحمله على مَتْن الماء[٢][٣].

ومن اصطفاه الله جعله على هدى وصلاح، وجعله عبدًا شكورًا لا تصدر عنه المعصية؛ لأن الله ﷻ لا يختار العصاة ليهدي بهم عباده، فإنهم يصيرون قدوة في الضلال والإضلال، فكيف يختارهم لهداية الناس[٤]؟

وأما عن آل إبراهيم عليه السلام وآل عمران، فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله: "وآل إبراهيم وآل عمران" قال: هم المؤمنون من آل إبراهيم، وآل عمران، وآل ياسين، وآل محمد ﷺ"[٥].

والذي ينظر فيما تقدم يوقن أن أنبياء الله تعالى ـ ومنهم لوط عليه السلام ـ قد اصطفاهم الله على البشر لأداء مهمة محددة ألا وهي مهمة هداية البشر إلى الله تعالى وهذا يستوجب أن يكونوا معصومين من كل زلل وخطأ، وإلا لما تحققت الغاية من مبعثهم وتلك نعمة أنعم الله تعالى بها على البشرية جمعاء، فكَوْن الأنبياء والمرسلين نموذجًا بشريًّا يحتذى به ويَقْتَفِي أَثَره[٦] ـ لأنهم المعصومون ـ يضيء الطريق للمهتدين، ويقيم الحجة على الضالين.

فكم من أناس في هذه الحياة يبحثون عن نموذج يُقْتَفَى أثره وتُتَلَمَّس خطواته فلا يجدون إلا أُناسًا لا يمكن بحال من الأحوال أن يكونوا أسوة في الخير، أو قدوة في الصلاح، فيصيبهم من الهم والكرب نصيب عظيم، وتلك نفوس الأسوياء، ونحسب أن الله ﷻ رَأْفَة بهؤلاء ـ جعل هناك أنبياء ومرسلين ودعاة إلى الخير من أجل الاقتداء بهم والتأسي بأخلاقهم.

---

١. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص١٤٧.

٢. مَتْن الماء: ظهره.

٣. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود محمد بن محمود العمادي، دار إحياء التراث، بيروت، د. ت، ج١، ص٢٢٩.

٤. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص١٤٨.

٥. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، مرجع سابق، ج٢، ص١٨٠.

٦. يَقْتَفِي أَثَره: يتَّبعه ويقتدي به.

الخلاصة:

- إن الأنبياء هم أعظم الناس إيمانًا بالله، وأقواهم يقينًا على الله، وأشَدُّهم توكلًا عليه، ولا يقدح في عصمة نبي منهم أن يطلب النصرة على الحق، أو دفع المنكر بل إن ذلك واجب شرعي.
- لا حرج ولا جناح على نبي الله لوط عليه السلام في طلب قوة من الناس لدفع الباطل وإحقاق الحق فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ (البقرة: ٢٥١) فهذا ما فعله لوط عليه السلام ولم يزد عليه.
- أما قوله تعالى حكاية عن لوط: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠)﴾ (هود) فكان اعتذارًا من لوط عليه السلام أمام أضيافه، أما باطنه فهو مع الله دائم الالتجاء إليه وهذا ما يوضحه قول رسولنا صلى الله عليه وسلم في الحديث المتقدم: "يرحم الله لوطًا، لقد كان يأوي إلى ركن رشيد".

الشبهة الثلاثون

ادعاء وقوع الفحشاء في بيت لوط عليه السلام(*)

مضمون الشبهة:

يلصق الجاهلون التُّهم الشنيعة بأنبياء الله عز وجل، وهم المعصومون من الخطأ والزلل، ومن الأنبياء الذين أصابهم أذى هؤلاء الفسقة، سيدنا لوط عليه السلام، فقد اتهمه الجاهلون زورًا وافتراءً، بأنه زنى بابنتيه كما جاء في كتابهم المحرف، ويدعون كذلك أن زوجته خانته بارتكاب الفحشاء، ويستدلون على ذلك بقول الله عز وجل حكاية عن امرأة نوح ولوط: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ (١٠)﴾ (التحريم).

وجوه إبطال الشبهة:

١) أنبياء الله عز وجل جميعًا هم خير البرية، ولوط عليه السلام من الأنبياء، ومن ثم فلا يجوز في حقه ما يخدش هذه الخيرية.

٢) تناقض نصوص الكتاب المقدس حول نبي الله لوط عليه السلام يدحض تلك الافتراءات، وينفي هذا الزعم الباطل، ويثبت صدق القرآن الكريم.

٣) خيانة زوجته له لا تعني أنها زنت - كما يدَّعون - بل تعني أنها أبت اتباعه وخالفته في العقيدة.

التفصيل:

أولا. أنبياء الله تعالى جميعًا هم خير البرية:

اختار الله تبارك وتعالى أنبياءه؛ لأنهم أفضل البشر وأخيرهم، فهذا أبوهم آدم عليه السلام أول البشر، كم تحمّل من عناء وتعب لراحة أبنائه في الدين والدنيا. وهذا نبي الله نوح عليه السلام يلبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، كما ذكر القرآن الكريم، فما كانت حصيلة تلك السنين الطوال إلا كما وصف القرآن: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠)﴾ (هود). وهذا القليل لا يتجاوز ثمانين رجلًا

(*) قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق. النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، مرجع سابق.

على أكثر تقدير.

وهذا إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام يأبى السجود لصنم طيلة حياته، ويبدأ رحلة الإيمان من بدايتها يتفكر في خلق الكون باحثًا عن ربه حتى هداه الله تعالى إليه، ثم يبدأ رحلة جهاده في تبليغ دين الله إلى الناس.

وهذا نبي الله لوط عليه عليه السلام أرسله الله تعالى إلى أقبح قوم على ظهر الأرض وقتها، وهم أهل سدوم، قوم ما أشد بغيهم، وما أعظم تبجحهم، يجهرون بالفحشاء والمنكر، هكذا دون أدنى خجل أو حياء؛ لذلك استحقوا وصف الله لهم بالإجرام: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (الأعراف)، وبالفسق: ﴿ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ (الأنبياء)، وبالإسراف: ﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (الذاريات)، وبالظلم: ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ (العنكبوت).

وكان قوم لوط عليه السلام يعملون الخبائث حتى فشت الرذيلة في القرية بأسرها عدا بيت واحد هو بيت النبي لوط عليه السلام: ﴿ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ (الأنبياء).

فقد كانوا يأتون الرجال، ويقطعون السبيل، ويأتون في ناديهم المنكرات والفواحش جهارًا نهارًا: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (العنكبوت).

ويبدأ نبي الله لوط عليه السلام دعوته لقومه من منطلق الأخوة الإنسانية: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾ (الشعراء)، فإنه عليه السلام لم يكن عدوًّا لأشخاصهم، بل كان مُصْلحًا لعقيدتهم، مُصْلحًا لأخطائهم، مصوِّبًا لسلوكهم[1].

فكان شأنه عليه السلام شأن الطبيب الرحيم بمرضاه، الصبور على امتناعهم عن تناول الدواء، دواء رباني وصفه له ربه عز وجل فحمله بأمانة إلى قومه: ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ ﴾ (الشعراء).

وكان من دواعي خيريته وأمانته أنه ابتدأ العلاج معهم بداية صحيحة؛ حيث قال: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ ﴾ (الشعراء). بدأ بتقوى الله والتي هي رأس كل طاعة، فما من طاعة تصدر عن البشر إلا وانبعاثها عن تقوى الله، فحسن الأخلاق مصدره تقوى الله، والتعبد اللذيذ مصدره تقوى الله، والصبر الجميل مصدره تقوى الله، والبعد عن الفحش والبذاءة والدناءة مصدره تقوى الله.

لقد وُفِّق نبي الله لوط عليه السلام، أعظم التوفيق لما ابتدأ بتقوى الله، ثم وُفِّق أيضا لما ثنَّى بدعوة قومه إلى طاعته، فحقٌّ على المريض أن يطيع طبيبه، وحق على الطالب أن يطيع أستاذه.

ثم إنه بتقديمه تقوى الله تعالى على طاعته، قد جعل طاعته مشروطة بموافقة تقوى الله عز وجل. وكيف لا يكون

---

١. مدرسة الأنبياء: عبر وأضواء، محمد بسام الزين، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص١١١.

كذلك، وقد آتاه الله العلم والحكمة؟! ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ (الأنبياء).

لقد أجهد نبي الله لوط عليه السلام نفسه في دعوة قومه إلى الله تعالى، ولم يكن ينتظر من وراء ذلك أجرًا أو مثوبة من أحد، بل ذاك مردود من الله له: ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ (الشعراء).

ولعله من نافلة القول أن نذكر أن كلمة بني أو رسول تعني أنه رجل كلفه ربه بدعوة الناس إليه، والعقل يقول: إن من ضرورة ذلك أن يكون قدوة لهم، وإلا فكيف يدعوهم إلى خير الخصال وهو يأتي أقبحها؟! وكيف يدعوهم إلى حسن الخلق وليس عنده هذا الخلق؟! تخيلوا أن رجلًا يفعل ذلك، فهل تعتقدون أن يتبعه أحد؟!

بالطبع لا. إذن غاية تكليفه لم تتحقق، وهنا نجد أنفسنا أمام أحد احتمالين لا ثالث لهما:

الأول: أن لوطًا عليه السلام ليس نبيًّا فكونه يزني بابنتيه ويشرب الخمر ينفي عنه صفة النبوة.

الثاني: أن لوطًا عليه السلام نبي من أنبياء الله تعالى وما أثير عنه من افتراءات وأباطيل لا سند لها من عقل أو نص صحيح لم يُحرَّف، فكتابكم المقدس يقول إنه نبي والقرآن الكريم - كتاب الله المحفوظ - يقول إنه نبي ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ (الصافات). وطهارة سيدنا لوط عليه السلام شهد له بها قومه قال عز وجل: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (النمل).

ثم إن طهارت لوط عليه السلام قد تمثلت كذلك في إنكار الفواحش التي كان القوم يقترفونها والتي تمثلت فيما يلي[1]:

- إتيان الذكران دون الإناث، فأنكر عليهم قائلًا كما حكى القرآن: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ ﴾ (الشعراء)، وبين لهم أن هذه الفعلة فاحشة لا تَنْسَجِم[2] مع الفطرة الإنسانية، إذ إنها تشكل سابقة خطيرة تهدد المجتمع بالانهيار، وتنذر النسل بالفناء فقال: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (الأعراف)، وأوضح لهم أن الإنسان يميل بفطرته نحو الزواج المنظم المقنن للحفاظ على النسل، واستمرار الحياة، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (الروم)، وأن الخروج على هذه الفطرة شذوذ واعتداء، ولهذا جاء على لسان نبي الله تعالى لوط عليه السلام: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ ﴾.

وقد أرجع نبي الله لوط عليه السلام هذا الشذوذ عن الفطرة إلى أمرين:

الأول: الإسراف في الملذات فقال لقومه: ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ (الأعراف).

الثاني: الجهل بإحدى وظائف الشهوة لدى الإنسان، وهي الحفاظ على التناسل في الجنس البشري، وقد جاء على لسان لوط: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن

1. المرجع السابق، ص١١٢.
2. لا تَنْسَجِم: لا تتوافق.

﴿دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ٥٥﴾ (النمل).

• كان قوم نبي الله لوط عليه السلام يقترفون منكرات أخرى، إذ كانوا يقطعون الطريق على المارّة ويستلبون أموالهم، ويغتصبون أولادهم، كما كانوا يجتمعون في النوادي العامة ويفعلون المعاصي بشكل جماعي، فتوجه لوط إليهم منكرًا أفعالهم كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٩﴾ (العنكبوت)[1].

وحيث إننا احتكمنا إلى العقل، فالعقل يشهد عند الأسوياء بأن رجلًا مثل هذا، يقف في وجه الرذيلة ويقاومها، ويقف في وجه المنكرات السائدة في قومه، رجلٌ يصح فيه القول: إنه موصول بالسماء، هذا فضلًا عن أن كتابكم المحرف يشهد بأنه نبي من أنبياء الله ـ عليهم السلام ـ، ويؤكد هذه الحقيقة كتاب ربنا ـ القرآن الكريم ـ ومن ثم فلا صحة لما يدّعيه هؤلاء الجاهلون.

ثانيًا. تناقض نصوص الكتاب المقدس حول نبي الله لوط عليه السلام يدحض تلك الافتراءات ويثبت صدق القرآن:

تحكي التوراة عن لوط عليه السلام قائلة: "وأخرجاه ووضعاه خارج المدينة. وكان لما أخرجاهم إلى خارج أنه قال: "اهرب لحياتك لا تنظر إلى ورائك، ولا تقف في كل الدائرة. اهرب إلى الجبل، لئلا تهلك". فقال لهما لوط: "لا يا سيّد. هُو ذا عبدك قد وجد نعمة في عينيك، وعظّمت لطفك الذي صنعت إلي باستبقاء نفسي، وأنا لا أقدر أن أهرب إلى الجبل لعل الشر يدركني فأموت. هُو ذا المدينة هذه قريبة للهرب إليها وهي صغيرة، أهرب إلى هناك أليست هي صغيرة؟ فتحيا نفسي". فقال له: "إني قد رفعت وجهك في هذا الأمر أيضًا أن لا أقلب المدينة التي تكلمت عنها. أسرع أهرب إلى هناك لأني لا أستطيع أن أفعل شيئًا حتى تجيء إلى هناك". لذلك دُعي اسم المدينة صُوغر. وإذ أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط إلى صوغر، فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتًا ونارًا من عند الرب من السماء. وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الأرض... حين قلب المدن التي سكن فيها لوط. وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه لأنه خاف أن يسكن في صوغر. فسكن في المغارة هو وابنتاه. وقالت البِكْر للصغيرة: "أبونا قد شاخ ليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض. هلمَّ نسقي آبانا خمرًا ونضطجع معه فنحيي من أبينا نسلًا". فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: "إني قد اضطجعت البارحة مع أبي نسقيه خمرًا الليلة أيضًا، فادخلي اضطجعي معه فنحيي من أبينا نسلًا". فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة أيضًا، وقامت الصغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها؛ فحبلت ابنتا لوط من أبيهما. فولدت البكر ابنًا ودعت اسمه موآب، وهو أبو الموآبيين إلى اليوم. والصغيرة أيضًا ولدت ابنًا ودعت اسمه بن عَمّي، وهو أبو بني

---

١. مدرسة الأنبياء: عبر وأضواء، محمد بسام الزين، مرجع سابق، ص١١٢، ١١٣.

عَمُّون إلى اليوم". (تكوين ١٩: ١٦ ـ ٣٨).

لاحظ الاضطراب في تدوين القصة؛ ففي البداية خاف أن يسكن الجبل وسكن في صوغر؛ لأنها مدينة صغيرة، ثم جعله كاتب هذه الأسطورة يهرب من المدينة المأهولة إلى الجبل لتهيئة المسرح لجريمة الزنا بابنتيه.

والغرض من ذلك هو السياسة الصهيونية التي تهدف إلى استبعاد أي نسل آخر خلاف نسل يعقوب عليه السلام من مشاركتهم في عهد الله مع الخليل إبراهيم عليه السلام والمؤمنين به ومنعهم من الحصول على أية ميزة، واعتبار أن الله قد خلق العالم من أجل أن يرث ـ فقط ـ بنو إسرائيل أرض الميعاد.

والدليل على كذب هذه الرواية يأتي من عدة وجوه، هي:

١. خوف لوط أن يسكن في الجبل لعل الشر يدركه فيموت، وفضَّل السكن في مدينة صوغر. (تكوين ١٩: ١٩ ـ ٢٠)، ثم تضارب الكاتب مع نفسه فقال: "وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه؛ لأنه خاف أن يسكن في صوغر فسكن في المغارة هو وابنتاه". (تكوين ١٩: ٣٠).

٢. وقد عاش لوط في صوغر ١٤ سنة ـ قبل مولد إسماعيل إلى أن بلغ إبراهيم من العمر ١٠٠ سنة ـ وهو يعرف هذه المنطقة وسكانها جيدًا، ولو كان أهلها من الأشرار لأهلكهم الله، كما أهلك سدوم وعمورة، ولما عاش معهم ١٤ سنة! فكيف يخاف الجبل، ثم يسكن فيه، ويترك القرية وأهلها الذين نعم بالعيش معهم ١٤ سنة؟ فقد سكن الجبل الذي يخاف منه لا لشيء إلا لرغبة كتبة التوراة في ذلك لاستكمال هذه القصة المختلقة.

٣. كان لسيدنا لوط عليه السلام أبناء ذكور قبل تدمير سدوم وعمورة. وهم يعيشون في نفس المكان، وقد أبلغهم لوط بما سيحدث للقرية قبل تدميرها، كما أبلغ بناته وأصهاره، ولا شك أن الكل صدَّقه وهرب معه، وإخفاء هذا الخبر في التوراة كان متعمَّدا؛ لقطع نسب لوط من أبنائه ولاستكمال القصة، وقال الرجلان للوط: "من لك أيضا ههنا؟ أصهارك وبنيك وبناتك، وكل من لك في المدينة أخرج من المكان؛ لأننا مهلكان هذا المكان إذ قد عظم صراخهم أمام الرب فأرسلنا الرب لنهلكه". فخرج لوط وكلم أصهاره الآخذين بناته وقال: "قوموا اخرجوا من هذا المكان لأن الرب مهلك المدينة". فكان كمازح في أعين أصهاره. ولما طلع الفجر كان الملاكان يعجلان لوطًا قائلين: "قم خذ امرأتك وابنتيك الموجودتين لئلا تهلك بإثم المدينة". (تكوين١٩: ١٢ ـ ١٥).

٤. ولو صدقنا خبر تكذيب أصهاره فهل لم تصدقه إحدى بناته المؤمنات اللواتي تربين في بيت النبوة؟ بالطبع حَبَكَ الكاتب هذا السيناريو؛ لتنفرد الابنتان بأبيهما.

٥. كذب القول المنسوب لابنتي لوط عليه السلام بأنه ليس من الأرض رجل ليدخل عليهما كعادة كل الأرض، فهل كانت القرية القريبة من الجبل صوغر ليس بها رجال؟ وهل لم تتزوج ابنتاه العذراوتان لمدة ١٤ سنة بعد هروبهم من سدوم وعمورة؟

مع العلم أنهم كانوا يسكنون في منطقة قريبة، لا

تبعد عن المنطقة التي هربوا إليها إلا ساعتين سيرًا على الأقدام، فقد خرجوا في الفجر ووصلوا إلى صوغر عند شروق الشمس، والجبل وصوغر كلاهما كانا قريبين من سدوم، وكانت هناك مدن أخرى قريبة من صوغر كالتي وردت عندما أنقذ إبراهيم لوطًا - عليهما السلام - من الأسر، ولم يذكر أن الرب قد دمرها.

ومما يثبت وجود شعوب أخرى في المنطقة التي عاش فيها لوط ما ورد بعد ذلك في (التثنية ٢: ٩ - ١٢) من أن الله قد أورث بني لوط عليه السلام أرض الإيميين والرفائيين الذين يسكنون المكان الذي أقام فيه لوط، وعلاوة على ذلك فالمسافة بين صوغر وحيرون التي يقيم فيها إبراهيم عليه السلام لا تتعدى ٧٠ كيلومتر، وقد رأى إبراهيم عليه السلام بعينيه النار المشتعلة في سدوم القريبة من صوغر وهو في مكانه.

ولا يمكن أن يقال بأي حال من الأحوال إن لوطًا عليه السلام قد عاش منفردًا هو وابنتاه بدون مخالطة شعب آخر، فهذا ما لا يطيقه الشباب فضلًا عن شيخ عجوز.

٦. أما فيما يختص بحادثة الزنا؛ فالتلفيق واضح فيها وبيان ذلك بالآتي:

- أن المخمور الذي لا يستطيع أن يفرق بين بناته والأجنبيات لشدة سكره، لا يكون في هذا الوقت قابلًا للجماع، والغريب في باقي القصة أن الأب لم يسأل ابنتيه العذراوين عن سبب الحمل؟ ومثل هذا الوضع لو وقع لبعض آحاد الناس لضاقت عليه الأرض بما رحبت حزنًا وغمًّا، فهل لم يهتم نبي الله بابنتيه وشرفه؟
- فحبلت ابنتا لوط من أبيهما، فولدت البكر ابنًا ودعت اسمه "موآب"، وهو أبو الموآبيين إلى اليوم، والصغيرة أيضًا ولدت ابنًا ودعت اسمه "بن عمي"، وهو أبو بني عمون". (تكوين ١٩: ٣٦ - ٣٨).

لو كان الموآبيون والعمونيون من الزنا لغضب الله عليهم أو حتى أهمل شأنهم، ولكننا نرى في سفر التثنية أن الله قد أعطى أرض الإيميين للموآبيين ميراثًا: "فقال لي الرب: لا تعاد موآب ولا تثر عليهم حربًا؛ لأني لا أعطيك من أرضهم ميراثًا، لأني لبني لوط قد أعطيت عار ميراثًا. الإيميون سكنوا فيها قبلا شعب كبير وكثير وطويل كالعناقيين". (التثنية ٢: ٩، ١٠)، كما أعطى أرض الرفائيين لبني عمون ميراثًا: "فمتى قريب إلى تجاه بني عمون لا تعادهم ولا تهجموا عليهم؛ لأني لا أعطيك من أرض بني عمون ميراثًا؛ لأني لبني لوط قد أعطيتها ميراثًا، هي أيضا تحسب أرض رفائيين. سكن الرفائيون فيها قبلا لكن العمونيين يدعونهم زمزميين". (تثنية ٢، ١٩، ٢٠).

وقد أعطى الله الموآبيين والعمونين ميراث الأرض قبل أن يورث بني إسرائيل وقبل أن يدخلوا أرض الميعاد، بل وحرم أرض الموآبيين والعمونيين على بني إسرائيل كما ورد في (التثنية ٢: ١٩) ولو كان الإرث يستلزم عهدًا من الرب فقد حصل عليه العمونيون والموآبيون، وبذلك يكونون قد دخلوا في جماعة الرب؛ لأن الرب لا يعطي عهدًا لأبناء الزنا "لا يدخل ابن زنا في جماعة الرب، حتى الجيل العاشر لا يدخل منه أحد في جماعة الرب". (تثنية ٢٣: ٢)، وبذلك يكون الموآبيون والعمونيون ليسوا من أبناء زنى ويكون كتبة هذه القصة من الكاذبين، ويكون بني إسرائيل

قد ادعوا وجوب هذا العهد من الله، ويكونون أيضًا من الكاذبين.

ولو صدقنا قول التوراة أن العمونيين والموآبيين من نسل الزنا، وقد حصلوا على عهد من الله وعلى إرث، يكون قد نال عهد الله أبناء الزنا والأطهار (بني إسرائيل)، فلا ميزة إذن للأطهار عن أبناء الزنا، ويصبح قول التوراة بأن بني إسرائيل شعب الله المختار؛ لأنهم أخذوا عهدًا من الله بتملك الأرض، قولًا كاذبًا.

وإذا كان هذا شأن الله مع أبناء الزنا وهم أبرياء مما اقترفه آباؤهم، فكيف يكون شأنه مع المحتالين واللصوص؟ فجاء في سفر التكوين: "وحدث لما شاخ إسحاق وكلَّت عيناه عن النظر، أنه دعا عِيسُو ابنه الأكبر وقال له: "يا ابني". فقال له: "هأنذا". فقال: "إنني قد شِخْتُ ولستُ أعرف يوم وفاتي. فالآن خُذْ عُدَّتك: جُعْبَتك وقوسك، واخرج إلى البَرِّيَّة وتصيد لي صيدًا، واصنع لي أطعمة كما أحب، وأتني بها لآكل حتى تباركك نفسي قبل أن أموت". وكانت رِفْقة سامعة إذ تكلَّم إسحاق مع عيسو ابنه. فذهب عيسو إلى البرية كي يصطاد صيدًا ليأتي به. وأما رفقة فكلمت يعقوب ابنها قائلة: "إني قد سمعت أباك يكلم عيسو أخاك قائلًا: ائتني بصيد واصنع لي أطعمة لآكل وأباركك أمام الرب قبل وفاتي. فالآن يا ابني اسمع لقولي في ما أنا آمرك به: اذهب إلى الغنم وخذ لي من هناك جَدْيَيْنِ جيِّدين من المِعْزَى، فأصنعهما أطعمة لأبيك كما يحب، فتحضرها إلى أبيك ليأكل حتى يباركك قبل وفاته". فقال يعقوب لرفقة أمه: "هو ذا عيسو أخي رجل أشعر وأنا رجل أملس. ربما يَجُسُّني أبي فأكون في عينيه كمتهاون، وأجلب على نفسي لعنة لا بركة". فقالت له أمه: "لعنتك عليَّ يا ابني. اسمع لقولي فقط واذهب خُذْ لي". فذهب وأخذ وأحضر لأمه، فصنعت أمه أطعمة كما كان أبوه يحب. وأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة التي كانت عندها في البيت وألبست يعقوب ابنها الأصغر، وألبست يديه ومَلاسَة عُنُقه جلود جَدْيِي المعزى. وأعطت الأطعمة والخبز التي صنعت في يد يعقوب ابنها. فدخل إلى أبيه وقال: "يا أبي". فقال: "هأنذا. من أنت يا ابني؟" فقال يعقوب لأبيه: "أنا عيسو بِكْرك. قد فعلت كما كلمتني. قم اجلس وكل من صيدي لكي تباركني نفسك". فقال إسحاق لابنه: "ما هذا الذي أسرعت لتجد يا ابني"؟ فقال: "إن الرب إلهك قد يسر لي". فقال إسحاق ليعقوب: "تقدم لأجسك يا ابني. أأنت هو ابني عيسو أم لا"؟ فتقدم يعقوب إلى إسحاق أبيه، فجسَّه وقال: "الصوت صوت يعقوب، ولكن اليدين يدا عيسو". ولم يعرفه لأن يديه كانتا مشعرتين كيدي عيسو أخيه، فباركه. وقال: "هل أنت هو ابني عيسو"؟ فقال: "أنا هو". فقال: "قدِّم لي لآكل من صيد ابني حتى تباركك نفسي". فقدم له فأكل، وأحضر له خمرًا فشرب. فقال له إسحاق أبوه: "تقدَّم وقبلني يا ابني". فتقدم وقبله، فشم رائحة ثيابه وباركه، وقال: "انظر! رائحة ابني كرائحة حقل قد باركه الرب. فليعطك الله من نَدَى السماء ومن دَسَم الأرض. وكثرة حنطة وخمر. ليستعبد لك شعوب، وتسجد لك قبائل. كن سيِّدًا لإخوتك، وليسجد لك بنو أمك. ليكن لاعنوك

ملعونين، ومباركوك مباركين". وحدث عندما فرغ إسحاق من بركة يعقوب، ويعقوب قد خرج من لدن إسحاق أبيه، أن عيسو أخاه أتى من صيده، فصنع هو أيضًا أطعمة ودخل بها إلى أبيه، وقال لأبيه: "ليقم أبي ويأكل من صيد ابنه حتى تباركني نفسك". فقال له إسحاق أبوه: "من أنت"؟ فقال: "أنا ابنك بِكْرك عيسو".

فارتعد إسحاق ارتعادًا عظيمًا جدًّا وقال: "فمن هو الذي اصطاد صيدًا وأتى به إليَّ فأكلت من الكل قبل أن تجيء، وباركته؟ نعم، ويكون مباركًا". فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة ومرة جدًّا، وقال لأبيه: "باركني أنا أيضًا يا أبي". فقال: "قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك". فقال: "أَلَا إن اسمه دُعِي يعقوب، فقد تعقَّبني الآن مرتين! أخذ بَكُوريَّتي، وهو ذا الآن قد أخذ بَرَكَتي". ثم قال: "أما أبقيت لي بركة؟" فأجاب إسحاق وقال لعيسو: "إني قد جعلته سيدًا لك، ودفعت إليه جميع إخوته عبيدًا، وعضدته بحنطة وخمر. فماذا أصنع إليك يا ابني"؟ فقال عيسو لأبيه: "ألك بركة واحدة فقط يا أبي؟ باركني أنا أيضًا يا أبي". ورفع عيسو صوته وبكى. فأجاب إسحاق أبوه: "هو ذا بلا دسم الأرض يكون مسكنك، وبلا ندى السماء من فوق. وبسيفك تعيش، ولأخيك تُسْتَعْبَد، ولكن يكون حينما تجمح أنك تُكَسِّر نِيْرَه عن عُنُقك". فحقد عيسو على يعقوب من أجل البركة التي باركه بها أبوه. وقال عيسو في قلبه: "قَرُبَت أيام مَنَاحة أبي، فأقتلُ يعقوب أخي". فأُخْبِرت رِفْقة بكلام عيسو ابنها الأكبر، فأرسلت ودعت يعقوب ابنها الأصغر وقالت له: "هو ذا عيسو أخوك مُتَسَلٍّ من جهتك بأنه يقتلك. فالآن يا ابني اسمع لقولي، وقم اهرب إلى أخي لابان إلى حاران، وأقم عنده أيامًا قليلة حتى يرتد سخط أخيك. حتى يرتد غضب أخيك عنك، وينسى ما صنعت به. ثم أرسل فآخذك من هناك. لماذا أعدم اثنيكما في يوم واحد"؟ (التكوين٢٧: ١ ـ ٤٥).

فكيف يكون شأنه مع من صارعوه وقهروه؟ فهل هؤلاء أيضًا لهم عهد من الرب وميراث؟ أم أن هذه القصة من وحي خيال كاتب مخمور؟ فقد جاء في سفر التكوين أن يعقوب ﷺ صارع الرب: "فبقي يعقوب وحده، وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر. ولما رأى أنه لا يقدر عليه، ضرب حق فخذه، فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه. وقال: "أطلقني، لأنه قد طلع الفجر". فقال: "لا أطلقك إن لم تباركني". فقال له: "ما اسمك؟" فقال: "يعقوب". فقال: "لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت". وسأل يعقوب وقال: "أخبرني باسمك". فقال: "لماذا تسأل عن اسمي"؟ وباركه هناك. فدعا يعقوب اسم المكان "فنيئيل" قائلًا: "لأني نظرت الله وجهًا لوجه، ونجيت نفسي". (التكوين ٣٢: ٢٤ ـ ٣٠).

- "لا يدخل ابن زنا في جماعة الرب حتى الجيل العاشر، لا يدخل منه أحد في جماعة الرب". (التثنية ٢٣: ٢)، ومعنى "حتى الجيل العاشر" أي: للأبد. ومع ذلك فإننا نجد أن راعوث كانت مؤابية وهي أم نبي الله داود الذي كان من ذريته كل ملوك يهود حتى السبي، والذي قال عنه الرب: "أنا أكون له

أبًا وهو يكون لي ابنًا إن يَعْوَجّ أُؤَدبهُ بقضيب الناس وبضربات بني آدم. ولكن رحمتي لا تنزع منه كما نزعتها من شاول الذي أزلته من أمامك. ويأمن بينك ومملكتك إلى الأبد أمامك. كرسيك يكون ثابتًا إلى الأبد". (صموئيل الثاني ٧: ١٤ـ ١٦).

فلا يمكن لمن شرفه الله بهذا الشرف أن يكون من سلالة زنا، كما أن سليمان قد تزوج من نعمة العمونية وأنجب منها رحبعام (ملوك الأول ١٤: ٢١)، ولا يمكن أن يكون رءوس جماعة الرب من أمهات زنا، فضلًا عن أنهم من نسل الرب تبعًا للتشريع النصراني. فلا بد أن يكون هذا التشريع مدسوسًا على التوراة. لكن ما أسباب ذلك؟

يقول السموأل بن يحيى المغربي صاحب كتاب "إفحام اليهود" وأحد أحبار اليهود الذين هداهم الله للإسلام، وقد كان أبوه حَبْرًا يهوديًّا كبيرًا وإمامًا ضليعًا في اليهودية، وكذلك كانت أمه، مما جعله قادرًا على الحكم على التوراة: "وأيضًا فإن عندهم أن موسى جعل الإمامة في الهارونيين، فلما ولي طالوت ـ شاول ـ وثقلت وَطْأَته على الهارونيين وقتل منهم مقتلة عظيمة، ثم انتقل الأمر إلى داود، بقي في نفوس الهارونيين التشوُّق إلى الأمر الذي زال عنهم، وكان عَزْرَا هذا خادمًا لملك الفرس، حظيًّا لديه، فتوصل إلى بناء بيت المقدس، وعلّم لهم هذه التوراة التي بأيديهم، فلما كان هارونيًّا، كره أن يتولى عليهم في الدولة الثانية داودي. فأضاف في التوراة فصلين للطعن في نَسَب داود، أحدهما قصة بنات لوط، والآخر قصة ثامار مع يهوذا، ولقد بلغ ـ لَعَمْرِي ـ غرضه، فإن الدولة الثانية كانت لهم في بيت المقدس، لم يُملَّك عليها داوديون، بل كان ملوكهم هارونيين"[1].

ومن ثم فهل يصدق عاقل ما قاله الكتاب المحرف عن سيدنا لوط عليه السلام، وهو كما سبق أن علمنا مملوءٌ بالمغالطات والتناقضات فضلًا عن شهادة المتخصصين في اليهودية بالتحريف المُتعمد من قبل من سطروا هذه التوراة لأغراض سياسية وسعيًا منهم للملك والسيادة.

ثالثًا. خيانة زوجة لوط عليه السلام لم تكن في أمر البغاء والفحشاء، بل مخالفة في العقيدة:

وأما عن خيانة زوجة نبي الله لوط عليه السلام فإننا نقول لمن يدعي أن خيانتها كانت بغاءً وارتكابًا للفاحشة: لا بد لكم بدايةً أن تسألوا أهل الذكر والعلم إن كنتم تبغون الحق وما هي أقوال أهل العلم في قول الله عز وجل: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ (التحريم).

فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله: "فخانتاهما" قال: ما زَنَتَا، أما خيانة امرأة نوح فكانت قولها للناس عن زوجها: إنه مجنون، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل على الضيف فتلك خِيانتها[2]. ورُوي عن ابن عباس أنه قال: "ما بغت امرأة نبي

---

١. إفحام اليهود، السموأل بن يحيى المغربي، د. م، د. ت، ص١٥١، ١٥٢.

٢. إسناده صحيح: أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، باب سورة التحريم (٣٨٣٣)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في التلخيص.

قط"[1]. وجاء عن الضحاك ﷺ في قوله: "فخانتاهما" أنه قال: "كانتا كافرتين مخالفتين ولا ينبغي لامرأة تحت نبي أن تَفْجُر".

وجاء عن قتادة ﷺ في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ (التحريم: ١٠)أنه قال: لن يُغني صلاح هذين عن هاتين ـ المرأتين ـ شيئًا، وامرأة فرعون لم يضرها كفر فرعون، والله أعلم[2].

أضف إلى ذلك أن أنبياء الله ﷺ جميعًا معصومون، وزنا زوجاتهم يقدح في هذه العصمة؛ لأن عصمتهم منع وحفظ من الوقوع في الخطأ والمعاصي وخاصة الكبائر، ومن ثم فاختيارهم لزوجاتهم يندرج تحت هذا الحكم، ومن هنا نتساءل: كيف اختار نبي الله لوط ﷺ زوجة بَغِيًّا[3] زانية، أما كانت في النساء صالحة فيتزوجها؟! والجواب لم تكن كذلك، بل خيانتها له كفرها به. ثم إن بيوت الأنبياء هي مَلَاذُ[4] المؤمنين به، ودار أمنهم وراحتهم، فكيف تكون كذلك، وفيها زوجة باغية، فالعقل لا يقبل ذلك؛ حيث إن من أشد الأمور وَطْأَةً[5] وتأثيرًا بالسلب في نفس الرجل خيانة زوجته له بالمعنى الذي يتوهمون®.

١. أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٥/ ٣٤٣)، تفسير سورة هود، الآية ٤٦ (١٨٢٢٤).

٢. أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٨/ ٢٣٨)، تفسير سورة التحريم، آية ١٠.

٣. البَغِي: الفاجرة التي تتاجر بعِرْضها.

٤. الملاذ: الملجأ والمقر.

٥. وَطْأَة: حِمْلا.

® في "المقصود بخيانة امرأة نوح وامرأة لوط" طالع أيضًا: الوجه الثاني، من الشبهة العاشرة، من هذا الجزء.

وختامًا نقول: لولا القرآن لهلك الناس؛ لأن منهم من يريد أن يهدم كل فضيلة، ويقيم كل رذيلة ونقيصة، من المؤسف أن هؤلاء خاضوا في أطهر الخلق وخير البرية (الأنبياء) لذلك جاء هذا القرآن ليقوّم المعوجّ، ويصحح المسار ويُرِي الناس حقيقة الأنبياء دحضًا لشبهات أصحاب الأهواء ومن لا يتّبعون إلا الظن، وإن الظن لا يغني من الحق شيئًا.

الخلاصة:

- أنبياء الله ﷺ هم خير البرية؛ فهم المكلفون بتوصيل رسالات الله إلى خلقه فكان حقًّا لهم أن يكونوا كذلك لإتمام المهمة التي خلقهم الله من أجلها، ومن ثم فليس لهم أن يكونوا كما يصفهم المدعون بأوصاف لا يوصف بها إنسان عادي، فضلًا عن أن يوصف بها نبي.
- إن الكتاب المقدس كتاب مزيف لتناقض نصوصه؛ لأنه إذا سلمنا بصحة زعمهم من أن لوطًا ﷺ زنا بابنتيه؛ لاستوجب ذلك أن من أنبياء الله تعالى مَنْ جاء مِنْ نسل زنا وبغاء، والفطرة والعقل والشرع يأبون ذلك كل الإباء، وهنا يأتي دور القرآن العظيم كتاب الله المحفوظ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها يدافع عن أنبياء الله ﷺ، ويضع الحقيقة التي زُيِّفَت، ويبرز الصدق الذي كُذِّب وحُرِّفَ. ومن ثم نقول: لولا القرآن لهلك الناس؛ لأنه لن تكون القدوة الصالحة قائمة بين البشر إذا سقط الأنبياء من عيون الناس.



الشبهة الحادية والثلاثون

دعوى خطأ القرآن في قصة تآمر إخوة يوسف عليه السلام عليه والمكر به(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين خطأ القرآن الكريم في ذكره معلومات غير صحيحة فيما يتعلق بقصة يوسف عليه السلام مع إخوته، وذلك في قول الله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ (يوسف)[1] ويتساءلون: من أين جاء القرآن بهذه المعلومات، مع أن التوراة لا تذكرها؟

وجها إبطال الشبهة:

١) تآمر إخوة يوسف عليه السلام عليه نيَّة مسبقة، تتفق مع الطبائع البشرية، وسياق الأحداث يثبت هذا التآمر، وأنه ليس وليد اللحظة كما ذكرت التوراة.

٢) نُسخ التوراة الثلاثة (العبرانية، واليونانية، والسامرية) لا تتفق في القصة اتفاقًا تامًّا، فأيها نصدق القرآن الكريم، أم التوراة المحرفة؟!

التفصيل:

أولا. مكر إخوة يوسف به والتآمر عليه نية مسبقة، تتفق مع الطبائع البشرية، وسياق الأحداث يثبت هذا التآمر وأنه ليس وليد اللحظة كما ذكرت التوراة:

إن المتأمل في آيات القرآن الكريم التي ذكرت قصة يوسف عليه السلام مع إخوته، وما ورد فيها من طلب إخوة يوسف عليه السلام من أبيهم أن يسمح بخروج يوسف عليه السلام معهم للعب، وما ورد في التوراة من قصة يوسف عليه السلام، من أن يعقوب عليه السلام هو الذي أرسل يوسف عليه السلام إلى إخوته في البرية - يجد أن الذي يتفق مع الواقع هو ما ذكره القرآن الكريم، أما التوراة فهي التي تتضمن المعلومات المغلوطة. فالذي يتفق مع الواقع أن إخوة يوسف عليه السلام بيتوا النية مسبقًا للتخلص من يوسف فقالوا متآمرين: ﴿ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَـٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾ (يوسف). وهذا يتفق مع إحساسهم بأن يوسف عليه السلام أثير لدى أبيهم، فقد حسدوه على حب أبيه إياه، وعلى ما آتاه الله من علم وجمال وجلال، فتآمروا على قتله وإبعاده عن أبيه بطرحه في أرض بعيدة لا يمكنه الرجوع منها إليه، ولا يعرف أحد من أهله مكانه فيأتي به إلى أبيه.

وقد بنوا على ذلك آمالًا وأحلامًا تدل على سفه عقولهم، وفساد رأيهم وقسوة قلوبهم، فقد تصوروا أنهم بتخلصهم من يوسف عليه السلام سوف يحوزون حُبّ أبيهم، واعتماده عليهم في كثير من شئون الحياة، وهم عصبة؛ ولذلك رأوا أنهم أحق بحب أبيهم، ولم يعلموا أن عاطفة الحب لا يمكن أن تتحول بمجرد إرادة الإنسان لها، فحب يعقوب عليه السلام لولديه يوسف عليه السلام، وبنيامين، نابع من كونهما صغيرين ضعيفين، والآخرون عصبة، ولكن خاب ظنهم، فأي صلاح يكون لإخوة يوسف عليه السلام بعد أن يبعدوه عن أبيه، وهو قُرَّة عينه[2]؟ وهل مثل هذه الجريمة مما يطويه النسيان، أو يقلل من

(*) هل القرآن معصوم؟ موقع إسلاميات. Islamyet.com

١. يَرْتَع: يلهو.

٢. قُرَّة عين: سببًا للسرور والسعادة.

حدَّة وقعها مرُّ الزمان؟!

أما كيدهم ليوسف عليه السلام دون أخيه فربما يرجع إلى أن أخاه كان صغيرًا جدًّا ليس له عند أبيه من المكانة ما ليوسف عليه السلام، ولعلهم أحاطوا علمًا بالرؤيا التي رآها يوسف عليه السلام، وعلموا تأويلها، وأدركوا أنه سيعلوهم ويسودهم، ويضطرون إلى استجدائه والسجود له؛ فمكروا به، ودبروا له دون أخيه.

وهذا يتفق مع الواقع وسياق الأحداث، وطبائع النفوس المريضة التي إذا تحكّم فيها الهوى فكّرت ودبّرت للكيد والانتقام.

أما تصوير التوراة للموقف فإنه يختلف تمامًا، فالذي جاء فيها أنهم انتظروا إلى حين إرسال يعقوب ابنه يوسف ـ عليهما السلام ـ إليهم، وبناءً على هذا لو لم يرسله أبوه لما حدث ما حدث، وهذا لا يتفق مع نيتهم المبيَّتة، وتآمرهم السابق، فيوسف عليه السلام يذهب إلى إخوته، وهم يرعون مواشيهم ليطمئن عليهم وعلى سلامة الغنم، والإخوة يفكرون في التخلص منه حين يرونه (وهذا وفق ما جاء في سفر التكوين في الإصحاح السابع والثلاثين) وهذا غير مستقيم لدينا؛ لأن يعقوب عليه السلام نهى يوسف عليه السلام عن قص رؤياه على إخوته، حين سمعها منه، فهو يخاف على ابنه من بُغضهم وكراهيتهم له، فكيف يرسله إليهم في البرية؟

ولذلك تحكي الآيات القرآنية الدافع وراء التآمر على حياة يوسف عليه السلام وهي: ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ﴾(يوسف). فهناك السبب العاطفي وهو إيثار أبيه له ولأخيه بالحب كما فصلناه. والسبب الثاني: أنهم رأوا قوتهم في عصبتهم، ومدى نفعهم لأبيهم أكثر من صغيرين نالا محبة أبيهم، ويبدو أن الشيطان دخل إليهم من خلال اختلاف الأمهات.

وقد جعل كاتب التوراة فكرة القتل لدى إخوة يوسف وليدة اللحظة التي رأوا فيها يوسف قادمًا عليهم من بعيد، ولكن بالتأمل في سرد التوراة فيما بعد يتضح أن هناك تآمرًا، فإنهم على دراية بالمنطقة الصحراوية، والبئر كانت محددة في أذهانهم من قبل، بدليل قولهم: "اطرحوه في هذه البئر". (التكوين ٣٧: ٢٢). فاستخدام اسم الإشارة "هذه" يدل على اتفاق سابق على نوع البئر المطلوبة.

كما أن التوراة تقول على ألسنتهم: هل نقتله ونطرحه في إحدى الآبار، أي أنهم سيجمعون بين القتل والطرح في البئر، وكلاهما وسيلتا قتل، ولكن القرآن ذكر أنه أُلقي حيًّا، كما نصَّ على أن إخوة يوسف عليه السلام ليسوا قتلة محترفين، يقتلون لمجرد القتل، وإنما القتل إحدى وسائل التخلص من يوسف عليه السلام، ومن هنا كان الخيار الثاني "اطرحوه أرضًا"، وجاءت كلمة "أرضًا" نكرة كدليل على أن هؤلاء الإخوة سيتجهون في كل ناحية؛ حتى يجدوا منطقة مليئة بالذئاب، أو تكثر فيها الآبار.

ومن هنا بدأ الاحتيال؛ لذا قالوا لأبيهم: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ (يوسف)، فقد كانوا يعرفون خشية أبيهم عليه منهم لسوء صنيعهم وإهمالهم له، وهم تحت عينيه فكيف بهم إذا كانوا خارج البيت في أرض قفر؟! وقد حاولوا إقناعه ليثق بهم، ويصدق قولهم، باعتبارهم سيقومون على

حراسة يوسف، وحفظه من العوادي، والمؤذيات، ولكن أباهم لم يكن غافلًا عنهم، ولا خافيًا عليه أمرهم فهو نبي مرسل، له من النور ما يميز به الصدق من الكذب، لقد تفرَّس الكذب في وجوههم، وعرف ما انطوت عليه سرائرهم، فأفصح عما يكنُّه قلبه، وما يعتمل في نفسه، وصارحهم بالحقيقة التي ما غابت عنه لحظة؛ لذا قال لهم: ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (يوسف)، وهذا ما لم تذكره التوراة، فهذه مزية في القرآن الكريم، وليس عيبًا فيه، وصدق الله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ (النمل)، ولم يذكر القرآن أن يعقوب اتَّهم بنيه بالغفلة، وإنما قال لهم: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (يوسف) فهو يخشى أن يحدث ذلك.

ثانيًا. نسخ التوراة الثلاثة لا تتفق على القصة اتفاقًا تامًّا فأيهما نصدق: القرآن الكريم الصادق أم التوراة المحرفة؟!

مما يؤكد ما جاء في القرآن الكريم من قصة يوسف عليه السلام، أنه هو الحق الذي لا مراء فيه أن نسخ التوراة تتناقض فيما بينها؛ فما نجده في نسخة منها قد لا نجده في الأخرى، وهذا دليل على بشريّتها وأنها من تأليف النساخ والكُتَّاب، فما جاء في القرآن، ولم يجئ في التوراة، لا يدل على إيراد شبهة على القرآن؛ ذلك لأن نسخ التوراة الثلاثة: العبرانية، واليونانية، والسامرية - لا تتفق مع القصة اتفاقًا تامًّا.

ففي اليونانية نجد قصة "صواع الملك" وليست في العبرانية، وفي التوراة العبرانية ترجمة البروتستانت: "ولما كانوا قد خرجوا من المدينة، ولم يبتعدوا؛ قال يوسف للذي على بيته: قم اسعَ وراء الرجال، ومتى أدركتهم فقل لهم: لماذا جازيتم شرًّا عوضًا عن خير؟ أليس هذا هو الذي يشرب سيدي فيه، وهو يتفاءل به؟ أسأتم فيما صنعتم". (التكوين ٤٤: ٤، ٥)، وفي الكتاب المقدس في الشرق الأوسط: "فما أن خرجوا من المدينة، وابتعدوا قليلًا حتى قال يوسف لوكيل بيته: قم اتبع هؤلاء الرجال، فإذا لحقت بهم فقل لهم: لماذا كافأتم الخير بالشر؟ لماذا سرقتم كأس الفضة التي يشرب بها سيدي، وبها يرى أحوال الغيب؟ أسأتم فيما فعلتم".

وهنا نلاحظ تناقض التوراة بشأن الشيء المسروق، فتارة يكون "صواع الملك" وفي نُسَخٍ أخرى يكون "كأس الفضة"، ولا توجد إشارة إليه في بعض النسخ[1]، فما جاء في القرآن الكريم - إذن - هو الصواب، فهو المصوِّب لأخطاء السابقين بل إن القرآن يضيف حقائق لم تذكر عندهم، وهو الكتاب الخاتم الذي حفظه الله تعالى من التحريف، والتبديل، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجر)[2].

الخلاصة:

- مكر إخوة يوسف عليه السلام به والتآمر عليه نية مسبقة تتفق مع الطبائع الإنسانية، وسياق الأحداث، وليس وليد اللحظة كما ذكرت التوراة، فالتآمر على قتله

---

١. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص٤٩٠.

٢. للمزيد انظر: جولة نقدية في نصوص الرواية التوراتية، محمد صالح توفيق، دار الهاني، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

والتخلص منه يتفق مع إحساسهم بأن يوسف عليه السلام يستأثر بحب أبيه، كما ينبع من حقدهم عليه وحسدهم له لجماله، وعلمه، وجلاله، فقد أراد كاتب التوراة أن يخفف من حدة فكرة القتل لدى إخوة يوسف عليه السلام، ولكن المعلومات التي تسردها التوراة فيما بعد تبين أن هناك اتفاقًا مسبقًا على طريقة القتل ونوع البئر المطلوبة، وليس وليد اللحظة التي رأوا فيها أخاهم مقبلًا عليهم فراودتهم فكرة التخلص منه، فهل يعقل أن يرسل لهم يعقوب عليه السلام ابنه مع علمه أنهم يحقدون عليه ويحسدونه لمكانته لدى أبيهم!

- التوراة المحرَّفة تتناقض فيما بينها في هذا الشأن، فنسخ التوراة الثلاث لا تتفق على القصة إطلاقًا، فأيها نصدق: القرآن الكريم المحكم أم التوراة التي حُرِّفت؟!

الشبهة الثانية والثلاثون

ادِّعاء كتمان يوسف عليه السلام للحق بعدم إظهار حريته عند بيعه(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن يوسف عليه السلام لم يُظهر حريته عند بيعه، ويرون أن هذا كتمان للحق، وكتمان الحق معصية. ويتساءلون: كيف يصدر هذا من أحد الأنبياء مع ما قيل عن عصمتهم؟

وجه إبطال الشبهة:

يوسف عليه السلام لم يكن نبيًّا في ذلك الوقت، وسكوته عن إظهار حريته عندما بِيع كان خوفًا من أن يقتله إخوته، أو خوفًا من أن يتركه الواردون فيهلك في الصحراء، وربما يكون قد أخبرهم بحريته، ولكنهم لم يعيروه اهتمامًا طمعًا في ثمنه.

التفصيل:

لقد كان يوسف عليه السلام صبيًّا صغيرًا عندما بيع، وهذا يعني أنه لم يكن نبيًّا في ذلك الوقت، وإنما نُبِّئَ بعد ذلك:

وعلى هذا يحمل قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا﴾ (يوسف: ١٥)، أي على وقت آخر، أو على احتمال عود ضمير "إليه" على يعقوب عليه السلام.

وأما سكوت يوسف عليه السلام عن إظهار حريته فلعله خاف أن يقتله إخوته، وهذا إذا اعتبرنا أن إخوته هم الذين قاموا ببيعه بعد أن ألقوه في الجب واستخرجته السيارة - أي القافلة - وعلى هذا يكون الضمير "الواو" في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ (يوسف: ١٩) عائدًا على إخوته.

وقد نقل ابن كثير عن العوفي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قول الله: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ يعني إخوة يوسف عليه السلام أسرُّوا شأنه، وكتموا أن يكون أخاهم، وكتم يوسف عليه السلام شأنه مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيع، فذكره إخوته لوارد القوم، فنادى أصحابه: ﴿يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞ﴾ أي يُباع، فباعه إخوته.

وقال النسفي: إن إخوة يوسف عليه السلام قالوا للرفقة:

(*) عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق. عصمة الأنبياء، فخر الدين الرازي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

هذا غلام لنا أبق فاشتروه منا، وسكت يوسف عليه السلام مخافة أن يقتلوه[1].

وإذا اعتبرنا أن الضمير للواردين يكون المعنى: وأسرَّه الواردون من بقية السيارة، وقالوا: اشتريناه من أصحاب الماء حتى لا يشاركوهم فيه إذا علموا شأنه، أو لعلهم أسرَّوا أمره - أي خبر التقاطه - خشية أن يكون من أولاد بعض الأحياء القريبة من الماء قد تردّى في الجب، فإذا علم أهله بخبره طلبوه وانتزعوه منهم؛ لأنهم توسَّموا[2] فيه مخائل[3] أبناء البيوت، وكان الشأن أن يعرِّفوا من كان قريبًا من ذلك الجب، ويعلنوا كما هو الشأن في التعريف باللُّقَطَة[4]. وعلى هذا لا يخلو أمر يوسف عليه السلام من إحدى اثنتين:

الأولى: أنه سكت عن إظهار حريته طمعًا في النجاة: إذ كان يوسف عليه السلام في صحراء مقفرة، فلو أخبرهم بحريته لتركوه في الصحراء، حيث لا يكون لأخذه فائدة، وربما عرضه ذلك للهلاك، أما الذهاب معهم ولو عبدًا يباع ويشتري ففيه نجاة له من أخطار الصحراء، ولذا آثر يوسف عليه السلام ألا يخبرهم بحريته.

الثانية: أنه ربما يكون قد أخبرهم بحريته، ولكنهم لم يعيروه اهتمامًا طمعًا في ثمنه، وهذا هو الذي حملهم على أن يبيعوه بثمن قليل، وأن يرغبوا عنه، قال عز وجل: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (يوسف)[5]، ويؤكد هذا قوله: ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾، إذ يُشعر أن يوسف عليه السلام أخبرهم بقصته، فأعرضوا عن ذلك طمعًا في أن يبيعوه، وذلك من فقدان الدين بينهم أو لعدم العمل بالدين[6].

وربما يكون إظهار الحرية أمرًا مختلفًا باختلاف الشرائع، فلعله أُمر بالسكوت عنه، وعدم إظهاره امتحانًا له عليه السلام، وتحقيقًا لرؤياه التي بشرت بما سيكون له من شأن عظيم، وسيادة على قومه بما فيهم أهله. وعليه فلا ذنب ولا معصية على يوسف عليه السلام[7].

الخلاصة:

- كان يوسف عليه السلام وقت أن بيع صبيًّا صغيرًا، وعلى هذا فلا تكليف عليه، بالإضافة إلى أنه لم يكن قد نُبِّئ بعد.
- لم يُظهر يوسف عليه السلام حريته عند بيعه؛ لخوفه من أن يقتله إخوته - إذا كانوا هم من باعه - كما أنه كان في صحراء مقفرة وربما لو اعترف بحريته لتركه الواردون فيها فيتعرض للهلاك.
- من المحتمل أن يوسف عليه السلام قد أخبرهم بحريته، ولكنهم لم يَأْبَهوا[8] لكلامه، ولم يعيروه اهتمامًا طمعًا في ثمنه، ولهذا أسرُّوا خبر التقاطه؛ ومن ثم فلا يُعدّ يوسف عليه السلام كاتمًا للحق كما يدعي المتوهمون، لأنه

---

1. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٠٤، ٣٠٥ بتصرف يسير.
2. توسَّموا: ظنوا.
3. مَخائل: جمع مَخِيلة، وهي مظهر النعمة.
4. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج ٦، ج١٢، ص٢٤٢، ٢٤٣.
5. عصمة الأنبياء والرد على الشبهات الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٧٤.
6. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٦، ج١٢، ص٢٤٣.
7. عصمة الأنبياء، فخر الدين الرازي، مرجع سابق، ص٧٤.
8. يَأْبَهوا: يهتموا.

إن كان قد سكت فَلِعِلَّة، وإن كان قد تحدث بحقيقة أمره فقد تجاهله القوم.

الشبهة الثالثة والثلاثون

ادعاء وقوع السرقة من يوسف عليه السلام(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن يوسف عليه السلام قد سرق، ويستدلون على ذلك بقول إخوته: ﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ ﴾ (يوسف: ٧٧) إذ أطلقوا لسانهم بهذا حينما دبر يوسف عليه السلام مع أخيه حيلة استبقائه بادعاء أنه سرق، فقالوا: إن كان سرق بنيامين فقد سرق أخوه يوسف عليه السلام من قبل، ويتساءلون: إذا كان يوسف لم يسرق فلماذا لم يكذِّب إخوته فيما ادَّعوه ويدفع عن نفسه هذه التهمة؟ وهم بذلك يشككون في عصمة يوسف عليه السلام.

وجها إبطال الشبهة:

١) اتهام إخوة يوسف عليه السلام له بالسرقة لا أساس له من الصحة، وإنما كان بدافع الحسد والرغبة في الانتقاص من شأنه، وما رواه بعض المفسرين من سرقته صنم جده - أبي أمه - وكسره، إسرائيليات، وحتى لو افترضنا صحة هذه الأخبار فليس ذلك سرقة يمكن أن تَصِمَ[1] يوسف وتحط من شأنه.

(*) عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

١. تَصِمُ: تعيب.

٢) اتصف يوسف عليه السلام بالحلم والعفو؛ لهذا كتم غيظه واكتفى بتكذيب إخوته على سبيل التلميح لا التصريح؛ وقد كانت الحكمة تتطلب ألا يكاشفهم بحاله في هذا الوقت.

التفصيل:

أولا. ما وقع من يوسف الصديق عليه السلام لم يكن سرقة، ولكن إخوته عَدُّوها سرقة للانتقاص من شأنه كيدًا وحسدًا:

بداية نشير إلى أن بعض المفسرين قد تناقلوا روايات عدة عن أهل الكتاب في سرقة يوسف عليه السلام، وهي روايات لا سند لها، وعلى فرض صحتها فهي لا تحمل معنى السرقة الحقيقي، ومن هذه الروايات التي فندها د. محمد أبو النور الحديدي:

- رُوي عن مجاهد قال: كان أول ما دخل على يوسف عليه السلام من البلاء فيما بلغني أن عمته بنت إسحاق، وكانت أكبر ولد إسحاق عليه السلام، وكانت إليها مِنْطَقة إسحاق وكانوا يتوارثونها بالكبر، فكان من أختانها من وَلِيها، كان له سَلَمًا لا ينازع فيه يصنع فيه ما شاء، وكان يعقوب عليه السلام حين وُلد له يوسف عليه السلام قد كان حضنته عمته، فكان معها وإليُّهَا، فلم يحب أحد شيئًا من الأشياء حبها إياه. حتى إذا ترعرع وبلغ سنوات ووقعت نفس يعقوب عليه، أتاها، فقال: "يا أخية أسلمي إلى يوسف عليه السلام، فوالله ما أقدر أن يغيب عني ساعة" فقالت: فوالله ما أنا بتاركته فدعه عندي أيامًا أنظر إليه، وأسكن عنه لعل ذلك يسليني عنه أو كما قالت، فلما خرج عليه السلام من عندها عمدت إلى منطقة إسحاق فحزمتها على يوسف عليه السلام من تحت ثيابه، ثم

قالت: فُقِدَت مِنْطَقة أبي - إسحاق - فانظروا من أخذها، ومن أصابها فالتمست، ثم قالت: اكشفوا أهل البيت، فكشفوهم، فوجدوها مع يوسف عليه السلام، فقالت: والله إنه لَسَلَمٌ لي أصنع فيه ما شئت، وأتاها يعقوب عليه السلام فأخبرته الخبر، فقال لها: أنت وذاك إن كان فعل ذلك فهو سلم لك ما أستطيع عند ذلك، فأمسكته فما قدر عليه يعقوب عليه السلام حتى ماتت[1].

- وقال سعيد بن جبير عن قتادة رضي الله عنه: سرق يوسف عليه السلام صنمًا لجده - أبي أمه - من ذهب وفضة - كسره، ثم ألقاه في الطريق، فعيَّره بذلك إخوته[2].
- وقال مجاهد: إن سائلًا جاءه يومًا، فأخذ بيضة فناولها إياه.
- وقال سفيان بن عيينة: أخذ دجاجة وأعطاها السائل.
- وقال وهب: كان عليه السلام يخبئ الطعام من المائدة للفقراء، وقيل غير ذلك.

وعلى أي من هذه الأقوال فيوسف عليه السلام لم يسرق في الحقيقة، ولا شيء مما ذُكر يعود عليه بالذم والانتقاص[3]، هذا إذا افترضنا صحة هذه الأقوال التي نقلها المفسرون عن أهل الكتاب، أمَّا إذا افترضنا عدم صحتها فإن المتفق عليه أن يوسف عليه السلام ليس له سرقة من قبل، وإنما قال إخوته: "قد سرق أخ له من قبل" بهتانًا ونفيًا للمعرة عن أنفسهم، فإنهم لما بُهتوا[4] بوجود الصواع في رحْلِ أخيهم اعتَراهم[5] ما يعتري المبهوت، فاعتذروا بدعوى تنزههم عن السرقة، إذ قالوا - قبل ذلك: "وما كنا سارقين" عذرًا بأن أخاهم قد تسربت إليه خصلة السرقة من غير جانب أبيهم، فزعموا أن أخاه الذي أُشيع فقده كان سرق من قبل، وقد علم فتيان يوسف عليه السلام أن المتهم أخ من أم أخرى، فهذا اعتذار بتعريض بجانب أم أخويهم وهي زوجة أبيهم وهي راحيل ابنة لابان خال يعقوب عليه السلام[6].

وكأنهم بهذا أرادوا أن يقولوا: إنا لسنا على طريقة بنيامين هذا في السرقة، وإنما هو وأخوه يوسف المختصان بها؛ لأنهما من أم أخرى، وهذا الدافع لإخوة يوسف أن يقولوا ما قالوا لا يعفيهم من مسئولية التجنّي على يوسف - البريء - والافتراء عليه أخيرًا بعد أن كذبوا أولا في قولهم لأبيهم: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ (يوسف)، وكذَبوا ثانيًا في أمر الدم الذي وضعوه على القميص: ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ (يوسف: ١٨)[7].

وعليه فما يدرينا أنهم كانوا صادقين في قولهم هذا، فربما يكونون قد كذَبوا في هذه المقالة أيضًا،

---

١. أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٦/ ١٩٦،١٩٧) تفسير سورة يوسف، آية (٧٧)، برقم (١٩٦٠٥).

٢. أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، تفسير سورة يوسف (١٢٦٦٦).

٣. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٢٩، ٣٣٠.

٤. بُهِتُوا: دُهِشُوا وأُخِذُوا بالحُجَّة فتغيَّر لونهم.

٥. اعترَاهم: أصابهم.

٦. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٧، ج١٣، ص٣٤.

٧. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٣٠.

كما كذَبوا على أبيهم من قبل.

ثانيًا. الحكمة تقتضي عدم تصريح يوسف الصديق بتكذيب إخوته فيما نسبوه إليه من السرقة:

سبق أن بيَّنا أن يوسف عليه السلام لم يكن له سرقة من قبل كما زعم إخوته، وهنا يثار سؤال: إذا كان إخوة يوسف عليه السلام قد كذبوا في قولهم: "إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل" فلماذا لم يدافع يوسف عن نفسه وينفي هذه التهمة التي رماه بها إخوته؟ ولماذا لم يكاشفهم بحاله ويبين لهم زيف دعواهم؟

ونحن نجيب على هذا السؤال قائلين: ليس صحيحًا أن يوسف عليه السلام قد أقرَّ إخوته على اتهامهم له بالسرقة، بل إنه عليه السلام قد كذَّبهم في ادعائهم هذا، وقد جاء هذا التكذيب على سبيل التلميح والتعريض لا التصريح في قوله تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾ (يوسف). فهذا الكلام قابل للحمل على معنى: أنكم شر حالة من أخيكم هذا والذي قبله؛ لأنهما بريئان مما رميتموهما به، وأنتم جائرون عليهما إذ قذفتم أولهما في الجب، وأيدتم تهمة ثانيهما بالسرقة وهو بريء منها، ثم ذيّل كلامه بجملة ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ وهو كلام جامع، أي: الله أعلم بصدقكم فيما وصفتم أو بكذبكم، والمراد: أنه يعلم كذبهم فيما ادّعوه.

أمَّا لماذا لَمَّح عليه السلام لإخوته بكذبهم ولم يصرِّح لهم، فذلك لحلمه عليه السلام وعظيم عفوه، وكظمه للغيظ، فلم يُظهر لإخوته غضبًا أو انتقامًا، أو حتى مجرد زجر عن قولهم، بل بالغ في كتم غيظه ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ (يوسف: ٧٧) هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فلم يشأ يوسف عليه السلام أن يكاشف إخوته بحاله، ويأمرهم بجلب أبيهم في ذلك الوقت: إما لأنه خشي إن هو تركهم إلى اختيارهم أن يكيدوا لبنيامين فيزعموا أنهم يرجعون جميعًا إلى أبيهم، فإذا انفردوا ببنيامين أهلكوه في الطريق، وإما لأنه قد كان بين القِبْط[1] وبين الكنعانيين في تلك المدة عداوة فخاف إن هو جلب عشيرته إلى مصر أن تتطرق إليه وإليهم ظنون السوء من ملك مصر، فتريث إلى أن يجد فرصة لذلك، وكان الملك قد أحسن إليه فلم يكن من الوفاء له أن يفعل ما يكرهه أو يسيء ظنه، فترقب وفاة الملك أو السعي في إرضائه بذلك، أو أراد أن يستعلم من أخيه في مدة الانفراد به أحوال أبيه وأهله لينظر كيف يأتي بهم أو ببعضهم في الوقت المناسب[2].

الخلاصة:

- ليس صحيحًا أن الصِّديق يوسف عليه السلام قد سرق من قبل كما زعم إخوته، بل كان قولهم هذا كذبًا وافتراءً عليه، دفعهم إليه الحسد ومحاولة الانتقاص من شأنه، أما ما نقله بعض المفسرين من أقوال عن بعض الإسرائيليات سواء كانت هذه الأقوال صحيحة أم ضعيفة ـ فهي لا تصح أن تكون دليلًا على سرقة يوسف عليه السلام.

---

١. القِبْط: كلمة يونانية الأصل؛ بمعنى: سكان مصر، ويقصد بها اليوم: المسيحيُّون من المصريين.

٢. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٧، ج١٣، ص٣٤: ٣٨ بتصرف.

• اتصف يوسف عليه السلام بالحلم والأناة[1] والحكمة، فلم يصرِّح بتكذيب إخوته، بل اكتفى بالتعريض بهم، وأسرَّ قولهم في نفسه، إذ رأى أن الحكمة في تأخير إخبارهم بكونه أخاهم ـ يوسف ـ الذي ألقوه في الجب قبل ذلك.

الشبهة الرابعة والثلاثون

ادِّعاء خطأ القرآن في اتهام يوسف عليه السلام بالهمِّ بالفاحشة(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين اضطراب القرآن في ذكر قصة يوسف عليه السلام فتارة يثبت الهمَّ[2] بالفاحشة ليوسف عليه السلام كما في قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ (يوسف: ٢٤)، وتارة يُقرُّ بعصمته وخوفه من الله باعتراف امرأة العزيز وصويحباتها كما في قوله: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ (يوسف)[3]. ويعتبرون أن إثبات القرآن الكريم الهمَّ بالفاحشة ليوسف عليه السلام متناقض مع ما جاء في الكتاب المقدس من تبرئته ليوسف عليه السلام، إذ إن امرأة العزيز لما طلبت إليه الشر استنكر طلبها، وقال: "كيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطئ إلى الله؟ وكان إذ كلَّمت يوسف يومًا فيومًا أنه لم يسمع لها أن يضطجع بجانبها ليكون معها. ثم حدث نحو هذا الوقت أنه دخل البيت ليعمل عمله، ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك في البيت. فأمسكته بثوبه قائلة: "اضطجع معي!". فترك ثوبه في يدها، وهرب وخرج إلى خارج". (التكوين ٣٩: ٩ ـ ١٢).

وجوه إبطال الشبهة:

١) إن أخلاق يوسف عليه السلام وعصمته باعتباره نبيًّا، تتنافى مع الهمِّ بالخيانة، أو التفكير فيها، كما أن سياق الآيات التي ورد فيها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ يؤكد استحالة وقوع نبي الله يوسف عليه السلام في هذه المعصية.

٢) للهم معانٍ عديدة في اللغة منها: خطور الشيء بالبال، وميل الطبع، والعزم على الفعل، وهذه المعاني العديدة للهم هي التي أدت إلى الفهم الخاطيء لقوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ في منظور هؤلاء المدعين.

٣) لقد شهد ببراءة يوسف عليه السلام كل من له صلة بقصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز من: زوج وشاهد ونسوة المدينة؛ حتى امرأة العزيز نفسها، ومن قبل هؤلاء جميعًا المولى وكفى بالله شهيدًا.

٤) لا اضطراب في آيات القرآن الكريم، فلقد استعصم يوسف عليه السلام بالله من البداية إلى النهاية، وقد أنجاه الله من المعصية، أما ما جاء في الكتاب المقدس فهو يدين يوسف عليه السلام ولا يبرئُه.

---

١. الأناة: الحِلْم والوَقار.

(*) الرد على كتاب "أخطاء إلهية في القرآن الكريم"، مجموعة علماء، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٣م. هل القرآن معصوم؟ موقع إسلاميات. islameyat.com

٢. الهمُّ: قَصْد الجماع.

٣. حَصْحَص الحقُّ: ظهر.

التفصيل:

أولا. سياق الآيات التي جاء فيها قوله ﷻ: ﴿ وَهَمَّ بِهَا﴾ يؤكد استحالة وقوع يوسف عليه السلام في المعصية:

في البداية نود أن نشير إلى أن أخلاق يوسف عليه السلام وعصمته باعتباره نبيًّا تتنافى تمامًا مع الهمِّ بالخيانة، أو مجرد التفكير فيها، ويؤكد هذا ثناء الله تبارك وتعالى على يوسف عليه السلام في كثير من آيات القرآن الكريم، وكذلك ثناء نبيه محمد ﷺ، فمن ثناء الله ﷻ على يوسف عليه السلام قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ (يوسف: ٦)، وقوله ﷻ: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (يوسف)، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (يوسف)، وغير ذلك من الآيات الكريمة التي تحدثت عن يوسف وعن كريم خلقه وحميد خصاله، هذا المدح من الله تعالى لنبيه لا يكون إلا عن استحقاق له، فلا يليق بحكمة الله تعالى أن يمدح إنسانًا عاصيًا بأعظم المدائح[١].

وكذلك أثنى رسول الله ﷺ على أخلاق يوسف وذلك في قوله: "عجبتُ لصبر أخي يوسف وكرمه، والله يغفر له، حيث أرسل ليستفتي في الرؤيا، ولو كنت أنا لم أفعل حتى أخرج، وعجبتُ لصبره وكرمه والله يغفر له، أتى ليخرج فلم يخرج حتى أخبرهم بعُذْره، ولو كنتُ أنا لبادرتُ الباب، ولولا الكلمة لما لبث في السجن"[٢]. وسُئِل النبي ﷺ عن أكرم الناس، فقال في إحدى إجاباته: "يوسف نبي الله بن نبي الله بن نبي الله بن خليل الله"[٣].

كما أن التهمة التي وُجِّهت إلى يوسف عليه السلام وهي اتهامه بالتحرّش والهمّ بالوقوع بامرأة العزيز، كبيرة من أكبر الكبائر، والخيانة من أقبح الذنوب، ومقابلة الإحسان بالإساءة من المنكرات، فكيف يخون يوسف عليه السلام عزيز مصر الذي آواه في بيته، وشمله وأحاطه برعايته، منذ أن كان صغيرًا إلى أن شبَّ وكبر في بيته، وأكرمه أيما إكرام؟ وكيف يقابل إحسانه إليه بمثل هذه الفعلة التي يترّفع[٤] عنها غير الأنبياء؟ فكيف - في حكم العقلاء من البشر - يقع فيها أحد المصطفين الأخيار[٥]؟!

أمّا ما جاء في قوله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا ﴾ من الإشارة إلى همِّ يوسف عليه السلام فإنه لا يفيد أنه عزم على ارتكاب الفاحشة، وحتى نفهم عبارة "وهمَّ بها" على الوجه اللائق بما ذكره الله تعالى عن يوسف عليه السلام ينبغي أن نستعرض سياق الآيات السابقة لها حتى نتبين الخطوات التي دبرتها امرأة العزيز للإيقاع بيوسف عليه السلام

١. عصمة الأنبياء والرد على الشبهات الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣١٣.

٢. صحيح: أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٢٤٩)، باب العين: أحاديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (١١٤٧٥).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ ﴾(البقرة:١٣٣) (٣١٩٤)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل يوسف عليه السلام (٦٣١١).

٤. يترفَّع: يتنزَّه.

٥. عصمة الأنبياء والرد على الشبهات الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣١٣ بتصرف.

في الفحشاء، قال ﷻ: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَ﴾ (يوسف: ٢٣)، فهي إذن ثلاث خطوات:

الأولى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾. قال القرطبي: وأصل المراودة الإرادة والطلب برفق ولين، ويقول الطبري في تفسيره: وراودته امرأة العزيز ـ وهي التي كان يوسف في بيتها ـ عن نفسه أن يُواقعها[1].

الثانية: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾. يقول الطبري: وغلَّقت المرأة أبواب البيوت عليها، وعلى يوسف عليه السلام لما أرادت منه وراودته، بابًا بعد باب، وهذا يدل على إدراكها تمام الإدراك أنها مقبلة على فعل قبيح؛ ولذلك فهي حريصة على أن تخفي ما ستفعل.

الثالثة: ﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَ﴾. قال القرطبي: ﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَ﴾؛ أي: هَلُمَّ وأقبل وتعال، أي انتقلت من الاحتيال والمراوغة إلى الوضوح في الطلب. وفي مقابل خطوات امرأة العزيز هذه، ورغم تمكنها حينئذ إذ هي سيدته وهو في بيتها، وذكائها فيما فعلت، فإن يوسف عليه السلام قد قابلها برفضه التام لما تريده منه، وكان من وراء رفضه اعتبارات ثلاثة، كل واحد منها كفيل بأن يجعله لا يفكر مجرد تفكير في الاستجابة لها، فضلًا عن الهم بالفاحشة، فكيف بها مجتمعة؟! قال تعالى في رفض يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢٣)﴾ (يوسف).

فأول هذه الاعتبارات قوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾. يقول الطبري في تفسيره: وقوله: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ يقول جل ثناؤه: قال يوسف إذ دعته المرأة إلى نفسها وقالت له هلم إلي: أعتصم بالله من الذي تدعوني إليه وأستجير به منه.

وهو إلى جانب استجارته واستغاثته بالله تعالى يُذكِّر امرأة العزيز بالله تعالى، وأنه تعالى لم يأمر بهذا الفعل الفاحش، وهنا نذكر حديث رسول الله ﷺ في "السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله": "الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه"[2].

وثاني هذه الاعتبارات يتجلَّى في قوله عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾. قال الطبري: يقول: إن صاحبك وزوجك سيدي، أحسن منزلتي، أكرمني، وائتمنني، فلا أخونه.

وعن ابن إسحاق: قال: ﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ أمنني على بيته وأهله، وقال ابن كثير: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ وكانوا يطلقون الرب على السيد الكبير، أي أن بعلك أحسن مثواي، أي منزلي، وأحسن إلى فلا أقابله بالفاحشة في أهله.

---

١. يُواقعها: يجامعها.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجماعة والإمامة، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد (٦٢٩)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة (٢٤٢٧).

والاعتبار الثالث: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾، فقد تنبه يوسف عليه السلام لعواقب الخطيئة: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ قال الطبري: إنه لا يدرك البقاء، ولا ينجح من ظلم، ففعل ما ليس له فعله، وهذا الذي تدعوني إليه من الفجور ظلم وخيانة لسيدي الذي ائتمنني على منزله.

وكل هذه الاعتبارات تؤكد بما لا يدع مجالًا للشك على عفة يوسف عليه السلام وعصمته من أن يهمَّ بالفاحشة، وهذا ما أكده القرآن الكريم في أكثر من موضع كما ذكرنا.

ثانيًا. تعدد تأويلات معنى "الهمِّ" لدى المفسرين هو الذي أدى لهذا الفهم الخاطئ:

لتوضيح معنى الهم الذي نسبه القرآن الكريم لنبي الله يوسف عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ لا بد أن نوضح معنى الهم في اللغة، ثم بعد ذلك نحكم هل أثبت القرآن الهم بالفاحشة ليوسف عليه السلام أم لا؟

الهم في اللغة له معانٍ متعددة:

الأول: خطور الشيء بالبال قال عز وجل: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ (آل عمران: ١٢٢)، فهاتان الطائفتان قد خطر الفشل ببالهما، ولو كان المراد هنا العزم لما كان اللهَّ وليًّا لهما؛ لأن العزم على المعصية معصية.

الثاني: ميل الطباع، قال الزمخشري، في معنى "وهم بها": مالت نفسه إلى المخالطة، ونازعت إليها.

الثالث: العزم على الفعل، يقال: همَّ بالشيء: إذا نواه وأراده وعزم عليه، قال عز وجل: ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ (المائدة: ١١) أي: أرادوا ذلك وعزموا عليه[1].

وقبل الحديث عن نوع الهمِّ الذي نُسب لنبي الله يوسف عليه السلام في القرآن الكريم نؤكد أن كثيرًا من العلماء قد اتفقوا على أن همَّ امرأة العزيز كان لفعل الفاحشة، وقد استعمل القرآن الكريم لامرأة العزيز وليوسف عليه السلام نفس الكلمة "همت به" و "همَّ بها"، ولكن يجدر بنا أن نشير إلى ضرورة اختلاف معنى الهم باختلاف من قيلت في حقه؛ وذلك لاختلاف هدف كل منهما وغايته، فيوسف عليه السلام يسرع نحو العفة والطهارة، وامرأة العزيز نحو الشهوة والإثم، وهو يهرب في حين أنها تلاحقه، ولو كان لدى يوسف عليه السلام أي ميل للإثم لما كانت هذه المطاردة؛ إذن كان هدف يوسف عليه السلام وغايته شيئًا آخر[2].

والسؤال الذي يفرض الآن نفسه: أي نوع من الهمِّ هَمَّ به يوسف عليه السلام؟

ونجيب على ذلك قائلين:

إذا كان معنى "الهم" الواقع من يوسف، هو الخاطر بالبال وحديث النفس: فلا يُعاب عليه يوسف عليه السلام ولا يُطعن به في حقه؛ لأنه لا صنع للعبد فيه، ولا يدخل تحت اختياره، ونقل النسفي في تفسيره عن أبي منصور قوله: وهمَّ بها همَّ خاطره، ولا صنع للعبد فيما يخطر بالقلب، ولا مؤاخذة عليه.

---

١. عصمة الأنبياء والرد على الشبهات الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٠٩.

٢. العصمة النبوية، محمد فتح الله كولن، مرجع سابق، ص٦٨.

ويرى بعض العلماء أن الخاطر المعفو عنه هو الذي لم يستقر في النفس، وهم يوسف منه، ويدل على عدم المؤاخذة بالعقاب على حديث النفس ما جاء في الصحيح أن النبي ﷺ قال: "فمَن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هَمَّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن هَمَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، فإن هو هَمَّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة"[1]. فاتضح أن لا شبهة على عصمة يوسف عليه السلام في ذلك؛ لأن الأنبياء غير معصومين من حديث النفس، ولكنهم معصومون من طاعة النفس والانقياد لها.

أمّا إذا كان الهمُّ بالمعنى الثاني وهو ميل الطبع: فلا يطعن به أيضًا في حق يوسف عليه السلام؛ لأنه غير اختياري، ثم هو قاوم اتباعه، وكف عن رغبته، ومن يكن بهذه المثابة لم يتوجه إليه ذم، بل يؤجر ويمدح عليه.

ومعنى "الهم" هذا هو ما قاله الإمام الرازي: من أنه "ميل الطبع، كالصائم في الصيف، يرى الماء البارد، فتحمله نفسه على الميل إليه، وطلب شربه، ولكن يمنعه دينه عنه، وكالمرأة الفائقة حسنًا وجمالًا، تتهيأ للشاب النامي القوي، فتقع بين الشهوة والعفة، وبين النفس والعقل، مجاذبة ومنازعة، فـ "الهم" هنا عبارة عن جواذب الطبيعة، ورؤية البرهان جواذب الحكمة، وهذا لا يدل على حصول الذنب، بل كلما كانت هذه الحال أشد، كانت القوة على لوازم العبودية أكمل"[2].

بيد أننا نتساءل: إذا كان همُّ يوسف عليه السلام من هذا النوع وهو الميل الطبعي، فهل وقع هذا الهم له أم لا؟

الثابت أنه لم يقع، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ﴾ وتمَّ الكلام به: ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ (يوسف: ٢٤) وجواب "لولا" ههنا مقدم، والتقدير: لولا أن رأى برهان ربه لهم بها.

كأنهم وجهوا معنى الكلام إلى أن يوسف عليه السلام لم يهم بها، وأن الله إنما أخبر أن يوسف عليه السلام لولا رؤيته برهان ربه لهمَّ بها، ولكنه رأى برهان ربه فلم يهمَّ بها، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾ (النساء).

وقال أبو حاتم: كنت أقرأ غريب القرآن على أبي عبيدة فلما أتيت على قوله: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا ﴾ قال أبو عبيدة: هذا على التقديم والتأخير، أي تقديم الجواب وتأخير الشرط، كأنه قال: ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها[3].

وقال القرطبي: والاختلاف أن همَّها كان لمعصية، وأما يوسف فهمَّ بها: ﴿ لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ ولكن لما رأى البرهان ما همَّ؛ وهذا لوجوب العصمة للأنبياء، قال الله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة (٦١٢٦)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة (٣٥٥).

٢. محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، مرجع سابق، ج٦، ص١٧٢.

٣. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج ٦، ج١٢، ص٢٥٣.

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ٢٤﴾ (يوسف)، ففي الكلام تقديم وتأخير، أي لولا أن رأى برهان ربه لهَمَّ بها.

والناظر لهذه الآيات الكريمات بما فيها من أحداث نظرة سطحية يقول: إن هناك مساواة في همِّ كل من يوسف عليه السلام وامرأة العزيز، فهي حدثتها نفسها بفعل الفحشاء، وهو حدثته نفسه كذلك، ولكن النص لم يقف عند هذه العبارة، فقد قال بالنسبة لامرأة العزيز: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ أي: حدثتها نفسها أنها تريده، وعندما تكلم القرآن عن يوسف قال: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾.

أي أن المعنى: ولقد همت به، ولولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها، "ولولا" حرف امتناع لوجود، وهذا هو الصحيح الذي نرجحه ونقول به؛ لاتفاقه مع عصمة الأنبياء.

وهنا يتساءل بعض المغرضين: إذا كان يوسف عليه السلام لم يهم بالفحشاء، فلماذا قال الله: إنه "همَّ بها"، ولم يقل: لقد همَّت به ولم يهم بها؟

والجواب عن ذلك أن الله تعالى لو قال: لقد همَّت به، ولم يهمَّ بها؛ لأوهم ذلك أن عدم استجابته نقص في رجولته أو لعدم رغبته في النساء، ولكن الله تعالى أراد أن يبين أنه لولا إيمان يوسف ورعاية ربه له لهمَّ بها، فعدم الهمِّ ليس راجعًا إلى عيب في يوسف عليه السلام، وإنما هو برهان ربه الذي أراه له.

فالله عز وجل يريد أن يثبت رجولة يوسف، وأنه لم يمتنع عنها؛ لأنه لا يقدر أو لأنه ضعيف، ولذلك قال: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أي أن الذي جعله لا يهم بها أن برهان ربه في داخله، أظهره الله له، ولذا لم يهمَّ بها[1].

ثم قال عز وجل: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ٢٤﴾ فما البرهان الذي رآه يوسف عليه السلام فصرف عنه همه؟

إن البرهان الذي أراه الله ليوسف عليه السلام فصرف عنه همه، هو حجة الله الباهرة، الدالة على قبح الزنا، وسوء سبيله، والمراد برؤيته لها كمال إيقانه بها، ومشاهدته لها مشاهدة واصلة إلى مرتبة عين اليقين، وكأنه عليه السلام قد شاهد الزنا بموجب ذلك البرهان النيِّر، على ما هو عليه في حد ذاته أقبح ما يكون، وأوجب ما يجب أن يحذر منه، ولذلك فعل ما فعل من الاستعصام، والحكم بعدم إفلاح من يرتكبه[2]. وعليه فلا ذنب ولا معصية من يوسف عليه السلام تتنافى مع عصمته.

وإذا كان الهم بالمعنى الثالث وهو العزم على الفعل: فهو كذلك لا يطعن في يوسف عليه السلام؛ لأن الفعل الذي عزم عليه هو: زجر امرأة العزيز عن الفاحشة، وقصده دفعها عن نفسه، وضربها إن لم تندفع؛ لأن الهم بهذا المعنى هو اللائق بالرسول المبعوث إلى قومه لهدايتهم إلى الخير، وكفهم عن الشر[3].

ومعنى الهم على هذا القول في قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ أي: وتالله لقد همت المرأة بالبطش به

---

١. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ص١٨٣.

٢. محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، مرجع سابق، مج٦، ج١٢، ص١٧٢، ١٧٣.

٣. عصمة الأنبياء والرد على الشبهة الموجهة، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣١٠، ٣١١.

لعصيانه أمرها، فهو في نظرها عبدها وهي سيدته، وقد أذلّت نفسها له بدعوته الصريحة إلى نفسها بعد الاحتيال عليه بمراودته عن نفسه، فرأت أن هذا الاحتقار لا يطاق، ولا علاج لهذا الفاتن المتمرد إلا إذلاله بالانتقام، هذا ما ثار في نفس هذه المرأة المفتونه بطبيعة الحال، وشرعت في تنفيذه أو كادت، بأن همت بالبطش به في ثورة غضبها، وهو انتقام معهود من مثلها، وممن دونها في كل زمان ومكان، وقد كاد عليه السلام أن يرد حيالها ويدفعه بمثله، وهمه عليه السلام لدفع حيالها أمر مشروع لكن وُجِد مقتضاه مقترنًا بالمانع منه وهو رؤيته برهان ربه فلم ينفذه، فكان الفرق بين همها وهمه أنها أرادت الانتقام منه شفاءً لغيظها من خيبتها وإهانته لها، فلما رأى أمارة وثوبها عليه استعد للدفاع عن نفسه وهم به، فكان موقفهما موقف المُواثَبة[1]، والاستعداد للمُضارَبة[2]، ولكنه رأى من برهان ربه وعصمته ما لم تر هي مثله، فألهمه أن الفرار من هذا الموقف هو الخير الذي تتم به حكمته عز وجل فيما أعدّه له، فامتناعها عن تنفيذ ما همت به كان بسبب هروب يوسف عليه السلام واستباقه إلى الباب، وكان سبب امتناعه هو إرادته عليه السلام وما رآه من برهان ربه[3].

ويعلق د. الحديدي بقوله: الهمُّ بهذا المعنى هو الذي نميل إليه لأمرين:

الأول: أن اللين يُقدَّم عادة على العنف، وقد تقدم اللين في نصحها وتذكيرها بحق صاحب الفضل عليها، وسوء عاقبة هذا المُنكَر قائلًا: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢٣﴾ (يوسف) فلما لم يَجِد معها كل هذا، وقصدت إليه تجذبه لنفسها، أو تلقي بنفسها عليه، لم يكن بد من دفعها بالعنف، وضربها إن لم تندفع.

الآخر: أنه قد جرت عادة الإنسان أيضًا أن يلجأ إلى الهرب إن وجد العنف لا يجدي، ويوسف عليه السلام لما رأى برهان ربه، تحقق أن استخدام العنف ليس في صالحه - كما سبق أن قلنا - وأنه سيجعله مدينًا، فلجأ إلى الهرب: ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ﴾ (يوسف: ٢٥). **وهذا أرجح الأقوال وأصحها في "هَمّ" يوسف عليه السلام**[4].

وخلاصة هذه الحقائق التي ذكرناها أن قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ لا يقدح في عصمة يوسف عليه السلام كما يدعي هؤلاء المتوهمون.

ثالثًا. شهادة كل من له تعلق بقصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز تنفي عنه خطأه وتثبت له البراءة:

لقد شهد ببراءة الصديق يوسف عليه السلام كل من له علاقة بقصته مع امرأة العزيز؛ فقد نقل الفخر الرازي عن القاضي أبي طاهر الطوسي قوله: شهد ببراءة يوسف عليه السلام براءة الذئب من دمه كل من له تعلق بتلك الواقعة من: زوج وحاكم ونسوة وملك، وقد أعلن يوسف ذلك، واعترف له خصمه بصدق ما قاله مرتين، وشهد بذلك رب العالمين الذي هو أصدق

١. المُواثَبَة: أن يَثِب أحدهما على الآخر.

٢. المُضارَبَة: أن يضرب أحدهما الآخر.

٣. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج١٢، ص٢٧٧: ٢٨٠ بتصرف.

٤. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣١٣.

القائلين[1] وتفصيل ذلك:

١. إعلان يوسف عليه السلام لبراءته في تحدٍّ وصمود:

وذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ (يوسف: ٢٦)، وقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ﴾ (يوسف: ٣٣)، فقد أعلن يوسف عليه السلام براءته مما نسب إليه، مرة عندما وجد العزيز أمام الباب، وأخرى عندما استعان بربه بعدما رأته النسوة وتوعدت له امرأة العزيز، وصِدْقه في هذين الادعاءين يؤكده كل من حوله.

٢. شهادة الحاكم:

فبعد ادعاء يوسف: ﴿ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ شهد شاهد من أهل امرأة العزيز، بما يؤيد كلام يوسف قال تعالى: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (يوسف).

ومن حكمة الله تعالى أنه جعل ذلك الشاهد من أهل امرأة العزيز حتى لا يُقال: إنه منحاز له؛ ولأن هذا الشاهد من أهلها فقد بدأ أولًا بما في صالحها، وهو حالة أن يكون قميصه قد تمزق من الأمام، هذا التمزق الذي يكون نتيجة دفاعها عن نفسها وإقباله عليها، ثم ذكر الاحتمال الثاني، وهو أن يكون قميصه قد تمزق من الخلف، هذا التمزق يعني أنها هي التي راودته عن نفسه وجذبته إليها عندما حاول الهروب منها.

وعلى هذين الاحتمالين اللذين ساقهما الشاهد ثبتت براءة يوسف عليه السلام، وأدينت امرأة العزيز.

٣. شهادة الزوج:

بعد الاحتمالين اللذين أوردهما الشاهد، وبعد معاينة الحال الذي أمامهم، ثبتت براءة يوسف وإدانة امرأة العزيز من العزيز نفسه، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (يوسف). وبعد أن تيقن العزيز من براءة يوسف عليه السلام، طلب منه أن يُعرض عن الحديث في هذا الأمر وذلك حفاظًا على سمعته، قال تعالى: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (يوسف).

٤. شهادة النسوة:

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ (يوسف: ٥١) فعندما طلب الملك لقاء يوسف عليه السلام رفض أن يخرج من السجن إلا إذا برئت ساحته، براءة يعرفها كل أهل المدينة، وذلك بسؤال النسوة عن مراودتهن له عليه السلام، وعندما سأل الملك النسوة اللاتي قطعن أيديهن عن مراودتهن له، شهدوا له بالبراءة والعفة، بل شهدوا بتنزيهه عن أن يفعل ذلك: ﴿ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ ﴾.

٥. اعتراف الخصم:

وقد أقرت امرأة العزيز ببراءة يوسف عليه السلام في موقفين: الأول: عندما هيأت لبعض نساء المدينة مجلسًا وآتت كلا واحدةٍ منهن سكينًا، وأدخلت عليهن يوسف عليه السلام، ولما دُهش النسوة لجمال يوسف، وشهدن بذلك اعترفت امرأة العزيز بأنها هي التي راودته عن نفسه، وأنه كان مستعصمًا متمنعًا عنها، قال تعالى:

[1] . المرجع السابق، ص٣١٤.

﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ (يوسف: ٣٢).

والموقف الثاني عندما سأل الملك النسوة عن مراودتهن ليوسف عليه السلام شهد النسوة ببراءته، واعترفت امرأة العزيز بحقيقة الأمر، قال الله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ (يوسف)، فشهد الملك بأمانته وجعله في منزلة عالية.

٦. شهادة رب العالمين وكفى بالله شهيدًا:

والله عز وجل أعظم وأصدق من شهد ليوسف عليه السلام بالعفة والبراءة مما نسب إليه، قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (يوسف)، فشهد الله تعالى بأنه صرف عنه السوء والفحشاء، وأنه من عباده الذين أخلصهم - أي الله - لعبادته وطاعته، فلا يقع منهم مكروه ولا يميلون إلى سوء.

فأية شبهة تبقى مع هذه الشهادات في براءة الصديق يوسف عن الذنوب؟! قال القاضي: وهؤلاء الطاعنون في يوسف إن كانوا من حزب الله فليقبلوا قوله، وإن كانوا من حزب الشيطان فيجب ألّا يتركوا قوله: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (ص) [1].

وبناءً على هذه الأدلة تَثْبُت براءة يوسف عليه السلام من كل ما رُمي به من الهم بالفاحشة، وقد ذكر القرآن كل هذه الشهادات، مما ينفي تمامًا أن يكون القرآن قد طعن في عصمة يوسف عليه السلام ®.

رابعًا. القرآن يثبت الهمَّ ليوسف، ويثبت براءته ولا اضطراب في ذلك:

وأما ما ادعاه بعضهم من وجود تعارض بين قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا ﴾، وقوله تعالى، على لسان امرأة العزيز وصويحباتها: ﴿ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ (يوسف) فلا أساس لهذا التعارض من الصحة؛ وذلك بناء على ما سبق بيانه من معنى الهمِّ، واختلافه لدى كل من يوسف عليه السلام وامرأة العزيز، وبيان موقف كل منهما من الآخر، يثبت عدم تعارض القرآن الكريم، بين قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا ﴾ وقوله تعالى: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ (يوسف)؛ بل إن الآيتان الكريمتان تؤيد كل منهما الأخرى، وتثبت عصمة نبي الله يوسف عليه السلام وبراءته مما نسب إليه.

هل صحيح أن الكتاب المقدس لا يدين يوسف و يبرئه؟

جاء في الكتاب المقدس: "إنها لما طلبت إليه الشر استنكر طلبها، وقال: كيف أصنع هذا الشر العظيم، وأخطئ إلى الله؟وكان إذ كلمت يوسف يومًا فيومًا أنه لم يسمع لها أن يضطجع بجانبها ليكون معها. ثم حدث نحو هذا الوقت أنه دخل البيت ليعمل عمله، ولم يكن

---

1. المرجع السابق، ص٨٥، ٨٦ بتصرف.

® في "براءة يوسف من الفحشاء" طالع أيضًا: الشبهة السادسة والثلاثين، من هذا الجزء.

إنسان من أهل البيت هناك في البيت. فأمسكته بثوبه قائلة: "اضطجع معي!". فترك ثوبه في يدها وهرب وخرج إلى خارج". (التكوين٣٩: ٩ ـ ١٢).

وقد استدل بعض المدَّعين بهذا الجزء من الكتاب المقدس على خطأ القرآن فيما أورده بشأن يوسف عليه السلام إذ يقولون: إن القرآن أثبت الهم ليوسف عليه السلام في قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ بينما نفى ذلك الكتاب المقدس.

وقد بينا معنى الهم المراد في الآية، وأما حديث الكتاب المقدس عن تبرئة يوسف عليه السلام فما هو إلا إدانة له، حيث يذكرون أنه ترك ثوبه مع امرأة العزيز وخرج، وهذا ـ منطقيًّا ـ أمر ينال من قدرات يوسف العقلية.

فكيف يخرج عاريًا ويترك ثوبه في يدها ليثبت الجريمة على نفسه، وهو الذي حاول التخلص منها بكل وسيلة؟! وعليه فلا تناقض في القرآن، وهو أكبر شاهد على براءة يوسف وعفته وطهارته عليه السلام، ولا عبرة لشطحات الكتاب المقدس.

الخلاصة:

- أخلاق يوسف عليه السلام وعصمته باعتباره نبيًّا تتنافى مع ما نسب إليه من اتهامه بالهم بالفحشاء، ويشهد لهذا القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة، كما أن ما وجه إليه من اتهام بالفحشاء يَنْأَى عنه[1] كل عاقل من غير الأنبياء، فكيف به في حق الأنبياء؟!
- لما وقعت من امرأة العزيز المراودة، ودعته إلى نفسها؛ أجابها بقوله: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ (يوسف: ٢٣) فكيف يهمُّ بموافقتها مع قوله هذا؟!
- إن الله عز وجل شهد ليوسف عليه السلام بمقام المخلصين، فقال: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾، وهذا المقام عصم الله أصحابه من سيطرة الهوى واتباع الشيطان، فقد قال الله لإبليس اللعين: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ (الحجر: ٤٢)، وجاء على لسان إبليس اعترافه بعجزه عن إغوائهم قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (ص) فهل ينسجم هذا المقام مع الهمِّ بفعل الحرام؟
- لقد قال الله عن يوسف عليه السلام: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَ﴾ وهذا يعني أن الهمَّ بالمعصية لم يقع منه، فلو وقع منه ذلك لما قال الله: كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء.
- أعلنت امرأة العزيز براءة يوسف عليه السلام من الهمِّ والمعصية، وأنه لم يجبها إلى طلبها إذ قالت: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَ﴾ (يوسف: ٣٢) وشهدت بعفته وصدقه عليه السلام إذ قالت: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾، وكذلك فإن النسوة قد شهدن بعفته وطهارته إذ ﴿قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٍ﴾.
- أظهرت نتائج التحقيق براءته من الهمِّ بالسوء، إذ إن امرأة العزيز لما وجهت له اتهامها بإرادة السوء، طلب العزيز فتح محضر للتحقيق، وعين العزيز شاهدًا من أهلها ليحقق في الادعاء.

المدعي: امرأة العزيز، تدعي أن يوسف عليه السلام أراد بها سوءًا!

المدعي عليه: يوسف عليه السلام، ينفي التهمة عن نفسه

---

١. يَنْأَى عنه: يبعد عنه.

ويقول: ﴿ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ (يوسف: ٢٦)، المحقق: كشف ملابسات القضية بقوله كما جاء القرآن: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (يوسف).

وقد تبين بعد فحص القميص أن المذنبة المدانة هي امرأة العزيز، وبالتالي ظهرت براءة نبي الله يوسف عليه السلام من الهم بالسوء والفحشاء: ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (يوسف) وطلب العزيز من يوسف عليه السلام أن يكتم الحدث احترامًا لهيبة القصر: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ﴾ (يوسف: ٢٩)، وطلب من امرأة العزيز أن تتبرأ من خطيئتها، وتستغفر لذنبها: ﴿ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (يوسف).

الشبهة الخامسة والثلاثون

إنكار وليمة امرأة العزيز الواردة في قصة يوسف عليه السلام (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن قصة الوليمة التي أعدتها امرأة العزيز لسيدات المدينة الواردة في قصة نبي الله يوسف عليه السلام غير معقولة، ويعلِّقون على قول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (يوسف) قائلين: إن هذا نسج من الخيال. ويتساءلون مستنكرين: هل من المعقول أن تعد امرأة العزيز وليمة لتفضح نفسها أمام سيدات المدينة؟!

وجوه إبطال الشبهة:

١) وليمة امرأة العزيز للنسوة تمثل حلقة في تسلسل منطقي لسياق الأحداث في قصة سيدنا يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز؛ إذ إنها مكرت بهن لما أنكرن عليها فتنتها وشغفها بيوسف عليه السلام، كما أن الخبر قد شاع في المدينة، فلم يعد هناك ما تخشاه بعد شيوعه، فاستدعى ذلك أن توقعهم في نفس الفتنة بجمال يوسف عليه السلام.

٢) عدم ذكر التوراة لهذا المشهد من القصة وغيره ليس دليلًا على إنكاره؛ بل دليل على أن القرآن وحي من الله إلى رسوله ﷺ، وأنه لم يؤخذ من مصادر بشرية، وهو الكتاب الخاتم المعصوم الذي ذكر الحقائق؛ ولم يترك شيئًا ذا بال تؤخذ منه الحكمة إلا ذكره.

٣) تزييف الحقائق شأن كُتَّاب التوراة دائمًا، فقد كتبوا ما يتفق مع أهوائهم وميولهم، فلا يذكرون أية فضيلة لأنبياء الله ـ عليهم السلام ـ، ولا لغيرهم؛ حتى يجدوا مسوغًا لفسادهم في الأرض، وطغيانهم على العالمين.

(*) هل القرآن معصوم؟ موقع إسلاميات.
www.islameyat.com

التفصيل:

أولا. مكر النسوة بامرأة العزيز ومكرها بهن يتسق منطقيًا مع بقية الأحداث في قصة سيدنا يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز:

أما الزعم أن امرأة العزيز تفضح نفسها بهذا التصرف فمردود بأنها فعلت هذا بعد أن شاع الأمر في المدينة، وجرى على ألسنة النسوة؛ فهي تريد أن تثبت لهنَّ ـ وهنَّ من بنات جنسها ـ أن جماله لا يقاوم؛ فيعذرنها في هواها ويكففن عن لومها والتشهير بها.

إذن فأحداث هذا المشهد وقعت في إطار من التسلسل المنطقي لسياق الموقف، وهو ما أخفاه كاتب التوراة؛ لأسباب سنذكرها فيما بعد.

عرض أحداث المشهد:

إذا كان يوسف عليه السلام يستطيع أن يكتم هذا الأمر عن الناس جميعًا، ويسره في نفسه ـ على مَضَض ـ[1] فهل تستطيع تلك المفتونة بحبه أن تكتم ذلك فلا تحدث به المقرّبات إليها من بنات جنسها على ما عرف من النساء من الثرثرة، وكثرة التناجي فيما بينهن؟! كما لا ننسى أن واقعة مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام شاعت بين ساكني القصر من خدم وحرّاس، ومعلوم أن الخدم والحراس يعلمون أسرار البيوت وينشرونها في الناس.

وبذلك شاع الخبر في المدينة، وتناقلته النسوة فيما بينهن حتى وصل حديثهن إلى صاحبة الشأن؛ فأرسلت إليهن ومكرت بهنَّ كما أردن المكر بها، فكان من أمرها وأمرهن ما حكاه القرآن، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (يوسف).

فالنسوة حين سمعن الخبر لم يطقن صبرًا على عدم رؤية هذا الغلام الذي جمع أروع آيات الجمال، فوصفن امرأة العزيز، بما كان ينبغي أن يصفن به أنفسهن، فهن اللاتى قد شغفن به حبًّا، دون أن يَرَيْنَه ـ والأذن تعشق قبل العين أحيانًا ـ فأردن أن ينلن منه ما يطمع النساء فيه من الرجال، فَسَخَّرنَ من ينقل إلى امرأة العزيز هذه المقولة؛ لعلها تسمح لهن برؤيته ليعذرنها فيه وهذا من مكرهن، فبادلتهن امرأة العزيز مكرًا بمكر، فكانت أعظم كيدًا، فأعتدت لهن متكأ[2] حافلًا بالفواكه والأطعمة الشهية، وآتت كل واحدة منهن سكينًا حادة، وأمرت يوسف أن يخرج عليهن فلما رأينه أعظمنه، وهممن بالوقوف له، وجرحن أيديهن جروحًا بالغة عبَّر عنها القرآن بالتقطيع، وذلك حين أصابهن الذهول، وملأت شِّغَاف قلوبهن مهابته، وروعته، وجماله، فأيقنَّ أنهنَّ أمام ملك كريم، وليس أمام واحد من البشر.

ونجحت امرأة العزيز في خطتها، وشفت منهن غيظ قلبها، فقالت لهن ـ والدماء تنزف من أيديهن ـ: فذلكن الذي لمتنني فيه، فأنتن من أول نظرة قد وقع

١. المَضَض: الكَراهة والتألُّم.

٢. أَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئًا: أعدت مجلسًا مريحًا فيه كراسي للاتكاء.

لكنَّ من أمره ما وقع، فكيف بي وهو يلازمني في بيتي، ويدنو مني وأدنو منه، وأدعوه إلى فيأبى عليَّ، ولكني سوف أنال منه ما أريد، أو يكون مصيره السجن في ذلة، وصَغار.

لقد اعترفت لهن بإدانتها، واعترفت ببراءته من السوء والفحشاء، واستعصامه بربه منها ومن شرها، لكنه اعتراف لا يدينها، إذ إنهن لا يملكن من الأمر شيئًا، وليس لهنَّ سلطان عليها، ومن الهيِّن اليسير أن تعترف المرأة للمرأة بها تخفيه عن الرجل، ولو كان من المقربين إليها.

ولعلها أرادت أن تغيظهن، وتظهر لهن عدم الاكتراث بمكرهن وتشنيعهن عليها هنا وهناك، وأنها السيدة المطاعة التي إذا قالت فعلت، وإذا أرادت شيئًا فلا مرد له.

وهكذا تستبد المرأة بالأمر الذي تظن أنها قادرة عليه تبعًا لشهواتها الجامحة وأهوائها المنحرفة، ولا سيما إذا كانت تحت رجل يعد من عظماء القوم وسادتهم.

ونلاحظ أن هذه المرأة لم يؤتها الله شيئًا من الحكمة، ولم يكن لها من العقل ما تعرف به أقدار الرجال، وما تدرك به عواقب الأمور، ولو كان لديها شيء من الفهم لعرفت من أول نظرة من هو يوسف ، ولعرفت أنه الرجل الذي اجتمعت فيه كل خصال الخير، وكل أوصاف الكمال البشري، وأنه بطبعه مصون من كل رذيلة، معصوم بفطرته من كل شر.

إن النسوة اللاتي مَكَرَتْ بهن كنّ أعقل وأقدر على فهم طبائع الرجال منها، فقد أصدرن حكمهن عليه من أول نظرة، فقلن ما قد حكى القرآن عنهن: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١)﴾ (يوسف)[1].

ثانيًا. عدم ذكر التوراة لهذا المشهد من القصة وغيره ليس دليلا على إنكاره:

إن ذكر القرآن بعض التفاصيل التي لم ترد في الكتاب المقدس يُعدُّ أكبر دليلٍ على أن القرآن وحي من الله إلى رسوله، وأنه لم يؤخذ عن مصادر بشرية، بل هو الكتاب الخاتم الذي صَوَّب، وأضاف، فالتوراة لم تغفل فقط قصة وليمة امرأة العزيز للنسوة، بل أغفلت أيضًا مسألة استباقهما[2] إلى الباب أثناء مراودتها له ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ (٢٥)﴾ (يوسف)، كما أغفلت مسألة الشاهد من أهل المرأة الذي فصل في القضية، وحكم ليوسف بالبراءة. وأغفلت أيضًا البرهان الذي رآه يوسف من ربه؛ وبذلك ينفون عصمته عن الزلل، وامتناعه عن الرذيلة، وتمسكه بالفضيلة، والأمانة، وحفظ أعراض الغير.

أما ما ذكرته التوراة في هذا الشأن فهو ـ فقط ـ غواية المرأة ليوسف : "ثم حدث نحو هذا الوقت أنه دخل البيت ليعمل عمله، ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك في البيت. فأمسكته بثوبه قائلة: "اضطجع معي!". فترك ثوبه في يدها وهرب وخرج إلى خارج". (التكوين: ٣٩: ١١، ١٢).

وهذا كلام يفتقد لعددٍ من التفاصيل الدقيقة التي وردت في القرآن الكريم، والتي تعد عناصر رئيسة في صلب القصة كغلقها للأبواب، التي تعبر عن

---

١. قصص القرآن، محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص١١٢، ١١٣.

٢. استباقهما: كل منهما سابق الآخر.

استعدادها النفسي، واتخاذ الخطوات التي تؤدي إلى إنجاح وتحقيق هدفها، وبالتالي تضييق دائرة الصراع على يوسف، ولن تجد أيضًا ذكرًا للبرهان الذي أتى إلى يوسف عليه السلام من ربه؛ ليخلِّصه من هذا الكيد بعد أن اكتنَفَه[1] ظلام الفتنة؛ ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ وَالْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) ﴾ (يوسف).

إن كل ما تحكيه التوراة قصة مراودة فقط، بل الأعجب من ذلك ما تحكيه التوراة أن يوسف عليه السلام ترك قميصه معها وهرب عاريًا! ألا يعد ذلك انتقاصًا لقدراته العقلية؟! إذ كيف يخرج عاريًا ويثبت الجريمة على نفسه، وكأنه المهاجِم، والمرأة هي المدافعة، إن القرآن الكريم يصف هذا المشهد من القصة وصفًا دقيقًا محكمًا حين يقرر أن يوسف عليه السلام امتنع عنها لما رأى برهان ربه، وقام مبادرًا إلى باب البيت هاربًا مما أرادته، فاتبعته المرأة فتعلقت بقميصه، وذلك هو قول الله تعالى في كتابه: ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ (٢٥) ﴾ (يوسف)، أدركته المرأة فتعلقت بقميصه من خلفه فجذبته إليها لتمنعه من الخروج، فهو يريد فتح مَغْلَق الباب، وهي تريد أن تحول بينه وبين ما يريده؛ وهو الإفلات من يدها دون قضاء حاجتها، وهنا شقت قميصه من الخلف؛ لأن يوسف عليه السلام كان الهارب والمرأة الطالبة[2].

كما حكى القرآن تتمة المشهد قائلًا: ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِۚ (٢٥) ﴾ (يوسف)[3].

يمكنك الآن رؤية المشهد كاملًا بكل تفاصيله وأبعاده بعد أن نقله القرآن الكريم بكل دقة فتجده كالآتي:

- امرأة العزيز تراود يوسف عليه السلام بعد أن غلقت الأبواب وتأكدت من عدم وجود أحد بالمكان.
- يوسف عليه السلام يرى برهان ربه، فيأبى ويمتنع، ويعظها ويذكرها بالله.
- امرأة العزيز لا تتعظ وتصرُّ على مراودته، فيهرب يوسف عليه السلام متجهًا إلى الباب.
- تتبعه امرأة العزيز وتجذبه من قميصه؛ لتمنعه من الفرار؛ فيتمزق قميصه من الخلف.
- يتابع يوسف عليه السلام فراره منها، وهي في أثره فينفتح الباب؛ ليجدا العزيز أمامها.

ومن ثم يأتي السرد القرآني المحكم؛ الذي يُسلِّم أي مبدعٍ وقاصّ وناقدٍ ببراعته، وقوة حَبكته ودقة تفاصيله، كما أن كل شيء أتى به القرآن في القصة لم يأت به عبثًا؛ بل أتى به لحكمة تستطيع أن تستخرجها بوضوح بعد إتمامك للسرد القرآني للقصة الكاملة؛ التي كانت ترجمة لحدث حقيقي حدث على أرض الواقع، تشهد بذلك التوراة، التي لم تذكر أحداث القصة بهذه الدقة، كما افتقرت إلى كثير من الأحداث والتفاصيل الدقيقة التي نص عليها القرآن، وكأن الله يريد أن يقول لليهود الذين يدّعون المعرفة الشاملة والدقيقة بتفاصيل حياة الأنبياء: آن لكم أن تتعلموا، وأن تعلموا أن ما تعلمونه قليل، وأن التوراة قليل في علم الله، بل كنقطة من بحر لا ساحل له؛ لذا كان القرآن الكريم مهيمنًا على ما سبقه من كتب بحول الله وقوته وعلمه وإرادته.

---

١. اكتنَفَه: أحاط به.

٢. حياة وأخلاق الأنبياء، أحمد الصباحي عوض الله، مرجع سابق، ص١٣٥ بتصرف.

٣. أَلْفَيَا: وَجَدَا.

ولا يفوتنا أن نذكر أن التوراة - كما أهملت ذكر تغليق الأبواب، ووعظ يوسف عليه السلام لامرأة العزيز وتذكيرها بالله، وإصرارها على مراودته بعد ذلك، وهروبه من أمامها، واستباقهما للباب، وقدها قميصه من الخلف، ودخول العزيز - قد أهملت قصة الشاهد الذي حكم ببراءة يوسف، وهو من أهلها امرأة العزيز.

إذن فهي الطالبة، وهو المدافع، وهذا هو مبلغ الحكمة في الأسلوب القرآني.

إن مسألة البرهان: أي عصمة سيدنا يوسف عليه السلام، وصرف السوء والفحشاء عنه - على أصح الأقوال - لم تذكرها التوراة، بل ركزت على ضغط المرأة اللَّعوب[1] على يوسف عليه السلام، ولم توضح موقف يوسف عليه السلام من تهمة زوجة العزيز له، في حين ذكر القرآن الكريم أن الله تعالى قد عصم نبيَّه يوسف عليه السلام، فصرف عنه السوء والفحشاء، قال تبارك وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (يوسف).

ويفهم من سياق الآية الكريمة أن السوء والفحشاء عدوَّان يهاجمان يوسف عليه السلام فصرفهما الله عنه، ولو مال يوسف عليه السلام للمرأة - كما توهم البعض - لما قال الله علا وجل شأنه: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ﴾ (يوسف)، وكانت المكافأة من الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (يوسف)، أي المجتبين المطهرين الأخيار، ودلائل براءة يوسف قد شهد الله له بها - وهي كثيرة - وفصل فيها القول.

أيضًا أغفلت التوراة المحرفة دعوة يوسف عليه السلام لصاحبيه في السجن إلى التوحيد الخالص، وترك الشرك والوثنية، فلم يعرف اليهود يومًا إلهًا واحدًا معبودًا بحق، بل تجدهم على مرِّ العصور يحاربون الله ورسله، ويقتلون الأنبياء، ويصادرون أمن الآمنين.

إذن فهدفهم من ذلك إبعاد مسألة الدعوة عن عقيدتهم، إذ لو دعا بها نبي من أنبياء بني إسرائيل "كسيدنا يوسف عليه السلام" لوجب اتباعها، ولكانت شاهدًا على كفرهم وفسادهم في الأرض، وهذا ما لا يريدونه.

إضافة إلى إغفالهم أن يوسف عليه السلام فسر رؤيا الملك قبل خروجه من السجن، لينفوا بذلك فضيلة الإحسان إلى من أساء، فقد سُجن ظلمًا، ورغم ذلك لم يُساومهم[2] على تفسير الرؤية بخروجه من السجن، فليس هذا من أخلاق الأنبياء الذين أدبهم ربهم فأحسن تأديبهم، فما يريده اليهود هو: الإساءة لمن أساء ولمن أحسن أيضًا، هذا هو دينهم وديدنهم في كل العصور: العبث، والفساد في الأرض.

نعود إلى حديث القرآن عن قصة النسوة مع امرأة العزيز، والسؤال الآن هو: لماذا أغفلت التوراة قصة الوليمة؟! والإجابة عن هذا السؤال من وجهين:

١. لقد تفرد القرآن الكريم بالحديث عن شيوع خبر المرأة مع يوسف عليه السلام في المدينة وتحدث النسوة به، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴿٣٠﴾ ﴾ (يوسف) فكما تحكي الآيات أن امرأة العزيز دعت النسوة اللاتي تهكّمن عليها، واستنكرن فعلها؛ لأنها عشقت فتاها،

---

١. المرأة اللَّعوب: الرشيقة الحركات الحسنة الدلال.

٢. يساومهم: يطلب ثمنًا منهم.

فأعدت لهن مائدة، وحرصت على أن يكون السكين في أيديهن، وهي تدرك مدى تأثير يوسف عليهن، وحدث ما توقعت فقد ركَّزن الأبصار والعقول على جمال يوسف ، وفي ذهول قطَّعت السكاكين أيديهن دون أن يشعرن بألم نتيجة انشغالهن بتأمل محاسنه، وجماله المشهود له ـ فقد أوتي نصف الحسن ـ إلى درجة أن فقدن صوابهن؛ فقطعن أيديهنَّ دون شعورهن بآلام القطع في أيديهن. فهذا أمر معتاد وأصبح الآن تحت الدراسة، ولا يوجد من لا يعرف تأثير المنوِّم المغناطيسي على المنوم، وفي معارفنا أن هناك من يغيب عن إحساسه بمن حوله لمجرد التركيز في مسألة أو موضوع ما. فإذا لو كان وجهًا وضيئًا أخَّاذًا كوجه يوسف الذي أعطاه الله نصف الحسن، لقد عقَّب النسوة في ذهول على أثر رؤيتهن له قائلاتٍ: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ (يوسف).

نقول: إن هذه القصة التي أثبتها القرآن أغفلتها التوراة، مع أن تسلسل الأحداث لا يتم إلا بها، ولكن كُتَّاب التوراة ابتعدوا عن قصة هؤلاء النسوة؛ لأنها تثبت للمؤرخين حضارة مصر العظيمة، وتوضح أن أهلها عرفوا وسائل المدنية من قديم الزمان، ومنها آداب المائدة، وأدوات الطعام، ومنها السكين، والأثاث المريح، وهذا ما أثبته المستشرق هنري برستد حين قال: "إن التقدم السياسي والاجتماعي وتطور الحضارة البشرية على وجه عام كان ظهورها كلها في وادي النيل متقدمًا بعدة قرون على أمثاله في غربي آسيا، الحقيقة أن الحضارة في بابل أتت متأخرة في تطورها الديني، والاجتماعي، والسياسي عن حضارة مصر، بما لا يقل عن ألف سنة "[1].

٢. أغفلت التوراة ـ عمدًا ـ هذه القصة؛ لأنهم بإثبات العصمة والفضيلة ليوسف يُحرِّمون نساء الغير عليهم، وهم يريدون أن يعثوا في الأرض فسادًا، فالمعروف أن دعوة موسى كان فيها الدعوة إلى الصفات الحميدة والأخلاق النبيلة من: عدم احتقار الغير، وعدم التعدي على أمواله وحرماته، وفي زمان سبي بابل حرّف اليهود التوراة، وامتنعوا عن دعوة الأمم إلى معرفة الله، وأباحوا لأنفسهم أخذ الربا من الأميين، والزنا بنسائهم، وسفك دمائهم، وغيرها من ذميم الصفات، وكتبوا ما يدل على ذلك في التوراة، وحذفوا من التوراة ـ حال تحريفهم لها ـ ما يمنعهم عن ظلم الأميين. ومما حذفوه قول النسوة ليوسف : ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ (يوسف)، فشهادة النسوة ليوسف بهذا الخلق الحميد يتعارض مع أهوائهم، وما اتفقوا عليه من العبث بنسائهم ونساء غيرهم.

ثالثًا. تزييف الحقائق شأن كُتَّاب التوراة دائمًا، فلا يذكرون أية فضيلة لأنبياء الله ولا لغيرهم؛ حتى يجدوا مبررًا لفسادهم وطغيانهم في الأرض:

درج اليهود على تزييف الحقائق بما يتفق مع ميلهم للفساد كما يثبت التاريخ، وحذف ما ينسب الفضلَ لغيرهم، لذا فالتوراة عبثت بها أيدي البشر وحرفت الكثير من نصوصها، إن لم نقل معظمها؛ وبالتالي فنحن لا نصدق كل ما جاء بها، فما عرضناه منها على القرآن

١. فجر الضمير، جيمس برستيد، ترجمة: سليم حسن، د. م، د. ن، د. ت، ص١٣٨.

واتفق معه فهو صحيح، وإن تعارض، فالقرآن هو الكتاب الخاتم الشامل الكامل الذي جاء مصوِّبًا لأخطاء السابقين ومضيفًا للكتب السابقة ما لم يرد منها، ومستدركًا عليها ما وقع فيها من تحريف على أيدي البشر.

وقد رد القرآن الكريم على افتراءاتهم المتتالية على أنبياء الله، ومن ذلك قولهم: إن لوطًا عليه السلام زنا بابنتيه. (التكوين ١٩: ٣١ ـ ٣٨)، وإن سليمان الملك عليه السلام ابن زنا، وقد أحب نساء غريبات. (الملوك الأول ١١: ١)، وأن داود عليه السلام ينظر إلى نساء غيره، وأنجب سليمان نتيجة علاقته المحرمة مع زوجة قائده أُورِيَّا الحِثِّي. (صموئيل الثاني ١١: ٢ ـ ٢٧)، كما أن نوحًا عليه السلام ـ وهو من أولي العزم من الرسل ـ نجده ـ على حدِّ تعبير تَوْراتهم المُحرَّفة ـ يشرب الخمر حتى يترنَّح[1] سَكَرًا. (التكوين ٩: ٢١)، وأن إبراهيم الخليل عليه السلام دَيُّوث[2] لا يَغار على عِرْضه. (التكوين ١٢: ١٢ ـ ١٥)... إلخ، أليس هذا ظلمًا وعدوانًا على أفضل الخلق قاطبة؟!

كما لم يُعصَم نبيهم المفضل ـ صاحب التوراة وحامل ألواحها ـ موسى عليه السلام من كذبهم وافترائهم، فهو قاتل لأخيه هارون عليه السلام الذي عَبَد العجل مع قومه حسب زعمهم، ألا قاتلهم الله أنى يؤفكون. فهل يتصور ممن كان هذا ديدنهم أن يكتبوا حقًّا أو يقولوا صدقًا؟ وإذا كان ما كُتب في توراتهم بغية التعدي على نساء الأمم، فإن عقل أي عاقل لا يتصور أن يثبتوا عفة يوسف عليه السلام عن نساء الأمم.

١. يترنَّح: يتمايل من السُّكْر.

٢. الدَّيُّوث: الذي لا يغار على أهله.

الخلاصة:

- تعد قصة وليمة امرأة العزيز للنسوة تسلسلًا منطقيًّا لسياق الأحداث إذ إنها مكرت بهن كما أردن المكر بها، حين قاموا بلومها على شغفها بيوسف عليه السلام؛ فأرادت أن يَرَيْنَ جماله؛ حتى يعذرنها على حبها ولا يلمنها، فلما فعلت، ما كان منهن إلا أن انبهرن بجمال يوسف، فقطَّعن أيديهن دون أن يشعرن، وهذا أمر معروف في علم التنويم المغناطيسي، كما أرادت غيظهن بأنها بيدها أمره وسجنه إن لم يفعل ما تأمره به، فلا تبيعه مثلًا حتى لا يسارعن بشرائه، وكأنها المالك الوحيد له، وقد شاع الخبر في المدينة حتى بلغها خوض النساء فيها، وكلامهم عنها، وذمهم لها؛ فلا ضير من إثبات فتنتها بسحره لهؤلاء النسوة.
- عدم ذكر التوراة المحرفة لهذا المشهد من القصة وغيره ليس دليلًا على إنكاره، بل دليل على أن القرآن وحي من الله إلى رسوله، وأنه لم يؤخذ من مصادر بشرية، بل هو الكتاب الخاتم الذي صوَّبَ وأضاف، فقد تفرد القرآن بذكر مشهد استباق الباب، ومسألة الشاهد من أهلها الذي برَّأ يوسف عليه السلام، ومسألة البرهان وكونه عصمة من الله لرسوله، ودعوة يوسف لصاحبي السجن إلى التوحيد الخالص وترك الشرك والوثنية، وتفسير سيدنا يوسف عليه السلام رؤيا الملك قبل خروجه من السجن، أي أنه لم يساوم ولم يسيء إلى من أساء إليه، حين سجنه ظلمًا.
- كما أغفلت التوراة المحرفة قصة النسوة مع امرأة العزيز وهي مناط الشاهد؛ وذلك لنفي معرفة مصر بطائفة من وسائل التمدن الحضاري آنذاك من مقاعد

مريحة، وأدوات طعام وآداب مائدة، ودرءًا للفضيلة؛ إذ لو شهد النسوة ببراءة يوسف وعفته لما أحلُّوا لأنفسهم العبث بنساء الغير، والفساد في الأرض.

- إن تصويبات القرآن الكريم لأخطاء التوراة كثيرة منها: أن القرآن ذكر أن يوسف عليه السلام قُدَّ قميصه من دبر فهو المدافع والمرأة المهاجمة، أما التوراة فقد ذكرت أن يوسف عليه السلام ترك قميصه مع المرأة وفرَّ هاربًا، فهل يُعقل من نبي من أنبياء الله آتاه الله العقل والحكمة أن يخرج هكذا أمام العزيز - زوج المرأة - ويثبت على نفسه الجريمة؟! ألا يعد هذا انتقاصًا لقدراته العقلية؟!

- تزييف التوراة للحقائق أمر معهود، فقد كتبوا ما يتفق مع أهوائهم وميولهم، فلا يذكرون أية فضيلة لأنبياء الله ولا لغيرهم؛ حتى يجدوا مبررًا لفسادهم في الأرض، وطغيانهم على العالمين. فالتوراة التي أغفلت المشاهد السابقة في قصة يوسف عليه السلام، والتي تفيض عبرًا وعظات، هي التي أثبتت السفه وفعل الفواحش لأنبياء الله عليهم السلام.

- أليست التوراة المحرفة هي التي قالت: إن لوطًا عليه السلام زنا بابنتيه، وإن نوحًا عليه السلام شرب الخمر حتى ترنح سكرًا، وإن إبراهيم ديوث لا يغار على عرضه، وإن سليمان عليه السلام ثمرة زنا أبيه داود عليه السلام مع زوجة قائده أوريا الحثي، وإن سليمان عليه السلام يستبيح نساء الغير؟ كما ادّعوا - قاتلهم الله - أن موسى عليه السلام قاتلٌ قتل أخاه هارون عليه السلام، الذي عبد بدوره العجل فهو كافر في نظرهم... إلى آخر هذه الترهات اليهودية.

الشبهة السادسة والثلاثون

ادِّعاء أن يوسف عليه السلام أدان نفسه واتهمها بارتكاب الذنب (*) ®

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن يوسف عليه السلام غير بريء مما نسب إليه، وأنه اعترف على نفسه بذلك؛ وأنه مُدان بارتكاب ذنب يحتاج إلى طلب مغفرته من الله تعالى، ويستدلون على ادعائهم هذا بقول الله تبارك وتعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٥٣)﴾ (يوسف). ويتساءلون قائلين: ألا يتعارض اعتراف يوسف عليه السلام على نفسه بارتكاب الذنب مع قول القرآن ببراءته؟!

وجها إبطال الشبهة:

١) براءة يوسف عليه السلام ثابتة عقلًا، ونقلًا، وإجماعًا؛ وعليه فلا يعقل أن يعترف على نفسه بالإدانة.

٢) اختلف المفسرون في هذه الآية المستشهد بها، فمنهم من ذهب إلى أن الكلام في الآية يُنسب إلى يوسف عليه السلام، ومنهم من يرى نسبة الكلام إلى امرأة العزيز وهو الراجح، وفي كلا الحالتين فهي إثبات لبراءة يوسف عليه السلام لا إدانته.

(*) عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق. عصمة الأنبياء، فخر الدين الرازي، مرجع سابق.

® في **"براءة يوسف من الفحشاء"** طالع أيضًا: الوجه الثالث، من الشبهة الرابعة والثلاثين، من هذا الجزء.

التفصيل:

أولا. براءة يوسف الصديق عليه السلام ثابتة بالنقل والعقل والإجماع:

لقد ثبتت براءة نبي الله سيدنا يوسف عليه السلام من الوقوع في الفحشاء بشهادة كل من علم بحاله، وهذا ما قرره القرآن، فقد أعلنت امرأة العزيز براءة يوسف عليه السلام من الهمَّ بالمعصية، وأنه لم يجبها إلى طلبها إذ قالت كما حكى القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ (يوسف: ٣٢)، وشهدت بعفته وصدقه إذ قالت: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ (يوسف)، وقد شهدت النسوة بعفته وطهارته إذ قلن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ (يوسف: ٥١).

وشهد أيضًا ببراءته الشاهد الذي رأى القصة، حيث يقول الله عز وجل: ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ (يوسف: ٢٥)، حيث شهد بإدانتها، وشهد ببراءته أيضًا العزيز يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ (يوسف)، ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ (يوسف). وشهد يوسف عليه السلام نفسه ببراءته فقال: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ (يوسف: ٢٦)[1].

وفي التوراة نفسها ما يؤكد براءة يوسف عليه السلام من الوقوع في الفحشاء: "فأمسكته بثوبه قائلة: "اضطجع معي!". فترك ثوبه في يدها وهرب وخرج إلى خارج". (التكوين ٣٩: ١٢).

كذلك ورد في الكتاب المقدس قوله: "وحدث بعد هذه الأمور أن امرأة سيده رفعت عينيها إلى يوسف وقالت: "اضطجع معي". فأبى وقال لامرأة سيده: "هو ذا سيدي لا يعرف معي ما في البيت، وكل ما له قد دفعه إلى يدي". (التكوين ٣٩: ٧، ٨).

كيف بهم يدَّعون ظلمًا وزورًا إدانة يوسف عليه السلام لنفسه؟! وكيف يتفق هذا مع العقل في أن يثبت براءته كل من حوله ومن شهد الواقعة، ثم يدين هو نفسه؟! وكيف يشهد لنفسه بالبراءة ثم يعود فيدين نفسه مرة أخرى؟!!

ولذا رفض أن يخرج يوسف عليه السلام من السجن؛ حتى تثبت براءته أمام الناس جميعًا ويعلم الناس ذلك.

ثانيًا. ثبوت براءة يوسف عليه السلام وعدم إدانته، سواء نُسب الكلام في الآية إليه أو إلى امرأة العزيز:

فعلى اعتبار أن الكلام في الآيةالكريمة: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ (يوسف).

فإن معنى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ (يوسف: ٥٣) أي من الميل الطبيعي مع الامتناع، أو من حديث النفس، فأشار يوسف عليه السلام بذلك إلى أن عدم التعرض لامرأة العزيز لم يكن لعدم الميل الطبيعي؛ بل لخوف الله تعالى.

وقد يكون المعنى: لا أبرئ نفسي من العزم على دفعها، أي إيذائها، أو ما عبر عنه بـ "السوء" في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ (يوسف: ٢٤) لا من القصد إلى المعصية.

ويحتمل أن يوسف عليه السلام قال ذلك هضمًا لنفسه

---

١. مدرسة الأنبياء: عبر وأضواء، محمد بسام رشدي الزين، مرجع سابق، ص١٣١، ١٣٢ بتصرف.

البريئة عن السوء، وتواضعًا لله تعالى: أي لا أنزّه نفسي من حيث هي هي، ولا أسند هذه الفضيلة إليها بمقتضى طبعها من غير توفيق من الله سبحانه، بل إنما ذلك بتوفيقه ورحمته[١].

فيوسف عليه السلام بقوله هذا أراد ألا يزكّي نفسه، مع أنه على يقين من نفسه، وكذلك يُعلِم غيره من الناس أنه بريء، وظهر ذلك ظهور الشمس وأقرت به المرأة التي ادّعت عليه الباطل، ونزهته النسوه اللاتي قطعن أيديهن.

قال الحسن: لما قال يوسف: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ (يوسف: ٥٢) كره نبي الله أن يكون زكى نفسه فقال: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾؛ لأن تزكية النفس مذمومة، قال عز وجل: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ (النجم: ٣٢)[٢].

- وعلى اعتبار أن هذا القول من كلام امرأة العزيز فلا مجال لاتهام يوسف عليه السلام لنفسه؛ لأن كلامها حينئذٍ يعد اعتذارًا عما وقع منها في حق يوسف عليه السلام، واعترافًا بعدم براءتها، ويكون يوسف عليه السلام بريئًا - كل البراءة - مما نسب إليه.

ومعنى الآيتين: ذلك الذي قلت ليعلم يوسف عليه السلام أني الآن لا أكذب عليه في غيبته، وما أبرئ نفسي من الخيانة، فإني قد خنته حين ادّعيت عليه زورًا أنه هو الذي أراد بي سوءًا، وقلت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ (يوسف) وأودعته السجن، وإن كل نفس لأمارة بالسوء إلا نفسًا رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف، ثم استغفرتْ ربها مما ارتكبت: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ (يوسف)[٣].

والراجح أن هذا من كلام امرأة العزيز، وعود الضميرين على يوسف عليه السلام استنادًا إلى ما يلي:

١. أن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك، ولم يكن يوسف عليه السلام حاضرًا في المجلس وقت هذا الكلام، وإنما استدعاه الملك بعد ذلك بدليل قوله بعد هذا الكلام: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ (يوسف: ٥٤).

٢. إذا اعتبرنا أنه من كلام يوسف عليه السلام فيحتاج الكلام إلى حذف كثير وتقديرات كثيرة من رجوع الرسول إلى يوسف عليه السلام، وإخباره بما قاله النسوة، ثم إجابة يوسف عليه السلام ورجوع الرسول إلى الملك ثانيًا وإخباره إياه بمقالة يوسف عليه السلام، ثم يقول الملك: ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ والحذف الكثير غير لائق في الكلام.

٣. أن هذا مقام الاعتذار من امرأة العزيز، فإنها بعد أن اعترفت بمراودتها يوسف عليه السلام عن نفسه، وتجنيها عليه، يصبح من المناسب أن تعتذر عن هذا بأن ضميرها قد استيقظ، ونفسها قد صلحت بعد أن كانت أمّارة بالسوء، وفي هذا ما يشفع لها عند الناس، وعند الله بمغفرة ذنبها: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ والمغفرة تكون لمن أذنب واعتدى وثبتت إدانته، لا لمن كان بريئًا مُعْتَدًى عليه وثبتت عفته وطهارته.

---

١. عصمة الأنبياء، د. أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٢١، ٣٢٢ بتصرف يسير.

٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٩، ص٢١٠.

٣. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٢١.

٤. جعل هذا الكلام من قول امرأة العزيز يتفق مع ما هو مقرر من عصمة الأنبياء من غير حاجة إلى تأويل، أو محاولة توفيق، أما جعله من كلام يوسف عليه السلام فيحتاج إلى تأويله بما يتفق وعصمة الأنبياء - عليهم السلام - وما لا يحتاج إلى تأويل أولى مما يحتاج.

وعود الضميرين على يوسف عليه السلام أقوى؛ لأن السياق يعضده، حيث إن الضمائر قبل ذلك راجعة إلى يوسف عليه السلام في مثل قول الله عز وجل: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾، وقوله عز وجل: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ (يوسف)[1]؛ فالأَوْلَى أن يعود عليه الضميران أيضًا في قوله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ﴾.

الخلاصة:

- براءة يوسف عليه السلام ثابتة لا مراء فيها، حيث شهد ببراءته كل من شهد الواقعة من النسوة، وابن عمها الذي شهد ببراءته، وزوجها الذي طلب من يوسف عليه السلام أن يكتم هذا الحديث، وامرأة العزيز نفسها التي صرّحت ببراءته، وأعلنت أمام الناس جميعًا مراودتها له، وقد أكد هذا ما ورد في التوراة من نصوص تدل على براءة يوسف كما جاء في القرآن الكريم.
- تفيد الآية التي استشهد بها المدعون براءة يوسف عليه السلام من الوقوع في الفاحشة، سواء نُسب الكلام فيها ليوسف عليه السلام الذي أراد بذلك هضم نفسه البريئة، وإظهار تواضعه لله الذي نجاه من هذه الواقعة، فهو يشير إلى فضل الله عليه، ولا ينسب الفضل لنفسه، أو نُسب إلى العزيز وهو الراجح؛ لأن سياق الكلام يوحي بذلك كما أن المقام مقام اعتذار واعتراف منها بالذنب، حيث طلبت من الله عز وجل أن يغفر لها ذنبها. وهذا لا يحتاج إلى تأويل ويؤكد عصمة الله عز وجل لسيدنا يوسف عليه السلام وللأنبياء جميعًا.

1. المرجع السابق، ص٢٢٢، ٢٢٣.

الشبهة السابعة والثلاثون

دعوى اضطراب القرآن الكريم في حديثه عن يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين اضطراب القرآن في حديثه عن قصة سيدنا يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز؛ حيث ذكر بعض المفسرين عند تفسير آيات سورة يوسف من (٢٥: ٢٩)، أن الشاهد على براءة يوسف عليه السلام كان ابن عم لها وكان صبيًّا في المهد. ويتساءلون: من أين جاء هذا الصبي ولم يكن في البيت أحد؟! كما يتساءلون: كيف يسجن عزيز مصر يوسف مع علمه ببراءته؟ وكيف يرضى بهذا العار؟ وكيف تهدد الزوجة يوسف بالسجن إن لم يفعل ما أمرته به من الفحشاء فيقبل أن يسجن لا لفحشه، بل لعفته؟!

وجوه إبطال الشبهة:

١) لم يتناقض القرآن بشأن قصة سيدنا يوسف عليه السلام

(*) هل القرآن معصوم؟ موقع إسلاميات.
www.islameyat.com

ولا في غيرها؛ فقد جاء مصوِّبًا لأخطاء السابقين، ومن ذلك ما في الكتاب المقدس من ترهات في هذا الشأن.

٢) حديث القرآن الكريم عن سيدنا يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز في غاية السلاسة والإحكام، مما يدل على أنه الكتاب الخاتم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

٣) قول بعض المفسرين: إن الشاهد على براءة سيدنا يوسف عليه السلام كان طفلًا في المهد أنطقه الله تجاوز وإسراف لا يحتمله السياق، بل الأصوب أنه كان ابن عمٍّ لها وكان يجلس مع زوجها ساعة الحدث.

٤) براءة يوسف عليه السلام لا تقتضي أن يسجنه عزيز مصر، كما شهد له الجميع: عزيز مصر، الزوجة، والنسوة، كما شهد له رب العزة وكفى بها شهادة. لكنه سجنه درءًا لفضيحة زوجته، وسترًا لعرضه؛ حتى ينسى الناس هذه الحادثة.

التفصيل:

أولا. لم يتناقض القرآن في هذا الشأن؛ فقد جاء مصوِّبًا لأخطاء السابقين، ومن ذلك ما في الكتاب المقدس من تُرّهات وتناقضات:

إن القرآن الكريم الذي تكفل الله عز وجل بحفظه من التحريف والتغيير: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ (الحجر). يردُّ على ما جاء في الكتاب المقدس من تحريفات عظيمة في حق أنبياء الله ورسله، وفي غيرها من الأمور الأخرى، وقد فضح الله أمرهم وأخبر بتحريفهم للتوراة والإنجيل؛ يقول الله تعالى: ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ (النساء: ٤٦)، ويقول الله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) ﴾ (البقرة).

ثم إنك لتعجب أشد العجب من قصص وقصّاص التوراة الذين أطلقوا العنان لخيالهم المريض وأفكارهم الخبيثة التي تبثُّ سمومها وأمراضها على صفحات كتاب يفترض أن يكون مقدسًا - كما يزعمون - ولا ندري مصدر القداسة في هذه القصص القبيحة، أو الحكايات الأسطورية الفاضحة، أو الخيالات الماجنة عن أشخاص أكمل الله لهم الخُلق والخَلْق، وجعلهم للناس قادة وللبشر سادة[1]، والأمثلة على ذلك كثيرة منها: أن داود عليه السلام وقع على بتشبع زوجة القائد أوريا، وزنا بها، وجره عشقه لها وهيامه بها أن دفع زوجها إلى مقدمة الجيش حتى قُتل غدرًا بوشية من داود إلى أحد قادته في جيش أوريا، ومنها أن هارون عليه السلام صنع عجلًا وبنى له مذبحًا وعبده مع بني إسرائيل وسجدوا له، وذَبَحَ الذبائح وقَدَّمَ القرابين بين يديه، وتحدى تعاليم الله عز وجل وخالف أوامره !! ومنها أن إبراهيم عليه السلام تاجَرَ بامرأته لكل ملك نزل بأرضه وجعلها عرضًا مباحًا، لا يرد عنها يد لامس، ولا يَكْبَح عنها[2] شهوة راغب[3].

وقد برأ الله في القرآن أنبياءه مما لحق بهم يقول عز وجل: ﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٧) ﴾ (ص)، ويقول

١. محمد والأنبياء في المصادر اليهودية والمسيحية، السيد سلامة غنمي، مرجع سابق، ص٣٠ بتصرف يسير.
٢. يَكْبَح عنها: يرد عنها.
٣. محمد والأنبياء في المصادر اليهودية والمسيحية، السيد سلامة غنمي، مرجع سابق، ص٣٣ بتصرف يسير..

تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (الدخان)، وقال الله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (آل عمران).

وبناء على ذلك فإن عدم ذكر التوراة لقصة الشاهد التي ورد ذكرها في القرآن الكريم - في قصة امرأة العزيز مع سيدنا يوسف عليه السلام - لا يعني اضطراب القرآن أو تناقضه؛ فقد جاء مصوِّبًا لأخطاء السابقين، ومضيفًا لما ورد في كتبهم من قصص، وإنما يدل هذا على إحكامه، وعلى أنه الكتاب الخاتم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولم تذكر التوراة أيضًا قصة استباق الباب من يوسف عليه السلام وامرأة العزيز، مما تَفَرَّد به القرآن، وإنما ساقت التوراة أنها لما أمسكت بثوب يوسف خلعه لها، فنادت الخدم وأخبرتهم، بأن بعلها جاء برجل عبراني يداعبها، وأن يوسف لما رأى المكان خاليًا طلب منها أن يضاجعها، فأبت وصرخت بصوت عظيم، وكان استعد للأمر، فخاف حين استغاثت وهرب وترك عندها قميصه. وهذا يدلُّ على التشويه الذي أصاب قصة يوسف عليه السلام، وغيرها في نصوص التوراة المحرَّفة[1].

ثانيًا. حديث القرآن عن سيدنا يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز، في غاية السلاسة والإحكام:

فالتصوير الحقيقي للقصة في القرآن الكريم هو التصاعد الصادق لأحداث الموقف بين الطرفين، فسيدنا يوسف عليه السلام يمتنع عنها، ويقوم مبادرًا إلى الباب للهرب منها، فتتعلق بقميصه من الخلف، فتجذبه لمنعه من الهرب دون الوصول إلى مأربها، وبذلك شُقَّ القميص، ووجدا زوجها عند الباب جالسًا مع ابن عمها؛ فهابته، وألصقت التهمة به؛ لتتحول من جانية إلى مجني عليها بكل مكرٍ ودهاء، وقالت: ﴿ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ (يوسف)، ونلاحظ هنا أن خلق يوسف عليه السلام ما كان ليجعله يُفشي هذا السر ويفضح المرأة لكنها قَلَبت الحقائق؛ ليتحول الجاني إلى مجني عليه، فكان عليه أن يُبرئ نفسه؛ لأن هذا طعنًا في أمانته مع من أحسن إليه، وإذا نظرنا إلى الموقف نظرة فاحصة لوجدنا أن امرأة العزيز تُصعِّد رغبتها من مراودة إلى تغليق الأبواب إلى تهيؤ وطلب صريح، إلى محاولة الاقتراب منه بالقوة، وهو يقابلها بتصعيد الرفض والإباء: ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (يوسف)[2].

فيوسف عليه السلام لم يجد معاذًا إلا الله؛ لأنه سبحانه الذي أعطاه الحكم والعلم، وقال له: هذا حلال وهذا حرام، والله تعالى قادر دائمًا أن يعيذ عباده، ويمنع عنهم ما يكرهون، وكلمة "معاذ الله"عند المؤمن إذا قالها فلا بد أن الأمر عصيب.

ولم يوافق يوسف عليه السلام على ما تريده، وطلب العون من الله، وقوله ﷻ: ﴿ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ﴾ أي نجّاني من الجبّ ومن شرّ إخوتي، وهيّأ لي مكانًا رغدًا؛ لأعيش فيه فلا أكافئه بأن أعصيه، وأن أجعل نعمه عليَّ وسيلة لمعصيته خاصة أن زوجها - عزيز مصر - قد أكرم يوسف الصديق عليه السلام فهو القائل: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ

---

1. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص١٥٨: ١٦١ بتصرف.

2. حياة وأخلاق الأنبياء، أحمد الصباحي عوض الله، مرجع سابق، ص١٣٥ بتصرف.

﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ (يوسف: ٢١)[1].

وبذلك يتضح لنا أدب اللجوء إلى الله في القرآن الكريم، وهو ما أدّب الله ﷻ به أنبياءه وعباده الصالحين.

ثالثًا. تحديد الشاهد:

لا بد أن زوج المرأة بطبيعة الحال لجأ للتحقيق في القضية، والتحقق من الأمر، فوجد خيطًا يدله على التعرف على تحديد الجاني، والمجني عليه، ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾﴾ (يوسف) ويكفي أنه من أهلها حتى يكون ألزم وأقوى في الحجّة، وأظهر في براءة يوسف عليه السلام، وأنفى للتهمة.

واختلف العلماء في شاهد يوسف عليه السلام؛ فقال السدي: إنه ابن عمها، الذي كان جالسًا أمام الباب مع زوجها بدليل قوله ﷻ: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ (يوسف: ٢٦) وقال سعيد بن جبير والضحاك: كان الشاهد صبيًّا في المهد أنطقه الله.

أما عن الحُكم فقد لخصته الآية الكريمة فيما يلي: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ (يوسف).

وهنا تظهر فراسة الشاهد في إحقاق الحقّ، فقد حكم بما قرأناه في الآية الكريمة قبل أن يرى ثوب يوسف؛ لذا نجد نوعًا من العدالة، ثم رتب على رؤيته للقميص ترجيح حكم على آخر، ثم كان الحكم، والكيد هو الاحتيال على إيقاع السوء بشخص ما على أن يتم ذلك في الخفاء؛ لأن المحتال ليس له القدرة على أن يواجه عدوَّه؛ لذلك يدبّر له في الخفاء، وقوله ﷻ على لسان الزوج: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ (يوسف) دليل على أن المرأة كيدها عظيم وضعفها أعظم.

وحينما عرف العزيز أن المرأة هي المذنبة، طلب من يوسف عليه السلام ألا يتحدث في هذا الأمر حتى لا تسوء سمعة العزيز وزوجته بين الناس ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ (يوسف)[2].

رابعًا. براءة يوسف عليه السلام:

وهنا نجد أن براءة سيدنا يوسف عليه السلام شهد بها الكثيرون، كما قال الإمام الفخر الرازي: إن يوسف قد شهد الله تعالى ببراءته بقوله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (يوسف).

وشهد الشيطان ببراءته بقوله ﷻ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (ص)، وشهد ببراءته الشاهد من أهل امرأة العزيز، إذ قال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ

---

١. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ص١٨١ بتصرف يسير.

٢. حياة وأخلاق الأنبياء، أحمد الصباحي عوض الله، مرجع سابق، ص١٣٦ بتصرف.

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ (يوسف).

وشهد ببراءته النسوة اللائي قطعن أيديهن بقولهن: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ (يوسف:٥١)، وشهدت ببراءته امرأة العزيز بقولها: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ (يوسف). فالذي يريد أن يتهم يوسف عليه السلام بالهمّ عليه أن يختار أن يكون من حزب الله، أو من حزب الشيطان، وكلاهما شهد ببراءة نبي الله يوسف عليه السلام، فلا مفرّ من الإقرار بالحق على أية حال[1].

شيوع الخبر في المدينة، وتحدث النساء به:

رغم هذا التحفظ والتستر شاع الخبر في المدينة، وانتشر بين النساء، فربما يكون أحد العاملين بالقصر هو الذي أشاع الخبر أو ربما أشاعه امرأة من النسوة اللاتي يعملن في خدمة امرأة العزيز، فالمنطقي أن الخدم سمعوا الضوضاء وأمر كهذا لا يخفى على هؤلاء على كثرتهم في القصر.

المهم أن الخبر شاع ولَاكَتْه[2] أفواه النساء، لائمين امرأة العزيز على غرامها بغلام مملوك اشتروه بدراهم، وهي امرأة العزيز[3]، ولما عرفت امرأة العزيز ما سمعته من أخبار، وعرفت أنهن يردن إهانتها والتشهير بها مكرت بهن حتى يدخلن في تجربة عملية، ويراودن يوسف عليه السلام عن نفسه فلا يكون هناك لوم ولا عذل.

قال عز وجل: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ (يوسف: ٣١)، ثم قالت ليوسف عليه السلام: ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ حتى لا ينتبهن من شدة جمال يوسف عليه السلام وحُسْنِه فيُقَطِّعْنَ أيديهن: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ (يوسف)، حيث وجدنه أكبر مما تخيلنه، وهنا يظهر عناد المرأة وكبرياؤها مرة أخرى؛ حيث أعلنت أمام النسوة بعد أن فقدت حياءها وتحفظها: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ (يوسف)، ولم تقل سأبيعه أو أطرده؛ لأنهن قد يسارعن بشرائه فقطعت بذلك هذا الأمل الذي ربما يساورهن، معلنة أنه لن يخرج من القصر، فهن أكبرنه، وهي ستذله وتهينه إذا لم يستجب لها.

ولم يجد يوسف إزاء هذا الموقف إلا اللجوء لربه سبحانه ليعصمه من كيدهن: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ (يوسف: ٣٣). فاستجاب له ربه تعالى ونجاه من هذا الوسط الحافل بالفتن، فالله عز وجل يريد في قوله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ (يوسف)[4] أن يثبت ليوسف عليه السلام بشريته وفحولته، فكان قوله هكذا: إما أن يصرف الله عز وجل عنه كيدهن، وإما أن يقع فيما لا رغبة له فيه، فدعا الله مخلصًا في ساعة اضطرار، فهو في سن خطيرة سن البلوغ والرجولة، فقد يميل إليهن ويكون من الجاهلين إن لم يعصمه الله تعالى، وهو سميع لما يقول عليم بحاله: ﴿لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ

---

١. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص١٦٠، ١٦١.

٢. لاكته: تحدثت به.

٣. قيل: إن لفظ العزيز كان يطلق في هذا الزمان على رئيس الشرطة.

٤. أَصْبُ: أحنُّ وأميل إليهنَّ.

﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ (يوسف)[1].

إذن فقد يتساءل بعضهم: لماذا لم يُنجه ربه من محنة السجن؟ لقد كان أمام يوسف عليه السلام محنتان: محنة السجن ومحنة فتنة النساء وكيدهن، والله تعالى قادر على أن ينجيه من كل المحن والفتن، ولكنه البلاء والابتلاء الذي هو سنة في حياة الأنبياء والمرسلين، فهم أشد الناس بلاء، والبلاء تمحيص واختبار ورفعة في المنازل والدرجات، ولا يصح أن يبتلى نبي من أنبياء الله تعالى بالوقوع في المعصية، إنما يصح أن يبتلى بأي بلاء آخر: كالسجن أو الإيذاء والتعذيب؛ لأن ذلك - مما لا شك فيه - يصقل مواهبه ويرفعه الدرجات العلى، كما أن الابتلاء بالسجن كان له من الحكمة وجوه منها ما تدركه عقول البشر، ومنها ما لا يعلمه إلا الله عز وجل، وربما يكون من الحكم صرف فتنة النساء عن يوسف عليه السلام؛ فإنه لشدة جماله تعرض للفتنة من جميع من رأينه - كما ذكر القرآن - فقد يخرج من بيت العزيز، ثم يتعرض إلى نفس الفتنة في أماكن أخرى؛ فكان السجن صرفًا له وإبعادًا عن أعين النساء، كما كان السجن مجالًا خصبًا لدعوة يوسف عليه السلام، وهو المنطلق الذي وصل منه - بإرادة الله عز وجل - إلى التمكين في الأرض وتحقيق رؤياه.

ولماذا سجنه العزيز، وقد تأكد من براءته؟ الراجح أنه أراد أن يستر خطأ امرأته، ويدرأ عن بيته الفضيحة حتى يعلم الناس أن يوسف هو الجاني، ولكن يبقى مع هذا موقف العزيز دالًا على أنه كان ضعيف الغيرة على عرضه؛ لأنه عبر عنه بمجرد لوم زوجته، وطلب الاستغفار: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (يوسف). يقول سيد قطب: "وهنا تبدو صورة من الطبقة الراقية في المجتمع الجاهلي، رخاوة في مواجهة الفضائح الجنسية، وميل إلى كتمانها عن المجتمع، فيلتفت العزيز إلى يوسف عليه السلام البريء، فيأمره بكتم الأمر، وعدم إظهاره لأحد، ثم يخاطب زوجه الخائن بأسلوب لَبِق[2] يواجه به الحادث الذي يثير الدم في العروق"[3].

ولعل مكوث يوسف فترة من الزمن في السجن كان خيرًا له: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (البقرة: ٢١٦)، وكما أخبر المعصوم ﷺ: "عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا المؤمن، إن أصابته سرَّاء[4] شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء[5] صبر فكان خيرًا له..."[6].

وهكذا نجد سيدنا يوسف ﷺ لا يَفْتُرُ عن الدعوة في سجنه، وشهد له رفاق السجن بذلك: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾ (يوسف) أي: ليس من المنحرفين الذين يستحقون الإهانة بسجنهم وتعذيبهم.

---

١. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ص١٨٧: ١٩٣ بتصرف.

٢. لَبِق: ظريف.

٣. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٤، ص١٩٨٣ بتصرف.

٤. السرَّاء: الشيء السار.

٥. الضرَّاء: الشيء الضار.

٦. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره لله خير (٧٦٩٢).

كما خرج من سجنه كأكرم ما يكون الرجل، وهيئ له ملك مصر، والخير كله كان في يده آنذاك.

وبهذا يتبين لنا أن براءة سيدنا يوسف عليه السلام قد أثبتها القرآن الكريم، دون تناقض أو اضطراب، كما يدعون، فقد عرض القضية عرضًا سلسًا جميلًا، حيث أقرَّ الجميع ببراءة سيدنا يوسف عليه السلام، وكان من نتيجة ذلك ليس خروجه من السجن فحسب، لكن ملك خزائن مصر وصارت الأمور بيده. فأين التناقض أو الاضطراب إذًا في عرض القصة®؟!

الخلاصة:

- لم يتناقض القرآن الكريم بشأن قصة سيدنا يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز، ولا في غيرها؛ فقد جاء مصوِّبًا لأخطاء السابقين، ومضيفًا إليها مثل: قصّة الشاهد، وحادثة استباق الباب وغيرها، ومصوّبًا ما جاء في الكتاب المقدس من ترّهات، وتناقضات في هذا الشأن؛ فمثلا نجد الكتاب المقدس، يذكر أن يوسف عليه السلام فرّ من امرأة العزيز تاركًا ثوبه، فهل من المعقول أن يخرج عاريًا أمام الزوج؟ فَيُثْبِتُ على نفسه الجريمة، أفلا يتناقض هذا مع المنطق والعقل السليم؟!
- إن القرآن مُحكَم تمام الإحكام إضافة إلى ما نلمحه من أدب التناول بألفاظ خفيفة، لا تخدش الحياء، على عكس التوراة التي تتسم بالسفور الصارخ، ولا عجب في ذلك فهي محرّفة، من وضع البشر.
- حديث القرآن الكريم عن سيدنا يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز غاية في السلاسة والإحكام؛ فالأحداث مرتبة لا تناقض فيها يسلم بعضها إلى الآخر، مما يدل على أنه الكتاب الخاتم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ فمثلًا: مسألة الشاهد التي يزعمون أن القرآن تناقض بشأنها جاءت واضحة رَقْراقة[1] في القرآن الكريم، فقد ذكر أنه كان من أهلها، ورغم ذلك فقد حكم ببراءة يوسف عليه السلام على أساس من المنطق السليم.
- أن قول بعض المفسرين إنه كان طفلًا في المهد أنطقه الله من قبيل المغالاة، ولا يستدعيه سياق الموقف، وكل يؤخذ من قوله ويرد إلا المعصوم ﷺ.
- أما مسألة تبرئة سيدنا يوسف عليه السلام فقد برأه رب العزة فقال عز وجل: ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (يوسف)، فضلًا عن الآخرين: العزيز، والزوجة، والنسوة، الشاهد، بل الشيطان نفسه، ورغم تأكد الزوج من براءة يوسف كان لا بد من سجنه درءًا للشبهات وسترًا لعرضه الذي لاكته الألسنة، أما تهديد الزوجة يوسف عليه السلام بالسجن أمام النسوة فكان من قبيل الضغط عليه حتى يقبل ما تريده منه، ثم من قبيل امتهانه وإذلاله بعد أن أحست بالطعن في كبريائها وضياع كرامتها كأنثي، فقد أبي يوسف عليه السلام أن يفعل بها الفاحشة - وإن شئت فقل عصمه ربه - وهي لا تزال تريده وقد شغفها حبًّا، كما حكى القرآن الكريم، وقد أرادت إذلاله أمام النسوة إن ظل على عناده واعتصامه.



® في **"براءة يوسف من الفحشاء"** طالع أيضًا: الوجه الثالث، من الشبهة الرابعة والثلاثين. والشبهة السادسة والثلاثين؛ من هذا الجزء.

1. الرَّقراقة: الواضحة المتلألأة.

الشبهة الثامنة والثلاثون

ادِّعاء أنَّ استعانة يوسف عليه السلام بالساقي تخالف توكله على الله(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن استعانة يوسف عليه السلام بالساقي، تخالف توكّله على الله، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ (يوسف: ٤٢)[1]. ولذلك عاقبه الله عز وجل بأن لبث في السجن بضع سنين، وهم يرون لجوء يوسف عليه السلام في كشف الضر عنه إلى مخلوق - مجالًا للطعن في عصمته عليه السلام.

وجها إبطال الشبهة:

١) طلب يوسف عليه السلام من الساقي أن يقصَّ خبره على الملك لا يقدح في عصمته عليه السلام؛ لأن الدنيا دار الأسباب، والأخذ بالأسباب لا يتنافى مع التوكل على الله عز وجل.

٢) مُكْث سيدنا يوسف عليه السلام في السجن لم يكن عقابًا من الله على ذنب قد ارتكبه، بل كان رحمة به، وإعزازًا لشأنه، ولأمور أخرى اقتضتها حكمة الله عز وجل.

التفصيل:

أولا. الدنيا دار الأسباب، والأخذ بالأسباب لا يتنافى مع التوكل على الله:

قبل الحديث عن الأسباب التي دعت يوسف عليه السلام للاستعانة بالساقي في تبليغ خبره إلى الملك رجاء الخلاص من السجن، لا بد أن نوضح أن معنى قول نبي الله يوسف عليه السلام للساقي: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾: أن يقصَّ على سيده قصته، ويذكر عنده أن يوسف عليه السلام مظلوم في الواقعة التي أودع لأجلها السجن، فأنسى الشيطان الساقي ذكر يوسف عليه السلام عند الملك، فطالت أيام السجن على يوسف عليه السلام حتى لبث فيه بضع سنين.

ويرى بعض العلماء أن استعانة سيدنا يوسف عليه السلام بالساقي هي مخالفة للأَوْلَى، ولا طعن فيها على يوسف عليه السلام؛ لأن مخالفة الأَوْلَى لا تقدح في عصمة الأنبياء، والاستعانة بالناس جائزة في دفع الظلم، فالدنيا دار الأسباب، لكن ذلك إنما هو لعامة البشر، أما الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فلا يصح أن يعرضوا حاجاتهم، ويلجئوا في كشف الضر عنهم إلا إلى الله عز وجل وحده مسبب الأسباب.

يقول الزمخشري: "كما اصطفى الله عز وجل الأنبياء على خليقته، فقد اصطفى لهم أحسن الأمور، وأفضلها وأَولَاها، والأحسن والأَوْلَى للنبي ألا يكل أمره إذا ابتلى ببلاءٍ إلا إلى ربه، ولا يعتضد بأحد من البشر، وخصوصًا إذا كان المعتضد به كافرًا، لئلا يشمت به الكفار ويقولوا: لو كان هذا على الحق، وكان له ربٌّ يعينه لما استغاث بنا"[2].

وقيل: إن مخالفة يوسف عليه السلام للأولى هي أنه أخلى كلامه - وهو يطلب من الساقي أن يشرح حاله عند الملك - من ذكر الله عز وجل مثل: إن شاء الله، وكان عليه ألَّا

(*) هل القرآن معصوم؟ موقع إسلاميات. islameyat.com

١. ربُّك: سيِّدك.

٢. عصمة الأنبياء والرد على الشبهة الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣١٧.

يخلي كلامه منه.

وذهب فريق آخر من العلماء إلى أنه لم يقع منه عليه السلام مخالفة للأولى، ويُحمل قوله للساقي على أحد أمرين:

الأول: أنه عليه السلام قال ذلك؛ ليتوصل به إلى هداية الملك، وعرض دعوته عليه، كما توصل إلى إيضاح الحق لصاحبيه.

الثاني: أنه عليه السلام إنما باشر الأسباب، والدنيا دار الأسباب، والأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله، وهذا كما يكون في حق عامة البشر يكون كذلك في حق الأنبياء، ويفهم من معنى الآية أن يوسف عليه السلام إنما قال للساقي: ﴿أَذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ليتوصل بذلك إلى إظهار براءته أمام الملك والناس، فإن من أودعوه السجن قد قصدوا الإيهام بأنه المعتدي في واقعة مراودة امرأة العزيز، حتى حسبه الكثير من الناس معتديًا، فأراد يوسف عليه السلام أن يعرف الملك ورعيته الحقيقة؛ وذلك بأن تذكر قصته عند الملك، فيستدعيه من السجن، ويسأله، فيقرر الأمر على حقيقته، فإن تألُّم يوسف عليه السلام من إظهاره بمظهر المعتدي كان أكثر من تألُّمه من السجن في حد ذاته، فهو الذي قال: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ (يوسف:٣٣).

وإظهار براءة المتهمين واجب على كل إنسان، وخاصة إذا كانوا من الأنبياء - عليهم السلام - ثم إن يوسف عليه السلام مُكلَّف - في السجن، وبعد الخروج منه - بدعوة الناس إلى الله، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل، وحتى تقبل دعوته، وينقاد الناس لنصحه لا بد أن يكون بريء الساحة، نقي العرض، طاهر العفة عندهم.

فهذا هو الذي دعاه أن يطلب من الساقي أن يذكر قصته عند الملك، وليس من أجل الخروج من السجن فقط، واستناد القائلين بأن يوسف عليه السلام خالف الأولى بابتغائه الفرج من عند غير الله عز وجل إلى ما أسنده ابن جرير إلى ابن عباس - رضي الله عنهما - مرفوعًا: أن النبي ﷺ قال: "لو لم يقل - يعني يوسف - الكلمة التي قال ما لبث في السجن طول ما لبث؛ حيث يبتغي الفرج من عند غير الله" - استنادٌ إلى غير مستند لضعفه الشديد، فقد ضعفه ابن كثير قائلًا: هذا الحديث ضعيف جدًّا؛ لأن يوسف ابن وكيع - أحد رواته - ضعيف، وإبراهيم بن يزيد أضعف منه أيضًا[1].

ثم إن الأصح أن الضمير في "فأنساه" عائد إلى الناجي لا إلى يوسف عليه السلام، والمعنى: فأنسى الشيطان الناجي ذكر يوسف عليه السلام عند الملك، فكانت العاقبة المترتبة على نسيان الساقي أن يوسف عليه السلام لبث في السجن بضع سنين، فالفاء للعاقبة وليست للجزاء[2]. ويؤكد على أن النسيان كان من الساقي لا من يوسف عليه السلام قوله تعالى بعد ذلك عن الساقي: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ (يوسف: ٤٥).

ومعلوم أن النسيان من الله، وأما الشيطان فسبب من أسبابه، إذ يوسوس إلى الإنسان بما يشغله عن الشيء حتى يزول عن قلبه ذكره عليه السلام. وعلى فرض تسليمنا بما زعمه هؤلاء في قولهم: إن يوسف عليه السلام هو الناسي وأن

١. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، ج٤، ص٢٧٢.

٢. عصمة الأنبياء والرد على الشبهات الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣١٨، ٣١٩ بتصرف يسير.

الشيطان قد أنساه ذكر ربه، فإن ذلك أيضًا لا يجعله ﷺ يستحق العقاب باللبث في السجن، إذ الناسي غير مؤاخذ[١]، وعلى كلٍّ فلم يصدر من يوسف ﷺ ما يتنافى مع عصمة الله له.

ثانيًا. مكث سيدنا يوسف في السجن لم يكن عقابًا ولا تأديبًا من الله له، بل كان رحمة به، وإعزازًا لشأنه، ولأمور أخرى اقتضتها حكمة الله ﷻ:

لم يختر يوسف ﷺ السجن كما يتوهم بعض الناس، ولكنه فضله على ما تدعوه إليه النسوة، وكأنه قال: السجن بكل ما فيه من لوعة، وقسوة، وذلة، وصغار، وكرب، وغربة، أحب إلي من قصر منيف أتعرض فيه لهذا النوع من المراودة؛ فإن الصبر على السجن أحب إلي من الصبر على هؤلاء النسوة، ورؤية هذه الوجوه الشعثة في تلك القصور المقفرة الخالية من الأخلاق السامية، والمثل العليا، فالسجن أحب إلي؛ لأنه مكان لا يعوقني فيه عائق عن طاعتك يا رب، ولا يحول بين التفكر في بديع مخلوقاتك وجلائل نعمك عائق بخلاف تلك القصور التي ينسى الإنسان فيها نفسه، ويفقد فيها حسه، ولا يجد فيها ما يعينه على طاعة مولاه[٢]، وهذا كان مراد يوسف ﷺ من قوله: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ (يوسف: ٣٣).

وعلى هذا فإن مكوث يوسف ﷺ في السجن بضع سنين لم يكن عقابًا له على خطأ، أو تقصير؛ لأن وقوع الخطأ أو التقصير يتنافى مع وَصْفِ الله له، بأنه من عباد الله المخلصين، بل كان لبثه في السجن رحمةً به، وإعزازًا لشأنه، فقد أصقل الله مواهبه في السجن، وأطلعه على كثير من الأمور التي ما كان ليطلع عليها، وهو في قصر العزيز، أو خارج أسوار السجن.

الخلاصة:

- يرى بعض العلماء أن طلب يوسف ﷺ من الساقي أن يذكره عند ربه فيه مخالفة للأولى؛ لأنه استعان بالبشر، ولم يستعن بالله تعالى مباشرة؛ لأن الأنبياء علاقتهم مباشرة مع الله ﷻ خالق الأسباب، أما التعويل على الأسباب فلعامة البشر، بيد أن مخالفة الأولى لا تعد ذنبًا ولا يُطْعن بها في عصمة الأنبياء - عليهم السلام.
- بينما يرى بعضهم أن يوسف ﷺ لم تقع منه مخالفة للأولى؛ لأنه أراد من قوله: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ التوصل به إلى هداية الملك، أو أن قوله جاء مباشرة طاعة لله ﷻ في الأخذ بالأسباب، مما لا يتنافى مع توكله على الله ﷻ، فالأخذ بالأسباب جائز في حق الأنبياء.
- لم يكن لبث يوسف ﷺ في السجن بضع سنين عقابًا له من الله على ذنب ارتكبه، بل لقد اختار يوسف ﷺ السجن، وفضّله على الحياة في القصر وما تدعوه إليه النسوة، وقد كان لهذا فوائد عديدة، منها إعزاز شأنه واطلاعه على كثير من الأمور التي ما كان ليطلع عليها خارج السجن.

---

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٩، ص١٩٩ بتصرف يسير.

٢. قصص القرآن، محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص١١٨.

الشبهة التاسعة والثلاثون

ادِّعاء خطأ يوسف عليه السلام بطلبه الإمارة(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أنَّ يوسف عليه السلام طَلَبَ الإمارة إذ قال: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ (يوسف)، وطَلَبُ الإمارة مذموم ومنهي عنه، ولا سيما أنه طلبها من كافر، كما أنه زكَّى نفسه فقال: ﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ (يوسف)، ولم يستأنس بالمشيئة، ويُتْبِع مقولته بالعبارة المأثورة: إن شاء الله. وذلك يعد خطأ يتنافى مع عصمته بزعمهم.

وجها إبطال الشبهة:

١) يجوز طلب الإمارة للمصلحة لمن كان أهلًا لها، بل إن المصلحة إذا اقتضت ولاية إنسان بعينه صارت واجبة في حقه، كما أنه لا إثمَ في تولية العمل من يد كافر، ما لم يأت الإنسان المولَّى بمحذور شرعي.

٢) إن مدح يوسف عليه السلام لنفسه ليس مذمومًا؛ لأنه لم يقصد منه التطاول والتفاخر، وإنما قصد إلى بيان اتصافه بالصفتين اللازمتين لمن ينوء بعبء الإمارة.

التفصيل:

أولا. يجوز طلب الإمارة للمصلحة لمن كان أهلا لها، بل تجب في حقه إذا لم يوجد غيره:

لقد ظهرت على يوسف عليه السلام الخصال التي تؤهله للقيام بهذه المهمة - القيام على خزائن الأرض - قبل أن يطلبها، وهذه الخصال رآها الملك عليه؛ ولذا وثق فيه فقال له: ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ (يوسف)[1].

ومن هذه الصفات:

- **العلم**: حيث فسَّر الرؤيا تفسيرًا عجز عنه القوم ويشهد بصحته العقل.
- **الصبر والثبات**: حيث كان في السجن، وطلب الملك خروجه منه، فلم يسرع إلى الخروج، وإنما توقف حتى تظهر براءته مما نسب إليه.
- **حسن الأدب**: حيث ستر ذكر امرأة العزيز، وعرض أمر النسوة: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ (يوسف) مع أن البلاء وصل إليه من جهتها بالذات.

فلما ظهرت للملك هذه الفضائل من يوسف عليه السلام رغب في أن يجعله خالصًا لنفسه، فطلب إحضاره إليه ليكون من خاصته، وأهل مشورته، كما هو واضح من قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ ﴿٥٤﴾ ﴾ (يوسف) أي: خاطبه، وتحقق من فضله وعلمه، وما هو عليه من كمال خلق قال له: ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ (يوسف)، ذو مكانة ومنزلة، ومؤتمن على كل شيء، فعندئذ طلب يوسف عليه السلام من الملك أن يوليه خزائن مصر: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ (يوسف)؛ لأن تولي الخزائن بالذات يُمَكِّن يوسف من أن يجتاز بالبلاد المحنة الخانقة، والمجاعة المهلكة.

(*) عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

١. مَكِين: ذو مكانة عند الناس ومُعظَّم لديهم.

فهو عليه السلام لم يرغب في الإمارة ويطلبها لذاتها، وإنما ليتوصل من خلالها إلى رعاية مصلحة الأمة، ودفع غائلة[1] القحط والجوع عنها، حتى يمكن القول إن هذا التصرف أصبح واجبًا على يوسف؛ لأنه ـ وهو ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ (يوسف) ـ القادر على تجنيب البلاد خطر القحط، والضيق الشديد، وغيره ممن ليس على مثل صفاته هذه لا يستطيع ما يستطيعه يوسف، مما يجعل هذا التصرف واجبًا عليه، ومن ثم يزول الاعتراض عليه في طلبه الإمارة[2].

قال الزمخشري: "إنما قال ـ يوسف ـ ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى وإقامة الحق، وبسط العدل، والتمكين مما لأجله بعثت الأنبياء إلى العباد، ولعلمه أن أحدًا غيره لا يقوم مقامه في ذلك، فطلب التولية ابتغاء وجه الله، لا لحب الملك والدنيا".

قال القرطبي في تفسير هذه الآية: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ (يوسف): والآية تدل على جواز أن يطلب الإنسان عملًا يكون له أهلًا، فإن قيل: جاء عن عبد الرحمن بن سَمُرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "لا تسأل الإمارة، فإنك إن أُعطيتها عن مسألة وُكِلتَ إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أُعِنْتَ عليها"[3].

وحديث أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "لا نستعمل على عملنا من أراده"[4]. وذكر الحديث وغيره.

فالجواب:

١. أن يوسف عليه السلام إنما طلب الإمارة؛ لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم، فرأى أن ذلك فرض متعين عليه، فإنه لم يكن هناك غيره، وهكذا الحكم اليوم، لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق في القضاء أو الحسبة، ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه لتعيَّن ذلك عليه، ووجب أن يتولاّها ويسأل ذلك، ويخبر بصفاته التي يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك كما قال يوسف عليه السلام.

أما لو كان هناك من يقوم بها ويصلح لها وعلم بذلك، فالأولى ألَّا يطلبها لقوله ﷺ لعبد الرحمن: "لا تسأل الأمارة"، وأيضًا فإن في سؤالها والحرص عليها مع العلم بكثرة آفاتها وصعوبة التخلص منها دليل على أنه يطلبها لنفسه ولأغراضه، ومن كان هكذا يوشك أن تغلب عليه نفسه فيهلك، وهذا معنى قوله ﷺ: "وُكِل إليها" ومن أباها لعلمه بآفاتها، ولخوفه من التقصير في حقوقها فَرَّ منها، ثم إن أُبتلي بها فيرجى له التخلص منها، وهو معنى قوله ﷺ: "أُعِنْتَ عليها".

٢. أنه لم يقل: إني حسيب كريم، وإن كان كما قال النبي ﷺ "الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم

---

١. الغائلة: الداهية.

٢. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٢٤ بتصرف.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب كفارات الأيمان، باب الكفارة قبل الحنث وبعده (٦٣٤٣)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الأيمان، باب ندب من حلف يمينًا فرأى غيرها خيرًا منها (٤٣٧٠).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين، باب حكم المرتد والمرتدة (٦٥٢٥)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها (٤٨٢٢).

يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم"[1]. ولا قال: إني جميل مليح، إنما قال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ فسألها بالحفظ والعلم، لا بالنسب والجمال.

٣. إنما قال ذلك عند من لا يعرفه، فأراد تعريف نفسه، وصار ذلك مستثنى من قوله ﷻ: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾﴾ (النجم).

٤. أنه رأى ذلك فرضًا متعَيِّنا عليه؛ لأنه لم يكن هنالك غيره[2].

إن الظروف قد تأتي بما لا يُحتمل التجربة مع الناس "فمن يثق بنفسه أنه قادر على القيام بالمهمة فله أن يعرض نفسه، ولنفترض أن قومًا ركبوا سفينة، ثم هاجت الرياح وهبَّت العاصفة، وتعقدت الأمور، وارتبك القبطان، وجاءه من يخبره أنه قادر على أن يحل له هذا الأمر، ويُحسن إدارة قيادة المركب، وسبق القبطان أن علم منه ذلك، هنا يجب على القبطان أن يسمح لهذا الخبير بقيادة السفينة "[3].

"وأما تولية العمل من يد كافر ويكون تبعًا له، وتحت أمره وطاعته، فإنه يجوز أن يتولى الإنسان المصلح عملًا من قبل سلطان كافر أو جائر، إذا تعين ذلك سبيلًا إلى الحكم بأمر الله، ودفع الظلم، وإذا لم يتم ذلك إلا بتمكين الملك الكافر، وأما الفاسق فلا مانع شرعًا أن يستظهر النبي أو العالم به، وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة البغاة والظلمة لهذا "[4].

وقد قيل: "كان الملك يصدر عن رأيه، ولا يعترض فيما يراه، فكان الملك في حكم التابع ليوسف عليه السلام، والمطيع له"[5].

ثانيًا. لقد مدح يوسف عليه السلام نفسه ليعلم الملك قدرته على هذا الأمر:

إن قول يوسف عليه السلام عن نفسه﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ ليس مدحًا لنفسه بمقدار ما هو بيان لاتصافه بالصفتين اللازمتين لمن يقوم بهذا الأمر، إذ إن معنى "حفيظ": أمين أحفظ ما تستحفظنيه، ومعنى "عليم": عالم بوجود التصرف، وكأنه غلب على ظنه ضرورة ذكر اتصافه بهاتين الصفتين؛ ليعلم الملك قدرته على هذا الأمر، وأهليَّته له.

على أن مدح الإنسان نفسه ليس مذمومًا إلا إذا قصد منه التطاول والتفاخر والتوصل إلى ما لا يستحق، ويوسف عليه السلام نبي الله لا يقصد هذا قطعًا، فَمَدْحُهُ نفسه إذن ليس محرمًا، وإنما المحرم والمنهي عنه هو مدح النفس وتزكيتها وهي لا تستحق ذلك، أو ما كان على سبيل التطاول والتفاخر.

قال النسفي في معنى قوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾، وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب أو الرياء، لا على سبيل الاعتراف بالنعمة فإنه جائز؛ لأن المسرَّة بالطاعة طاعة، وذكرها شكر. وقال ابن كثير في تفسير قوله:

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾﴾(يوسف) (٣٢١٠)، وفي مواضع أخرى.

٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٩، ص٢١٥: ٢١٧.

٣. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج١١، ص٦٩٩٨.

٤. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٢٥.

٥. الكشاف، الزمخشري، مرجع سابق، ج٢، ص٣٢٩.

﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ مدح نفسه، ويجوز للإنسان ذلك إذا جُهِل أمره للحاجة[١].

وأما ترك الاستثناء - أي عدم إتباع مقولته بقول: إن شاء الله - فقد علله الفخر الرازي بأنه لو ذكره لاعتقد فيه الملك أنه إنما ذكره لعلمه بأنه لا قدرة له على ضبط هذه المصلحة كما ينبغي. ويصح أن السبب في ترك الاستثناء هو: علمه بأن الملك لكفره لا يستسيغ التعليق على مشيئة الله الواحد الأحد، ويوسف عليه السلام يحاول استمالة الملك بكل رفق ولين ليسند إليه هذا الأمر الذي في قيام يوسف به مصلحة الخلق[٢].

الخلاصة:

- إن للإمارة شروطًا، وضوابط إن توافرت في شخص ما وجب إعطاؤها إياه، وجاز له أن يطلبها إن وجد في نفسه قدرة عليها ومصلحة للناس، وتلك الشروط والضوابط والخصال، قد توافرت في يوسف عليه السلام قبل أن يطلبها، ولا بأس في ذلك.
- لا حرج في تولية الإمارة أو العمل من يد كافر مادام ذلك لا يؤدي إلى محذور شرعي، وثقة العزيز بيوسف عليه السلام جعلته يَكِلُهُ إلى تصرفه الشخصي؛ فامتنع إتيان المحذور من يوسف.
- يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم ومن فضل، ويوسف عليه السلام إنما أراد أن يُعرِّف نفسه للملك؛ ليعلم الملك قدرته على هذا الأمر.

١. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٢٦.

٢. المرجع السابق، ٣٢٧ بتصرف يسير.

الشبهة الأربعون

ادِّعاء أن يوسف عليه السلام خان إخوته وأساء إلى أبيه بحبسه أخاه بنيامين(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن يوسف عليه السلام خان إخوته، وأساء إلى أبيه. ويستدلون على ذلك بما فعله من جعل السِّقاية[٣] في رَحْل[٤] أخيه، ومن ثم اتهامه بالسرقة، ثم حبسه بهذه التهمة رغم علمه بتعلق أبيه به قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾ (يوسف)[٥]، ويتساءلون: كيف لنبي أن يفعل ما فعل يوسف عليه السلام؟!

وجها إبطال الشبهة:

١) طلب يوسف عليه السلام أخاه من إخوته، ثم حبسه عن الرجوع إلى أبيه مع علمه بما يلحق أباه من الحزن إنما هو وحي من الله تعالى، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ (يوسف: ٧٦)[٦] فالأمر أمر الله والصنع صنع يوسف عليه السلام.

٢) أحداث الموقف عظات وعبر لأصحاب العقول، وقد بان هذا في فعل يوسف عليه السلام ورد أبيه، إذ كان رده - على بنيه - رد المؤمن الواثق بالله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴿٨٣﴾﴾ (يوسف).

(*) عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

٣. السِّقاية: وعاء من الذهب مُرصَّع بالجواهر.

٤. الرَّحْل: المتاع.

٥. العِيْر: الدَّوابُّ التي تحمل المتاع.

٦. كِدنَا: دبَّرنا.

التفصيل:

أولا. يوسف عليه السلام نبي من أنبياء الله عز وجل، وتصرف الأنبياء لا يكون إلا بوحي، أو لحكمة قدرها الله:

يوسف عليه السلام فعل ما فعل، من طلب أخيه من إخوته، وحبسه عن الرجوع إلى أبيه مع علمه بما يلحق أباه من الحزن، كان بوحي من الله عز وجل إليه زيادة في امتحان أبيه، ولم يُعْلِم أباه خبره ـ لتسكن نفسه ويزول حزنه ـ بأمر من الله إمعانًا في الابتلاء لسيدنا يعقوب عليه السلام.

وأما جعل السقاية في رحل أخيه، فالغرض منه التسبب في احتباس أخيه عنده، ويجوز أن يكون ذلك بأمر الله تعالى.

ويذهب ابن حزم الظاهري إلى أن يوسف عليه السلام فعل ما فعل ليعود إليه إخوته، ويكون ذلك سببًا لاجتماعه بهم وجمع شملهم جميعًا، وما قصد أن يُحزن بهذا أباه عليهما الصلاة والسلام.

ولا يستبعد أن يكون يوسف عليه السلام قصد بهذا أمرين:

الأول: الرفق بأخيه الشقيق والحفاظ عليه، فهو يعلم أنه أَثِير[1] عند والده قريب إلى قلبه، وربما حمل هذا بقية الإخوة على الكيد له كما كادوا ليوسف، فأراد عليه السلام أن يضم إليه أخاه رفقًا به، وحفاظًا عليه.

الثاني: أن يجمع شمل الأسرة عنده باحتجاز أخيه الشقيق عنده، ثم مجيء الإخوة الباقين إليه راجين إطلاقه معهم فيعلمهم بنفسه، ويطلب إليهم إحضار أهلهم أجمعين، فتجتمع الأسرة بعد الفرقة.

وأما نداء المنادي بأنهم سارقون، فإما أن يكون من قِبَل المؤذِّن بناءً على ظَنِّه عندما فقد الصواع؛ وعليه فلا إشكال.

وإما أن يكون بأمر يوسف عليه السلام وهو الأرجح، ويراد بالسرقة أخذهم يوسف عليه السلام من أبيه على وجه الخيانة كالسرقة[2]، قال الزمخشري: "وحكم هذا الكيد حكم الحيل الشرعية التي يتوصل بها إلى المصالح، ومنافع دينية كقوله لأيوب عليه السلام: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ (ص)؛ ليتخلص من جلدها ولا يَحْنَث[3]، وكقول إبراهيم عليه السلام عن زوجته: هي أختي لتسلم من يد الكافر، وما الشرائع كلها إلا مصالح وطرق إلى التخلص من الوقوع في المفاسد، وقد أعلم الله عز وجل في هذه الحيلة التي لقنها يوسف عليه السلام مصالح عظيمة فجعلها سلمًا وذريعة إليها فكانت حسنة جميلة، وانزاحت عنها وجوه القبح"[4].

ثانيًا. أحداث الموقف عظات وعبر لأصحاب العقول:

لما دخل إخوة يوسف عليه السلام عليه بعد أن أحضروا أخًا لهم من أبيهم كما طلب منهم، رأى يوسف عليه السلام أمارات الحزن والأسى بادية على شقيقه، فشاركه بنفسه طعامه وشرابه، وأجلسه معه على فراشه، وجاذبه أطراف الحديث، فلما رأى أنه لا زال يعاني من الكرب والغربة، ولا يزال يأسف على فراق شقيقه يوسف عليه السلام أفصح له عن نفسه وأخبره بحقيقة أمره، وحدَّثه عما وقع منذ خروجه من بيت أبيه مع إخوته، حتى الساعة

١. أَثِير: مفضَّل.

٢. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٢٧، ٣٢٨.

٣. حَنَث في يمينه: لم يُوَفِّها.

٤. الكشاف، الزمخشري، مرجع سابق، ج٢، ص٣٨٣.

التي هو فيها الآن، ففرح بنيامين فرحًا لم يفرح مثله قط، وتبدد حزنه وزال همه وأحس بالأمان. وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (يوسف).

١. احتياله في ضم أخيه إليه:

وقد طمع بنيامين في البقاء مع أخيه، وطمع يوسف عليه السلام فيما طمع فيه أخوه، فعلّمه الله حيلة يحتال بها على تحقيق هذه الرغبة، تتمثل في وضع السقاية في رحل أخيه قبل انصراف إخوته من مصر، ثم يبعث مؤذنًا ينادي في العير: ﴿ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (يوسف)، فإذا ما سمعوا هذه المقولة فسيعودون حتمًا إلى ساحة يوسف عليه السلام لإثبات براءتهم، فيبدأ يوسف في التفتيش عن السقاية - كما يسميها الخاصة - أو الصواع - كما يسميها العامة - بأوعيتهم، ثم يفتش وعاء أخيه بنيامين فيستخرج منه السقاية، فيكون بذلك قد جاز له أن يبقيه عنده على حسب ما تقضي به شريعة يعقوب عليه السلام فإن السارق يُسْتَرَقُّ[1]، فيكون جزاؤه عند المسروق منه عبدًا رقيقًا يتصرف فيه كيف شاء.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ (يوسف)[2].

والجواب قد سجله الله في قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾، فالأمر أمر الله والصنع صنعه، فهو الذي دبّر هذا الكيد، وقام يوسف عليه السلام بتنفيذه لحكمة يعلمها الله ﷻ، ولعل الله أراد ذلك ليشفي صدر يوسف عليه السلام من هؤلاء الذين كادوا له كيدًا تأباه الفطر السليمة، وتنفر منه الطباع المستقيمة.

وليعلم يعقوب عليه السلام ببصيرته وثاقب فِكْره[3] وحسن تقديره للأمور، وجودة فهمه لقرائن الأحوال أن يوسف عليه السلام حي، ويتوقع أنه هو الذي يحكم مصر، ولو على سبيل الظن والتخمين، كما يدل عليه قوله ﷻ: ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (يوسف).

ولا يقال: إن يوسف عليه السلام قد اتهم أخاه بالسرقة، وإنما جرت هذه التهمة على لسان المنادي، ولذلك أقبلوا عليه وعلى من معه فقالوا: ماذا تفقدون؟ ولم يقولوا: ماذا سرق منكم، وكأنهم بالعدول عن لفظ السرقة يريدون أن يعلموا هذا المنادي ما ينبغي أن

---

١. يُسْتَرَقُّ: يصير من العبيد.

٢. دين المَلِك: سُلْطَته.

٣. ثاقب فِكْره: فكره البعيد الراشد الصائب.

يقال، إذ كان ينبغي عليه أن يقول: فقدنا صواع الملك، ولعله دخل في رحل واحد منكم سهوًا أو نسيانًا، وما أشبه ذلك من الكلام المقبول، ولقد تعلموا فعلًا منهم ما ينبغي أن يقال، فقالوا: نفقد صواع الملك، ووعدوا من جاء به أن يُعطى حمل بعير من الحبوب، وقال المنادي: أنا بهذا الحمل كفيل.

وقد يقال: إن يوسف عليه السلام هو الذي أمر المنادي أن يقول: إنكم لسارقون على سبيل التعريض، فقد كانوا سارقين فعلًا عندما أخذوه من أبيه وألقوه في الجب، والله أعلم بما كان.

وقد رفع الله مكانة يوسف عليه السلام في العالمين بالحلم والتعفف والعلم والحكمة والنبوة والملك، ورد إليه أخاه تمهيدًا لجمعه بأبويه وسائر أهله وذويه.

٢. موقفه وموقف إخوته بعد استخراج السقاية:

ولما رأى الإخوة السقاية قد استُخرِجت من رحل بنيامين سُقِط في أيديهم، وتحرّكت الأحقاد القديمة في قلوبهم؛ فتفوَّهوا [١] بمقالة سوء ينفون بها عن أنفسهم العار الذي ظنوا أنه لاحقٌ بهم، فاحتملها يوسف عليه السلام منهم، وأخفى وقعها من نفسه عنهم، وأنبأهم بما هم عليه من مكان لا يُحمدون فيه، ومن شرٍ هُمْ مُواقعوه، قال عز وجل: ﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ (يوسف).

قالوا ذلك سُبّة لأمها "راحيل" إذ أنجبت ولدين كلاهما سارق، يريدون أن يتنصَّلوا [٢] بذلك من هذا العار الذي ظنوا أنه لاحق بهم جميعًا، وهم على قمة الشرف والطهر.

وقعت هذه المقالة من نفس يوسف عليه السلام موقعًا آلمه وأحزنه، لكنه تحلَّم وصبر واحتسب، واحتفظ بالرد المناسب في الوقت المناسب، وقال في نفسه: أنتم شر مكانًا حيث سرقتم أخاكم من أبيكم، وفعلتم به ما فعلتم، ثم طَفَقْتم [٣] اليوم تفترون على البريء فتتهمونه بما كان بكم ألصق، والله وحده هو الذي يعلم بما تنسبونه إليه ظلمًا وزورًا.

وهذا الموقف يظهر لنا ما تحلَّى به يوسف عليه السلام من حِلْم ورَباطة جَأْش [٤]، وقدرة فائقة على كَظْم الغيظ [٥]، والعفو عن المسيء وهو قادر على الانتقام؛ إذ أَبَت عليه نفسه الزَّكيَّة أن يواجه إخوته بالحقيقة المُرَّة في غير أوانها، وهم في موقف كَرْب وبلاء ومعاناة نفسية بلغت بهم حدًّا لا يؤاخذون فيه على ما يصدر منهم.

وطمع الإخوة في إحسان يوسف عليه السلام، فطلبوا منه أن يتجاوز إحسانه حدَّ الوفاء في الكيل وإكرام النُّزلاء [٦] إلى شيء أعظم عندهم من ذلك بكثير، وهو أن يرد إليهم أخاهم، ويأخذ منهم من يشاء عوضًا عنه، رحمة بأبيهم الشيخ الكبير. قال الله تبارك وتعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (يوسف)، فهم لا يستشفعون لأخيهم في الحقيقة - كما يفهم من الآية -

١. تَفَوَّهوا: نطقوا.
٢. يتنصَّلوا: يتبرَّأوا.

٣. طَفَقْتُم: أخذتم.
٤. رباطة الجَأْش: ثبات.
٥. كَظْم الغيظ: عدم إظهار الغضب والتَّحكم فيه.
٦. النُّزلاء: جمع نزيل، وهو الضيف.

وإنما يستشفعون لأبيهم الذي بلغ من الكبر عتيًا[1]، وهم من وراء ذلك أيضًا يستشفعون لأنفسهم؛ ليكونوا أوفياء بالميثاق الذي أخذه عليهم أبوهم.

وقد تلطفوا به فاسترحموه بقولهم: ﴿إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾، واستنزلوه عن حقه في استرقاق أخيه بقوله: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾، لكن يوسف عليه السلام كان يريد أن يلقنهم درسًا في الأخلاق الفاضلة، فقال كما حكى القرآن عنه: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ (يوسف).

أي عياذًا بالله أن نبرئ مذنبًا وندين بريئًا، فنأخذ البريء بذنب المسيء، إن ذلك ظلم لا يلتقي أبدًا مع الإحسان الذي تدعونني باسمه، فلما رأوا أن العزيز متمسك بمن وجد متاعه عنده كفُّوا عن التحدّث معه في شأنه، وعكفوا على تدبير أمرهم، وتشاوروا فيما بينهم على كيفية مواجهة أبيهم بهذا الأمر الجلل الذي لم تكن لهم فيه إرادة ولا عزم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (يوسف).

وقوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟﴾ معناه: لما بلغ منهم اليأس مبلغًا، بسبب استعاذته بالله مما طلبوه، وهذا التعوذ يدل على أنه أمر في غاية الكراهة عنده، وإنه ظلم ينبغي التعوذ منه، والاحتراز من فعله، فلما قطعُوا الأمل من أخذ بنيامين، خلصوا نجيًا[2]، أي خلص بعضهم إلى بعض، واجتمعوا بعيدًا عن الناس يتناجون في أمرهم هذا.

فقد قال كبيرهم هذا: أنسيتم أن أباكم قد أخذ عليكم موثقًا من الله أن تأتوه بابنه سالمًا: ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ﴾؟ أي: هل نسيتم ما فعلتموه بيوسف من قبل؟ فكيف تواجهون أباكم، وبماذا تعتذرون إليه؟ وكيف يكون وقع الخبر عليه؟ إلى آخر ما وقع بينهم من همس ومشافهة، وأخذٍ وردٍّ طواه القرآن لعدم جدواه.

وقول كبيرهم بعد هذا التذكير المفجع والكلام الموجع: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ (يوسف)[3] - يُعَدُّ تنصلًا من المسئولية، وخذلانًا عن مواجهة الواقع، تخلّصًا من هذا الموقف العصيب، وإن بدا في كلامه حسن الاستسلام لأمر الله عز وجل، وإظهار الرضا بقضائه وقدره.

إنه يريد أن يبقى مكانه في أرض مصر بعيدًا عن المواجهة القاسية التي سوف يلقاها إخوته، فقال لهم ما حكى القرآن عنه: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ (يوسف: ٨١) إلى آخر هذه المقولة التي أوصاهم بها، وفيها خبر وشهادة، وإقرار واستيثاق.

---

١. عَتَى الرجل: كَبُرَ سِنُّه.

٢. خَلَصوا نجيًّا: انفردوا يتشاورون سرًّا ومناجاة.

٣. أَبْرَح: أذهب من هذه الأرض.

فقولهم: ﴿إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ (يوسف:٨١) إقرار بشيء لم يقع، وما كان ينبغي أن يقول لهم: قولوا ذلك؛ لما في هذا القول من جفاف وجفاء، وشدة وقع على نفس يعقوب عليه السلام، إن قولهم: ابنك مات أو قتل أخفُّ عليه من قولهم: إن ابنك سرق، لكنها الغلظة التي عرفت في طباعهم، لن يستطيعوا التخلي عنها أو التخلص منها.

وقال لهم كبيرهم: قولوا له معتذرين بعد أن تخبروه بهذا الخبر: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ (يوسف: ٨١) أي فإن سألكم هل علمتم أنه سرق ببينة لا تقبل الجدل، أو كيف حكمتم بأنه سرق، وعلى أي شيء استندتم، فقولوا: ما أقررنا بذلك إلا حين رأينا العزيز، أو أحد فتيانه قد استخرج صواع الملك من رحله، وقد سئلنا قبل التفتيش عن الصواع عن حكم السرقة عندنا فأجبناهم بما علمنا من شريعتنا، فوقع لأخينا ما وقع بقضاء الله عز وجل، و أمر مغيَّب عنا: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾ (يوسف). أي ما كنا ندري عواقب الأمور، ولا بواطن الأحوال، فإن كنت في شك من أمرنا، فاسأل القرية التي كنا فيها، وهي عاصمة مصر، واسأل العير التي أقبلنا فيها لتعلم صدقنا وصحة قولنا.

وانظر إلى ما قالوه هنا، وما قالوه عند اعتذارهم عن فقد يوسف، لقد قالوا هنا: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (يوسف)، فأكدوا قولهم بأن واللام والجملة الاسمية. وقالوا هناك بشيء من التمني والتحسّر والشكّ والمدارة: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ (يوسف)[1]. فانظر إلى موقفهم هنا وقد جاءوا إلى أبيهم بالصدق كله، وإلى موقفهم من قبل مع يوسف، وقد جاءوا إلى أبيهم بالكذب كله.

وكان من حقهم في هذه المرة أن يقولوا: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (يوسف) بصيغة الجزم؛ لأنهم يعلمون أن أباهم لا يصدقهم لما عرف من كذبهم في المرة الأولى، ومن عرف بالكذب لم يصدقه أحد، وكان من حقهم أيضًا أن يقيموا على صدقهم الشواهد والبينات، والحق أَبْلَج[2] كما يقولون.

٣. موقف أبيهم بعد سماع الخبر:

وما كاد يعقوب عليه السلام يسمع من أبنائه هذا الخبر المؤلم حتى واجههم بما واجههم به في المرة الأولى حين جاءوه يلقون إليه بالخبر المُفْجِع في يوسف، إنهم مُتَّهَمون عنده في الحالين؛ لأنه كان يتوقَّع منهم أن يُسِيئوه[3] في يوسف عليه السلام وفي أخيه، ففي يوسف يقول لهم: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾﴾ (يوسف).

وعن ابنه الآخر يقول لهم: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ (يوسف). وهكذا يأخذهم بحَدْسه[4] فيهم وظنه بهم وقد صدقه حدسه في الأولى، وتحقق ظنه في الثانية، فوقع المكروه في الحالين: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ

---

١. مُؤمِن: مُصَدِّق.
٢. الأَبْلَج: الواضح.
٣. يُسِيء: يُحْزِن.
٤. الحَدْس: الفَراسة.

﴿جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣)﴾ (يوسف)[1]. هي كلمته ذاتها يوم فقد يوسف عليه السلام، ولكنه في هذه المرة يضيف إليها هذا الأمل.

ومن ثم تتضح لنا العظة والعبرة من هذه القصة، فسيدنا يوسف عليه السلام لما علم حال بنيامين وحال يعقوب عليهما السلام، وما أصابهما من الحزن والقهر على غياب يوسف عليه السلام قرر أن يخفف عن أخيه الهم والكرب فكشف عن حاله، ثم إنه أراد أن يلقِّن إخوته درسًا ويذكِّرهم بما فعلوه في يوسف عليه السلام وما كان من أمرهم، أضف إلى ذلك أن سيدنا يوسف فعل ذلك بوحي من الله عز وجل، وحتى تكون هذه الأحداث سببًا منطقيًّا في جمع شمل الأسرة مرة ثانية بعد أن نزغ الشيطان بينه وبين إخوته من قبل.

الخلاصة:

- يوسف عليه السلام نبي من أنبياء الله ولا يتصرَّف إلا بوحي أو حكمة يراها، والأنبياء بصيرتهم مشرقة، فهم يرون بنور الله، ومعلوم أن الطاعة سبب في ذلك حتى مع غير الأنبياء، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن رب العزة عز وجل: "وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها"[2]، فالراجح أن يوسف عليه السلام فعل ما فعل بوحي من الله عز وجل والدليل قول الله عز وجل: ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ (٧٦)﴾ (يوسف) فتعبير: ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ يوحي بأن الأمر وحي من الله عز وجل له، والله أعلى وأعلم.
- أحداث الموقف عظات وعبر لأصحاب العقول، لا تصيّدًا للأخطاء، وقد بان هذا في: فعل يوسف عليه السلام وفعل أبيه، وردّه - ردّ المؤمن الواثق بالله - على بنيه: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣)﴾ (يوسف)، وموقف أخيهم الأكبر الذي تعلّم الدرس وأبى الرجوع إلى أن يأذن له أبوه أو يحكم الله له، والموقف العصيب الذي وضع فيه إخوة يوسف عليه السلام، وقد تعلموا منه الكثير.

الشبهة الحادية والأربعون

دعوى خطأ القرآن في ذكر عدد مرات مجيء إخوة يوسف عليه السلام لمصر وسجنه أخاه بنيامين (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن القرآن الكريم أخطأ في عدد مرات مجيء إخوة يوسف لمصر، فالقرآن يذكر أنهم جاءوا أربع مرات، وتزعم التوراة أنهم جاءوا ثلاث مرات، كما يزعمون أن يوسف عليه السلام سجن أخاه بنيامين، وهو ما لم يذكره القرآن، إضافة إلى تعليقهم على قول الله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣)﴾ (يوسف)، بأن

---

١. سوّلت: حبّبت لكم، وأغرتكم، وهوّنت عليكم هذا الأمر.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب التواضع (٦١٣٧).

(*) هل القرآن معصوم؟ موقع إسلاميات.
www.Islameyat.com

يوسف عليه السلام أخذ أخاهم شمعون رَهِينة[1]، وهذا تفسير قول الله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ أي: يوسف عليه السلام، وبنيامين، وشمعون.

وجوه إبطال الشبهة:

١) لم يخطئ القرآن الكريم في سرد الوقائع التاريخية، فقد صوب الخطأ وأضاف الكثير من الحقائق؛ لأنه الكتاب الخاتم، أما التوراة فقد حُرِّفت، فلا يُعتدُّ بما جاء فيها.

٢) أخذ سيدنا يوسف عليه السلام أخاه لحيلة دبَّرها معه ليسعد بمجاورته، ويعيد جمع أسرته بعد أن نزغ الشيطان بينه وبين إخوته.

٣) عدد مرات مجيء إخوة يوسف عليه السلام لمصر أربع مرات، كما يقتضي المنطق، وسياق الأحداث، وليس ثلاثة، كما نصَّت التوراة فقد تناقضت في هذا الشأن كما تناقضت في غيره.

التفصيل:

أولا. لم يخطئ القرآن في سرد الوقائع التاريخية، فقد صوّب وأضاف؛ لأنه الكتاب الخاتم أما التوراة فقد حُرِّفت، فلا يُعْتَد بما جاء فيها:

لم يخطئ القرآن الكريم في سرد الوقائع التاريخية فقد صوَّب وأضاف؛ لأنه الكتاب الخاتم، الذي لم يُحَرَّف كما حُرِّف غيره من الكتب السماوية السابقة، أما التوراة المحرفة فلا يُصدق ما جاء بها؛ لأنها قول بشر والأدلة على ذلك كثيرة منها:

- إغفال التوراة لبعض أحداث قصة سيدنا يوسف عليه السلام، مثل قصة وليمة امرأة العزيز للنسوة وقد تحدث عنها القرآن®.
- أطلقت التوراة على حاكم مصر آنذاك ـ فرعون ـ وهو اسم مصري قديم مُكَوَّن من جزئين "بر" أي: بيت، و"عما" أي: عالي، فيكون المعنى للاسم "البيت العالي"، وهو أشبه بلقب "البيت الأبيض" عند الأمريكان في العصر الحاضر.

أما القرآن الكريم فلم يستخدم هذا الاسم للدلالة على حاكم مصر أيام يوسف عليه السلام، وإنما لقّبه بـ "الملك"، وهذا هو الصحيح تاريخيًّا وعلميًّا، فقد ثبت صدق القرآن الكريم في هذه التسمية؛ إذ إن حاكم مصر قبل يوسف عليه السلام وبعده كان يلقب بـ "فرعون"، أما في زمن يوسف فقد حكم الهكسوس بعد أن انتصروا على الفراعنة، حتى تجمع الفراعنة وطردوهم منها.

ومما يؤكد هذا أن القرآن الكريم قد سرد بدقة بالغة قصّة كل حاكم في زمنه ـ وصف حكّام مصر بأنهم الفراعنة، ثم جاء الهكسوس فلم يكن هناك فرعون، ولكن كان هناك ملك، أطلق عليه القرآن الكريم لقب "العزيز"، وعندما جاء موسى عليه السلام، كان الفراعنة قد عادوا لحكم مصر. فإذا كان هذا الأمر لم نعرفه إلا في مطلع القرن الخامس عشر عندما اكتشف الفرنسيون حجر رشيد، ولكن القرآن أرّخ له التأريخ الصحيح منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان ـ وهذه معجزة تُضَم لمعجزات كثيرة في القرآن ـ ووضعه في موضعه

[1]. الرَّهينة: الضمان.

® في "وليمة امرأة العزيز للنسوة في قصة يوسف" طالع أيضًا: الشبهة الخامسة والثلاثين، من هذا الجزء.

الصحيح والسليم[1].

وبناء عليه، فإن ما جاء به القرآن هو الصواب قطعًا، وما عداه هو الباطل.

ثانيًا. أخذ سيدنا يوسف عليه السلام أخاه لحيلة دبرها معه؛ ليسعد بمجاورته ولعودة التئام شمل الأسرة بعد أن نزغ الشيطان بينه وبين إخوته:

لقد أكرم يوسف عليه السلام إخوته أيَّما إكرام وأحسن وِفادَتهم[2]، وقد ذكر القرآن إكرامه وفادة إخوته على هذا النحو: قال عز وجل: ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (يوسف).

وعلى ذلك فإن يوسف عليه السلام يجبرهم على العودة باحتجاز أخيه الأكبر رهينة كما تصور التوراة خطأً وزورًا، بل أكرم وفادتهم، وهذا يتفق مع خُلُقه الكريم، وقد بالغ في إغرائهم بالرجوع إليه، فأمر فتيانه أن يجعلوا بضاعتهم التي جاءوا بها في رحالهم، حتى إذا وجدوها همُّوا بردها عليه، لظنهم أنه نسيها في رحالهم، أو الطمع في المزيد من هذا الإكرام الذي فاق تصورهم، وحاز إعجابهم، فقد وجدوا فيه الإحسان ماديًّا ومعنويًّا، فلماذا لا يرجعون إليه ومعهم أخوهم بنيامين، وكانت حجتهم لأبيهم حتى نوسع على أهلنا ونزداد كيل بعير.

إذن فما كان ليوسف أن يتخذ منهم رهائن، فهو يثق في نصر الله وإكرامه إياه بالتئام شمل الأسرة ثانيةً، ورؤية أخيه وأبيه، وللعاقل أن يقارن بين أسلوب القرآن الكريم الذي يذكر إكرامه وفادتهم، وتصوير التوراة المخزي لنبي من أنبياء الله عز وجل فتجعله سجَّانًا لأخيه دون شفقة أو رحمة لصغره، وبراءته من أي ذنب، كما تجعله متَّخذًا للرهائن من أقرب الناس إليه.

والسؤال المطروح الآن: لماذا يسجن يوسف أخاه، وقد أراد أن يسعد بجواره؟ وهل يتفق هذا مع خلق الأنبياء، وعصمتهم وعدلهم؟

لم يتخذ يوسف عليه السلام أخاه - شمعون - رهينة إلى حين مجيء إخوته ومعهم بنيامين، فهذا ينافي الواقع، فأخو يوسف الأكبر هو بنفسه - رفض أن يرجع مع إخوته إلى أبيهم، كما قصَّ القرآن الكريم، تمسكًا بما شاهد، وحفاظًا على عهد أبيه، قال عز وجل: ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (يوسف).

كما أن التوراة تتناقض فيما بينها في هذا الشأن فتارة تقول شمعون، وتارة تقول رأوبين.

واستنادًا إلى ما سبق فإن الخلاف بين التوراة وبين القرآن في سرد حوادث القصة، لا يدل على عيب في القرآن بل يدل على ما في التوراة من زيادة ونقص في النسخة الواحدة، وفي النسخ الثلاث، ومع هذا ففي

---

١. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج١، ص٣٢٦، ٣٢٧ بتصرف.

٢. وِفادتهم: قُدُومهم ومجيئهم.

التوراة ما يدل على ما جاء في القرآن، ومن ذلك[1]:

١. "وولد ليوسف في أرض مصر: منسى وأفرايم، اللذان ولدتهما له أسنات بنت فوطي فارع كاهن أون". (التكوين٤٦: ٢٠)، ويعقوب عليه السلام أبوه من الأنبياء الملهمين ويدل على ذلك قوله كما حكى القرآن: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴿٩٤﴾﴾ (يوسف)، وقوله: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ (يوسف). إذن فقوله تعالى في الآية التي احتجوا بها: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ (يوسف: ٨٣) هكذا بضمير الجمع "بهم" وقد صرَّح من بعد بفقد اثنين هما: يوسف، وأخيه فقط؛ لا يدل على ولد ثالث محبوس في مصر، وإنما يدل على ولدي يوسف.

٢. أن التوراة ليس فيها ما يدل على سجن بنيامين، وهو أنه لما دبَّر حيلته في استبقائه وتمت الحيلة، طلبوا منه أن يطلقه فردَّ عليهم بقوله: "حاشا لي أن أفعل هذا. الرجل الذي وُجد الطاس في يده هو يكون لي عبدًا وأما أنتم فاصعدوا بسلام إلي أبيكم" . (التكوين ٤٤: ١٧). إذن فقوله: "هو يكون عبدًا لي" معناه: أنه استبقاه في مصر، وليس سجنه فهذا تناقض، وفهم خطأ لتوراتهم المحرفة، فضلًا عن فهمهم الخاطئ للقرآن الكريم، وهذا ديدنهم.

٣. في التوراة ما يدل على بقاء كبيرهم في مصر، مع يوسف وبنيامين، وكبيرهم هو رأوبين وليس شمعون، ولا يهوذا كما قال كاتب التوراة. ومما يدل على بقاء كبيرهم: أنه استعطف يوسف عليه السلام بقوله: "فالآن ليمكث عبدك عوضًا عن الغلام، عبدًا لسيدي، ويصعد الغلام مع إخوته. لأني كيف أصعد إلى أبي والغلام ليس معي؟ لئلَّا أنظر الشر الذي يصيب أبي". (التكوين ٤٤: ٣٣، ٣٤)[2].

ثالثًا. عدد مرات مجيء إخوة يوسف عليه السلام لمصر أربع مرات كما يقتضي المنطق وسياق الأحداث وليس ثلاثة كما نصّت التوراة:

ذكر القرآن الكريم أن إخوة يوسف عليه السلام جاءوا مصر **للمرة الأولى** طلبًا للميرة والطعام حيث قال تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ (يوسف)، وكما تقص الآية الكريمة أن سيدنا يوسف عليه السلام عرف إخوته غير أنهم له منكرون، ولذا أمر فتيانه بوضع بضاعتهم التي جاءوا بها إلى مصر للمقايضة والبيع، حتى يعطيهم الأمل في العودة مرة أخرى وكذلك أعلن لهم صراحة أن يأتوا بأخ لهم من أبيهم حيث يرون كرمه وفضله، وعندما عادوا إلى بلدهم وجدوا بضاعتهم، لذلك قرروا العودة إما ردًّا للتجارة أو طمعًا في المزيد فجاءوا بأخيهم، وهو دخولهم **المرة الثانية**، فآواه يوسف عليه السلام عن طريق الحيلة المذكورة في التوراة والقرآن، وهي فقدان صواع الملك؛ فرفض العودة معهم أخوهم الأكبر فعادوا إلى أبيهم يخبرونه بما حدث، فأمرهم أبوهم أن يرجعوا، ويتحسسوا من يوسف وأخيه، ولا ييأسوا من روح الله، فاستجابوا لأبيهم، وجاءوا **للمرة الثالثة**، وعندئذ كشف لهم يوسف عليه السلام عن حقيقة الأمر، وأمرهم بأن

---

١. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص٤٩٣.

٢. المرجع سابق، ص٤٩٤.

يرحلوا ويأتوا بأهلهم أجمعين، فكان دخولهم جميعًا مع أبويهم، وهذه هي **المرة الرابعة**، وهذا هو الواقع الحقّ.

وبالعرض السابق للحقائق التي ذكرها القرآن، ولم يرد لها ذكر في التوراة، يتبين لنا أن التوراة محرفة استبعد كاتبها ما يريده، وأضاف إليها ما يحلو له، فوقع في العديد من الأخطاء، والتناقضات التي لا تثبت أمام النقد الدقيق[١].

الخلاصة:

- لم يخطئ القرآن الكريم في سرد الوقائع التاريخية، فقد صوب وأضاف؛ لأنه الكتاب الخاتم الذي سلِم من التحريف، أما التوراة المحرفة فلا يُصدَّق ما جاء بها؛ لأنها قول البشر. ويدل على تحريفها تناقضها مع الحقائق التاريخية ومع نفسها.
- ومما يدل على تحريف التوراة أن: التوراة تذكر أن الحاكم زمن سيدنا يوسف عليه السلام كان فرعون، والقرآن يذكر أنه ملك، فاختلاف الألقاب هنا على أساس العصور؛ إذ كان الهكسوس آنذاك هم حكام مصر وليس الفراعنة، حيث طرد الهكسوس الفراعنة من مصر بعد تغلبهم عليهم، والحاكم عند الهكسوس يطلق عليه لفظ "ملك" وليس "فرعون"، ولم يُعرف هذا إلا بعد اكتشاف حجر رشيد، وقد تحدَّث عنه القرآن منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان. وهذا مما يؤكِّد عصمة القرآن وإعجازه العلمي، كما يؤكِّد على تحريف التوراة وعبث البشر بها.
- سجن يوسف لأخيه لا يليق بعصمته عليه السلام، فهو نبي أدَّبه ربُّه فحَسُن خُلُقه، والقرآن يحكي أنه أكرم وفادة إخوته، وبالغ في إعطائهم، وترك لهم بضاعتهم فلم يأخذها مقابل ما أعطاهم من قمح؛ حتى يُحفِّزهم كرمه على العودة ثانية ومعهم أخوه بنيامين طمعًا في عطاياه، ولم يسجن أخاه بالطبع لبراءته، وكيف يتوقّع ممن أراد أن يسعد بجوار أخيه ويهنأ بالقرب منه بعد غياب وحرمان، كيف يتسنى له أن يسجنه؟! ولم يأخذ رهائن منهم - كما زعمت التوراة - بل إن كبيرهم كما حكى القرآن فضّل البقاء على رؤية الحزن في عين أبيه، فهي مسألة اختيارية إذن.
- ومن تناقض التوراة في ذكر اسم الرهينة، يتضح لنا عبث الكاتب فهذا خيال البشر، فتارة يذكر أنه شمعون، وأخرى أنه يهوذا، والأخ الأكبر كان رأوبين، ليس هذا ولا ذاك.
- أما عدد مرات مجيء إخوة يوسف عليه السلام إلى مصر فأربع، وليس ثلاث كما زعمت التوراة، ومن خلال العرض السابق يتضح لنا أن القرآن قال هذا وقوله الحق، أما التوراة فقد تناقضت في هذا الشأن كما تناقضت في غيره.

❦

الشبهة الثانية والأربعون

إنكار حقيقة قميص يوسف عليه السلام، ومعجزة شفاء يعقوب عليه السلام(*)

مضمون الشبهة:

أنكر بعض المغرضين معجزة قميص يوسف التي

---

١. انظر: قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق..

(*) هل القرآن معصوم؟ موقع إسلاميات.
www.Islameyat.com

أشار إليها القرآن في قوله ﷻ: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾(يوسف). وينتقدون تفسير مجاهد للآية، بأن قميص يوسف عليه السلام هو نفسه قميص إبراهيم عليه السلام الذي جاء به جبريل عليه السلام من حرير الجنة فألبسه إيّاه لمّا أُلقي في النار عُريانًا. ويحتجون في إنكارهم بأن ذلك لم يرد في التوراة. ويتساءل هؤلاء: كيف يلبس أهل الأرض ثياب أهل السَّماء؟ وكيف يصحب القميص عمل المعجزات على أيدي الذين توارثوه أيًّا ما كانوا؟

وجوه إبطال الشبهة:

١) معجزة الشفاء بالقميص تدل على قدرة الله الذي يقول للشيء "كن فيكون"، وتفسير بعض المفسرين لنصوص القرآن ليس حجة على القرآن، إذ المجتهد في الإسلام له أجران إن أصاب، وأجرٌ واحدٌ إن أخطأ.

٢) اختلفت حادثة القميص في التوراة عنها في القرآن؛ لأن التوراة المحرفة تركز على الأشياء المادية المحسوسة، أما القرآن فيذكر أنها معجزةٌ لنبي كسائر معجزات الأنبياء.

٣) تناقض نصوص التوراة مع القرآن ليس حجة على القرآن، بل هو حجة له، فالثابت أن التوراة محرفة؛ فلا يؤخذ منها إلا ما وافق القرآن المعصوم من التحريف.

التفصيل:

أولا. معجزة الشفاء بالقميص تدل على قدرة الله، وتفسير بعض المفسرين لنصوص القرآن ليس حجة عليه:

إن القرآن الكريم هو كلام رب العالمين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، حين قصّ إلقاء القميص على وجه يعقوب عليه السلام فارتد بصيرًا، لم يذكر لنا أن هذا القميص كان قميص إبراهيم عليه السلام الذي لبسه في النار فنجاه الله منها، أو غيره، وإنما الذي ذكره أنها معجزة حدثت مع نبي من أنبياء الله - عليهم السلام - لتدل على صدق نبوته.

وانطلاقًا من هذا فتفسير مجاهد لقميص يوسف على الوجه المذكور لم ينص عليه القرآن، وبالتالي فليس حجة على القرآن، ولا مُلزمًا له، فقد يكون هذا الخبر صحيحًا، وقد لا يكون صحيحًا، والذي ذكره القرآن الكريم أن يوسف عليه السلام قال لإخوته: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ (يوسف:٩٣)، فكانت هذه معجزة ليوسف عليه السلام، والمعجزة فعل الله ﷻ يظهره على يد نبي من أنبيائه تأييدًا له وتصديقًا لدعواه، وهذا في الغالب وحي إلهام من الله ﷻ إلى نبيه يوسف بهذا الأمر، وإلى أبيه يعقوب قبل أن يصل إخوة يوسف ومعهم قميصه، ليزفوا إليه البشري فعبر عن هذا بقوله: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾ (يوسف).

وتحقق ما أخبر به يوسف عليه السلام: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ (يوسف: ٩٦)، فالمعجزة في تحقق خبر يوسف عليه السلام، والقميص ما هو إلا أداة لتحقق المعجزة، وليست المعجزة في القميص ذاته، ولو كان الأمر خاصية في القميص لما كان في ذلك معجزة، ولا تأييد من الله ﷻ وإنما يعود إلى هذه الخاصية، كالحديد المغنط مثلًا.

وهذا يشبه عصا موسى عليه السلام التي كان يستخدمها موسى عليه السلام قبل نبوَّته في الحاجات المعتادة، فأظهر الله المعجزات عليها.

وشفاء سيدنا يعقوب عليه السلام بوضع القميص على وجهه معجزة من المعجزات الخارجة عن قدرة الإنسان، وليس المهم هو القميص أو وضعه على وجهه، فقد كان ذلك لتسهيل وقع المعجزة على الحاضرين فحسب، ولكن المهم هو طريقة الشفاء، وهي إرادة الله المنحصرة في "كن فيكون"، وهي خارجة عن كل السنن الطبيعية التي أمر الإنسان أن يتعلمها، فعظمة المعجزة ليست في النتيجة فحسب، ولكن في طريقة الشفاء.

وكما أن ردَّ بصر يعقوب عليه السلام بالقميص معجزة، كان شمه لريح يوسف عليه السلام على بُعد أيضًا معجزة يجب التصديق بها من غير بحث عن العلَّة والكيفية.

فلما برئ يعقوب عليه السلام من مرضه، وكشف الله همَّه وحزنه وفك كربه، أجاب مَن لاموه بما كان عليه من علم قطعي من ربه بصدق ما قاله لهم حين فصلت العير، وهذا هو الوقت المناسب للجواب، فقد قال لهم مقررًا صدق قوله: ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (يوسف)، أي: ألم أقل لكم يوم أرسلتكم إلى مصر، وأمرتكم بالتحسس ونهيتكم من اليأس من روح الله، وأقل لمن وراءكم في أثناء غيبتكم: إني لأجد ريح يوسف، وإني أعلم بوحي الله لا من خطرات الأوهام ما لا تعلمون من حياة يوسف عليه السلام، فكان عليكم جميعًا أن تصدقوني في كل ما قلته؛ لأني نبي يُوحى إلى، وما كان ينبغي أن تشكُّوا في شيء مما ذكرته لكم[1].

ثانيًا. اختلفت حادثة القميص في التوراة عنها في القرآن؛ لأن التوراة المحرفة تركز على الماديات، والأشياء المحسوسة، أما القرآن فيذكر أنها معجزة لنبي كسائر معجزات الأنبياء:

تفرد القرآن بذكر إرسال قميص يوسف عليه السلام إلى أبيه، ولم يرد ذكره في التوراة، فقد جاءه البشير أولًا حاملًا الأخبار السارة بالعثور على يوسف عليه السلام وأخيه أحياء يرزقون، ومكانة يوسف عليه السلام العالية في مصر، ثم أثر يوسف الذي يحمل رائحته الطيبة، وهو قميص الشفاء الذي أُلقي على وجه يعقوب عليه السلام فارتد بصيرًا.

ومما تجدر الإشارة إليه اختلاف وجدان يعقوب عليه السلام في القرآن الكريم عمّا جاء في التوراة، فالقرآن الكريم أكد أن يعقوب عليه السلام شم رائحة يوسف عليه السلام التي لم تغيرها السنون فأحس بقرب وصدق حسه، وطلب منه الأبناء أن يستغفر لهم ربه الغفور الرحيم.

أما التوراة فقد صوَّرت يعقوب عليه السلام بالمغشي عليه حين عرف أمر يوسف عليه السلام كما جاء في سفر التكوين: "فصعدوا من مصر وجاءوا إلى أرض كنعان، إلى يعقوب أبيهم. وأخبروه قائلين: يوسف حي بعد، وهو متسلط على كل أرض مصر. فجمد قلبه لأنه لم يصدقهم. ثم كلموه بكل كلام يوسف الذي كلمهم به، وأبصر العجلات التي أرسلها يوسف لتحمله.

---
١. قصص القرآن، محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص١٤٣، ١٤٤.

فعاشت روح يعقوب أبيهم. فقال إسرائيل: كفى! يوسف ابني حي بعد. أذهب وأراه قبل أن أموت". (التكوين ٤٥: ٢٥-٢٨).

وهذه إشارة واضحة تؤكد أن التوراة من كلام بشر يُركز على المادة، ووسيلة النقل التي تنعش الروح.

فشتان ما بين هذا وأسلوب القرآن الكريم الذي صرح بأن يعقوب عليه السلام صار أقوى من ذي قبل، فلو تأملنا لفظ القرآن "بصيرًا" هكذا بصيغة المبالغة، وليس بصيغة اسم الفاعل، لرأينا أنه قد تبدل الحزن، والوهن، والضعف إلى قوة واستبشار مع هذه المعجزة. ألا يدل هذا على أنها تأييد من الله ونصرة لعبديه الصابرين الكريمين[1]؟!

ثالثًا. تناقض نصوص التوراة ليس حجة على القرآن؛ لأننا لا نأخذ بما جاء فيها إلا إذا اتفقت مع نصوص القرآن الكريم:

إن بعض نُسَخ التوراة تصرِّح بعَمَى يعقوب عليه السلام، وأنه سيبصر إذا وضع يوسف يده على عينيه، ومن ذلك: "أنا أنزل معك إلى مصر، وأنا أصعدك أيضًا، ويضع يوسف يده على عينيك". (التكوين ٤٦: ٤)، وفي نسخة ثانية تنفي التوراة عمى يعقوب عليه السلام، وفي نسخة ثالثة تكتفي بالنص على ضعف بصر يعقوب: "وأما عينا إسرائيل فكانتا قد ثقلتا من الشيخوخة، لا يقدر أن يبصر، فقربهما إليه فقبلهما واحتضنهما". (التكوين ٤٨: ١٠).

واستبعاد شفاء يعقوب برؤية القميص، لا محل له؛ وذلك لأن في التوراة ما يشبه مثل هذه الحادثة. فنبي الله اليسع عليه السلام، لما مات ودفنوه في قبره، دفنوا معه بعد فترة من الزمن ميتًا، فلما مست عظامه عظام اليسع، رُدّت إليه روحه، وهذا أشد إعجازًا من قميص يعقوب عليه السلام، ففي سفر الملوك الثاني: "ومات أليشع فدفنوه. وكان غزاة موآب تدخل على الأرض عند دخول السنة. وفيما كانوا يدفنون رجلًا إذا بهم قد رأوا الغزاة، فطرحوا الرجل في قبر أليشع، فلما نزل الرجل ومس عظام أليشع عاش وقام على رجليه". (الملوك الثاني ١٣: ٢٠، ٢١)[2].

إذن فلماذا العنت عندما تكون المعجزة من خلال القرآن، وهم يؤمنون بوجودها وواردة في كتبهم؟ فَلِمَ ينكرون هذا الحدث مع نبيين من أنبياء الله كريمين - يوسف ويعقوب عليهما السلام - أليسا من أنبياء الله المؤيَّدين بالمعجزات؟!

مما سبق يتضح لنا أن قميص يوسف عليه السلام الذي ألقاه إخوته على وجه أبيهم فارتد بصيرًا صحيح كما ورد ذكره في القرآن الكريم، وهذا إنما يدل على قدرة الله عز وجل الذي يقول للشيء: "كن فيكون"، وعلى صدق نبوة يوسف وأبيه - عليهما السلام -، حيث أيدهما الله بالمعجزات كغيرهم من الأنبياء والرسل الكرام.

الخلاصة:

- معجزة الشفاء بالقميص التي أنكرها هؤلاء تدل على قدرة الله الذي يقول للشيء كن فيكون، أما تفسير "مجاهد" بأن هذا قميص النبوة المتوارث عن

١. انظر: جولة نقدية في نصوص الرواية التوراتية، محمد صالح توفيق، مرجع سابق.

٢. حقائق الإسلام في مواجهة المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص٤٩٥، ٤٩٦.

سيدنا إبراهيم عليه السلام، فهو اجتهاد بشر في نص من نصوص القرآن، فليس حجة على القرآن، ولا ملزمًا له، فالمجتهد في الإسلام له أجر واحد إن أخطأ، وأجران إن أصاب.

- شفاء يعقوب عليه السلام بوضع القميص على وجهه معجزة من المعجزات الخارجة عن قدرة الإنسان، وليس المهم هو القميص، أو وضعه على وجهه، فقد كان ذلك لتسهيل وقع المعجزة على الحاضرين فحسب، ولكن المهم هو طريقة الشفاء، وهي إرادة الله المنحصرة في "كن فيكون".. فعظمة المعجزة ليست في النتيجة فحسب، ولكن في طريقه الشفاء.

- اختلاف حادثة القميص في التوراة عنها في القرآن؛ لأن التوراة المحرفة تركز على الماديات والأشياء المحسوسة، فتحكي أن يعقوب عليه السلام انتعشت روحه حينما رأى المركبات المحملة بالخيرات.

- فأين هذا من أسلوب القرآن الحكيم الذي وصف يعقوب عليه السلام أنه ابيضت عيناه من الحزن لكثرة الألم، وشدة البكاء؟! وظل آملًا في روح الله ونصرته، وقد صار أقوى من ذي قبل؛ بإلقاء القميص على وجهه، فالعينان الضعيفتان اللتان أنهكهما البكاء والشيخوخة قد صارتا مبصرتين وقويتين، كأنهما لم يصابا بعمى ولا ضعف من قبل، وهذا فضل الله ونعمته على عباده الصابرين.

- على أن ما رأينا من معجزات مع سيدنا يعقوب ويوسف ـ عليهما السلام ـ ليس بغريب، فالله عز وجل يؤيد بنصره من يشاء من عباده، ومعجزات سائر الأنبياء لا تخفى على أحد؛ فلماذا ينكرونها على هذين النبيين الكريمين؟!!

- التوراة تتناقض في هذا الشأن فبعض النسخ تذكر أن يعقوب عليه السلام أصيب بالعمى، والأخرى لا تذكره، ومن أجل هذا التحريف لا نصدق كل ما جاء بها إلا إذا اتفق مع نصوص القرآن الكريم. كما أن التوراة التي تنكر هذه المعجزة لنبي الله يعقوب تشتمل على معجزات مماثلة، كما جاء في سفر الملوك الثاني: "أن اليسع بعد موته وضعوا في قبره ميتًا فردت إليه روحه بملامسته". فأيهما أشد إعجازًا إحياء الموتى، أو رد الإبصار بعد العمى؟!

الشبهة الثالثة والأربعون

الفهم الخاطئ لسجود إخوة يوسف له عليه السلام(*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض الجاهلين أن يوسف عليه السلام أسجد أبويه وإخوته له، وكان السجود بوضع الجباه على الأرض، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ (يوسف: ١٠٠) والسجود لا يكون إلا لله، وبذلك يكون يوسف عليه السلام قد أعطى نفسه حقًّا من حقوق الله تعالى. ويتساءلون: كيف يعطي نفسه ـ وهو نبي ـ حقًّا لا يكون إلا لله؟

(*) عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

وجه إبطال الشبهة:

سجود إخوة يوسف عليه السلام كان سجود تحية وتكريم له، أو سجود حَمْدٍ وشكر لله على وجوده، وليس سجود عبادة، فذلك لا يكون إلا لله، وكان سجود الملائكة لآدم عليه السلام من هذا القبيل.

التفصيل:

الفهم الصحيح لسجود إخوة يوسف له:

إن الفهم الخاطئ لمعنى السجود في قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ (يوسف: ١٠٠) هو الذي دفع هؤلاء إلى توهّم أن يوسف عليه السلام قد أعطى لنفسه حقًّا من حقوق الله وهو السجود له، وقد جهل هؤلاء أن السجود في اللغة له معانٍ عدة غير العبادة، يمكننا أن نعرضها لنوضح لهم المعنى الصحيح لسجود إخوة يوسف عليه السلام وأبويه له، وهي كما ذكر د. محمد أبو النور الحديدي:

١. أن السجود إنما كان لله شكرًا له من أجل لقائهم بيوسف عليه السلام وتكون اللام في قوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ (يوسف) للتعليل. نسبه الفخر الرازي إلى ابن عباس -رضي الله عنهما-، ويستدل على صحته بقول الله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ (يوسف: ١٠٠)؛ فهو مشعر بأنهم صعدوا على ذلك السرير، ثم سجدوا ليوسف عليه السلام، فلو أنهم سجدوا ليوسف لسجدوا له قبل الصعود على السرير؛ لأن ذلك أدخل في التواضع.

ويرى الفخر الرازي: أن هذا القول أولى الأقوال بالقبول، فيقول: وعندي أن هذا التأويل متعين؛ لأنه يُستبعد من عقل يوسف عليه السلام ودينه أن يرضي بأن يسجد له أبوه مع سابقته في حقوق الولادة، والشيخوخة والعلم، والدين، وكمال النبوة[1].

٢. أن السجود لله شكرًا لنعمة وجود يوسف، إلا أنهم جعلوا يوسف عليه السلام كالقبلة، وتكون اللام بمعنى "إلى" واستدل عليه الفخر الرازي بالقرآن وبالشعر؛ أما القرآن فقول الله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾ (الإسراء: ٧٨)؛ أي عند دلوك الشمس، والصلاة لله لا لدلوك، فإذا جاز ذلك فإنه يجوز أن يقال: صليت للقبلة، مع أن الصلاة تكون لله تعالى لا للقبلة. وأما الشعر فقول حسان:

ما كنت أعرفُ أن الأمرَ منصرفٌ
عن هاشمٍ ثمَّ منها عن أبي حسنِ
أليس أول من صلى لقبلتكم
وأعرف الناسِ بالقرآنِ والسنن

وعلى هذا فمعنى ﴿ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ (يوسف: ١٠٠) جعلوه كالقبلة، ثم سجدوا لله شكرًا لنعمه عليهم، واستحسن الفخر الرازي هذا التأويل، وقال: وهذا التأويل حسن.

٣. أن السجود للآدمي كان عندهم جائزًا، وكان تحية الملوك في زمنهم.

قال الزمخشري: إن السجدة كانت عندهم جارية مجرى التحية والتكرمة كالقيام، والمصافحة، وتقبيل اليد، ونحوه مما جرت عليه عادة الناس من أفعال

---

١. مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، مرجع سابق، ج٥، ص١٧١.

شُهدت في التعظيم والتوقير[١].

ثم جعل الله تحية هذه الأمة السلام الذي هو تحية أهل الجنة، نقل الآلوسي عن قتادة قوله: كان السجود تحية الملوك عندهم، وأعطى الله تعالى هذه الأمة السلام، تحية أهل الجنة كرامة منه تعالى عجَّلها لهم. ولم يذكر ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية غير هذا الرأي، وهو يُشعِر باختياره له وترجيحه على ما عداه، ويقول: كان هذا سائغًا في شرائعهم إذا سلَّموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزًا من لدن آدم عليه السلام إلى شريعة عيسى عليه السلام فحرُم هذا في هذه الملة - أي الإسلام - وجُعِل السجود مختصًّا بجانب الرب عز وجل. ويستدل على هذا بحديثين:

الأول: أن معاذًا رضي الله عنه قدم الشام، فوجدهم يسجدون لأساقفتهم، فلما رجع سجد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "ما هذا يا معاذ"؟ فقال: أتيتُ الشام فوافقتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم، فوددت في نفسي أن نفعل ذلك بك، فقال صلى الله عليه وسلم: "فلا تفعلوا، فإني لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها"[٢].

الثاني: أن سلمان رضي الله عنه لقي النبي صلى الله عليه وسلم في بعض طرق المدينة، وكان حديث عهد بالإسلام، فسجد للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: "لا تسجد لي يا سلمان، واسجد للحي الذي لا يموت"[٣][٤].

وهذا الذي اختاره الإمام ابن كثير هو رأي الأكثر[٥].

هذا وقد سجد الملائكة لآدم عليه السلام سجود تحية وتكريم، ولم يسجدوا له سجود عبادة؛ لأن سجود العبادة لا يكون إلا لله عز وجل، فإخوة يوسف سجدوا له تكريمًا وتحية، على أي معنى من معاني السجود، ومن ثم فلا إشكال، ولا سيما أن ذلك كان جائزًا في الشرائع السابقة، ولم يُحرَّم إلا في شريعة الإسلام؛ تحقيقًا لمعنى مساواة الناس في العبودية®.

الخلاصة:

- إن الفهم الخاطئ لمعنى سجود إخوة يوسف عليه السلام وأبويه له، هو الذي دفع بعضهم إلى أن يتوهم أن يوسف عليه السلام قد أعطى لنفسه حقًّا من حقوق الله، ولو أنعم هؤلاء النظر في معاني السجود في اللغة، لتجلت لهم الحقيقة كاملة.
- الحقيقة أن سجود إخوة يوسف عليه السلام له، لم يكن سجود عبادة، بل سجود شكر لله تبارك وتعالى على جمعهم بيوسف عليه السلام، أو هو سجود تحية وتكريم ليوسف عليه السلام وكان السجود للسادة والملوك جائزًا في الشرائع السابقة وقد حُرِّم في الإسلام.

---

١. الكشاف، الزمخشري، مرجع سابق، ج٢، ص٣٤٤.

٢. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننها، كتاب النكاح، باب حق الزوج على المرأة (١٨٥٣)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٥٠٣).

٣. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، ج٤، ص٢٨٦.

٤. أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، سورة الفرقان (١٤٢٤٢).

٥. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٣٤، ٣٣٥.

® في **"حقيقة سجود الملائكة لآدم"** طالع أيضًا: الوجه الأول، من الشبهة الثانية، من هذا الجزء. والوجه الرابع، من الشبهة الخامسة، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

الشبهة الرابعة والأربعون

ادِّعاء أن نبي الله أيوب عليه السلام كان غضوبًا(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن أيوب عليه السلام كان غضوبًا، وغضبه أدى به إلى الحلف على زوجته بأن يضربها مائة جلدة، ويستدلون بقوله عز وجل: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ (ص). ويتساءلون: كيف يغضب أيوب عليه السلام على زوجته التي رعته وسهرت على تمريضه ومعالجته مدة طويلة، وهو البارُّ الصبور الذي صبر على ضياع أولاده، وعبيده، ومواشيه؟!!

وجها إبطال الشبهة:

١) الآية المذكورة لم تُثبت لأيوب عليه السلام غضبًا شخصيًّا، بقدر ما أثبتت له غضبًا لأجل الدين، فهو لم يُقْسم على ضربها إلا بعد أن علم أن الشيطان خادعها، وساومها على سلامة اعتقادها، وهذا لا يعني أنه لم يحفظ جميل زوجته.

٢) أيوب عليه السلام لم يوصف في القرآن بالغضب، ولكنه وصف بالصبر وأنه أوَّاب؛ فقد كان مؤمنًا بالله عابدًا تقيًّا صابرًا؛ ولذلك خفف الله عليه البِرَّ بقسمه.

التفصيل:

أولا. الآية لم تثبت لأيوب غضبًا شخصيًّا، بقدر ما أثبتت له غضبًا لأجل الدين:

إن القرآن الكريم علَّم أتباعه أن يوقروا المرسلين جميعهم، ونهاهم عن أن يفرقوا بين أحد من رسل الله تعالى الكرام، واعتبر التفريق بينهم كفرًا حقيقيًّا، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ ﴾ (النساء). وجعل من صفات عباده المؤمنين أنهم يقولون: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ (البقرة)، فالقرآن أدَّب أصحابه على الإيمان بجميع الرسل وعدم التفريق بينهم.

في ضوء ما سبق يجب أن نفهم سياق قوله تعالى في حق سيدنا أيوب عليه السلام: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ (ص: ٤٤). فالآيات لم تثبت لأيوب غضبًا شخصيًّا، بقدر ما أثبتت له غضبًا لأجل الدين، وانتهاك حرمات الله، وقد كانت هذه صفة مدح وصف بها النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فقد ثبت أنه ما كان يغضب إلَّا إذا انتهكت محارم الله عز وجل.

إن الذي حدث أن أيوب عليه السلام حلف في مرضه أن يضرب امرأته مائه جلدة؛ وقد قيل في سبب ذلك عدة أقوال، منها:

- ما حكاه ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن إبليس لقيها في صورة طبيب فدعته لمداواة أيوب، فقال أداويه على أنه إذا برئ قال: أنت شفيتني، لا أريد جزاء سواه، قالت: نعم، فحلف ليضربنَّها، وقال: ويْحك ذلك الشيطان.

(*) موقع الكلمة. www.alkalema.net

• ما حكاه سعيد بن المسيِّب ـ رحمه الله ـ أنها جاءته بزيادة على ما كانت تأتيه من الخبز، فخاف خيانتها، فحلف ليضربنها.

• ما حكاه يحيى بن سلاّم وغيره أن الشيطان أغواها، أن تحمل أيوب عليه السلام على أن يذبح سَخْلَة[1] تقرّبًا إليه وأنه يبرأ، فذكرت ذلك له فحلف ليضربنّها ـ إن عُوفي ـ مائة[2].

"ثم إن أيوب عليه السلام أصبح متحيرًا في يمينه الذي حلفه وتوعد به، فأتاه جبريل عليه السلام، وقال له: يا أيوب، خذ مائة عود من أعواد سنابل القمح، واجمعها حزمة واضرب بها رحمة ضربة واحدة خفيفة لطيفة، فتخلص من اليمين، ففعل ذلك أيوب وخلص من يمينه، وذلك قول الله تعالى: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ (ص: ٤٤)، وذلك لأن الله تعالى رحمها بسبب صبرها على بلاء زوجها، فخفّف عنها؛ لأنها كانت تتكسّب عليه[3] وتعمل للناس من أجله"[4].

فأيوب عليه السلام ـ إذن ـ لم يغضب ويقسم أنه سيضرب زوجته التي صبرت على البلاء معه طويلًا إلّا بعد أن علم أن الشيطان خادعها، وساومها على سلامة اعتقادها في الله عز وجل حتى جعلها تظن أن شفاء زوجها فيما ينصحها به، مما يؤثر على سلامة اعتقادها، وهذا ما لم يَرضه أيوب عليه السلام منها؛ فحلف أن يضربها لتسلم لها نفسها ويقينها، وتعلم أن الشفاء من ربها، لا دخل لبشر فيه ولا لغير البشر.

إن نبي الله أيوب عليه السلام لم يغضب لنفسه، وإنما غضب لله، والغضب لله ليس عيبًا يُلصق بالغاضب، وليت من يَلْمِز[5] القرآن بأنه ألصق الغضب بسيدنا أيوب عليه السلام، يعرف كيف يحفظ القرآن أعراض الأنبياء وسيرهم؟ وترانا يقتلنا الحزن ونحن نسمع أنهم يلصقون بأنبيائهم قتل الرجال ليتزوجوا نساءهم، وينسبون إليهم أفحش ما ينسب إلى الناس من زنا المحارم، وغير ذلك من الأوصاف التي لا تليق بآحاد الناس، فما بالنا بأفضل خلق الله!

فهل هذا من الأدب مع المصطفين الأخيار؟ وهل من يقتنع بهذا العار يزعم أنه يحفظ عرض أحد؟ كيف وقد نالوا من الأنبياء؟!

ثانيًا. أيوب عليه السلام لم يوصف في القرآن بالغضب، ولكنه وصف بالصبر:

لم يوصف أيوب عليه السلام في القرآن بالغضب، ولكنه وُصِف بالصبر، وأنه أوّاب، وأنه نعم العبد، فقد كان: امرأً حَسن الخلق، مؤمنًا بالله عابدًا تقيًّا صابرًا، راضي النفس طيب الفؤاد، عطوفًا على الفقراء، رحيمًا بالمساكين يكفل الأرامل والأيتام، ويكرم الضيف، ويبلغ ابن السبيل، فأثنى الله عليه بقوله: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ (ص)، وكان دائمًا يسبح الله بقوله: "سبحانك ربي صاحب الملكوت"، فكانت الملائكة تردد تسبيحه في السماء، فحسده إبليس وسُلِّط

---

١. السَّخْلَة: الذكر والأنثى من ولد الضَّأن والمعز ساعة يُولَد.

٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١٥، ص٢١٢ بتصرف يسير.

٣. تتكسَّب عليه: تعمل وتنفق عليه.

٤. حياة وأخلاق الأنبياء، أحمد الصباحي عوض الله، مرجع سابق، ص١٦٠.

٥. يَلْمِز: يعيب.

عليه في ماله وأولاده وبدنه، فصبر أيوب صبرًا جميلًا، فخسئت الشياطين، وانتصر الصبر مع الإيمان بالله"[1].

وقصة ابتلاء أيوب عليه السلام وصبره ذائعة مشهورة، وهي تُضرَب مثلًا للابتلاء والصبر، ولكنها مشوبة بإسرائيليات تطغى عليها، "والحد المأمون في هذه القصة ـ كما أشار صاحب الظلال ـ أن أيوب عليه السلام كان ـ كما جاء في القرآن ـ عبدًا صالحًا أوَّابًا، وقد ابتلاه الله فصبر صبرًا جميلًا".

ويبدو أن ابتلاءه كان بذهاب المال والأهل والصحة جميعًا، ولكنه ظل على صلته بربه، وثقته به، ورضاه بما قسم له.

وكان الشيطان يوسوس لخُلصائه[2] القلائل الذين بقوا على وفائهم له ـ ومنهم زوجته ـ بأن الله لو كان يحب أيوب عليه السلام ما ابتلاه، وكانوا يحدثونه بهذا، فيؤذيه في نفسه أشد ما يؤذيه الضرُّ والبلاءُ، فلما حدَّثته امرأته ببعض هذه الوسوسة، حلف لئن شفاه الله ليضربنها عددًا حدده قيل: مائة.

وعندئذ توجَّه إلى ربه بالشكوى مما يلقى من إيذاء الشيطان، ومداخله إلى نفوس خلصائه، ووقع هذا الإيذاء في نفسه، فقال: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾ (ص)، فلما عرف ربه منه صدقه وصبره، ونفوره من محاولات الشيطان، وتأذِّيه بها، أدركه برحمته، وأنهى ابتلاءه، ورد عليه عافيته، إذ أمره أن يضرب الأرض بقدمه، فتتفجَّر عين باردة يغتسل منها ويشرب، فيشفى ويبرأ، فقال عز وجل: ﴿ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ ﴾ (ص).

وأما قسمه ليضربنَّ زوجه، فرحمة من الله به وبزوجه التي قامت على رعايته، وصبرت على بلائه وبلائها به، أمره الله أن يأخذ مجموعة من العيدان بالعدد الذي حدده، فيضربها به ضربة واحدة، تجزئ عن يمينه، فلا يحنث فيه فقال: ﴿ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿٤٤﴾ ﴾ (ص)، هذا التيسير وذلك الإنعام كانا جزاءً على ما علمه الله من عبده أيوب عليه السلام من الصبر على البلاء، وحسن الطاعة والالتجاء إليه سبحانه[3]؛ حيث وصفه تعالى فقال: ﴿ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿٤٤﴾ ﴾ (ص).

فالمولى عز وجل يكافئ عباده المخلصين وما يتناسب مع إخلاصهم وصبرهم؛ لتكون لنا العظة والعبرة، ومن ثم فلا تعلق هنا لصاحب الشبهة بما ذكره في تلك القصة، فليس هناك انتقاص من قدر النبي عليه السلام، وليس هناك غضب، ولا تنفيس لثورته وحدَّته.

الخلاصة:

- الآية تثبت أن غضب أيوب عليه السلام غضب لأجل الدين، وارتكاب المحرَّمات؛ فهو عليه السلام لم يغضب إلَّا بعد أن علم أن الشيطان خادع زوجته، وساومها على سلامة اعتقادها في الله عز وجل.
- وصف القرآن أيوب عليه السلام بالصبر، وبأنه أوَّاب وأنه نعم العبد، ولم يصفه بالغضب كما زعموا.

1. حياة وأخلاق الأنبياء، أحمد الصباحي عوض الله، مرجع سابق، ص١٤٩.
2. الخُلَصاء: المخلصين التابعين له.
3. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٥، ص٣٠٢١، ٣٠٢٢.

• أقسم أيوب عليه السلام ليضربنَّ زوجه، ولكن برحمة من الله به وبزوجه التي قامت على رعايته وصبرت على بلائه وبلائها، خفف الله تعالى عليه البرَّ بقسمه، فالمولى عز وجل يكافئ عباده المخلصين وما يتناسب مع إخلاصهم وصبرهم؛ لتكون لنا العظة والعبرة.

الشبهة الخامسة والأربعون

ادِّعاء أن ذا الكفل عليه السلام ليس نبيًّا (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن القرآن أخطأ في النص على نبوة ذي الكفل عليه السلام، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ (ص)، في حين أنه لم يرد ذكره في كتب التاريخ أو التوراة، وكذلك اختلف العلماء حول نبوته ولقبه، فذكر البيضاوي أنه كفل مائة من الأنبياء فرّوا من القتل، والصحيح عندهم أن الذي كفل مائة من الأنبياء هو عوبديا وزير الملك "أخاب" وليس ذا الكفل عليه السلام.

وجوه إبطال الشبهة:

١) لا يعني عدم ذكر نبي في التوراة أنه لم يُذكر في غيرها من الكتب السماوية الأخرى، فليست التوراة الحالية حجَّة فيما ذكرت، ولا حجَّة فيما لم تذكره، ولم يخبرنا التاريخ بكل الأسماء والأحداث حتى ننفي ما لم يذكره.

٢) الظاهر من ذكر ذي الكفل عليه السلام في القرآن الكريم بالثناء مقرونًا مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبي وهو الصحيح، والبيضاوي مفسِّر مجتهد يصيب ويخطئ وليس حجَّة على القرآن.

٣) سُمِّي بذي الكفل؛ لأنه تكفل للنبي اليسع عليه السلام بثلاثة أمور عظام: أن يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يغضب، فاستخلفه على الناس في حياته، ثم تكفَّل لقومه بتنفيذ أمر الله بإطالة أعمارهم. فمن هنا كان اسمه ذا الكفل.

التفصيل:

أولا. التوراة الحالية ليست حجَّة فيما ذكرته من أسماء الأنبياء وما لم تذكره:

لا يعني عدم ذكر نبي في التوراة الحالية أنه لم يذكر في غيرها من الكتب السماوية، فالتوراة ليست حجَّة فيما ذكرت ولا حجَّة فيما لم تذكر، وقد كُتِبَت التوراة بعد موسى عليه السلام بزمن طويل، وبين أيدينا الأدله الكثيرة على أن التوراة التي بين أيدي اليهود والنصارى ليست من عند الله، ولكنها من وضع البشر.

وقد ذكر لنا القرآن الكريم بعض الأسماء لأنبياء ولأقوام دون أن يعرض التفاصيل عن حياتهم؛ ذلك لأن القرآن يتناول السابقين على مستويات متفاوتة، فمنهم من يذكره بالتفصيل، ومنهم من يتناوله إجمالا، ومنهم من يذكره باسمه فقط مثل: "ذو الكفل". قال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ (ص)، ومنهم من لم يذكره إطلاقًا.

أما بالنسبة لكتب التاريخ فهل أخبرنا التاريخ بكل الأسماء والأحداث، حتى ننفي ما لم يقدمه؟ وهل

(*) هل القرآن معصوم؟ موقع إسلاميات.
www.islameyat.com

توقفت كلمة التاريخ والبحث فيه عندما عرفنا؟ أم أن العلم لا يعرف الكلمة الأخيرة، ومع ذلك فإن أهل التاريخ قد ذكروه في بعض كتبهم، وإلا لما عرفنا أن اسمه بِشْر، وأنه ابن أيوب عليه السلام وقد بعثه الله بعد أيوب عليه السلام، وسماه ذا الكفل وكان مقامه في الشام، وأهل دمشق يتناقلون أن له قبرًا في جبل قاسيون، والقرآن الكريم لم يزد على ذكر اسمه في عداد الأنبياء، فثبت من ذلك صدق القرآن الكريم فيما قال وبطلان ادعائهم فيما يقولون[1].

ثانيًا. تفسيرات المفسرين ليست حجة على القرآن:

وأما عن اختلاف العلماء حول نبوَّته ولقبه، وما قيل عن تفسير البيضاوي فقد أشرنا سابقًا إلى أن تفسيرات المفسرين ليست حجة على القرآن، فهي إن أخطأت فمرد ذلك إلى اعتمادها في هذا المجال على الإسرائيليات المليئة بالكذب، ومن ثم فمجال الرد لهذه التفاسير وعدم قبولها يظل قائمًا؛ لأنها من اجتهادات البشر.

ثم إنه يمكن أن يُقال إن استخدام القرآن لهذا التعريف لا يعني بحال أن الرجل اسمه: ذو الكفل، فلربما أراد القرآن أن يخلد ذكر الرجل لما قدمه من عمل صالح في حياته مثل: صيام النهار وقيام الليل، وهذا كما جرت العادة في تسمية بعض الناس بذي المروءة أو أبي الجود أو أبي الفرسان، وكما هو معروف في تاريخ حضارتنا الإسلامية، عندما سمي عثمان بذي النورين، وأبي بكر بالصديق، وعمر بالفاروق، وليست هذه أسماء، بل هي ألقاب لأصحابها، وكذلك فإن هذا - ذا الكفل - ليس اسمه وإنما هو لقبه.

ثالثًا. سبب تسمية النبي ذي الكفل عليه السلام بهذا الاسم:

وسمي بِشْر بذي الكفل؛ لأنه تكفل للنبي اليسع عليه السلام أمام الناس بأمور عظام منها: تنفيذ أمر الله بإطالة أعمارهم، ولذلك فإن قولهم بأن عوبديا وزير الملك "أخاب" هو الذي كفل مائة نبي لا يرفع لقب ذي الكفل عن بشر لعدة أسباب منها:

١. أن كلامهم هذا يحتاج إلى دليل منهم، ولو قالوا: إن هذا ورد في التوراة، فنحن نعلم أن التوراة التي بين أيدي اليهود ليست من عند الله بل من وضع البشر. فما الذي يمنع أن بِشْرًا هو الذي كفل مائةً من الأنبياء؟!

٢. سمي بشر بذي الكفل ليس فقط لأنه كفل مائةً من الأنبياء، ولكن - أيضًا - لأنه تكفل للنبي اليسع عليه السلام بثلاثة أمور عظام: أن يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يغضب، فاستخلفه على الناس في حياته، ثم تكفل لقومه بتنفيذ أمر الله بإطالة أعمارهم، فمن هنا كان اسمه ذا الكفل عليه السلام.

فسواء كان عوبديا هو الذي كفل أو كان "بشر" هو الذي كفل، فإن ذا الكفل عليه السلام هو لقب بشر في كلتا الحالتين[2].

الخلاصة:

- لا يعني عدم ذكر نبي في التوراة أنه لم يذكر في

١. النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، مرجع سابق، ص٢٦٨، ٢٦٩ بتصرف.

٢. حياة وأخلاق الأنبياء، أحمد الصباحي عوض الله، مرجع سابق، ص١٦١: ١٦٣ بتصرف. النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، مرجع سابق، ص٢٦٨، ٢٦٩ بتصرف. قصص الأنبياء، ابن كثير، مرجع سابق، ص٢٠٨، ٢٠٩ بتصرف.

غيرها من الكتب السماوية، وما ذكر فيها لا يُعَدُّ حجَّة، فليست التوراة حجَّة فيما ذكرت ولا فيما لم تذكره، فقد ثبت بالأدلة أن التوراة التي بأيدي اليهود والنصارى ليست من عند الله، ولكنها من وضع البشر.

- لم يخبرنا التاريخ بكل الأسماء والأحداث حتى ننفي ما لم يقدمه.
- إن تفسيرات المفسرين ليست حجة على القرآن، فهي معتمدة في هذا المجال على الإسرائيليات المليئة بالكذب.
- إن استخدام القرآن لهذا التعريف، لا يعني أن الرجل اسمه: ذو الكفل، فلربما أراد القرآن أن يخلد ذكره لما قدمه من عمل صالح.

الشبهة السادسة والأربعون

دعوى وقوع سيدنا يونس عليه السلام في المعصية برحيله عن قومه(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن يونس عليه السلام ارتكب معصية حين رحل عن قومه بدون إذن من الله تعالى، ويستدلون على هذا بالآتي:

١. أن يونس عليه السلام قد غاضب[1] ربه كما في قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ (الأنبياء: ٨٧)، ومغاضبة الله من أعظم الذنوب.

٢. أن يونس عليه السلام قد شك في قدرة الله عز وجل عليه كما قال: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ (الأنبياء: ٨٧).

٣. أنه اعترف بوقوع الظلم منه، كما حكاه الله تعالى عنه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ (الأنبياء)، والظلم ذنب كبير، والظالم ملعون، قال تعالى: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ (هود).

٤. أن الله عاقبه بإلقائه في بطن الحوت، والعقوبة إنما تكون على ذنب اقتُرف، وإثم ارتُكب.

٥. أنه أتى ما يُلام عليه بنص قوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ١٤١﴾ (الصافات)[2].

٦. أن الله تعالى نهى نبيه محمدًا ﷺ عن التشبه بيونس في قوله: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ٤٨﴾ (القلم)[3]، ولا معنى للنهي عن التشبه به إلا لأنه ارتكب ذنبًا، منطلقين من هذا كله إلى القول بوقوع يونس عليه السلام في المعصية، ومنه إلى الطعن في عصمته.

وجوه إبطال الشبهة:

١) المراد بالمغاضبة في الآية مغاضبته لقومه وليست لربه، وهي ليست معصية، وإنما هي من باب مخالفة الأَوْلى؛ إذ الأولى أن يُصابر، وينتظر الإذن من الله عز وجل في المهاجرة عنهم.

٢) قوله عز وجل: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ (الأنبياء: ٨٧)

(*) عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

١. غاضب: أغضب.

٢. سَاهَم: ضربوا القُرْعة بينهم.

٣. مَكْظُوم: مملوء غمًّا.

ليس معناه العجز فلا يقدر عليه، وإنما المعنى: فظن أن لن نعاقبه بالتضييق عليه؛ إذ معنى نقدر هنا: نضيِّق وليس المعنى "القدرة".

٣) الظلم في قوله ﷻ على لسان يونس عليه السلام: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ (الأنبياء) ليس على ظاهره، وإنما هو بمعناه اللغوي: أي وضع الشيء في غير موضعه، فيونس عليه السلام قد اجتهد فأخطأ في الاجتهاد، ومن اجتهد فأصاب فله أجران، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر.

٤) الملامة كانت بسبب ترك الأَوْلى، أو الخطأ في الاجتهاد، وليست للمعصية كما يزعمون.

٥) نَهْي الله لمحمد ﷺ عن التشبه بيونس عليه السلام في تركه لقومه، إنما هو تذكير وحثٌّ على ملازمة قومه، والصبر عليهم.

التفصيل:

أولا. المغاضبة في قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا ﴿٨٧﴾﴾ (الأنبياء) كانت لقومه:

المغاضبة في قول الله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا﴾ (الأنبياء: ٨٧) كانت لقومه، فهم قد أغضبوه بإصرارهم على الكفر، وقد أغضبهم بمفارقته لهم، وهي ليست معصية، لعدة أسباب:

- إما لأن الغضب لم يكن منهيًّا عنه، فظن أنه جائز، حيث لم يكن إلا لله، ومن أجل دينه، قال الزمخشري: إن يونس بَرِمَ[1] بقومه، لطول ما ذكَّرهم، فلم يذكروا، وأقاموا على كفرهم فراغمهم، وظن أن ذلك يسوغ؛ حيث لم يفعله إلا غضبًا لله، وأنفة لدينه وبُغْضًا للكفر وأهله.

- وإما لأن خروجه عليه السلام مغاضبًا لقومه من باب مخالفة الأولى؛ إذ كان الأولى به أن يصبر، وينتظر الإذن من الله ﷻ في المهاجرة عنهم[2].

يقول الإمام ابن حزم في كتابه "الفصل في الملل والأهواء والنِحَل": فأما يونس عليه السلام فلم يغاضب ربه، ولم يقل الله ﷻ: إنه ذهب مغاضبًا ربه، فمن زاد هذه الزيادة كان قائلًا على الله الكذب وزائدًا في القرآن ما ليس منه، وهذا ما لا يجوز، فإنما هو غاضب قومه، وكانت هذه المغاضبة لعلَّةٍ، وهي أن قومه كذبوه، فلذلك كانت مغاضبته لهم واضحة المعنى، أما إذا قلنا بأنه قد غاضب ربه؛ فلا معنى لهذه المغاضبة، كما أن لنا أن نتساءل: لماذا يغاضب ربه؟ فكان الأرجح أن المغاضبة كانت للقوم؛ لأنه لا يليق بمؤمن أن يغاضب ربه، فما بالك بنبي اختاره الله، ورفع درجته!

ومغاضبته هذه لقومه لم تكن معصية؛ لأنه لم يقصد بها إلا مرضاة الله، وإن كان الله ﷻ قد عاتبه عليها بأن جعله في بطن الحوت، فما كان ذلك إلا نظرًا لرفيع مقامه، فكان جزاء الله تعالى لنبيه يونس عليه السلام بموجب التربية الخاصة لتزكية نفسه الطاهرة والسموِّ بها عن كل شائبة[3]، وقد تضرَّع عليه السلام إلى ربه منيبًا معترفًا بخطئه، فقال عليه السلام: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ

---

١. بَرِم: ضَجَر وضاق.

٢. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٤٠٥، ٤٠٦.

٣. الشائبة: الشبهة.

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ (الأنبياء)، فاستجاب له ربه تعالى، وجعل دعاءه هذا مأثورًا لرفع الكرب إلى يوم القيامة.

ونقول: كيف يعصي يونس عليه السلام ربه ويغاضبه، ثم يشهد الله عز وجل بأنه اجتباه وجعله من الصالحين؛ تنبيهًا إلى عدم اتهامه بما يتنافى وهذه الشهادة العظيمة[1]، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ (الصافات)، وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ (الأنبياء)، وشهادة النبي ﷺ له بالخيرية حيث يقول ﷺ: "لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى"[2]. وقال ﷺ: "ما ينبغي لنبي أن يقول: إني خير من يونس بن متى"[3]. وقال ﷺ: "ومن قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب"[4]، وهذا من تعظيم رسول الله لشأن سيدنا يونس عليه السلام، وثنائه عليه، فكيف يقول قائل بعد ذلك: إنه عليه السلام قد غاضب ربه، فلو كان مغاضبًا لله عز وجل كما يقولون، ما وصل لهذه الدرجة الرفيعة بين الأنبياء، وبين البشر جميعًا، وعند ربه تبارك وتعالى.

١. المصطفون الأخيار، الشيخ عطية صقر، مرجع سابق، ص١٠٩.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء باب قول الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾﴾(طه) (٣٢١٥)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب في ذكر يونس عليه السلام (٦٣١٠).

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند أهل البيت، حديث عبد الله بن جعفر بن أبي طالب (١٧٥٧)، وأبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في التخير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (٤٦٧٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٨٢١).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة النساء (٤٣٢٨)، وفي مواضع أخرى.

ثانيًا. قوله تعالى حكاية عن يونس عليه السلام: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ (الأنبياء: ٨٧) يعني: أنه ظن أن الله لن يضيّق عليه ويتعبه:

إن تفسير قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ بأن يونس عليه السلام قد ظن أن الله لن يقدر عليه، جهل باستعمالات اللغة؛ لأنه لا يمكن أن يطرأ على ذهن عاقل أن الله لا يقدر على شيء؛ لأنه سبحانه على كل شيء قدير، إذن معنى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، أي: ظن أن الله لن يُضَيّق عليه ويتعبه، بل سيبعثه إلى قوم أكثر طاعة واستجابة، فالقرى كثيرة، والأقوام متعددون، ومادام هؤلاء يستعصون على الدعوة، فسيوجهه الله إلى قوم آخرين[5].

ومما يؤكد ذلك أن رجلًا جاء لابن عباس - رضي الله عنهما - وسأله: كيف يظن نبي الله يونس أن الله لن يقدر عليه؟ فقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: ليس هذا، ألم تقرأ قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ (الفجر).

وقال الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ قيل: معناه: استزله إبليس ووقع في ظنه إمكان ألا يقدر الله عليه بمعاقبته، وهذا قول مردود مرغوب عنه؛ لأنه كفر، وقال عطاء وسعيد بن جبير وكثير من العلماء: معناه: فظن أن لن نضيق عليه، قال الحسن: هو من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ﴾ (الرعد: ٢٦)، أي: يضيق، وقوله: ﴿لِيُنفِقْ ذُو

٥. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ص٢٤٧.

سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ (الطلاق).

وقيل: هو من القَدَر الذي هو القضاء والحكم، أي: فظن أن لن نقضي عليه بالعقوبة، قاله قتادة ومجاهد والفراء، وقيل: مأخوذ من القدر وهو الحكم دون القدرة، والاستطاعة.

وقريب من هذا ما قيل: من أن المعنى: فظن أن لن نقضي عليه بالعقوبة، فتفسر القدرة بالقضاء والتضييق الذي أصاب يونس، والمشقة الشديدة التي قدرها الله عليه هي التقام الحوت له، ولبثه فترة في بطنه.

روي عن ابن عباس: أنه دخل يومًا على معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنهما - فقال معاوية: لقد ضربَتْني أمواج القرآن البارحة، فغرقت فيها، فلم أجد لنفسي خلاصًا إلا بك، قال: وما هي يا معاوية؟ فقرأ الآية وقال: أو ظنَّ نبي الله ألا يقدر الله عليه؟ فقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: هذا من القدر لا من القُدرة[1].

ثالثًا. الظلم الذي نسبه يونس عليه السلام إلى نفسه لا يصحّ أخذه على ظاهره، وإنما هو بمعناه اللغوي، وهو وضع الشيء في غير موضعه مطلقا، فيشمل الذنب وغيره:

ويونس عليه السلام فعل الخروج عن قومه بَدَل الصبر عليهم وتحمُّل أذاهم، وكان المناسب منه البقاء بين ظَهْرانَيْهم متحمِّلًا عَنَتَهم[2] وأذاهم؛ حتى يأذن الله له في المهاجرة عنهم، إلا أنه تعجل الخروج، والذهاب عنهم ضيقًا وتبرمًا بعنتهم، وإصرارهم على الكفر، فهو إذن قد وضع الخروج عن قومه موضع البقاء بينهم. فكان ذلك وضع الشيء في غير موضعه، وهذا يحمل معنًى من معاني الظلم، ولذا أطلق عليه الظلم[3].

رابعًا. العقوبة والملامة كانت بسبب ترك الأَوْلى:

على التسليم بأن إلقاءه في البحر والتقام الحوت له كان عقوبة على خروجه عن قومه بغير إذن من الله، لقوله تعالى: ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾ (الصافات) فإن هذه العقوبة، لم تكن على معصية كبيرة، أو صغيرة، وإنما كانت على ترك الأفضل، وهو البقاء مع قومه، فقد ظن يونس عليه السلام أنه يجوز له أن يخرج عن قومه غضبا لله، وأنفةً لدينه، ولكن لم يكن ظنه هذا صحيحًا، ولم يكن خروجه مناسبًا، وإنما كان البقاء معهم هو الأولى والأنسب، والله عز وجل يؤاخذ أنبياءه ورسله بما لا يؤاخذ به غيرهم؛ وذلك لعظم منزلتهم عنده، ولاصطفائه لهم ليكونوا قدوة لغيرهم.

كما أن الملامة في قول الله تعالى: ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ (الصافات)[4]، كانت بسبب ترك الأَوْلَى، أو الخطأ في الاجتهاد، فليس بالضروري أن تكون الملامة على ذنب أو معصية، فالوالد - مثلًا - يلوم أحد أبنائه على عدم حصوله على المركز الأول أو الدرجة العظمى، وملامة الأب لابنه ليست على ارتكابه جُرمًا أو ذنبًا أو معصية، وإنما هي لترك

---

١. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٤٠٧، ٤٠٨.

٢. العَنَت: المشقَّة.

٣. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٤٠٨.

٤. المُدْحَضِين: المغلوبين في القُرْعَة.

الأَوْلى والأفضل، وهذا لحب الأب لابنه وحرصه على ظهوره في أكمل صورة، وأحسن حال، ولله المثل الأعلى[1].

خامسًا. نَهْي الله لنبيه ﷺ عن التشبه بيونس عليه السلام في ترك ملازمة قومه وعدم الصبر عليهم:

وجّه المولى عز وجل نبيه ورسوله ﷺ ألاّ يتشبه بسيدنا يونس عليه السلام في تركه لقومه، بل عليه أن يصبر، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾ (القلم)، وليس بالضروري أن يكون هذا النهي بسبب معصية صدرت من يونس عليه السلام؛ إذ لا شيء في أن ينبّه ويوجّه الله تعالى أحد رسله لسلوك معين قد فات أحد الرسل من قبله.

إن الله يذكّر نبيه ﷺ تجربة يونس عليه السلام، لتكون له زادًا ورصيدًا، وهو خاتم النبيين، الذي سبقته تجارب النبيين أجمعين في حقل الرسالة، ليكون هو صاحب الحصاد الأخير، وصاحب الزاد الأخير، فيعينه هذا على عبئه الثقيل الكبير، عبء هداية البشرية جميعها.

فالله يذكّر نبيه بتجربة صاحب الحوت في موقف العنت والتكذيب، ويوجهه إلى الصبر على تكاليف الرسالة، والصبر على التواءات[2] النفوس، والصبر على الأذى والتكذيب، والصبر حتى يحكم الله في الوقت المقدر كما يريد[3].

الخلاصة:

أنبياء الله ورسله كلهم معصومون بما فيهم نبي الله يونس عليه السلام؛ إذ لم يصدر عنه ذنب أو معصية للآتي:

- المغاضبة المذكورة في الآية مغاضبة لقومه وليست لربه؛ لأنهم قد أغضبوا يونس عليه السلام بإصرارهم على الكفر، وقد أغضبهم بمفارقته لهم؛ لخوفه حلول العذاب بهم، وهي ليست معصية، وإنما هي من باب مخالفة الأولى.
- قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴿٨٧﴾﴾ (الأنبياء) ليس فيه نسبة العجز إلى الله ـ حاشا لله ـ ولكن القدر هنا يعني التضييق، كقوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ۚ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ (الطلاق)، وقوله: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ﴾ (الرعد:٢٦)؛ فيونس عليه السلام ظن أن الله لن يُضيّق عليه واسعًا، وسيبدله قومًا غير قومه، وليس في هذا ما يعاب عليه.
- الظلم في الآية: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ (الأنبياء) ليس على ظاهره، وإنما هو بمعناه اللغوي: أي وضع الشيء في غير موضعه؛ إذ كان المناسب منه عليه السلام ألا يترك قومه، وأن يصبر على أذاهم؛ حتى يأذن الله له بالخروج.
- إلقاؤه في البحر والتقام الحوت له لم يكن بسبب معصية، وإنما بسبب ترك الأولى، فالله عز وجل يؤاخذ أنبياءه ورسله بما لا يؤاخذ به غيرهم.
- الملامة كانت بسبب ترك الأَوْلَى، أو الخطأ في الاجتهاد، والخطأ في الاجتهاد ليس بذنب أو

---

١. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٤٠٩.

٢. التواء: اعوجاج.

٣. في ظلال القرآن، سيّد قطب، مرجع سابق، ج٥، ص٣٦٧٠ بتصرف يسير.

معصية، فللمجتهد المصيب أجران، وللمجتهد المخطئ أجر.

- نهي الله تعالى لنبيه محمد ﷺ عن التشبه بنبيه يونس عليه السلام كان في ترك ملازمة قومه، وعدم الصبر عليهم، ولا شيء في أن ينبه الله عز وجل أحد أنبيائه إلى سلوك معين قد فات أحد أنبيائه من قبل.

الشبهة السابعة والأربعون

دعوى اضطراب القرآن في مسألة نبذ يونس عليه السلام بالعراء(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين وجود خلل واضطرابٍ في حديث القرآن عن نَبْذ[1] يونس عليه السلام بالعراء[2]، وعدم وجود هذا الاضطراب في نصوص التوراة، مستدلين على ذلك بإقرار القرآن نبذه في قوله عز وجل: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ (الصافات)[3]، وعدم نبذه في قوله عز وجل: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾ (القلم). وهم بهذا الادعاء يشككون في صدق القرآن الكريم في إخباره عن يونس عليه السلام.

وجها إبطال الشبهة:

١) لم ينكر القرآن الكريم نبذ يونس عليه السلام بالعراء سقيمًا، إنما أنكر نبذه بالعراء مذمومًا؛ وعليه فلا تعارض بين ما أثبته القرآن وما نفاه.

٢) ذكر القرآن هذه القضية في إيجاز محكم، بعكس ما ورد في التوراة من اضطراب في سرد تفاصيل القصة؛ مما يجعلها أقرب ما تكون إلى كتب التاريخ والقصص.

التفصيل:

أولا. ليس في القرآن الكريم اضطراب لا في قصة ذي النون عليه السلام ولا في غيرها:

الذي أثبتته آية الصافات أن يونس عليه السلام نُبذ بالعراء وهو في حالة من السقم والإعياء، بسبب مكثه في بطن الحوت فترة من الزمن. والذي تذكره سورة القلم: أن الله تداركه بنعمة من عنده، ولولا ذلك لنبذ مذمومًا؛ فالحكم ليس واقعًا على النبذ، ولكنه يقع على نبذه مذمومًا. إن الله عز وجل لم يذمه؛ فينبذه مذمومًا، بل نبذه معافى كريمًا، وتلقته عناية الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾ (الصافات)[4]. والحكم المنطقي يقع على الجملة بكامل توابعها كما لو تمَّ تضمين صفة مع موصوفها، أو معطوفٍ مع معطوف عليه، وهنا لحق بجملة نبذناه الأولى، ونبذ الثانية جملة حالية، فتدخل كل منهما في الحكم.

يقول الزمخشري في تفسير آية القلم: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾ (القلم): وقد اعتُمِد في جواب لولا على الحال؛ أعني قوله: "وهو مذموم" يعني أن حاله كانت على خلاف الذم حين نبذ بالعراء، ولولا توبته لكان حاله على الذم، ولذا قال تعالى

(*) عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

١. النَّبْذ: الإلقاء.

٢. العَراء: المكان الخالي.

٣. سقيم: ضعيف.

٤. اليَقْطِين: شجرة القَرْع.

بعدهما: ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ (القلم)[1].

وإذا عرضنا تفسير الآيتين نعرف أنه لا تعارض، ففي الآية الأولى يقول الله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ (الصافات)، روي أن الحوت قذفه بساحل قرية من الموصل. وقال ابن قسيط عن أبي هريرة ﷺ: طرح يونس بالعراء، وأنبت الله عليه يقطين، وفي الآية من سورة القلم يقول الله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾ (القلم)، ولولا رحمة الله ﷻ لنبذ بالعراء وهو مذموم.

وورد في تفسير الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾ (القلم) في موضع الحال من مرفوع نبذ، وعليها يعتمد جواب لولا؛ لأن المقصود امتناع نبذه مذمومًا، وإلا فقد وقع النبذ عليه سقيمًا؛ فدل على أن حاله كانت على خلاف الذم.

ثانيًا. ذكر القرآن هذه القضية في إيجاز محكم بعكس ما ورد في التوراة من اضطراب في سرد تفاصيل القصة؛ مما يجعلها أقرب ما تكون إلى كتب التاريخ والقصص:

إن القصة القرآنية إعجاز رائع من ناحية الجودة والأهمية، وهي وسيلة هامة ومؤثرة من الوسائل القرآنية الكثيرة التي تحقق الأغراض الدينية، وتبرز الأصول والرواسخ في العقيدة الإسلامية والتي احتواها القرآن الكريم؛ بحكم كونه الدستور الخالد الذي ينظم حركة الحياة للإنسان في الدنيا والآخرة.

والقرآن الكريم كتاب دعوة إلى الله، وإلى الوحدانية، وإلى الحق.. في المقام الأول، ولما كان هزُّ الوجدان وإثارة العاطفة وربطها بالشعور الديني الفياض الذي هو فطرة عميقة في النفس البشرية أمرًا مطلوبًا... فإن القصة تصبح في هذا المجال عاملًا مثيرًا ومؤثرًا في نفس الوقت، وتصبح وسيطًا تربويًّا رائعًا للتأثير في الذات، وفي تطهير النفس من المشاعر الدخيلة على الفطرة البشرية، ولقد اهتمت القصة القرآنية بإبراز عنصر الأحداث في مجال الدعوة بطريقة لا تستطيع أن تجدها في الكتب السماوية السابقة قبل التحريف، كالتوراة مثلًا[2].

إن القصة القرآنية لها طبيعتها الخاصة وبناؤها المتميز، وما وصلت القصة القرآنية لما وصلت إليه من رقي وبلاغةٍ، وتميز وبراعة في التأثير الوجداني الفعَّال إلا بطرائق فنية وجمالية خاصة بها.. وذلك عبر طريقةٍ فذَّة في العرض والسرد، ذلك العرض القصصي القائم على قانون الانتخاب في اختيار الجزء من القصة الذي يتلاءم والسياق القرآني في الموضع الذي وردت فيه، والغرض الديني العام، ومن ثَمَّ يتلاءم أسلوب العرض القرآني مع انتقاء الحدث المسرود، فينحَّى تمامًا كل ما لا يمت للحدث بصلة، وما لا يتلاءم مع الهدف الديني، ويخلص إلى التركيز على محور الشخصية، وجوهر الدعوة، وردود الأفعال[3].

وللقرآن أسلوب في طريقة عرض القصة كما قررنا، لكنَّا إذا توجهنا إلى نصوص التوراة فسنجد أنها تشبه إلى حدٍّ بعيد كتب التاريخ والقصص التي كانت تؤلف

١. تفسير الكشاف، الزمخشري، مرجع سابق، ج٤، ص١٤٨.

٢. القصة في القرآن، محمد قطب، دار قباء، القاهرة، ٢٠٠١م، ص٧٩: ٨٣ بتصرف يسير.

٣. المرجع السابق، ص١٠٩: ١١١ بتصرف.

قديمًا للتسلية؛ وذلك بعد أن عبثت بها أيدي البشر، وغيروا فيها وحرفوا الكلام عن مواضعه؛ كما ذكر القرآن الكريم؛ لذا أنزل الله كتابًا خاتمًا مهيمنًا على ما سبق من كتب ومصدّقًا لما في التوارة والإنجيل في العديد من الأمور، وتولى الله عز وجل حفظه من أي عبثٍ وأي يدٍ تمتد إليه بسوءٍ، فقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجر).

وعلى الرغم من تحريف التوراة؛ الذي نتج عنه اضطراب الكتاب المقدس، فإننا سنقف على بعض ما ورد في التوراة ونقارن ذلك بما ورد في القرآن، ولك أنت أن تحكم أي الكتابين أحكم وأيها فيه اضطراب، وأيها خالٍ منه.

تجد في التوراة أن يونس عليه السلام يسمى "يونان بن أمتاي"، على حين يقرر القرآن أن اسمه "يونس" ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ (الصافات)، وأن "ذا النون" لقب له وليس اسمًا، وأنا أسألك أيها أدق وأحكم القرآن أم التوراة؟

تقرر التوراة أن الله كلَّف يونس عليه السلام بالرسالة وأمره بالذهاب إلى أهل نينوي؛ فهرب إلى يافا وركب سفينة تتجه إلى ترشيش يونان: "قم اذهب إلى نينوي المدينة العظيمة وناد عليها لأنه قد صعد شرهم أمامي. فقام يونان ليهرب إلى ترشيش من وجه الرب، فنزل إلى يافا ووجد سفينة ذاهبة إلى ترشيش، فدفع أجرتها ونزل فيها ليذهب معهم إلى ترشيش من وجه الرب". (يونان١ : ٢، ٣)، وربما يسأل سائل ـ وهذا من حقه ـ لماذا هرب يونس عليه السلام إلى ترشيش؟ وهل يصح منه ـ وهو نبي ـ أن يكلفه الله ويشرفه بالرسالة ويفر؟! وإن كان الأمر كذلك فبما فضله على العديد من البشر ولم اصفاه الله؟ وهل اصطفاه على علم؟

كن واثقًا من أنك لن تجد لأسئلتك أي إجابة، وفي ذلك يقول العلامة الألوسي: "زعم اليهود أن الله أمر يونس عليه السلام أن يذهب إلى أهل نينوي وينذر أهلها، فهرب إلى ترشيش من ذلك، وانحدر إلى يافا، ونزل في السفينة فعظمت الأمواج، وأشرفت السفينة على الغرق... ولا يخفى أن مثل هذا الهرب مما يجل عنه الأنبياء عليهم السلام واليهود قوم بُهت"[1].

إن جماهير علماء التفسير عند المسلمين يقررون أن يونس عليه السلام كُلِّف، وذهب فبلغ ما أمر به، إلا أن قومه لم يستجيبوا له وأمعنوا في العناد ففارقهم، لذا فإن معاقبته إنما كانت لأنه لم ينتظر أمر الله بمفارقتهم.

تقرر التوراة أن يونس عليه السلام قد هرب مرتين "يونان"، مرة حين هرب إلى ترشيش، والأخرى حين هرب من المدينة بعد مواعدته لقومه بنزول العذاب، حيث اتخذ لنفسه كَنًّا[2] يكون فيه.

ونحن نسألهم إذا كان الله قد عاقب يونس عليه السلام عندما فرَّ في المرة الأولى فلمَ لم يعاقبه حين فرَّ مرة أخرى؟ أيعاقبه إذا أخطأ ولا يعاقبه على تكرار الخطأ؟! ولماذا فرَّ يونس عليه السلام دون أن يأذن الله له؟ وهل يجوز أن يتصرف نبي في أمر كهذا من تلقاء نفسه دون انتظار لأمر الله؟ وهل يقع يونس عليه السلام في الخطأ مرتين؟!

إن القرآن لم يذكر أنه هرب إلا مرةً واحدة، فأيها

١. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٤٢١، ٤٢٢.
٢. الكَنُّ: المكان الذي يُسْتَتر فيه.

أصدق وأيها أعقل وأحكم؟

تذكر التوراة أن إنبات الله شجرة من يقطين على يونس ﷺ، كان بعد خروجه من المدينة في المرة الأخيرة: "وخرج يونان من المدينة وجلس شرقي المدينة، وصنع لنفسه هناك مظلَّة، وجلس تحتها في الظل، حتى يرى ماذا يحدث في المدينة. فأعد الرب الإله يقطينة فارتفعت فوق يونان لتكون ظلًّا على رأسه، لكي يخلصه من غمه. ففرح يونان من أجل اليقطينة فرحًا عظيمًا". (يونان ٣: ٥، ٦)، في حين يذكر القرآن أن ذلك كان فور خروجه من بطن الحوت إلى الشاطئ؛ لحاجته إلى شيء يظلله من الشمس؛ لظهوره المباشر تحت أشعتها بعد أيام قضاها في الظلمات، كما أنه خرج سقيمًا لا يستطيع أن يتحمل الشمس، فأنبت الله عليه يقطينةً تظلله رحمة منه ﷻ.

وقد يسأل سائل: لماذا أنبت الله يقطينة على يونس حين هرب للمدينة، ولم يكن في حاجة إليها، ولم ينبتها عليه حين خرج من بطن الحوت وهو في حاجةٍ لها؟

إن إنبات يقطينة عليه إثر خروجه - على حد تعبير القرآن - فيه من البلاغة الكثير، حيث يفيد السياق القرآني أن الخروج كان نهارًا والشمس ساطعة، على حين لم تحدد التوراة وقت الخروج ليلًا كان أم نهارًا.

تقرر التوراة أن الله ندم على الشرِّ الذي أخبر أنه سيصنعه بقوم يونس ﷺ؛ فلم يصنعه: "فلما رأى الله أعمالهم أنهم رجعوا عن طريقهم الرديئة، ندم الله على الشر الذي تكلَّم أن يصنعه بهم، فلم يصنعه". (يونان ٣: ١٠)، على حين يقرر القرآن أن الله قدر مقادير الكون قبل أن يخلق الخلق ودون ذلك في اللوح المحفوظ، فلا يتجاوز الواقع ما قدره الله، وإذا تكلم الله بشيء فهو وفق مشيئته والتي لا تتعارض مع ما قدره الله في اللوح المحفوظ؛ ولذا فلا تعارض؛ لأن الله يتكلم بعلمه، وأنه قدَّر كلَّ شيء بعلمه، وأن ما يكون وما سيكون قد وقع في علم الله ودونه في اللوح المحفوظ؛ فالكون وما يقع فيه بالنسبة لعلم الله إنما هو تحصيل حاصل، وذلك يقتضي ألا يندم الله؛ لأن ما يقع هو ما قدره، ولأن الله إله، والإله كاملٌ لا يعتريه نقص، والندم نقص وقدح في علم الله الذي قرر القرآن أنه علمٌ محيطٌ وشامل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ (الإنسان)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٦٢﴾﴾ (العنكبوت)، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴿٢﴾﴾ (الفرقان)، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴿٤٩﴾﴾ (القمر).

التوراة إذن تطعن في الله وفي نبيه في سفرٍ واحدٍ، ويفوتها أن تذكر الكثير الذي ذكره القرآن ولم يرد فيها مثل قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ (الصافات).

فأنت تجد في التوراة أن يونس ﷺ فرَّ مرتين لماذا؟ وإذا كان هذا هو شأن الأنبياء - عدم الاستجابة لأوامر الله - فما شأن باقي البشر، وماذا أن تتوقع منهم غير التكذيب والعصيان، أليس هذا تناقضًا؟ كيف يصح إثبات الإلوهية لله ثم يتم وصفه بالنقص الذي يتنزه عنه البشر؟

يمكنك أن تسأل كثيرًا، كما يمكنني أن أخبرك بأنك لن تجد جوابًا؛ لأن العقيدة اليهودية محرَّفة، والكتاب المقدس - مصدر هذه العقيدة - محرَّف؛ وبالتالي فهو

مليء بالتناقض والاضطراب، الذي يستطيع أي باحثٍ موضوعي أن يقرره فور قراءته لسفرٍ واحدٍ من أسفار الكتاب المقدس.

الخلاصة:

- القرآن محكم بعيد كل البعد عن التعارض والتناقض والاضطراب، ومسألة نبذ يونس عليه السلام بالعراء في غاية الإحكام؛ إذ يقول عز وجل: ﴿فَنَبَذْنَهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ (الصافات). وهذا معناه أنه نبذ بالعراء سقيمًا، ولم ينبذ بالعراء مذمومًا، حيث قال عز وجل: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾ (القلم)، فهل هناك تعارض في هذا الكلام؟!
- بالمقارنة بين ما ورد في العهد القديم من ذكر لقصة النبي يونان بن أمتاي، وذلك في كتاب يونان (١ ـ ٤) وبين ما ذكره القرآن من إيجاز محكم في مسألة نبذ يونس عليه السلام بالعراء ـ يثبت عظم إحكام القرآن وبعده كل البعد عن التعارض والتناقض.

الشبهة الثامنة والأربعون

ادِّعاء أن القرآن أخطأ في إخباره أن من عثر على موسى عليه السلام هي امرأة فرعون(*)

مضمون الشبهة:

يـدَّعي بعض المتوهمين أن القرآن الكريم أخطأ في إخباره أن من عثر على موسى عليه السلام ـ بعد أن وضعته أمه في التابوت وألقته في اليم ـ هي امرأة فرعون، ويستدلون على ذلك بقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ (القصص). ويزعمون أن التي عثرت عليه عليه السلام هي ابنة فرعون، كما ورد في التوراة.

وجها إبطال الشبهة:

١) لم ينص القرآن الكريم على أن من عثر على موسى عليه السلام هي امرأة فرعون، ولكنه نص على أن من التقطه هم آل فرعون بصفة عامة.

٢) نحن لا نحتكم إلى ما ورد في الكتاب المقدس للحكم بصدق ما جاء به القرآن، فالكتاب المقدس تناولته الأيدي البشرية، وهو بصورته الحالية محل لانتقادات وتناقضات كثيرة.

التفصيل:

أولا. لم ينص القرآن الكريم على أن من عثر على موسى عليه السلام هي امرأة فرعون، ولكنه نص على أن من التقطه آل فرعون بصفة عامة:

اختلف المفسرون في أول من عثر على التابوت الذي وضع فيه موسى عليه السلام صغيرًا، فمنهم من ذهب إلى "أن الجواري التقطته من البحر في تابوت مغلق عليه، فلم يتجاسَرْنَ[1] على فتحه، حتى وضعنه بين يدي امرأة فرعون آسية بنت مزاحم، فلما رأته ووقع نظرها عليه أحبته حبًّا شديدًا، فلما جاء فرعون قال: ما هذا؟ وأمر بذبحه، فاستوهبته منه، ودفعت عنه وقالت: ﴿قُرَّتُ

(*) موقع المتنصرين. www.mutenessrin.com

١. يتجاسَرْنَ: يَتَجَرَّأْنَ.

عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ (القصص: ٩)[(١)]، فقال لها: أمَّالك فنعم، وأمَّا لي فلا"[(٢)].

"ويروى أن آسية امرأة فرعون رأت التابوت يعوم في البحر، فأمرت بسوقه إليها وفتحه، فرأت فيه صبيًّا صغيرًا فرحمته وأحبته، فقالت لفرعون: ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾[(٣)] وذهب فريق ثالث إلى أن حرس القصر الفرعوني رأوا صندوقًا يمر على سطح النيل من جهة القصر، فحملوه إلى فرعون، ولما فُتح الصندوق رأى فرعون بداخله غلامًا فأمر بقتله، واعترضت امرأته، عندما رأت وجهه يتلألأ نورًا، وألقى الله عليه محبة منه"[(٤)].

وكل هذه آراء اجتهادية لا تستند إلى دليل واضح، أما الحقيقة الواضحة فإن القرآن لم يذكر اسم أول من عثر على تابوت موسى عليه السلام؛ حيث إن قوله: ﴿ ءَالُ فِرْعَوْنَ ﴾ قابل لأن يفسر بامرأة فرعون، أو ابنة فرعون أو جواريه أو غيرهن من "آل فرعون" أو اشترك في التقاطه وتداوله أكثر من واحد، فهذا يأخذه من "اليم" وآخر يحمله منه، وثالث يتلهف على هذه المفاجأة فيحمله ناظرًا إليه، وهذا ما يفهم من الآية الكريمة، ويصور هذا الحدث المفاجئ أصدق تصوير "فالتقطه آل فرعون" وليس واحدًا منهم بعينه.

ثانيًا. نحن لا نحتكم إلى ما ورد في الكتاب المقدس للحكم بصدق ما جاء به القرآن، فالكتاب المقدس بصورته الحالية محل لانتقادات وتناقضات كثيرة:

لقد صدق القرآن الكريم في كل ما أخبر به؛ لأنه تنزيل رب العالمين، ومن الأمثلة الدالة على صدق القرآن فيما يخبر، إخباره بغلبة الروم على الفرس يقول تعالى: ﴿ الٓمٓ (١) غُلِبَتِ ٱلرُّومُ (٢) فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِى بِضْعِ سِنِينَ ﴾ (الروم) يقول القرطبي: "وكان في هذا الإخبار دليل على نبوة محمد ﷺ لأن الروم غلبتها فارس، فأخبر الله عز وجل نبيه محمدًا ﷺ أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين... فكان هذا من علم الغيب الذي أخبر الله عز وجل مما لم يكن علموه"[(٥)].

والأمثلة على ذلك كثيرة مما أخبر به القرآن ووقع بالفعل، كإخباره بحفظ القرآن من التحريف وظهور الإسلام على سائر الأديان، وموت أبي لهب والوليد بن المغيرة على الكفر، وغيرها مما حدث بالفعل.

وكذلك أخبر القرآن الكريم عن إثبات حركة الشمس بقوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ (٣٨) ﴾ (يس) تدل الآية على أن الشمس متحركة وليست ثابتة، وهي تجري لمستقر لها وفق ناموس[(٦)] إلهي ثابت، وهذا ما انتهى إليه البحث العلمي مؤخرًا، مع العلم بأن العلماء إلى وقت قريب

---

١. قُرَّة عين: سببًا للسرور والسعادة.

٢. قصص الأنبياء، ابن كثير، مرجع سابق، ص٢٢٤، ٢٥٥ بتصرف يسير.

٣. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٩، ص٢٥٣.

٤. مدرسة الأنبياء: عبر وأضواء، محمد بسام رشدي، مرجع سابق، ص١٨٥ بتصرف يسير.

٥. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١٤، ص٥.

٦. النَّاموس: القانون الثابت.

كانوا يعتقدون أنها ثابته[1].

وأمثلة الاكتشافات العلمية الحديثة التي أشار إليها القرآن الكريم كثيرة ومتعددة مثل حركة الشمس وشكلها، وعملية تكوّن السحب، وحفظ توازن الأرض بالجبال، وانتشار الزوجية من كل شيء.

أما إذا ذهبنا إلى التوراة فإننا نجد كلماتها مشكوكًا فيها، والدليل على ذلك: أن اسم الرجل في موضع يأتي من موضع آخر باسم آخر، وكذلك المرأة وهذا يتكرر كثيرًا، فإسماعيل عليه السلام كانت له ابنة اسمها محلث، وتزوجت العيس بن إسحاق عليه السلام كما جاء في سفر التكوين: "فذهب عِيْسُو إلى إسماعيل ،وأخذ محلة بنت إسماعيل بن إبراهيم، أخت نبايوت، زوجة له على نسائه". (التكوين٢٨: ٩)، وفي ترجمة لبنان "محلة"، وفي ترجمة البروتستانت "بسمة" كما جاء في سفر التكوين أيضًا: "وبسمة بنت إسماعيل أخت نبايوت". (التكوين ٣: ٣٦)، والشيخ الكبير في أرض مدين مختلف في اسمه، ففي الخروج "رعوئيل": "فلما أتين إلى رعوئيل أبيهن قال: ما بالكن أسرعتن في المجيء اليوم". (الخروج٢: ١٨)، وفي موضع آخر من سفر الخروج "يثرون": "فمضى موسى ورجع إلى يثرون حميه، وقال له: أنا أذهب وأرجع إلى إخوتي الذين في مصر لأرى هل هم بعد أحياء. فقال يثرون لموسى: اذهب بسلام". (الخروج١٨: ٤)[2].

والأمثلة على ذلك كثيرة لا تحصى مما تناقضت فيه التوراة.

وبناء على هذا فإن القرآن الكريم حجة فيما يذكر؛ لأنه كلام الله عز وجل الذي لم ولن تمتد إليه يد البشر، قديمًا ولا حديثًا، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (١٢٢)﴾ (النساء)، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧)﴾ (النساء).

أما ما ورد في الكتاب المقدس فهو محل انتقادات كثيرة لما فيه من تناقضات وأباطيل مخالفة للتاريخ والعلم والعقل، فلا يصح أن نُحكِّم الكتاب المقدس الظني المحرَّف في القرآن الكريم القطعي المعصوم من التحريف.

الخلاصة:

- لم ينص القرآن الكريم على أن من عثر على موسى عليه السلام هي امرأة فرعون، ولكنه نص على أن من التقطه آل فرعون بصفة عامة، وهنا يمكن أن يُفسر بامرأة فرعون، أو ابنته، أو جواريه، أو غيرهن.
- ما ورد في الكتاب المقدس محل انتقادات كثيرة، وذلك لما ورد فيه من أباطيل وتناقضات مع التاريخ والعقل والعلم، فلا يصح أن نُحكِّمَ الظني - الكتاب المقدس - في القطعي - القرآن الكريم - الذي هو الصدق كل الصدق، فهو كلام الله تبارك وتعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.



١. الأدلة على صدق النبوة المحمدية ورد الشبهات عنها، هدى عبد الكريم مرعي، دار الفرقان، الأردن، ١٤١١هـ/ ١٩٩١، ص٢١٦.

٢. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص٤٩٧ بتصرف.

الشبهة التاسعة والأربعون

ادِّعاء أن موسى عليه السلام قتل قبطيًّا لمجرد أن رجلا من شيعته استنصر به عليه(*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المتوهمين عصمة نبي الله موسى عليه السلام، ويستدلون على زعمهم بقوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ﴾ (القصص). ففي ظنهم أن موسى عليه السلام قتل قبطيًّا لمجرد أن رجلًا من شِيْعَته[١] استنصر به عليه.

وجها إبطال الشبهة:

١) القبطي كان ظالمًا معتديًا على الإسرائيلي، فتدخل موسى عليه السلام دفعًا للظلم عن المظلوم لا أكثر.

٢) ما وقع من موسى عليه السلام كان قبل النبوة، فلا يطعن به في عصمته باعتباره نبيًّا من أنبياء الله.

التفصيل:

قبل الإجابة عن الشبهة نبين معنى الوكز، والدافع إليه، ومعنى الآيتين:

١. **معنى الوكز:** الضرب بالكف مضمومة أصابعها. وقيل: الوكز: الدفع بأطراف الأصابع. وفي القاموس: الوكز: الدفع، والطعن والضرب بمجمع الكف، وعلى هذا فالوكز ليس من باب الضرب المؤثّر قتلًا وإهلاكًا، ومن يريد أن يقتل فإنه لا يكتفي بالوكز سبيلًا موصلًا إليه، وإنما يستخدم وسائل الضرب الأخرى، وأدواته المؤثرة مما يحقق القتل.

٢. **الدافع إلى الوكز:** هو دفع ظلم هذا الذي من عدوه، فهو ـ كما قيل ـ كان يريد تسخير الإسرائيلي في حمل الحطب إلى مطبخ فرعون، وصنيع فرعون وقومه مع بني إسرائيل كان يتمثل فيه الظلم الصارخ لهم، فقد كان فرعون يستضعف بني إسرائيل، فيذبح أبناءهم، ويستحيي نساءهم[٢] كما حكى القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ (القصص).

أولا. القبطي كان معتديًا على الإسرائيلي، فتدخل موسى عليه السلام دفعًا للظلم عن المظلوم لا أكثر:

لما شب موسى وعقل أخذ يتكلم بالحق، وينكر على فرعون أعماله فأخافوه من فرعون، فكان لا يدخل المدينة إلا وأهلها في غفلة، وذات مرة وجد رجلين يقتتلان أحدهما من بني إسرائيل، والآخر من القبط، فطلب الإسرائيلي من موسى غوثه ونصره على القبطي الذي يظلمه، ويكلّفه حمل الحطب إلى مطبخ فرعون، فحاول موسى عليه السلام كفّ القبطي عن عدوانه، لكنه تمادى وقال لموسى عليه السلام: لقد هممت أن أحمله ـ أي الحطب ـ عليك، فاشتد غضب موسى عليه السلام فوكز

(*) عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

١. الشِّيعة: الأتباع.

٢. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٣٧.

القبطي - الذي تعدى أولًا على الإسرائيلي، وأغضب موسى عليه السلام ثانيًا - فوكزه موسى عليه السلام فقتله، فندم موسى عليه السلام وتضرع إلى الله، ليغفر له ذنبه إنه هو الغفور الرحيم.

إذن رأى موسى عليه السلام نفسه إزاء معتدٍ لا يرعوي ولا يكف عن ظلمه، فرأى أن الوكز وسيلة مناسبة لدفعه، ذلك لأنه رجل لا تنفع معه النصيحة، ولا تردعه الملامة، ولا يكفه اللين ولا يجدي معه. والوكز كما أسلفنا ليس من باب الضرب المؤثر قتلًا وإهلاكًا، ومن يريد أن يقتل إنسانًا، فإنه لا يكتفي بالوكز سبيلًا موصلًا إليه، وإنما يستخدم من وسائل الضرب الأخرى، وأدواته المؤثرة ما يحقق القتل. فما ترتب على الوكز من القتل غير مقصود، إنما المقصود دفع ظلم القبطي بوسيلة رآها موسى عليه السلام مناسبة؛ لم يجد معه أقل منها، ولا تؤدي في أصلها إلى القتل[1]. على أن موسى عليه السلام قد ندم؛ وقال: هذا القتل الحاصل بغير قصد من تزيين الشيطان الذي هو عدو ظاهر العداوة والإضلال، ثم تضرع موسى إلى الله عز وجل طالبًا مغفرة زلته، فغفرها الله له، فإنه هو الغفور الرحيم.

ثانيًا. ما وقع من موسى عليه السلام كان قبل النبوة، فلا يطعن به على عصمته عليه السلام باعتباره نبيًّا من أنبياء الله:

يدل سياق الآيات على أن هذه الفعلة كانت قبل فرار موسى عليه السلام من مصر، وهجرته إلى مدين، تلك الهجرة التي تم فيها التعرف بشيخها الكبير، في أعقاب سقايته لبنتيه، ثم اتفاقهما على أن يعمل موسى عليه السلام أجيرًا عنده ثماني حجج أو عشرًا صداقًا لإحدى ابنتيه، وأتم موسى عليه السلام الأجل ورحل بزوجه، فإذا بالنداء من شاطئ وادي الطور الأيمن في البقعة المباركة من قبل الله عز وجل يحمله الرسالة، ويكلفه بدعوة فرعون وملئه إليه عز وجل، فيذكر موسى عليه السلام أنه قتل منهم نفسًا، ويخشى أن يقتلوه به، فيؤمنه الله ويطمئنه بأنهم لن يقتلوه.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (القصص). وقوله تعالى حكاية عن نبيه موسى عليه السلام: ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾ (الشعراء).

وعلى ذلك فإن ما وقع من موسى من الوكز الذي لا يقتل غالبًا، والذي كان لدفع الظلم والعدوان، فترتب عليه القتل خطأ قد وقع قبل النبوة فلا يُطعن به على موسى سواء كان خلاف الأولى أو معصية صغيرة.

وأما وصفه نفسه بالكفر والضلال في فعلته هذه في قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ (الشعراء). فإن معنى: ﴿ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ (الشعراء) أي لنعمتي، وحق تربيتي، فإن موسى عليه السلام قد تربى في بيت فرعون إلى أن كبر وبلغ.

ومعنى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ (الشعراء) أي الذاهلين عن أن الوكزة تأتي على النفس، أو

---

1. المرجع السابق، ص٣٣٨، ٣٣٩.

أن المدافعة تفضي إلى القتل، وقد يوصف الذاهل عن الشيء بأنه ضال عنه، أو من المخطئين، أي لم أتعمد القتل. ومع أن الوكز ليس ذنبًا إلا أن موسى عليه السلام استعظمه نظرًا لعلو شأنه فاستغفر منه، واعتذر به في مقام الشفاعة يوم القيامة.

قال القرطبي: لم يزل عليه السلام يعد ذلك على نفسه مع علمه بأنه قد غفر له حتى إنه في القيامة يقول: "إني قد قتلت نفسًا لم أؤمر بقتلها"[1]. وإنما عدَّه على نفسه ذنبًا من أجل أنه لا ينبغي لنبي أن يقتل حتى يؤمر، وأيضًا: فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم[2].

الخلاصة:

- القبطي كان ظالمًا معتديًا على الإسرائيلي، فتدخل موسى عليه السلام دفعًا للظلم عن المظلوم لا أكثر. فلم تنفع معه النصيحة، ولم تردعه الملامة، ولم يكفه اللين، فارتأى موسى إزاء معتد لا يرعوي ولا يكف عن ظلمه - أن الوكز وسيلة مناسبة لدفعه. فَقَتَلَ القبطي بالوكزة دون قصد، ولا عَمْد، وندم على تلك الزلة، فغفرها الله له، فإنه هو الغفور الرحيم.
- ما وقع من موسى عليه السلام كان قبل النبوة، بدليل سياق الآيات التي وردت فيه الآية "ودخل المدينة..."، فلا يُطْعَنُ بهذه الزلة في عصمته عليه السلام باعتباره نبيًّا من أنبياء الله.

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة بني إسرائيل (٢٤٣٥)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (٥٠١).

٢. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٣٩، ٣٤٠.

الشبهة الخمسون

إنكار استئجار الرجل الصالح لموسى عليه السلام (*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المتوهمين استئجار[3] الرجل الصالح لموسى عليه السلام صداقًا لزواجه من ابنته وذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (القصص)[4]. ويزعمون أن هذا يخالف ما ورد في التوراة.

وجه إبطال الشبهة:

ما جاء في التوراة من أن الذي خدم حماه كصداق لامرأته هو يعقوب عليه السلام لا يخالف ما جاء في القرآن الكريم عن موسى عليه السلام، ولكنه يدل على أنها كانت شريعة مُتَّبعة في تلك العصور.

التفصيل:

ما جاء في القرآن لا يخالف ما جاء في التوراة، ولكن يدل على أنها كانت شريعة متبعة.

لقد أخبر الله عز وجل في كتابه العزيز أن المدة التي قضاها موسى في خدمة الشيخ الكبير كانت مقابل أن يُنكحه إحدى ابنتيه كمهر لها، وقد جمع الرجل بين غايتين وهو يعرض على موسى أن يزوّجه إحدى ابنتيه مقابل أن

(*) هل القرآن معصوم؟ موقع إسلاميات. www.islmeyat.com

٣. استئجار: أن يكون إنسان أجيرًا عند إنسان.

٤. الحِجَج: جمع حِجَّة، وهي السنة.

يخدم ويرعى ماشيته ثماني سنوات، فإن زادها إلى عشر فهو تفضّل منه لا يُلْزَم به، حيث أحس من نفس الفتاة ونفس موسى ثقة متبادلة، وميلًا فطريًا سليمًا صالحًا لبناء أسرة، يقول ﷻ: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٢٧)﴾ (القصص).

وهكذا صنع الشيخ الكبير - صاحب موسى عليه السلام - فعرض على موسى عليه السلام ذلك العرض واعدًا إياه ألا يشقّ عليه ولا يُتْعبه في العمل؛ راجيًا بمشيئة الله أن يجده موسى عليه السلام من الصالحين في معاملته ووفائه، وهو أدب جميل في التحدث عن النفس وفي جانب الله... وقَبِلَ موسى عليه السلام العرض وأمضى العقد، في وضوح ودقة، وأشهد الله[1]، قال ﷻ: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨)﴾ (القصص) ويبدو أن الإجارة كانت عندهم مشروعة معلومة، وكذلك كانت في كل ملة، وهي من ضرورة الخليقة، ومصلحة الخلطة بين الناس[2].

ولقد كان حال يعقوب عليه السلام مع خاله لابان كحال موسى عليه السلام مع شيخ مدين، فإنهما كانا يتعايشان من رعي الغنم، وخدم يعقوب عليه السلام خاله سبع سنين صداقًا لابنته الأولى لينة، وخدم سبع سنين أخرى صداقًا لابنته الأخرى راحيل.

ومن ثم فالعجب من هؤلاء، فلماذا ينفون الاستئجار لموسى، ويعترفون به ليعقوب عليهما السلام؟!

أليس موسى نبيًّا مثل يعقوب؟ أم إنهم يفرقون بين أنبياء الله ورسله.

ومما يؤكد هذا الاستئجار أن موسى عليه السلام هرب من أرض مصر بلا مال. فكيف يتزوج في أرض غريبة بلا مال؟!

وفي النص التوارتي ما يدل على ما اتفقا عليه، وهو: "فارتضى موسى أن يسكن مع الرجل، فأعطى موسى صفورة ابنته". (الخروج ٢: ٢١)، إذن فعلام ارتضى موسى عليه السلام؟ ولماذا قال بعد الارتضاء: "فأعطى موسى صفورة ابنه"؟

وفي النص السامري: "فلما أمعن موسى في السكنى مع الرجل أعطاه صفورة ابنته لموسى زوجة"[3]. إذن فالواضح من النص أن الرجل أعطى لموسى عليه السلام ابنته مقابل أن يستأجره مدّة معينة محددّة.

وعلى هذا فلا اختلاف بين النص التوراتي والنص القرآني، وإن كان القرآن قد فصَّل القصة تفصيلًا دقيقًا، فهذه ميزة القرآن أنه جمع علوم الكتب السابقة المجملة وفصلها بلا غموض أو لبس، بل وزاد عليها علومًا ومعارف أخرى كثيرة لم تذكر في الكتب السابقة.

الخلاصة:

- أخبرنا القرآن الكريم أن موسى عليه السلام مكث مع

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٥، ص٢٦٨٨، ٢٦٨٩ بتصرف.

٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١٣، ص٢٧١.

٣. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص٤٩٩، ٥٠٠.

الشيخ الكبير بِمَدْينَ المدة التي تم تحديدها بينهما كصداق لابنة الرجل - ثمان سنوات أو عشر - وهذا الذي أثبته القرآن لا يتنافى مع ما جاء في التوراة، حيث إن المعنى المفهوم من سياق النص التوراتي يوحي بوجود هذه المدة المحددة كصداق لابنة الرجل الصالح، ويبدو أنها كانت عادة متبعة في ذلك الوقت؛ حيث خدم يعقوب عليه السلام خاله أربعة عشر عامًا مقابل أن يتزوج ابنته الكبرى، ثم الصغرى، وهذا لا اختلاف عليه في التوارة.

- إذن فلماذا ينفون ذلك عن موسى، ويعترفون به ليعقوب - عليهما السلام؟! بيد أن هذا الأمر ليس بغريب عنهم فهذا من جملة ما درجوا عليه في التفريق بين أنبياء الله عز وجل.

- وإذا كان القرآن قد فصّل القصة فإن هذه من ميزاته، فقد وضّح وبيّن ما جاء في الكتب السابقة، بل وزاد عليه علومًا ومعارف أخرى لم يرد ذكرها عندهم.

الشبهة الحادية والخمسون

ادِّعاء أن موسى عليه السلام اعتذر عن حمل الرسالة، وطلب من الله أن يكلِّف بها هارون عليه السلام (*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن موسى عليه السلام قد كلفه الله بدعوة فرعون وقومه إلى عبادته سبحانه وحده، فاعتذر موسى عليه السلام عن حمل الرسالة، وطلب من الله أن يكلف بها هارون، ويستدلون على ذلك بقوله عز وجل: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾ (الشعراء).

وجه إبطال الشبهة:

موسى عليه السلام لم يطلب إعفاءه من الرسالة، وتوجيهها إلى هارون عليه السلام، وإنما طلب من ربه أن يرسل معه أخاه هارون؛ ليكون معه رسولًا. وكان طلبه هذا مقبولًا لأمرين:

- أن فرعون ربما كذّبه، والتكذيب سبب لضيق الصدر، وضيق الصدر سبب لتعسّر الكلام على من يكون في لسانه حُبْسَة[1]، أمّا هارون عليه السلام فهو أفصح لسانًا.
- أن لفرعون وقومه عند موسى عليه السلام ذنبًا، فخاف أن يبادروا إلى قتله، وحينئذ لا يحصل المقصود من البعثة، أما هارون عليه السلام فليس كذلك فيحصل المقصود من البعثة.

التفصيل:

هل طلب موسى عليه السلام إعفاءه من الرسالة وإعطاءها لهارون عليه السلام؟!

يوضح د. محمد أبو النور الحديدي القول على هذا التساؤل قائلًا: إن موسى عليه السلام لم يطلب إعفاءه من الرسالة، وتوجيهها إلى هارون عليه السلام، وإنما طلب من ربه أن يرسل معه أخاه هارون فيكون كل منهما رسولًا

(*) عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

١. الحُبْسَة: ثِقَل في اللسان يمنع من الإبانة.

يتعاونان في دعوة فرعون وقومه إلى الله، وإصلاح حال بني إسرائيل؛ وذلك لأن موسى كان في لسانه لُثْغَةٌ[1]. قال سفيان: كان ذلك من أثر الجمرة التي وضعها في فمه وهو صغير، وكان مع هذا يُفْقَه قوله[2]، وليس كما قال فرعون ـ لعنه الله ـ فيما حكاه عنه القرآن: ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ ﴾(الزخرف) أي: ولا يكاد يفصح عن كلامه، فهو عَيِيٌّ حَصِرٌ[3]؛ لأنه سأل الله تعالى أن يحل عقدة لسانه ليفقه الناس قوله: ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ ﴾ (طه). فاستجاب الله عز وجل له ذلك فقال: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ (طه)، فموسى عليه السلام تحقق له طلبه فتيسر له الإبلاغ والإفهام، ولا يعقل أن يرسل الله رسولًا لا يستطيع إفهام غيره. فكان طلب موسى الإعانة بأخيه هارون ـ عليهما السلام ـ طلبًا مقبولًا لثلاثة أمور:

الأول والثاني: لأن فرعون ربما كذَّبه، والتكذيب سبب لضيق القلب، وضيق القلب سبب لتعسر الكلام على من يكون في لسانه حُبْسَة، فقد كان في لسان موسى عليه السلام لثغة لا يكاد يفصح عن كلامه، فسأل الله تعالى أن يحل عقدة لسانه، ليُفقِّه الناس: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾ (الشعراء). فاستجاب الله تعالى له: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ (طه)، فتيسر له عليه السلام الإبلاغ و الإفهام، ولكن هارون عليه السلام كان أفصح من موسى عليه السلام، والأفصح يكون أكثر إبلاغًا وإفهامًا، ثم إن هارون بإرساله يكون مُعينًا مقوِّيًا لأمر موسى عليه السلام، ومصدقًا له فيما يقوله، ويخبر به عن الله تعالى، لأن خبر الاثنين أوقع في النفس من خبر الواحد، قال الله عز وجل:

﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (القصص) والقول إجابة من الله لدعاء موسى عليه السلام.

الثالث: لأن القوم لهم عند موسى ذنبٌ، فخاف أن يبادروا إلى قتله، وحينئذ لا يحصل المقصود من البعثة، حيث إن موسى عليه السلام قد قتل من قوم فرعون نفسًا، وهو الذي وكزه فقضى عليه، ويخشى أن يقتلوه به، فلا يتحقق المقصود من بعثته: ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (الشعراء)، أما هارون عليه السلام فليس كذلك فيحصل المقصود من البعثة.

ومما يدل صراحة على عدم استعفاء موسى عليه السلام من الرسالة ـ وإنما طلب مشاركة هارون عليه السلام له في مهمته الصعبة ـ قوله الذي حكاه عنه القرآن الكريم: ﴿ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ (طه)[4][5].

١. اللُّثْغَة: تحوُّل اللسان من النطق بحرف إلى النطق بحرف آخر؛ كنطق السين ثاءً.

٢. يُفْقَه قوله: يُفْهَم.

٣. العِيُّ: العجز عن التعبير اللفظي بما يفيد المعنى المقصود، والحصر: ضرب من العي، وهو عدم القدرة على الكلام.

٤. أُشْدُد به أَزْري: قوِّ به ظهري.

٥. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٤٥، ٣٤٦.

وقد ذلَّل[1] الله له العقبة الأولى إذ أيده بالآيات الحسّيّة الدالة على صدقه في دعوة النبوة والرسالة: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ (الإسراء)، فقال له الله تعالى: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ (طه)[2]، وهي ـ العصا ـ في سرعتها وخفة حركتها كأنها جانٌّ: ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ (القصص: ٣١) فناداه الحق ﷻ: ﴿ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ (النمل: ١٠) فرجع موسى عليه السلام آمنًا نحو العصا فقال له الله تعالى: ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ (طه)، فوضع موسى عليه السلام يده بين أنيابها فعادت خشبة جامدة، ثم أعطاه الله آية أخرى وهي اليد البيضاء النقية من غير برص: ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾ (طه)، ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ (القصص: ٣٢)، ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ (النمل: ١٢).

وهاتان الآيتان من المعجزات الخارقة للعادة التي أيد الله بها موسى عليه السلام إذا ما كذبه فرعون وقومه.

وكان كليم الله موسى عليه السلام قد دعا ربه لتذليل العقبة الثانية: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ (طه) وقد طلب موسى من الله أن يحل عقدة لسانه، وأن يرسل أخاه هارون معه نبيًّا؛ لما يتمتع به من فصاحة في اللسان: ﴿ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾ (القصص)[3].

وأما العقبة الثالثة فقد ذللها رب العالمين إذ أنزل السكينة على قلب موسى، ووعده بأن قوم فرعون لن يصلوا إليه، ولن يتمكنوا من قتله، وأن الله تعالى سينصره عليهم: ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (القصص).

ومضى موسى إلى هارون ـ عليهما السلام ـ ليبلغه أمر الله، ويبشره بإرساله وزيرًا مصدقًا فصيح اللسان، يحمل معه الكتاب المستبين، وفيه قول الله: ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ (طه)[4].

وقد كان التكليف شاقًّا، إذ طغى فرعون وبغى، وتجبَّر وعلا، ونسي الجبار الأعلى. ولا بد للطاغية من رسول يبلغه كلمات الله، ليهز طغيانه بالكلمة المؤثرة الهادئة، ويواجه جبروته بالحق واللين، وقد علَّم الله موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ أسلوب الدعوة والتبليغ،

---

١. ذلَّل: أخضع وسهل.
٢. أَتَوَكَّأ: اعتمد عليها في المشي وحين التعب.
٣. ردءًا: عونًا لي.
٤. لا تَنِيَا: لا تُقصِّرا.

المتمثل في القول اللين، وبيّن لهما أن مهمتهما التذكير بنعم الله وزرع الخشية من الله في قلب الطاغية وأعوانه[1].

الخلاصة:

موسى عليه السلام لم يطلب إعفاءه من الرسالة، وتوجيهها إلى هارون عليه السلام، وإنما طلب من ربه أن يرسل معه أخاه هارون ليكون معه رسولًا. وكان طلبه هذا لأمرين:

الأول: لأن فرعون ربما كذّبه، والتكذيب سبب لضيق القلب، وضيق القلب سبب لتعسر الكلام على من يكون في لسانه حبسةٌ. وكان هارون عليه السلام أفصح من موسى عليه السلام، والأفصح يكون أكثر إبلاغًا وإفهامًا.

الثاني: لأن القوم لهم عند موسى عليه السلام ذنبٌ، وهو قتل نفس، فخشي أن يقتلوه به، فلا يتحقق المقصود من بعثته، أما هارون عليه السلام فليس كذلك؛ فيتحقق المقصود من البعثة.

الشبهة الثانية والخمسون

الزعم أن شريعة موسى عليه السلام هي أولى الشرائع للبشر(*) ®

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن شريعة موسى عليه السلام هي شريعة تنظم حياة البشر من زواج وغيره، وأنه لم يكن هناك شرائع قبلها؛ بدليل أن الكتاب المقدس لم ينص على وجود شريعة قبل شريعة موسى عليه السلام.

وجه إبطال الشبهة:

القرآن الكريم الذي سَلِم من التحريف الذي وقع للكتاب المقدس هو الحُجّة والمصوَّب للأخطاء الناشئة عن تحريف الكتاب المقدس، وقد ذكر أن الله تعالى قد شرع لنوح وإبراهيم من قبل موسى عليهم السلام.

التفصيل:

القرآن هو الصدق كل الصدق، في كل ما جاء به من عقيدة وشريعة وقصص وأخبار، وقد ذكر أن الله تعالى قد شرع لنوح وإبراهيم - عليهما السلام - من قبل:

قال عز وجل: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ (الشورى).

أخبر الله عز وجل أنه قد شرع لنوح وإبراهيم ما قد شرعه لموسى وعيسى - عليهم السلام - من شريعة فقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة - رحمه الله - ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾ قال: الحلال والحرام.

وأخرج ابن جرير، عن قتادة رضي الله عنه قال: بعث نوح عليه السلام، حين بعث بالشريعة، بتحليل الحلال وتحريم الحرام[2].

وأخرج ابن المنذر، عن زيد بن رفيع، بقية أهل

1. مدرسة الأنبياء: عبر وأضواء، محمد بسام رشدي الزين، مرجع سابق، ص١٩٦، ١٩٧.

(*) قناة الحياة الفضائية، القمص زكريا بطرس، الحلقة.

® في **"التشريعات التي كُلِّف بها آدم"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الخامسة، من هذا الجزء.

2. أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢١/ ٥١٢)، تفسير سورة الشورى، الآية ١٣.

الجزيرة، قال: بعث الله نوحًا عليه السلام، وشرع له الدين، فكان الناس في شريعة نوح عليه السلام ما كانوا، فما أطفأها إلا الزندقة[١]، ثم بعث الله موسى عليه السلام، وشرع له الدين، فكان الناس في شريعة من بعد موسى ما كانوا، فما أطفأها إلا الزندقة، ثم بعث الله عيسى عليه السلام، وشرع له الدين، فكان الناس في شريعة عيسى عليه السلام ما كانوا، فما أطفأها إلا الزنادقة، قال: ولا يُخاف على هلاك هذا الدين إلا الزَّنادقة[٢].

وعدم نص الكتاب المقدس على شريعة قبل شريعة موسى عليه السلام لا يعد دليلًا على عدم وجود شرائع قبل موسى عليه السلام، وذلك لوقوع تدخلات بشرية فيه أدت إلى احتوائه على العديد من الأباطيل والأساطير - وذلك باعتراف علماء اللاهوت أنفسهم - وبهذا لا يعد الكتاب المقدس الحالي دليلًا أو حكمًا يُحتج به أو يُتحاكم إليه.

ولقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن الحكم، قال: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ (الشورى) قال: جاء نوح عليه السلام بالشريعة، بتحريم الأمهات والأخوات والبنات[٣]، وفي هذا تدرّج في التشريع عبر الأزمان، وتخصيص في تناول قضايا الحِل والحرمة، والتعامل مع بعضهم بعضًا في الحياة العامة، أليست هذه هي الشريعة بعينها؟! والرسل - عليهم السلام - هم القدوة الحسنة للناس في شتَّى مناحي الحياة، فالذي يسير على منهاجهم، فقد طبق الشريعة بعينها؛ لأنه لا يفعل شيئًا عن أمره، إنما هو يفعل ما أمره الله أن يفعل، ويترك ما أمره الله تعالى أن يترك، أليست هذه هي الشريعة[٤]؟!

قال القاسمي: وتخصيص هؤلاء الخمسة، وهم أولو العزم بالذكر؛ لأنهم أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة، ولاستمالة قلوب الكفرة لاتفاق الكُل على نبوة بعضهم[٥].

ويوضح الإمام القرطبي في تفسيره لهذه الآية: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ (الشورى) اختلاف كل الشرائع في الفروع واتخاذها في الأرض منذ آدم عليه السلام فإنه وإن كان نبيًّا إلا أنه لم يكن رسولًا، فلم تفرض له الفرائض ولا شرعت له المحارم، وإنما كان تنبيهًا على بعض الأمور واقتصارًا على ضرورات المعاش، وأخذًا بوظائف الحياة والبقاء، واستقر المدى إلى نوح عليه السلام فبعثه الله بتحريم الأمهات والبنات والأخوات، ووظّف عليه الواجبات، وأوضح

---

١. الزَّنْدَقَة: مذهب مَنْ يقول بأزليَّة العالم، وأطلق على الزرادشتية والمانوية وغيرهم من الثنوية، وتُوسِّع فيه فأطلق على كل شاكٍّ أو ضالٍّ أو مُلْحِد.

٢. الدر المنثور في التفسير المأثور، جلال الدين السيوطي، مرجع سابق، ج٩، ص٥٨.

٣. المرجع السابق، ص٥٨.

٤. النبوة والأنبياء، الصابوني، مرجع سابق، ص٢٣، ٢٤ بتصرف.

٥. محاسن التأويل، القاسمي، مرجع سابق، ج٨، ص٢٤٧.

له الآداب في الديانات، ولم يزل ذلك يتأكد بالرسل، ويتناصر بالأنبياء صلوات الله عليهم واحدًا بعد واحد، وشريعة إثر شريعة، حتى ختمها الله بخير الملل، ملتنا على لسان أكرم الرسل نبينا محمد ﷺ؛ فكان المعنى: أوصيناك يا محمد ونوحًا دينًا واحدًا، يعني في الأصول التي لا تختلف فيها الشريعة، وهي التوحيد والصلاة والصيام والزكاة والحج والتقرب إلى الله بصالح الأعمال، والزّلف إليه بما يرد القلب والجارحة إليه، والصدق والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة وصلة الرحم، وتحريم الكفر والقتل والزنا، والإذاية للخلق كيفما تصرفت، والاعتداء على الحيوان كيفما دار، واقتحام الدناءات وما يعود بخَرْم[1] المُرُوءات.. فهذا كله مشروع دينًا واحدًا وملة واحدة، لم تختلف على ألسنة الأنبياء وإن اختلفت أعدادهم[2].

وبهذا يتبين أن شريعة موسى عليه السلام ليست أول الشرائع الإلهية للبشر فقد سبقتها شرائع كثيرة منها شريعة نوح وإبراهيم - عليهما السلام -، بل إن لكل أمة شريعة، وإلا فلماذا كان يرسل الله إليهم رسلًا؟ وبماذا كانوا يأمرونهم وينصحونهم؟ فكل ما كان يبعث به النبي إلى قومه من الأوامر والحلال والحرام فهذا تشريع، ويدل على هذا ما تبقى من بعض الشرائع السابقة كالذي بقي من ملة إبراهيم، مثل شعائر الحج ومناسكه التي شرعها الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ بعدما صححها من مظاهر الشرك التي ألحقها الناس بها.

١. خَرْم المروءات: القدح فيها.

٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١٦، ص١١.

الخلاصة:

- القرآن هو الصدق في كل ما أخبر به من عقيدة وشريعة وقصص وأخبار، وقد أخبر الله أنه شرع لنوح وإبراهيم ما شرعه لموسى وعيسى - عليهم جميعا السلام - إذن فليست شريعة موسى عليه السلام أول الشرائع.
- الله تعالى أرسل إلى كل أمة نذيرًا يدعوهم إلى عبادة الله وحده، ويبلغهم أوامر الله ونواهيه، ويعلمهم كيفية تعامل بعضهم مع بعض، ويكون قدوة حسنة لهم يسيرون على منهاجه. أليست هذه هي الشريعة؟!

الشبهة الثالثة والخمسون

الزعم أن القرآن خالف التوراة في عدد ألواح موسى (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن القرآن خالف التوراة في ألواح موسى عليه السلام فيقولون: إن موسى كتب الشريعة على لوحين لا على ألواح، وعلى اللوحين كتب الوصايا العشر فقط وليس تفصيلًا لكل شيء، وهذا يتناقض مع قوله عز وجل: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ (١٤٥) ﴾ (الأعراف).

وجها إبطال الشبهة:

١) لفظ "الألواح" يستعمل في اللغة العربية للدلالة

(*) موقع الكنيسة الإنجيلية بقصر الدوبارة.

على الاثنين فأكثر من باب أن أقل الجمع اثنان، ومن ثم اختلف المفسرون في عدد هذه الألواح وهيئتها.

٢) نصوص التوراة - المحرفة - التي بين أيدينا الآن تثبت أن الأحكام والشرائع والوصايا التي تلقاها موسى عليه السلام من ربه، كُتبت على أكثر من لوحين، فضلًا عن أنها أشارت إلى كل شيء في شريعة موسى عليه السلام جملةً، وما يحتاج لتفصيل فصّلته.

التفصيل:

أولا. تستخدم لفظة الألواح في اللغة العربية للدلالة على الاثنين فأكثر من باب أن أقل الجمع اثنان، ومن ثم اختلف المفسرون في عددها وهيئتها:

الألواح جمع لَوْح، وهو قطعة مربعة من الخشب، وتسمية الألواح التي أعطاها الله موسى ألواحًا من باب المجاز؛ لأن الألواح التي أُعْطيها موسى عليه السلام كانت من الحجارة، كما في التوراة: "قال الرب لموسى: اصعد إلى الجبل، وكن هناك، فأعطيك لَوْحَي الحجارة والشريعة والوصية التي كتبتها لتعليمهم". (الخروج ٢٤: ١٢)، فتسميتها بالألواح، لأنها على صورة الألواح، والذي بالإصحاح الرابع والثلاثين أن اللوحين كتبت فيهما الوصايا العشر التي ابتدأت بها شريعة موسى، وكانا لوحين، كما في التوراة، أما إطلاق الجمع عليها في سورة الأعراف فهو: إما من باب إطلاق صيغة الجمع على المثنى؛ بناءً على أن أقل الجمع اثنان، وإما لأنهما كانا مكتوبين على كلا وجهيهما، كما يقصّه سفر الخروج: "لوحان مكتوبان على جانبيهما من هنا ومن هنا كانا مكتوبين". (الخروج ٣٢: ١٥)، فكانا بمنزلة أربعة ألواح، وأسندت الكتابة إلى الله تعالى؛ لأنها كانت مكتوبة نقشًا في الحجر من غير فعل إنسان، بل بمَحْض قدرة الله تعالى كما يُفهَم من سفر الخروج: "واللوحان هما صنعة الله، والكتابة كتابة الله منقوشة على اللوحين". (الخروج ٣٢: ١٦)[1].

وللمفسرين آراء في عدد وهيئة هذه الألواح، قال بعضهم: إنها كانت عشرة ألواح. وقيل: سبعة، وقيل: تسعة وإنها كانت من زُمُرُّدٍ[2] جاء بها جبريل عليه السلام، وقيل: من زبرجدة خضراء وياقوته حمراء، وقال الحسن: كانت من خشب نزلت من السماء، وقال وهب: كانت من صخرة صمَّاء ليَّنها الله لموسى عليه السلام، وأما كيفية الكتابة، فقال ابن جريج: كتبها جبريل بالقلم الذي كتب به الذكر واستمد من نهر النور.

ذكر الإمام ابن كثير: "وكانت الألواح من جوهر نفيس ففي الصحيح: أن الله كتب له التوراة بيده وفيها مواعظ من الآثام، وتفصيل ما يحتاجون إليه من الحلال والحرام، وأمره أن يأخذها بعزم، وأن يأمر قومه أن يضعوها على أحسن وجوهها وأجمل محاملها، والخارج عنها له عاقبة سيئة قال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ (الأعراف)[3] ®.

---

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج ٥، ج٩، ص٩٦.

٢. الزُّمُرُّد: حجر كريم أخضر اللون شفاف.

٣. قصص الأنبياء، ابن كثير، مرجع سابق، ص٢٨١.

® في "**تعبير القرآن بالجمع مكان المثنى**" طالع: الشبهة الحادية والخمسين، من الجزء الثاني (لغة القرآن الكريم).

ثانيًا. نصوص التوراة تثبت أن الشرائع والوصايا التي تلقاها موسى عليه السلام من ربه كتبت على أكثر من لوح، وكانت متضمنة لكل شيء يخص رسالة موسى:

يذكر الطاهر ابن عاشور أن ما كتب لموسى عليه السلام في الألواح هو أصول وكليات هامة للشريعة التي أوحى الله بها إلى موسى عليه السلام ومن ذلك خطاب الله لموسى عليه السلام قائلًا: "أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية، لا يكن لك آلهة أخرى أمامي، لا تصنع لك تمثالًا منحوتًا، ولا صورة ما مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض، لا تسجد لهن ولا تعبدهن، لأني أنا الرب إلهك إله غيور، أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي، وأصنع إحسانًا إلى ألوف من مُحِبي وحافظي وصاياي. لا تنطق باسم الرب إلهك باطلًا، لأن الرب لا يبرئ من نطق باسمه باطلًا، اذكر يوم السبت لتقدسه، ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك، وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك، لا تصنع عملًا ما أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلك الذي داخل أبوابك، لأن في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها، واستراح في اليوم السابع؛ لذلك بارك الرب يوم السبت وقدَّسه. أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك، لا تقتل، لا تزنِ، لا تسرق، لا تشهد على قريبك شهادة زور. لا تَشْتَهِ بيت قريبك". (الخروج ٢٠: ٣ـ ١٧).

واشتهرت عند بني إسرائيل بالوصايا العشر، وبالكلمات العشر أي الجمل العشر، وقد فُصِّلَت في الإصحاح العشرين إلى نهاية الحادي والثلاثين من سفر الخروج، ومن جملتها الوصايا العشر التي كلَّم الله بها موسى في جبل سيناء، وجاء في الإصحاح الرابع والثلاثين أن الألواح لم تكتب فيها إلا الكلمات العشر التي بالفقرات السبع عشرة منه[1].

يتضح لنا مما سبق أن التوراة تنص في الإصحاح الرابع والثلاثين على أنه لم يكتب في الألواح سوى الوصايا العشر، بيد أننا ونحن نتصفَّح كتابهم اتضحت لنا عدة أمور منها:

الأمر الأول: في الإصحاح الرابع والعشرين من سفر الخروج جاء ما نصه: "وقال الرب لموسى اصعد إلى الجبل، وكن هناك. فأعطيك لَوْحَي الحجارة والشريعة والوصية التي كَتَبْتُها لتعليمهم". (الخروج ٢٤: ١٣)، أخبرني بربك أيها العاقل، ماذا تفهم من صريح هذا الكلام، ألستَ تفهم معي ـ ويشاركنا فيه كل العقلاء المنصفين ـ أن موسى عليه السلام تلقَّى من ربه ألواحًا مكونة من:

- لوحين للعهد "لوحي الحجارة" للعمل بالتوراة.
- عِدَّة ألواح مكتوب عليها كل أحكام التوراة.

إن المنطق والعقل السليمين يقضيان بأن أحكام التوارة ـ الشريعة والوصية ـ لا يمكن كتابتها على لوح أو لوحين، بل عدة ألواح، يؤيد ذلك قول التوراة: "فجاء موسى وحدث الشعب بجميع أقوال الرب وجميع الأحكام، فأجاب جميع الشعب بصوت واحد

[1]. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٥، ج٩، ص٩٧.

وقالوا: كل الأقوال التي تكلَّم بها الرب نفعل". (الخروج ٢٤: ٣).

الأمر الثاني: أن الله ﷻ أخبر موسى عليه السلام بعبادة قومه للعجل، فنزل موسى عليه السلام من الجبل وكسر لَوْحَي العهد: "فقال الرب لموسى: "اذهب انزل؛ لأنه قد فسد شعبك الذي أصعدته من أرض مصر، زاغوا سريعًا عن الطريق الذي أوصيتهم به، صنعوا لهم عجلًا مسبوكًا، وسجدوا له وذبحوا له وقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر"، وقال الرب لموسى: "رأيت هذا الشعب وإذا هو شعب صلب الرقبة، فالآن اتركني ليَحْمَى غضبي عليهم وأفنيهم، فأصيرك شعبًا عظيمًا" فتضرع موسى أمام الرب إلهه، وقال: "لماذا يا رب يحمى غضبك على شعبك الذي أخرجته من أرض مصر بقوة عظيمة ويد شديدة؟ لماذا يتكلم المصريون قائلين: أخرجهم بخبث ليقتلهم في الجبال، ويفنيهم عن وجه الأرض؟ ارجع عن حُمُوِّ غضبك، واندم على الشر بشعبك، اذكر إبراهيم وإسحاق وإسرائيل عبيدك الذين حلفت لهم بنفسك، وقلت لهم: أكثر نسلكم كنجوم السماء، وأعطى نسلكم كل هذه الأرض التي تكلمت عنها فيملكونها إلى الأبد" فندم الرب على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه، فانصرف موسى ونزل من الجبل ولَوْحَا الشهادة في يده: لوحان مكتوبان على جانبيهما من هنا ومن هنا، كانا مكتوبين واللوحان هما صنعة الله، والكتابة كتابة الله منقوشة على اللوحين وسمع يشوع صوت الشعب في هتافه فقال لموسى: "صوت قتال في المحلة". فقال: "ليس صوت صياح النصرة ولا صوت صياح الكسرة، بل صوت غناء أنا سامع" وكان عندما اقترب إلى المحلة أنه أبصر العجل والرقص، فحمي غضب موسى، وطرح اللوحين من يديه، وكسرهما في أسفل الجبل". (الخروج ٣٢: ٧ ـ ١٩).

ويتبين لنا من النص السابق أن الألواح لم تكن كما يدعي هؤلاء لوحين فقط، بل أربعة.

الأمر الثالث: أن الله أمر موسى بإنشاء لوحين جديدين: "ثم قال الرب لموسى: انحت لك لوحين من حجر مثل الأولين، فأكتب أنا على اللوحين الكلمات التي كانت على اللوحين الأولين اللذين كسرتهما". (الخروج ٣٤: ١).

وجاء في سفر التثنية أن موسى كسر لوحين كان عليهما كل أحكام الشريعة: "وأعطاني الرب لوحي الحجر المكتوبين بأصبع الله، وعليهما مثل جميع الكلمات التي كلمكم بها الرب في الجبل من وسط النار في يوم الاجتماع". (التثنية ٩: ١٠).

ومن خلال النصين نستنتج أن لوحي العهد لا يمكن أن يحملا كل أحكام الشريعة التي نزلت يوم الاجتماع، بل المناسب لها ألواح بالجمع، ومنها لوحي العهد.

وتأسيسًا على ما سبق فإنه من السخف والجهل القول بأن شريعة موسى عليه السلام اقتصرت كتابتها على لوحين فقط، وليس هذا حكما خاليًا من الأدلة، بل الأدلة من كلام القوم وبلسان القوم.

يبقى بعد ذلك شيء أخير وهو ادِّعاء القوم أن ما كتب هو الوصايا العشر فقط ـ وقد ألمحنا لذلك في الوجه الأول ـ وباقي الأحكام والشرائع لم تكتب، وفي سبيل توضيح هذا الأمر والرد عليه نقول: من خلال

قراءة النصوص السابقة التي أوردناها في الوجه الثاني يتضح أن الألواح كتب فيها كل شيء من الأحكام.

ومن ثم فلا مجال للحكم بخطأ القرآن الكريم حين قال: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ (الأعراف: ١٤٥)، ويعلق صاحب "المنار" على هذه الآية قائلًا: أي إننا أعطيناه ألواحًا كتبنا له فيها من كل نوع من أنواع الهداية موعظة من شأنها أن تؤثر في القلوب ترغيبًا وترهيبًا وتفصيلًا لكل نوع من أصول التشريع، وهي أصول العقائد والآداب وأحكام الحلال والحرام وتفصيلها، ذكرها معدودة مفصولًا بعضها عن بعض[1].

غير أن صاحب "التحرير والتنوير" يلفت النظر إلي شيء جميل ولمحة رائعة عند تفسيره لهذه الآية، فيذكر أن التفصيل هنا التبيين للمجملات، ولعل الموعظة هي الكلمات العشر، والتفصيل ما ذكر بعدها من الأحكام في الإصحاحات[2].

بناءً على ما سبق نستطيع القول بأن القرآن الحكيم جاء صادقًا في حديثه عن ألواح موسى عليه السلام وما سجِّل عليها، غير أن الخلط في عقول هؤلاء وفي كتاباتهم جعلهم يتصورون الخطأ فيه، تعالى الله أن يكون في كلامه خلط أو خطأ.

الخلاصة:

- لفظ الألواح يُستعمل في لغة العرب للدلالة على اثنين من باب أن أقل الجمع اثنان؛ ومن ثم فلا خطأ ولا إشكال فيما أورده القرآن عنها، فضلًا عن اعتراف التوراة بأن لوحي العهد كانا ذا وجهين. وهذا اعتراف بصحة القرآن.
- أشارت نصوص التوراة التي بين أيدينا إلى أن موسى عليه السلام تلقَّى من ربه نوعين من الألواح هما: لوحي العهد، وعدة ألواح كتب عليها أحكام الشريعة والوصية.
- كما أشارت التوراة أيضًا أن موسى عليه السلام كسر لوحين كانا عليهما جميع كلام الرب، وأمره الرب بكتابة لوحين آخرين بدلًا منهما، وهذا يُفَسَّر بأن ما كتب على الألواح ليس فقط كما زعم القوم بما يسمونه بالوصايا العشر، بل كل شيء وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ (الأعراف).

الشبهة الرابعة والخمسون

دعوى خطأ القرآن الكريم بشأن إيمان سحرة فرعون(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن سحرة فرعون لم يسجدوا لإله موسى عليه السلام، وأن القرآن الكريم أخطأ في ذلك حيث قال: ﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ

١. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج٩، ص١٨٨.

٢. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٥، ج٩، ص٩٨.

(*) قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق.

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ (الأعراف). وتارة يقول تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ (طه)، مستدلين بما جاء في الكتاب المقدس على لسان موسى وهارون - عليهما السلام - حينما طلبا من فرعون إطلاق بني إسرائيل، فقال فرعون: "من هو الرب حتى أسمع لقوله، فأطلق إسرائيل. لا أعرف الرب وإسرائيل لا أطلقه". (الخروج ٥: ١، ٢)، ويرمون من وراء ذلك إلى التشكيك في القرآن الكريم.

وجوه إبطال الشبهة:

١) الباطل لا يقبله عقل، ولا يكون حجة ومعيارًا على الحق الذي ثبتت حجته وموافقته للعقل، ذلك أن سجود الملائكة لإله موسى ثابت لأنه محل الإعجاز.

٢) القرآن يقص حقيقة السحرة مع موسى ﷺ وإيمانهم كاشف لزيف الكتاب المقدس.

٣) لا تباين في موقف إيمان السحرة أو سجودهم، بل إن إيمانهم وسجودهم كان لله وحده لا شريك له، لا كما زعمت التوراة التي أشركت موسى ﷺ بالله في الألوهية، تعالى الله عن قولها علوًا كبيرًا.

التفصيل:

أولا. الباطل لا يقبله عقل، ولا يكون حجة ومعيارًا على الحق الذي ثبتت موافقته للعقل:

القرآن الكريم يقصُّ الحق، ويخبر أن موسى وهارون - عليهما السلام - نبيَّان لبني إسرائيل، ويشرح رسالة موسى ﷺ إلى فرعون وقومه، وقصة السحرة الذين آمنوا لله رب العالمين، فالقرآن حجة ثابتة تاريخيًا تبرز الفارق بين كلام الخلق المتمثل في الكتاب المقدس، وكلام الخالق الموافق للعقل والمتمثل في آيات القرآن الكريم. فالتوراة تجعل من موسى إلهًا وهارون نبيَّه.

وموسى وهارون - عليهما السلام - يدعوان فرعون إلى "إله العبرانيين"، وليس إلى "رب العالمين"، هكذا تقصُّ علينا التوراة، ولا يدعوان فرعون إلى عبادة الإله الواحد أولًا، بل إلى تخليص بني إسرائيل وفقط: "وبعد ذلك دخل موسى وهارون، وقالا لفرعون: هكذا يقول الرب إله إسرائيل: أطلق شعبي ليُعيِّدوا في البَرِّيَّة، فقال فرعون: من هو الرب حتى أسمع لقوله فَأُطْلِق إسرائيل؟ لا أعرف الرب، وإسرائيل لا أطلقه، فقالا: إله العبرانيين قد التقانا". (الخروج ٥: ١ - ٣).

والطامة الكبرى أن موسى اعتذر للرب عندما طلب منه أن يكلم فرعون قائلًا: "ها أنا أغلق الشفتين، فكيف يسمع لي فرعون؟ هنا قال الرب لموسى: انظر: أنا جعلتك إلهًا لفرعون، وهارون أخوك يكون نبيك"!! موسى إله، وهارون نبي موسى!! هذه هي التوراة التي يحتجون بها.

أما القرآن الكريم فيقدم لنا موسى وهارون - عليهما السلام - رسولين من رب العالمين جاءا برسالة تهدي الناس إلى الحق والخير، هذا هو الهدف الأول، والهدف الثاني هو: إنقاذ بني إسرائيل من ذل وعبودية فرعون، قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ (الأنبياء)، وقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ (غافر)، وقال ﷻ: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾ (الشعراء)، وقال ﷻ: ﴿فَأْتِيَا

﴿ ... فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ (الشعراء).

فموسى عليه السلام رسول من رب العالمين عز وجل، ومعه أخوه هارون عليه السلام، رسول من رب العالمين كذلك إلى فرعون وقومه، وآمن بهما من آمن من قوم فرعون من السحرة، عندما قامت الحُجَّة، وهم أعلم الناس بالسحر وحدوده، فوجدوا أن معجزة موسى عليه السلام تفوقت على السحر: ﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (الشعراء).

إن التوراة المحرفة أغفلت مهمة موسى عليه السلام الأساسية الأولى وهي الهداية، ووضعتنا أمام الدوران في فلك بني إسرائيل، كما عهدناها دائمًا، وليتها تتحدث عنهم لهدايتهم، بل للتَّنْفِيث[1] عن عقيدتهم، المتمثلة في الشعور بالنقص، والمذلة، والمهانة، والنقمة على الأمم، والانتقام منها. فهذه صورة حية تبرز الفارق بين كلام الخلق، وكلام الخالق.

متى كان هذا التخبط الذي لا يقبله عقل ولا دين حجة على الحق، ومعيارًا يقاس به؟!!

إن التوراة التي يتخذونها مقياسًا للحقيقة، ووصية عليها، وعلى التاريخ، تجعل من رب العالمين إلهًا لبني إسرائيل وحدهم، وهم شعبه! قال الرب لموسى: "وأنا أيضًا قد سمعت أنين بني إسرائيل الذين يستعبدهم المصريون، وتذكرت عهدي، لذلك قل لبني إسرائيل: أنا الرب، وأنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين، وأنقذكم من عبوديتهم، وأخلصكم بذراع ممدودة وبأحكام عظيمة، وأتخذكم لي شعبًا، وأكون لكم إلهًا". (الخروج ٦: ٥ ـ ٧).

ومع أن رب العالمين جعلهم خاصته، وجعل نفسه إلهًا لهم وحدهم، ونقل موسى عليه السلام هذه الرسالة لهم، لكنهم "لم يسمعوا لموسى من صغر النفس، ومن العبودية القاسية". (الخروج ٦: ٩).

وعليه، فالقول الفصل هو الذي حكاه القرآن، لأنه كلام رب العالمين المنزل على خير خلقه صلى الله عليه وسلم.

ثانيًا. القرآن يقص حقيقة السحرة مع موسى عليه السلام وإيمانهم برب موسى:

مضى موسى عليه السلام يشرح رسالة ربه، وأخذ فرعون يتهدده؛ ويتوعده بالسجن والتعذيب، والتشريد، فقال له موسى عليه السلام: أو لو جئتك بشيء مبين؟ فقال: وماذا عندك؟ فألقى العصا فإذا هي ثعبان مبين، وأدخل يده إلى صدره، ثم أخرجها، فإذا بها كأنها قطعة من نور الشمس تضيء، ففزع فرعون لهذا ودعا جماعته، واستشارهم فأشاروا عليه أن يجمع السحرة؛ ليبطلوا ما جاء به موسى عليه السلام؛ لأنهم ظنوا أنه من قبيل السحر، فاجتمع السحرة عند فرعون، فطلب منهم فرعون أن يجمعوا قواهم، ويوحدوا هدفهم؛ ليبطلوا ـ بعزيمتهم ـ سحر موسى عليه السلام، وأغراهم بالمال، والمنصب، وأن يجعلهم من خاصته فيما إذا تمكنوا على موسى عليه السلام وغلبوه، ثم كانت النتيجة بعد تداول بين السحرة أن طلبوا من موسى عليه السلام أن يلقي ما معه، أو يبدأوا هم بالإلقاء اعتزازًا منهم بالنفس واعتقادًا بالغلبة: ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ

1. التنفيث: التفريج عنها وكشفها ونشرها.

﴿ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ (الأعراف)[1].

ألقى السحرة حبالهم وعصيهم، وقالوا في غرور: ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (الشعراء). ونظر موسى عليه السلام، وإذا بهذه الحبال والعصي، كأنها حيَّات وثعابين، فهاله أمرها، وأَوْجَس في نفسه خيفة[2] منها، ولكن الله ثبته أمام ذلك الجمع الزاخر، وأوحى تعالى إليه ألا تخف فإنك أنت المنصور، وأمره أن يلقي العصا، فإذا هي تبتلع كل ما قذف به السحرة، من زور وبهتان: ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾ (طه).

وأن موسى عليه السلام لما ألقى العصا، انقلبت إلى حية عظيمة لها عنق طويل، وشكل مفزع هائل، حتى إن الناس هربوا فزعًا منها، وقد أقبلت هذه الحية على الحبال والعصي، فجعلت تَلْقفها[3] في أسرع ما يكون، والناس في فزع واضطراب، وفي دهشة واستغراب، وكان أول من أذعن للحق وأعلن إيمانه، إنما هم "السحرة" الذين أتى بهم فرعون لينصروه، ويتغلبوا على خصمه موسى عليه السلام. قال عز وجل: ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (الشعراء).

آمن السحرة، وسجدوا لله تبارك تعالى، وأقروا له بالوحدانية؛ لأنهم أيقنوا أن هذا ليس بسحر، ولا شعوذة، ولا زور ولا بهتان، وإنما هي آية من آيات الله الباهرة، أظهرها على يد رسوله موسى عليه السلام لتكون برهانًا على صدقه، وعرفوا أن ذلك ليس بطاقة إنسان ولا قدرته، وإنما هي القوة الإلهية التي تصنع العجائب؛ فَخرُّوا لله ساجدين وقالوا: ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (الشعراء). علم فرعون أنه لم يعجز موسى عليه السلام، ولكن موسى عليه السلام أعجزه، فأراد أن يستر هزيمته، ويستعيد هيبته، فقال للسحرة - وكان صاحب مكر وخداع: ﴿ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (الشعراء) توعَّد جميع السحرة بالقتل والصلب، وتقطيع الأيدي والأرجل، واتهمهم بالتآمر مع موسى، مع أنه يعلم علم اليقين، أن موسى عليه السلام لم يعرفهم، ولم يجتمع معهم من قبل؛ لأنه كان مقيمًا مع أهل مدين، فكيف يكون كبيرهم الذي علمهم السحر؟! ثم إن موسي عليه السلام لم يجمعهم، ولا علم باجتماعهم، وإنما استدعاهم فرعون من أنحاء البلاد؛ ليبطلوا دعوى موسى عليه السلام، ولكنه المقهور المغلوب يلتمس لنفسه العذر، وإن كان لا يغني أمام الحق شيئًا[4].

أما السحرة فقد ثبتوا على الإيمان، ولم يبالوا بوعيد فرعون الطاغية وتهديده، بل صرخوا في وجهه صرخة الإيمان والبطولة، مُتَحَدِّين فرعون وبطشه وجبروته:

---

١. النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، مرجع سابق، ص١٧٧.

٢. أَوْجَس في نفسه خِيفَة: وجد في نفسه بعض الخوف نتيجة المفاجأة.

٣. تَلْقَف: تبتلع وتأكل.

٤. النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، مرجع سابق، ص١٧٨، ١٧٩.

﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ (٧٢) إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ (٧٣) ﴾ (طه).

قال سعيد بن جبير: لما سجد السحرة، رأوا منازلهم وقصورهم في الجنة، تُهَيَّأُ لهم، وتُزَخْرَفُ لقدومهم، ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون، وتهديده، ووعيده بل صَدَعوا بالحق في وجهه، ولقد نفذ فرعون ما هددهم به، فصلبهم، وقطع أيديهم وأرجلهم، وقتلهم شر قتله، ومع ذلك لم يثنهم ذلك عن الإيمان بالله، فماتوا شهداء أبرارًا رضوان الله عليهم أجمعين، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كانوا أول النهار سحرة، فصاروا من آخره شهداء بررة.

ثالثًا. لا تباين في موقف السحرة من الإيمان بالله والسجود له، بل إن إيمانهم وسجودهم كان لله وحده لا شريك له، رب العالمين، رب موسى وهارون، لا كما جاء في الكتاب المقدس:

حين رأى السحرة المعجزة استيقظت عندهم الفطرة الإيمانية، قال الحق ﷻ: ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) ﴾ (طه)، فهنا الفعل "ألقى" مبني للمجهول، فكأن نفوسهم من تلقاء نفسها خرّت ساجدة لله، فكأن قوة الحق تلاقت مع صَحْوة الفطرة، فلم يملكوا إلا أن يقعوا ساجدين بدون اختيار، وهذا السجود عملية مرئية.

وهناك عملية أخرى قولية هي قولهم: ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) ﴾ إذن هناك منظر رآه الناس، وهو: أنهم أُلقوا سجدًا، والذي ألقاهم هو قوة الحق؛ لمفاجأته الفطرة؛ فانكبوا على الأرض ساجدين دون اختيار أو شعور، ومع أن موسى عليه السلام هو المرسل وهارون عليه السلام هو العَضُد، إلا أنهم حينما سجدوا قالوا: ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) ﴾ بعض الناس قد يتساءل، ماذا قال السحرة؟ هل قالوا: آمنا بـ ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (٤٨) ﴾، أم قالوا: ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) ﴾ (طه)، ونحن نقول: إذا كان رؤساء السحرة سبعين فلا بد أن الأتباع يصل عددهم إلى سبعمائة أو يزيد، فهل من المعقول أن يتحدوا جميعًا في الحركة وفي القول، أم أن كل واحد انفعل بحسب مداركه الإيمانية الجديدة، فبعضهم قال: ﴿ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (٤٨) ﴾ (الشعراء)، وبعضهم قال: ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) ﴾ (طه) فقيل هذه وهذه، والقرآن عدَّد كل اللقطات مجتمعة؛ لأنه ليس من المعقول أن يتفق هذا العدد الضخم في الحركة وفي اللفظ؛ ولذلك نجد الواحد من خصوم الإسلام يقول: القرآن يقول عن السحرة مرة: إنهم قالوا كذا، ومرة يقول: إنهم قالوا كذا... فأيها قالوا؟ نقول له: هذه جمهرة لا نستطيع أن تحكي أقوالهم، فكل واحد انفعل بما يقول؛ فنحن نستطيع أن نردّ على من يقول: إن القرآن يحكي أقوالًا متعددة عن كلام السحرة بعد إيمانهم، فأي قول قيل؟ فنقول له: هذه لقطات لمجتمع جماهيري لا تضبط حركاته، ولا تضبط كلماته، بل كل واحد ينفعل حسب مداركه الإيمانية. فالقرآن عدّد اللقطات؛ ليقصّ كل ما حدث في القصة[1].

---

١. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ص٣٠٠، ٣٠١.

الخلاصة:

- الباطل لا يقبله العقل، ولا يصح - أن يكون - حجة على الحق، ومعيارًا يقاس به، فالتوراة المحرفة التي يتخذونها مقياسًا للحقيقة - في زعمهم - تجعل من رب العالمين إلهًا لبني إسرائيل وحدهم، وتجعلهم شعبه المختار، وما عداهم عبيد لهم.
- الكتاب المقدس يزيف الحقائق، ويجعل موسى عليه السلام إلهًا وهارون عليه السلام نبيًّا له، وهذا لا يتوافق مع العقل السليم.
- القرآن يخبر بالحقيقة، والقرآن ثبتت حجته تاريخيًّا. وهو يحكي قصة السحرة مع موسى عليه السلام وإيمانهم بالله عز وجل عندما اكتشفوا زيف سحرهم حقيقته، وإعجاز ما يفعله موسى عليه السلام، فعلموا أن هذا ليس بسحر، وإنما هي آية من آيات الله الباهرة، أظهرها على يد رسوله موسى عليه السلام، وعرفوا أن ذلك ليس بطاقة إنسان، وإنما هي القوة الإلهية التي تصنع العجائب، فخروا لله ساجدين، وقالوا: ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (٤٨) ﴾ (الشعراء).
- فهذه صورة حية تبرز الفارق بين كلام الخلق المتمثل في الكتاب المقدس، وكلام الخالق المتمثل في القرآن الكريم.
- لا تباين في موقف السحرة من الإيمان بالله والسجود له وحده، بل كان إيمانهم وسجودهم لله وحده لا شريك له، رب العالمين، رب موسى وهارون.

الشبهة الخامسة والخمسون

دعوى مخالفة القرآن الكريم التوراة في عدد آيات موسى عليه السلام(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين تعارض القرآن الكريم مع الكتاب المقدس في عدد الآيات - أي المعجزات والعلامات - التي جاء بها موسى عليه السلام، ففي حين أنها في التوراة عشر آيات، نجد القرآن يقول: إنها تسع، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ ﴾ (الإسراء: ١٠١).

وجها إبطال الشبهة:

١) القرآن الكريم صاحب الكلمة الفصل في عدد الآيات التي ابْتُلِي بها بنو إسرائيل؛ لأن القرآن ثبتت حجته تاريخيًّا بصحة سنده، وبموافقة المؤرخين له.

٢) إن مفسري التوراة أنفسهم قد اختلفوا في عدد هذه الآيات، وهذا الاختلاف من شأنه أن يثبت صحة ما ورد في القرآن.

التفصيل:

أولا. القرآن الكريم هو الحجة وثبتت حجته، والكتب الأخرى لم تثبت حجتها:

بداية نقول: إن ما ثبتت حجته يكون حجة على ما لم تثبت حجته، والقرآن حجة تاريخية موثقة، ويبدو أن الزاعمين لا تزيد معلوماتهم التاريخية عما جاء في

(*) حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق.

الكتاب المقدس، وأن القرآن الكريم -وهو صاحب كلمة الفصل الحق- يذكر أن الله ﷻ آتى موسى ﵇ تسع آيات بينات: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾ (الإسراء).

أمر الله ﷻ موسى أن يُعلِم فرعون وقومه، بأن الله سيوقع عليهم العذاب الشديد، جزاء تكذيبهم، وامتناعهم عن إطلاق بني إسرائيل، فأرسل الله عليهم أنواعًا من العذاب وصُنُوفًا[1] من البلاء، وكانت بمثابة إنذار لهم من الله ﷻ ليعودوا إلى رشدهم، وأظهر هذه الابتلاءات أو الآيات التسع التي أرسلها الله على قوم فرعون، وهي:

- **القحط والجدب**: وهو الذي عبَّر عنه القرآن بـ "السنين"، وهي أعوام الجدب التي أصابتهم، حيث لا يستغل فيها زرع، ولا ينتفع بضرع.
- **النقص من الثمرات**: وهي قلة الثمار من الأشجار بسبب الجوائح والعاهات.
- **الطوفان**: وهو كثرة الأمطار المتلفة للزروع والثمار، وهو مروي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وقيل: المراد فيضان نهر النيل عليهم.
- **الجراد**: وقد أرسله الله على آل فرعون بشكل غير معهود، فكان يغطي الخضراء، ويحجب ضياء الشمس لكثرته، وكان لا يترك لهم زرعًا ولا ثمرًا.
- **القُمَّل**: وهو السوس الذي يفسد الحبوب، وقيل: هو القمل المعروف، وقيل: هو البعوض الذي أقضَّ مضاجعهم ولم يمكنهم من الغمض ولا العيش.
- **الضفادع**: وقد كثرت عندهم حتى نغَّصت عليهم عيشهم، حيث كانت تسقط في أطعمتهم وأوانيهم، وتقفز على فُرُشِهم وملابسهم.
- **الدم**: وهو من الآيات الواضحة، فقد استحال الماء دمًا، فلا يسقون من بئر، ولا نهر إلا انقلب إلى دم في الحال.
- **العصا**: وكانت من معجزات موسى ﵇ حيث تنقلب إلى حية تسعى.
- **اليد**: إذ كان يضع يده في جيبه، ثم يخرجها بيضاء من غير سوء آية أخرى، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾ (الإسراء).

فكان هؤلاء كلما شاهدوا آية أظهروا الأسف والندم، وجاءوا إلى موسى ﵇ يطلبون منه أن يدعو ربه ليكشف عنهم الرِّجْز[2] والعذاب، فإذا رفعت عنهم تلك الآية عادوا إلى شر مما كانوا عليه، حتى كانت الآية الكبرى التي لم ينج منها أحد من فرعون الطاغية وجميع جنوده، ألا وهي غرقهم -جميعًا- في البحر، قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (الزخرف)[3][4].

ثانيًا. اختلاف مفسري التوراة في عدد هذه الآيات:

إن مفسري التوارة صرَّحوا بالاختلاف في عدد هذه

---

١. الصُّنُوف: جمع صنف، وهو النوع.

٢. الرِّجز: العذاب.

٣. آسفونا: أغضبونا بكثرة عصيانهم.

٤. النبوة والأنبياء، محمود علي الصابوني، مرجع سابق، ص١٨٠: ١٨٢.

الآيات، فالآية الثانية وهي الضفادع، يوجد من يقول: إنها التماسيح، والآية الثالثة، قال بعضهم: إنها ضربة القمل، وقال بعضهم: إنها ضربة البعوض، والآية الرابعة قال بعضهم: إنها ذباب الكلب خاصة، وقيل: مطلق الذباب. وفي القرآن الكريم أن الآيات التسع فيها آية الطوفان، فقد ورد ذكره في قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣) ﴾ (الأعراف)، في حين أن التوراة ليس فيها هذه الآية[1].

وهذا الاختلاف بين مفسري التوراة يؤكد أن ما جاء في القرآن هو الصواب.

الخلاصة:

- القرآن الكريم أخبر أن آيات موسى عليه السلام تسع، وهي: العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمَّل، والضفادع، والدم، والسنين، ونقص الثمرات. والقرآن صاحب الكلمة الفصل في ذلك؛ لأنه ثبتت حجته تاريخيًّا، والكتاب المقدس لم تثبت حجته تاريخيًّا، فأيادي التحريف قد عبثت به.
- لقد اختلف مفسرو التوراة أنفسهم بشأن هذه الآيات، سواء من حيث العدد أم التسمية، ففي الآية الثالثة ـ على سبيل المثال ـ نجد أن منهم من قال: إنها القمل، ومنهم من قال: إنها ضربة البعوض؛ مما يؤكد عدم صدق هذه التوراة واضطراب ما جاءت به من أخبار.

١. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص٥٠٣.

الشبهة السادسة والخمسون

ادِّعاء أن موسى عليه السلام استهان بكلام الله واعتدى على نبي الله هارون عليه السلام (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن موسى عليه السلام أهان كلام الله وآذى نبيه، ويستدلون على زعمهم بقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) ﴾ (الأعراف). ففي إلقاء الألواح ـ وما فيها من كلام الله ـ إهانة لها، وإخلال بواجب تعظيمها ـ حتى على القول بعدم تكسرها ـ وفي الأخذ برأس هارون عليه السلام ولحيته إيذاء له، وهو نبي بدليل قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) ﴾ (طه). ويتساءلون: كيف يصدر ذلك عن نبي؟!

وجها إبطال الشبهة:

١) إلقاء الألواح لا يقتضي إهانتها، وليس في الأمر إلا العجلة في الوضع الناشئ عن الغيرة لله تعالى.

٢) أخذُ موسى عليه السلام بشعر رأس هارون عليه السلام ولحيته ليس ذنبًا؛ لأنه لم يكن يجره إليه على سبيل الإيذاء، بل كان يدنيه إلى نفسه؛ ليتبين منه حقيقة الأمر

(*) عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

في تلك الواقعة (عبادة العجل)، ويعرف منه كيف وقعت.

التفصيل:

أولا. إلقاء الألواح لا يقتضي إهانتها، وليس في الأمر إلا العَجَلة في الوضع الناشئ عن الغيرة لله تعالى:

فإلقاء الألواح لا يقتضي إهانتها، إذ كان السبب في إلقائها غضبه على قومه الذين عبدوا العجل، كما هو واضح من الآية الكريمة: ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ (الأعراف).

فإن العقل يقضي بأنه لا يستهين رسول بكلام ربه، وهو الذي يدعو إلى تعظيمه، والقيام بحقه.

و ينبغي فهم إلقاء موسى عليه السلام الألواح على أنه لما رأى قومه على ما رأى، غضب غضبًا شديدًا حمية للدين، وغيرة من الشرك برب العالمين، فعجَّل بوضع الألواح؛ لتفرغ يده، فيأخذ برأس أخيه، فعبر عن ذلك الوضع بالإلقاء؛ تفظيعًا لفعل قومه الذي كان سببًا له، وليس في وضع الألواح إهانة لكلام الله تبارك وتعالى.

وعلى القول بأن بعض الألواح قد انكسرت، فلم يكن قصد موسى عليه السلام أن تنكسر، ولا ظن ترتبه على ما فعل، وليس ما في الأمر إلا العجلة في الوضع الناشئ عن الغيرة لله تعالى[1].

ثانيًا. أخذ موسى عليه السلام بشعر رأس هارون عليه السلام ولحيته ليس ذنبا؛ لأنه لم يكن يجره إليه على سبيل الإيذاء، بل كان يدنيه إلى نفسه؛ ليتبين منه حقيقة الأمر:

فقد كان خوف هارون عليه السلام أن يعتقد بنو إسرائيل أن موسى عليه السلام يؤذيه، ولهذا قال هارون إشفاقًا على موسى: ﴿ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ﴾ (طه: ٩٤) أي لئلا يظن القوم بك ما لا يليق، والأرجح أن أخذ موسى بلحية ورأس هارون ـ عليهما السلام ـ كان لشدة غضبه حين رأى قومه قد عبدوا العجل، ولظنه أن هارون ربما قَصَّر في نهيهم عن ذلك، ولعدم لحاقه به حين رأى قومه قد ضلُّوا، ويكون إنكار موسى على هارون ـ عليهما السلام ـ لأن الواجب عليه ـ في نظر كليم الله موسى عليه السلام ـ أن يكف قومه عن عبادة العجل إن استطاع، أو يتبعه إلى جبل الطور إن لم يستطع كفّهم عن عبادة العجل[2].

والذي يقره العقل ويؤيده النقل أن هارون عليه السلام لم يُقصِّر في نهي قومه عن اتخاذ العجل إلها وعبادة، وإنما بذل قصارى جهده للحيلولة دون ذلك؛ لأنه رسول مهمته الأولى الدعوة إلى عبادة الله وحده. فلا يعقل أن يسكت عن قومه، وهم ينكصون على أعقابهم ـ مرتدين بعد إيمانهم ـ والقرآن الكريم قد حكى عنه قوله لهم: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ ﴾ (طه). ولكنهم لم يستجيبوا له، بل كادوا يقتلونه. وأما أن هارون عليه السلام لم يتركهم بعد أن جاهد لردهم عن الضلال ـ ويتبع موسى عليه السلام؛ فلأنه لم يرد أن يخالف أمر موسى عليه السلام له

1. المرجع السابق، ص٣٤١، ٣٤٢.

2. المرجع السابق، ص٣٤٢.

في قوله: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِى ﴿١٤٢﴾﴾(الأعراف)؛ ولأنه خشي -إن فارقهم- أن يلومه أخوه موسى عليه السلام على هذا؛ لأنه تفريق بين بني إسرائيل، ولهذا رد على موسى عليه السلام لما قال له: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾﴾ (طه) بقوله: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾ (طه).

أي الذي قلته لك حين استخلفتني فيهم، وعلى هذا فهارون عليه السلام لم يُقَصِّرْ في شيء مما كان عليه أن يفعله، وساحته بريئة من الذنب في هذا المقام كأخيه موسى عليه السلام.

واستغفار موسى عُقيب ما تقدم لنفسه ولأخيه -عليهما السلام- لأن الأنبياء -عليهم السلام- يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم، ويندمون على مخالفة الأَوْلَى، ويستغفرون منه، حيث كان الأولى به عليه السلام ألا يُروِّع أخاه هارون عليه السلام، وألا يظن به التقصير، ولكن شدة الغضب، والغيرة لله على قومه في اتخاذهم العجل جعلته يفعل هذا وهارون عليه السلام خالف الأولى بتركه العجل، وكان الأَوْلَى أن يحرقه ويَنْسِفه[1] في البحر، كما صنع موسى عليه السلام: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾ (طه). ولكن مما يشفع لهارون عليه السلام أنه ليس بالقوة والشدة التي بها موسى عليه السلام، فكان يخشى من القتل ما لا يخشاه موسى[2].

---

١. يَنْسِف: ينشر.

٢. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٤٣، ٣٤٤.

الخلاصة:

- إلقاء الألواح لا يقتضي إهانتها، ولا إهانة كلام الله تعالى، وحاشا لنبي من الأنبياء أن يستهين بكلام الله، وكيف يستهين به وهو الذي يبلغه ويدعو إلى تعظيمه فهو أولى بالتعظيم له من غيره؛ ولكنه عندما رأى قومه على ما رأى من عبادة العجل غضب غضبًا شديدًا، فعجل بوضع الألواح تفظيعًا لفعل قومه. فليس في الأمر إلا العجلة في الوضع الناشئ من الغيرة لله تعالى.

- أَخْذُ موسى برأس هارون -عليهما السلام- ولحيته ليس ذنبًا؛ لأنه لم يكن يجره إليه على سبيل الإيذاء، بل كان يدنيه إلى نفسه؛ ليتبين منه حقيقة الأمر في تلك الواقعة، واستغفار موسى عليه السلام عقب ما تقدم لنفسه ولأخيه؛ لأن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم، ويندمون على مخالفة الأَوْلَى.

الشبهة السابعة والخمسون

ادِّعاء أن موسى وهارون لم يكونا مؤمنَيْن، وأن موسى عليه السلام وَصَّى قومه بسرقة المصريين(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن موسى وهارون -عليهما السلام- لم يكونا مؤمنين بالله، بدليل أن الله تعالى قال في التوراة لموسى عليه السلام: "إنكما لم تؤمنا بي ولم تقدساني على

(*) الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده، د. محمود ماضي، دار الدعوة، مصر، ١٩٩٦م.

عيون بني إسرائيل؛ لذلك لا تدخلان أنتما وهؤلاء الجماعة الأرض التي أعطيها لهم"، لذا وصَّى قومه أن يسرقوا من المصريين حليهم وأَمْتِعتهم[1] عند خروجه من مصر اعتمادًا على ما ورد في سفر الخروج.

وجها إبطال الشبهة:

١) دعوة الأنبياء قِوامها الإيمان بالله ﷻ وتوحيده، ولا يعقل أن يدعو إلى الإيمان من لم يؤمن.

٢) لم يثبت عن موسى عليه السلام أنه وصَّى قومه بالسرقة، وهذا التحريف واقع من اليهود؛ لإضفاء الشرعية على جرائمهم ضد غير اليهود.

التفصيل:

أولا. دعوة الأنبياء قائمة على الإيمان بالله تعالى وتوحيده، فكيف يصبح نبيًّا دون أن يؤمن بالله؟! وكيف يدعو إلى ما لم يؤمن به ويعتقده؟!

من المعلوم أن وظيفة الأنبياء هي دعوة البشرية إلى الإيمان بالله وحده، لا شريك له، وتخليص العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد. ويظهر هذا جليًّا في دعوة موسى وهارون - عليهما السلام - لفرعون إلى عبادة رب العالمين، فحينما سأل فرعون موسى عليه السلام: مَنْ ربك؟ من رب العالمين؟ قال موسى: ربنا الذي خلقنا وهدانا وجعل لنا الأرض ممهدة لنتخذ فيها مسالك وطرقًا، وأنزل من السماء ماء، فأخرج به أزواجًا من نبات شتى، ربنا رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم مؤمنين، واستمر موسى عليه السلام في تعريف فرعون والحاضرين حقيقة الألوهية، ومن هو الله الذي تجب عبادته، فقال: رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون[2].

فالله أرسل موسى وهارون لفرعون وملئه ليدعواه إلى عبادة الله وحده عبادة رب العالمين، فكيف يرسلهما الله لهذه المهمة، وهما غير مؤمنين به؟! وكيف يدعوان إلى ما لم يؤمنا به، ويعتقدا صحته؟!

ونتساءل: كيف ينكر هؤلاء إيمان موسى عليه السلام، وقد صرَّحت التوراة به؟!

فقد جاء في سفر الخروج ما نصُّه: "والآن هو ذا صراخ بني إسرائيل قد أتى إلي، ورأيت أيضًا الضيقة التي يضايقهم بها المصريون، فالآن هلم فأرسلك إلى فرعون، وتخرج شعبي بني إسرائيل من مصر"، فقال موسى لله: "من أنا حتى أذهب إلى فرعون، وحتى أخرج بني إسرائيل من مصر؟" فقال: "إني أكون معك، وهذه تكون لك العلامة أني أرسلتك: حينما تخرج الشعب من مصر، تعبدون الله على هذا الجبل" فقال موسى لله: "ها أنا آتي إلى بني إسرائيل وأقول لهم: إله آبائكم أرسلني إليكم. فإذا قالوا لي: ما اسمه؟ فماذا أقول لهم؟" فقال الله لموسي: "أهيه الذي أهيه" وقال: هكذا تقول لبني إسرائيل: أهيه أرسلني إليكم". (الخروج ٣: ٩ - ١٤).

فهذا نصٌّ صريحٌ على أن نبي الله موسى عليه السلام دعا بني إسرائيل إلى الإيمان بالله رب العالمين، وكان ذلك هو السبب في اضطهاد فرعون له ولمن آمن معه، وتعذيبه لهم على النحو الذي صرَّح به القرآن الكريم في

١. الأمتعة: كل ما ينتفع به ويرغب في اقتنائه؛ كالطعام وأثاث المنزل.

٢. حياة وأخلاق الأنبياء، أحمد الصباحي عوض الله، مرجع سابق، ص١٨٧.

غير موضع، ومن تلك المواضع التي جمعت دعوة موسى عليه السلام لفرعون إلى الإيمان بالله وحده ووعيد فرعون لموسى عليه السلام لئن اتخذ إلهًا غيره ليسجننَّه، ثم وعيده لمن اتبع موسى ليقطِّعن أيديهم وأرجلهم من خلاف وليصلبنهم من تلك المواضع سورة الشعراء، قال الله تعالى حاكيًا ما حدث: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾ (الشعراء)، فهل يأتي أحد بعد ذلك وينكر إيمان موسى عليه السلام، ولو لم يكن موسى عليه السلام مؤمنًا فلماذا عاداه فرعون وملؤه؟

ثانيًا. لم يثبت عن موسى عليه السلام أنه وصَّى قومه بالسرقة؛ فكيف يأمر بالسرقة وهو صاحب الرسالة الربانية التي تأمر بالعدل والإحسان، وتنهى عن الفحشاء والمنكر؟!

إن هذا الزعم - توصية موسى عليه السلام بالسرقة - أمر لا دليل عليه - نقلًا أو عقلًا - فهو لا يتفق مع مقام النبوة ومنزلة كليم الله وواحد من أولي العزم من الرسل.. إنه عليه السلام خرج بقومه من مصر مستخفين أحرص ما يكون على سرية هذا الخروج. فعندما أراد الله عز وجل إنقاذ بني إسرائيل من شر فرعون وقومه، أوحى إلى نبيه موسى عليه السلام بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ (طه)[1].

اتفق عليه السلام موسى مع بني إسرائيل على الخروج من مصر، والذهاب إلى الأرض المقدسة "فلسطين" التي كتبها الله لهم، وأعدَّ عدته معهم، ثم سار بهم ليلًا من أرض مصر مستخفين حريصين أن يكون خروجهم هذا سرِّيًا؛ حتي لا يشعر به فرعون وقومه، فتصيبهم ألوانٌ من العذاب. فكيف يكون خروجهم بهذه الطريقة، ثم يأمر موسى عليه السلام قومه بسرقة أمتعة المصريين وحُليِّهم، أليس هذا مخالفًا للعقل؟!

لقد كتب الله في الألواح التي أعطاها له ولقومه هذه الوصايا العشر وهي معظم التوراة، وعليها مدار كل

---

١. المرجع السابق، ص١٩٧.

شريعة، وهي الأخلاق التي دعا الله إليها موسى وهارون - عليهما السلام - وبني إسرائيل، وهي:

"بسم الله؛ هذا كتاب من عند الله الملك العزيز القهار ورسوله موسى بن عمران، أن سبحني وقدسني، لا إله إلا أنا فاعبدني، ولا تشرك بي شيئًا، واشكر لي ولوالديك إلي المصير؛ أحييك حياة طيبة، ولا تقتل النفس التي حرم الله عليك؛ فأضيق عليك السماء بأقطارها، والأرض برحبها، ولا تحلف باسمي كاذبًا؛ فإني لا أطهر ولا أزكي من لا يعظم اسمي، ولا تشهد بما لا يَعِي سمعُك ولا تنظر عينك، ولا يقف عليه قلبك؛ فإني أوقف أهل الشهادات على شهاداتهم يوم القيامة وأسألهم عنها، ولا تحسد الناس على ما آتيتهم من فضلي ورزقي؛ فإن الحاسد عدو نعمتي ساخط لقسمتي، ولا تَزْنِ ولا تسرق؛ فأحجب عنك وجهي، وأغلق دون دعوتك أبواب السماوات، ولا تذبح لغيري فإنه لا يصعد إلي من قربان أهل الأرض إلا ما ذكر عليه اسمي، ولا تفجر بحليلة جارك فإنه أكبر مقتًا عندي، وأحب للناس ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكرهه لنفسك".

فقد نهى الله تعالى موسى عليه السلام في تلك الوصايا عن السرقة، وتلك الوصايا العشر، أو الأخلاق العشر، التي أعطاها الله لنبيِّه موسى عليه السلام قد أعطاها جميعها لنبيه وحبيبه العظيم محمد ﷺ في ثلاث آيات من سورة الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (152) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153)﴾ (الأنعام) وقد فصَّلها الله تبارك وتعالى في آيات أخر[1].

أبعد هذا كله يحق لهؤلاء أن يتهموا الأنبياء بهذه التهم الشنيعة التي لا يرضاها العقل والمنطق، فضلًا عن أصحاب العقائد السليمة والفطر القويمة؟!

الخلاصة:

- موسى وهارون - عليهما السلام - نبيان من عند الله عز وجل ووظيفة النبي هي الدعوة إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له، وتوحيده عز وجل وقبل أن يدعو النبي إلى ذلك - لا بد أن يؤمن هو أولًا بذلك ويقتنع به؛ لأنه لا يعقل أن يدعو أحد إلى شيء لا يؤمن به.
- توصية موسى عليه السلام قومه بسرقة المصريين زعم لا دليل عليه، ولا تتفق مع مقام النبوة، ومنزلة كليم الله، وواحد من أولي العزم من الرسل. فضلًا عن أنه خرج من مصر بقومه مستخفيًا، هاربًا من فرعون وقومه، فكيف يأمر بما يثير القوم، ويهيجهم؟!
- جاء في الوصايا العشر لموسى عليه السلام من الله عز وجل ألا يسرق؛ فإن السرقة تحجب عن العبد وجه ربه،

1. المرجع السابق، ص٢٠٣، ٢٠٤.

وتغلق دون دعواته أبواب السماء فلا تُرْفَع.

الشبهة الثامنة والخمسون

ادِّعاء أن موسى عليه السلام كان وصيًّا على محمد ﷺ وأمته(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن موسى عليه السلام كان وصيًّا على محمد ﷺ وأمته، ويستدلون على ذلك بما حدث ليلة الإسراء والمعراج من موسى بعد ما أخبره محمد ﷺ بأن الله فرض على أمته خمسين صلاة، فأوصى محمدًا ﷺ أن يرجع إلى ربه، ويسأله التخفيف، ففعل.

وجها إبطال الشبهة:

١) الأنبياء كلهم مبلِّغون عن الله رسالته، متآخون متناصحون. وما قاله موسى عليه السلام لمحمد ﷺ كان من قبيل التناصح لا من باب الوصاية.

٢) محمد ﷺ هو أفضل الأنبياء جميعًا، وقد أخذ الله الميثاق على النبيين لئنْ بُعث وهم أحياء ليؤمِنُنَّ به ولينصرنه، فلو أدرك موسى عليه السلام زمن محمد ﷺ لما وسعه إلا اتباعه.

التفصيل:

أولا. ما كان بين موسى عليه السلام ومحمد ﷺ من ليلة الإسراء والمعراج كان من قبيل التناصح لا من باب الوصاية:

قبل كل شيء لا بد أن نوضح أن دين الأنبياء جميعًا واحد، وهو الإسلام، وأن العلاقة بين رسل الله قائمة على التآخي والتناصح فكلهم مبلِّغون عن الله رسالته، وهي علاقة قائمة على أساس التأكيد والتتميم، وهذا ما أبرزه النبي ﷺ في قوله: "إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتًا، فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلَّا وُضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين"(١).

لذا نجد أن طريق الأنبياء واحد، وهدفهم واحدٌ، وهو تبليغ رسالة ربهم إلى الناس، وقد جعل الله تعالى من ديدن الرسل أن أولهم يبشر بآخرهم ويؤمن به، وآخرهم يصدِّق بأولهم ويؤمن به، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١)﴾ (آل عمران).

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: "لم يبعث الله نبيًّا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بُعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته، لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه"(٢).

ولقد ضرب لنا النبي ﷺ مثلًا يؤكد على علاقة

(*) المستشرقون والقرآن، د. إسماعيل سالم عبد العال، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ (٣٣٤٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه خاتم النبيين (٦١٠١).

٢. شبهات المستشرقين حول العبادات في الإسلام، د. ناصر محمد السيد، مركز التنوير الإسلامي، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م، ص٥٤.

الأخوة القائمة بين الأنبياء جميعًا في قوله ﷺ: "الأنبياء إخوة لعلَّات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد"[1].

وانطلاقًا مما سبق نستطيع أن نفسد حديث المراجعة الذي دار بين النبي ﷺ وبين موسى عليه السلام ليلة الإسراء والمعراج، والذي يتخذه بعض المتوهمين دليلًا على وصاية موسى عليه السلام على محمد ﷺ وعلى أمته، ولكي تظهر الحقيقة جلية لا بد أن نذكر نص هذا الحديث كما روته كُتب السنة يقول النبي ﷺ: ".. ثم فُرِضت عليّ الصلوات خمسين صلاة كل يوم، فرجعت، فمررت على موسى، فقال: بما أُمرت؟ قلت: أمرت بخمسين صلاة كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فرجعت فوضع عني عشرًا، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشرًا، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشرًا، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فأُمرت بعشر صلوات كل يوم، فرجعت فقال مثله، فرجعت فأُمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى، فقال: بما أُمرت؟ قلت: بخمس صلوات كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال: سألت ربي حتى استحييت، ولكني أرضى وأسلِّم، قال: فلما جاوزت نادى منادٍ أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي"[2].

إن المتأمل لهذا الجزء من حديث الإسراء والمعراج، لا يجد ما يدعيه هؤلاء من أن موسى عليه السلام جعل من نفسه وصيًّا على محمد ﷺ وأمته، وإنما يشير هذا الحديث إلى نصح موسى عليه السلام للنبي ﷺ بحكم خبرته وتجربته مع بني إسرائيل ومعالجتهم، فأشفق على أمة محمد ﷺ رحمة بهم في أن يقعوا فيما وقع فيه بنو إسرائيل، قال الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز في تعليقه على هذا الحديث: "والظاهر من السياق أن الذي حمل موسى عليه السلام على ما ذكر من طلب تكرار المراجعة هو رحمة أمة محمد ﷺ والشفقة عليهم، فجزاه الله خيرًا".

ويقول القرطبي: الحكمة في تخصيص موسى عليه السلام بمراجعة النبي ﷺ في أمر الصلاة لعلها لكون أمة موسى عليه السلام كلفت من الصلوات بما لم تكلَّف به غيرها من الأمم، فثقلت عليهم، فأشفق موسى عليه السلام على أمة محمد ﷺ من مثل ذلك، ويشير إلى ذلك قول موسى عليه السلام في الحديث السابق: "وإني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة".

وذكر السهيلي: أن الحكمة في ذلك أنه كان رأى في مناجاته صفة أمة محمد ﷺ، فدعا الله أن يجعله منهم، فكان إشفاقه عليهم كعناية من هو منهم[3].

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾(مريم:١٦) (٣٢٥٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام (٦٢٨١).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب المعراج (٣٦٧٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات (٤٣٤)، واللفظ للبخاري.

٣. أضواء على أحاديث الإسراء والمعراج، د. سعد المرصفي، مؤسسة الريان، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ص٧٣: ٧٥ بتصرف.

إذن فالأمر لم يكن أمر وصاية من موسى عليه السلام على محمد ﷺ، وأمته كما يتخيل هؤلاء، بل هي الرحمة التي جعلها الله في قلوب الأنبياء أكثر مما جُعل في قلوب غيرهم، فخشي أن تقع أمة محمد ﷺ فيما وقعت فيه أمته من التقصير في أداء حقوق الله تعالى، فنصح النبي ﷺ أن يسأل ربه التخفيف، ولا شك أن هذا يدل على ما سبق أن ذكرناه من أن طريق الأنبياء واحد وغايتهم واحدة وهي الدعوة إلى الله، فلا عصبية لأمة ولا لجنس ولكن عصبية الأنبياء لا تكون إلا لله تعالى، وهو يدل أيضًا على علاقة الأخوة بين الأنبياء جميعًا، هذه العلاقة القائمة على الحب والتناصح لا التباغض والحسد وفرض الإرادة والوصاية كما يزعمون®.

ثانيًا. محمد ﷺ هو أفضل الأنبياء جميعًا، ولو أدرك موسى عليه السلام زمنه ﷺ لما وسعه إلا اتباعه:

لقد أمر الله تبارك وتعالى المسلمين في القرآن الكريم بالإيمان بكل الرسل الكرام وعدم التفريق بينهم: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ (٢٨٥)﴾ (البقرة)، والتفريق المنهي عنه في الآية هو التفريق في أصل النبوة لا في ذات الأنبياء؛ لأن منازل الأنبياء متفاوتة، وقد فضل الله بعض النبيين على بعض كما ورد في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (البقرة: ٢٥٣).

والمتأمل في فضائل الأنبياء الكرام، وقصصهم مع أقوامهم، كما ذكرها القرآن الكريم والسنة المطهرة يجد أنه لا خلاف أن أولي العزم من الرسل هم أفضل من غيرهم من الرسل وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد - صلوات الله وسلامه عليهم - ولا خلاف أيضًا أن محمدًا ﷺ أفضل منهم جميعًا قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا (٧)﴾ (الأحزاب). فبدأ في هذه الآية بمحمد ﷺ الخاتم؛ لشرفه وكرمه وفضله عند ربه، ثم رتبهم بحسب وجودهم صلوات الله عليهم[١].

وقد خصَّ الله محمدًا ﷺ بست لم يُعْطِهَا أحدًا من الأنبياء قبله؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "فضلت على الأنبياء بست: أُعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهورًا ومسجدًا، وأُرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون"[٢].

والمتأمل في الفضيلة السادسة التي أُعطيها النبي ﷺ وهي كونه خاتم الأنبياء يجد أن المعنى هو: أن الله لا يبعث رسولًا من بعده يغير شرعه، ويبطل شيئًا من دينه[٣].

® في "طلب النبي تخفيف الصلاة كان تقديرًا كونيًّا" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة السابعة، من الجزء الثالث عشر (العبادات والمعاملات الاقتصادية).

١. محمد ﷺ خير البشر وأمته خير الأمم، محمد أحمد محمد، مكتبة التراث الإسلامي، مصر، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص٨٨، ٨٩ بتصرف يسير.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، أوائل كتاب المساجد ومواضع الصلاة (١١٩٥).

٣. الرسل والرسالات، د. عمر سليمان عبد الله الأشقر، دار النفائس، الأردن، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٢١٨، ٢١٩ بتصرف.

مما سبق نستطيع أن نقرر أن الله قد فضل محمدًا ﷺ على سائر الأنبياء، وجعل شريعته مهيمنة على سائر شرائعهم، بل لقد أخذ الله ميثاق جميع الأنبياء والرسل إن هم أدركوا زمن محمد ﷺ أن يؤمنوا به وينصروه كما سبق أن أشرنا.

ومن ثم فإنه من العجيب حقًّا أن يتوهم بعضهم أن موسى عليه السلام وصيٌّ على محمد ﷺ وعلى أمته، والحق الذي لا مراء فيه أن موسى عليه السلام لو أدرك زمن محمد ﷺ لما وسعه إلا اتباع محمد ﷺ، قال ﷺ: "لو كان موسى حيًّا مَا وسعه إلا أن يتبعني"[1]، وكذلك رُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله إني أمرت بأخ لي من بني قريظة فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغير وجه رسول الله ﷺ قال عبد الله ـ راوي الحديث ـ فقلت له: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولًا، قال: فَسُرِّي عن النبي ﷺ، ثم قال: "والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين"[2].

فالرسول محمد ﷺ خاتم الأنبياء صلوات الله عليه وسلامه إلى يوم الدين، وهو الإمام الأعظم الذي لو وجد في أي عصر، لكان هو الواجب طاعته، المقدم على الأنبياء كلهم، ولهذا كان ﷺ إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس[3].

ولا عجب في هذا، فلقد جمعت شريعته ﷺ الخاتمة محاسن الرسالات السابقة، وفاقتها كمالًا وجلالًا، وهذا ما أشار إليه القرآن في غير موضع كقول الله عز وجل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ (النحل: ٨٩)، وقوله عز وجل: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨).

وعليه فإن من الخطأ البين أن يوصف طلب موسى عليه السلام من محمد ﷺ مراجعة ربه في عدد الصلوات وسؤاله له التخفيف ـ بالوصاية؛ لأن الأمر لا يعدو كما قررنا أن يكون نصيحة من نبي لأخيه، إشفاقًا منه على أمته ورحمة وضعها الله في قلبه.

الخلاصة:

- إن العلاقة بين رسل الله جميعًا قائمة على التآخي والتناصح، فدينهم جميعًا واحد، وطريقهم واحد، وهدفهم واحد وهو تبليغ رسالة الله إلى الناس؛ لهذا نجد موسى عليه السلام بحكم تجربته مع بني إسرائيل ومعالجته لهم، يطلب من النبي ﷺ أن يسأل ربه التخفيف في عدد الصلوات، وهذا من باب النصح للنبي ﷺ والشفقة على أمته، فقد جعل الله في قلوب أنبيائه رحمة لم يجعلها في قلوب غيرهم.
- لا خلاف أن محمدًا ﷺ هو أفضل الأنبياء جميعًا وخاتمهم إلى يوم الدين، وقد أخذ الله الميثاق على النبيين وأممهم لئن بُعث ﷺ وهم أحياء ليؤمنن به، ولينصرنه، فلو وُجد ﷺ في أي عصر لوجب اتباعه، ولو وجد أي

---

١. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنهما (١٤٦٧٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٩٩) برقم (١٧٦)، وحسنه الألباني في إرواء الغليل (١٥٨٩).

٢. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكيين، حديث عبد الله بن ثابت رضي الله عنه (١٥٩٠٣)، وحسنه الألباني في إرواء الغليل (١٥٨٩).

٣. محمد خير البشر وأمته خير الأمم، عمر محمد أحمد، مرجع سابق، ص٩٠، ٩١ بتصرف.

نبي في عصره للزمه طاعته، لهذا قال ﷺ - كما تقدم -: "لو كان موسى حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني"[1]؛ ومن ثم فلا وصاية لأحد من البشر - وإن علا قدره - على النبي ﷺ أو على أمته.

الشبهة التاسعة والخمسون

استنكار تعلم موسى عليه السلام من الخضر(*)

مضمون الشبهة:

يستنكر بعض المتوهمين أن يكون موسى عليه السلام قد تعلَّم من الخضر؛ لأن هذا - في ظنهم - يعني أن الخضر أفضل منه، ويتساءلون: كيف يتعلم نبي يتلقى العلم من الله وحيًا دون واسطة بشرية، من بشر عادي؟!

وجها إبطال الشبهة:

١) لقد اختص الله الخضر بعلم لم يُعطَ لموسى عليه السلام، فأراد موسى عليه السلام بهمته العالية أن يزداد من العلم النافع، وهذا لا يعد انتقاصًا من قدر موسى عليه السلام.

٢) على الرغم من اختلاف آراء العلماء حول حقيقة الخضر بين كونه عبدًا صالحًا أو وليًّا أو نبيًّا، فهو على كل حالٍ ليس بشرًا عاديًّا؛ إذ إن أفعاله كلها صادرة عن وحي إلهي.

التفصيل:

أولا. تعلم موسى عليه السلام من الخضر لا يعني تفضيل الخضر عليه:

بداية نشير في عجالة إلى أن أحدًا من المسلمين لا يستطيع أن يقدح في فضل نبي الله موسى عليه السلام، أو أن يشكك في مكانته، ويكفي أنه أكثر الأنبياء ذكرًا في القرآن الكريم، فقد ورد اسمه في القرآن (١٦٦) مرة، وذكرت قصته في ست وثلاثين سورة في القرآن، وهو من أولي العزم من الرسل الذين أمر الله نبيه ﷺ أن يقتدي بهم، ويصبر كما صبروا: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (الأحقاف: ٣٥)، وقد آتى الله موسى مقام المخلصين الذين لا سبيل للشيطان عليهم: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾﴾ (مريم)، وقد خصه الله بمقام التكليم المباشر من وراء الحجاب؛ إذ ناداه من جانب الطور الأيمن، وقرّبه نجيًّا، وقال له: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي ﴾ (الأعراف: ١٤٤)، وقد أنزل الله عليه التوراة فيها هدى ونور[2]: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ (المائدة: ٤٤)، وكذلك نهى النبي ﷺ أصحابه أن يفضّلوه على موسى عليه السلام بقوله ﷺ: "لا تخيّروني على موسى"[3].

---

١. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنه (١٤٦٧٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٩٩) برقم (١٧٦)، وحسنه الألباني في إرواء الغليل (١٥٨٩).

(*) موقع الفتاوى، شيخ الإسلام ابن تيمية. موقع المعرفة.
www.Marefa.org

٢. مدرسة الأنبياء: عبر وأضواء، محمد بسام رشدي الزين، مرجع سابق، ص١٨٠، ١٨١.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الخصومات، باب ما يذكر في الإشخاص والملازمة والخصومة (٢٢٨٠)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى عليه السلام (٦٣٠٢).

وإذا أردنا أن نتتبع كل فضائل موسى عليه السلام كما وردت في القرآن الكريم والسنة المطهرة، لاحتجنا إلى مصنفات طوال، ولكن يكفي ما ذكرنا للتمهيد لحقيقة تعلم موسى عليه السلام من الخضر، وبيان أنها لا تعني بحال من الأحوال الانتقاص من شأن موسى عليه السلام، أو القول بأن الخضر أعلى منه منزلة كما فهم بعضهم خطأً.

وبداية قصة التقاء موسى عليه السلام بالخضر رواها أبي بن كعب حيث قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن موسى عليه السلام قام خطيبًا في بني إسرائيل فسُئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يردَّ العلم إليه، فأوحى الله إليه أن لي عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال موسى: يارب، فكيف لي به. قال: تأخذ معك حوتًا فتجعله في مِكْتَل[1]، فحيثما فقدت الحوت فهو ثمّ"[2][3].

من هذه الرواية يتبين لنا أن موسى عليه السلام لَمَّا لم ينسب العلم إلى الله، أوحى الله إليه أن هناك من هو أعلم منه، وكان هذا الوحي أمرًا إلهيًّا أن يلحق موسى عليه السلام بمن هو أعلم منه، ويطلب العلم على يديه، فرضي موسى عليه السلام بذلك، وأحب أن يزداد علمًا على علمه، فسأل الله أن يدله على مكانه ليهاجر إليه، ولو طوى لأجل ذلك المسافات الشاسعة، ولو طالت به الرحلة أحقابًا[4] مديدة: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ۝٦٠﴾ (الكهف)، ولا يعني أن الخضر أعلى منه منزلة؛ لأن طلب العلم أسمى ما يبتغيه الإنسان، ولا يملُّ من طلبه امرؤ عرف قدره وذاق حلاوته[5].

لهذا "تشوقت نفس موسى الفاضلة، وهمته العالية، لتحصيل علم ما لم يعلم، وللقاء من قيل فيه: إنه أعلم منك"[6]، هذا من **ناحية**، ومن **ناحية أخرى** فإن العلم الذى سأل موسى عليه السلام تعلمه هو من العلم النافع الذي لا يتعلق بالتشريع للأمة الإسرائيلية، فإن موسى عليه السلام مستغن في علم التشريع عن الازدياد إلا من وحي الله إليه مباشرة، لأنه لذلك أرسله، وإنما رام[7] موسى عليه السلام أن يعلم شيئًا من العلم الذي خص الله به الخضر لأن الازدياد من العلوم النافعة هو من الخير، وقد قال تعالى تعليمًا لنبيه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ۝١١٤﴾ (طه)[8].

وعليه فلا غَضاضة في أن يطلب موسى عليه السلام العلم على يد غيره، وخاصةً إذا علمنا أن هذا العلم الذي كان عند الخضر هو مما اختص الله به الخضر كما اختص الله موسى عليه السلام بعلم لا يعلمه الخضر، فالتفضيل في قوله: "أعلم منك" ليس مطلقًا بدليل قول الخضر

١. المِكْتَل: السلة أو القُفَّة الضخمة، تصنع من أوراق النخيل، يحمل فيها التمر وغيره.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب ما يستحب للعالم إذا سئل: أي الناس أعلم؟ فيكل العلم إلى الله (١٢٢)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر عليه السلام (٦٣١٣).

٣. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١١، ص٩، ١٠.

٤. الأحقاب: جمع حِقْبة، وهي فترة زمنية طويلة.

٥. قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٢١٤ بتصرف.

٦. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١١، ص١٠.

٧. رام: أراد.

٨. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٧، ج١٥، ص٣٧٠، ٣٧١ بتصرف يسير.

لموسى عليه السلام: "إنك على علم علمكه الله لا أعلمه أنا، وأنا على علم علّمنيه لا تعلمه أنت" وعلى هذا فيصدق على كل واحد منهما أنه أعلم من الآخر[1].

ولكن هل كان العلم الذي لدى الخضر أفضل من العلم الذي لدى موسى عليه السلام حتى يطلبه موسى عليه السلام؟ بالطبع لا؛ لأن العلم الذي أوتيه الخضر "هو علم سياسة خاصة غير عامة تتعلق بمعيَّنين لجلب مصلحة أو دفع مفسدة بحسب ما تهيئه الحوادث والأحوال لا بحسب ما يناسب المصلحة العامة، فلعل الله يسَّره لنفع معيّنين من عنده، كما جعل محمدًا ﷺ رحمة عامة لكافة الناس، ومن هنا فارقَ سياسة التشريع العامة ".

ولهذا كان موسى عليه السلام فى غناء عنه بما أعلمه الله من أمور الشريعة، ولكن أراد الله أن يعلِّم موسى عليه السلام ألا يغترَّ بعلمه، وأن الإنسان مهما وصل من العلم فعلمه قليل بالقياس إلى علم الله، وهذا ما قاله الخضر لموسى عليه السلام كما جاء من حديث البخاري - رحمه الله - حينما جاء عصفور فوقع على حرف السفينة التي كانا يركبانها فنقر في البحر نقرة: "ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر"[2]، ولعل مما يدل على أن العلم اللّدنّي الذي اختص الله به عبده الصالح الخضر لم يكن واجبًا على موسى عليه السلام تعلّمه هو اشتراط العبد الصالح على موسى أن يضبط نفسه إذا أراد صحبته، فلو كان واجبًا ما اشترط عليه الخضر، ولما فارقه لأي سبب من الأسباب.

وخلاصة ما قررناه من حقائق أن تعلُّم موسى عليه السلام من الخضر لا يقدح في مكانة موسى عليه السلام وفضله كما يتوهمون، كما لا يعني بحال من الأحوال أن يكون الخضر أعلى منزلة من موسى عليه السلام.

ثانيًا. لم يكن الخضر في تصرفاته يتصرف باعتباره بشرًا عاديًا، بل كانت أفعاله صادرة عن وحي إلهي:

سبق أن وضَّحنا حقيقة تعلُّم موسى عليه السلام من الخضر، ونود هنا أن نوضح أن الخضر لم يكن رجلًا عاديًّا كما يزعمون، بل كانت أفعاله كلها صادرة عن وحي من الله تعالى، وعلى الرغم من أن اسمه لم يرد صراحة في القرآن الكريم، إلا أن الله قد وصفه بأحب الصفات، ونسب له العديد من الخصال نذكر منها:

١. حاز شرف العبودية لله، إذ شهد الله له بقوله: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ﴾ (الكهف:٦٥).

٢. آتاه الله رحمة من عنده، وقد وصفه الله بقوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ (الكهف).

٣. علَّمه الله علمًا لدُنّيًا عرف من خلاله حكمة الأقدار والأفعال، كما جاء في وصفه: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ (الكهف).

٤. كانت أفعاله صادرة عن وحي من الله تعالى، ولهذا قال لموسى عليه السلام: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ﴾ (الكهف: ٨٢)، وقد اختلف العلماء والمفسرون في حقيقة الخضر، فمن قائل: إنه نبي، ومن قائل: إنه عبد صالح

---

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١١، ص١٠.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليه السلام (٣٢٢٠)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر عليه السلام (٦٣١٣).

أوتي علم الباطن[1]، وقد رجَّح ابن كثير القول بنبوته لما يلي:

- وصفه الله بالعبودية له ﷻ بقوله: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ﴾ وهذا المقام وصف الله به الأنبياء في القرآن الكريم فقال عن نوح عليه السلام: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾ (الإسراء)، وقال عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ ﴾ (ص)، وقال عن داود عليه السلام: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ﴾ (ص: ١٧) وكذلك قال عن أيوب وزكريا والمسيح عليهم السلام، وقد قال عن خاتم النبيين محمد ﷺ: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ (الإسراء: ١).
- آتاه الله رحمة من عنده فقال: ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ والرحمة تأتي بمعنى النبوة، كما جاء على لسان صالح عليه السلام: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً ﴾ (هود: ٢٨)، فالرحمة هنا النبوة، وكذلك في قوله عن موسى عليه السلام: ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ (الأحقاف: ١٢) وقوله عن عيسى عليه السلام: ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ (مريم: ٢١). فهذه الآيات تدل على أن الرحمة قد وردت بمعنى النبوة أو الرسالة.
- علَّمه الله علمًا من لدنه فقال: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾. وقد ذكر القرآن الكريم أن الله تولى بنفسه مهمة تعليم الأنبياء، فقال عن آدم: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ (البقرة: ٣١)، ووصف يعقوب عليه السلام بقوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ ﴾ (يوسف: ٦٨)، وقال عن داود: ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ (المائدة: ١١٠) وقال لنبيه محمد ﷺ: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ (النساء: ١١٣).
- إنه بعد أن فسَّر لموسى عليه السلام حقيقة الأحداث الثلاثة قال لموسى: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ﴾، وهذا أقوى دليل على نبوته؛ إذ إن الأنبياء والمرسلين لا يتصرفون في شيء إلا بأمر الله، إن يتبعون إلا ما يوحى إليهم من الله، كما جاء في القرآن على لسان نبيه محمد ﷺ: ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ (يونس: ١٥).
- أضف إلى ما سبق أن ما أقدم عليه الخضر من أفعال، وخاصة قتل الغلام، يخالف نصوصًا إلهية أنزلها الله على موسى عليه السلام، فلو لم يكن نبيًّا يتصرف عن وحي الله لكان عقابه القتل وفق ما أنزل الله، وليس عجبًا أن يوحي الله إليه بأن يقتل الغلام لحكمة يعلمها الله، فقد ورد أن الله أوحى إلى إبراهيم بأن يذبح ولده إسماعيل عليهما السلام[2].

وبعد عرض هذه الحقائق نستطيع أن نقول: إن موسى عليه السلام لم يتلقَّ العلم على يد بشر عادي كما يزعمون، بل هو وإن افترضنا أنه ليس نبيًّا فهو عبد صالح لا تصدر أفعاله تبعًا لهواه، بل إن أفعاله كلها صادرة عن وحي إلهي كما قلنا.

ولكن لا ينبغي أن يظن أحد أنه أفضل من

---

١. مدرسة الأنبياء: عبر وأضواء، محمد بسام رشدي الزين، مرجع سابق، ص٢٥٥ بتصرف يسير.

٢. المرجع السابق، ص٢٦٠: ٢٦٢ بتصرف يسير.

موسى عليه السلام؛ لأنه وإن كان عبدًا صالحًا فموسى عليه السلام نبي ورسول، وإن كان نبيًّا فموسى عليه السلام أفضل منه كذلك؛ لأن موسى عليه السلام رسول وصاحب شريعة بل هو من أولي العزم من الرسل®.

الخلاصة:

- لا يستطيع مسلم أن يشكك في فضل نبي الله موسى عليه السلام، فهو كليم الله، ومن أولي العزم من الرسل، وقد أنزل الله عليه التوراة فيها هدى ونور، وقد أثنى الله عليه في كثير من آيات القرآن الكريم.
- إنّ تعلّم موسى عليه السلام من الخضر لا يقدح في منزلة موسى عليه السلام فقد أراد الله أن يعلّم موسى أن علم الإنسان مهما بلغ فهو قليل إلى علم الله، وقد أراد موسى عليه السلام أن يزداد من العلم والخير ويقابل من قيل عنه: "أعلم منك". وليس في هذا انتقاص لموسي عليه السلام ولا لقدره.
- لقد اختص الله الخضر بعلم لم يكن يعلمه موسى، واختص موسى بعلم لم يكن يعلمه الخضر، وعليه فقد كان كل واحد منهما أعلم من الآخر فيما يعلمه.
- لم يكن العلم الذي أُختص به الخضر أفضل من العلم الذي أُختص به موسى عليه السلام، فقد كان علم الخضر هو سياسة خاصة تعود بالنفع على أفراد مُعَيَّنين لجلب مصلحة لهم أو دفع مفسدة عنهم، بخلاف علم موسى عليه السلام العام الذي يهتم بمصالح الناس كافة في زمان ومكان أمته المبعوث لهم.
- اختلف العلماء في حقيقة الخضر، فمن قائل: إنه عبد صالح، ومن قائل: إنه ولي عنده علم الباطن، ومن قائل: إنه نبي، وعلى كلٍّ فهو بشر غير عادي، فقد كانت أفعاله صادرة عن وحي إلهي لا هوى شخصي كما يزعمون.

® في **"حقيقة الخضر وذي القرنين بين نص القرآن وأقوال المفسرين"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الحادية والثلاثين، من الجزء الحادي عشر (سلامة القرآن الكريم).

الشبهة الستون

توهم وقوع موسى عليه السلام في المعصية، لعدم وفائه بشرطه مع الخضر(*)

مضمون الشبهة:

يدّعي بعض المتوهمين أن موسى عليه السلام قد وقع في المعصية حينما خالف الشرط الذي أخذه عليه الخضر، وتعهد بالوفاء به، وهو أن يضبط نفسه فلا يسأل عن شيء ابتداءً حتى يبيِّنه له الخضر من غير سؤال، ولكن ما إن ركبا السفينة وخرقها الخضر حتى اعترض عليه موسى عليه السلام قائلًا: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١)﴾ (الكهف)، وكذلك قال له عندما قتل الغلام: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (٧٤)﴾ (الكهف) على الرغم من أن أفعال الخضر لم تكن منكرة بل كانت أفعالًا نافعة. كما يتساءلون: كيف يصف موسى عليه السلام نفس الغلام بأنها زكية وهذا مخالف للواقع؟!

(*) عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

وجها إبطال الشبهة:

١) تصرّفات الخضر مع موسى عليه السلام يُوهِمُ ظاهرها أنها تصطدم بالمنطق العقلي، وما أنزله الله على موسى عليه السلام من شرع، فلا عجب أن تُثير استنكار موسى عليه السلام.

٢) صدور الاعتراض من موسى عليه السلام نابع من غيرته على الدين، وعدم سكوته عن المنكر، ولانتفاء علمه بالحكمة الربانية من وراء هذه التصرفات، إذ إن السكوت على مثل هذه التصرفات المتوهم خطؤها يتنافى مع كونه نبيًّا مرسلًا مأمورًا بالنهي عن المنكر والأمر بالمعروف.

التفصيل:

أولا. تصادم تصرفات الخضر مع المنطق العقلي، ومع شريعة موسى عليه السلام هو الذي أثار استنكار موسى عليه السلام:

قبل بيان حقيقة مخالفة موسى عليه السلام الشرط الذي أخذه عليه الخضر قبل اصطحابه ليتعلّم منه، لا بد أن نشير إلى حقيقة مهمة، وهي أن الله تعالى قد اختص الخضر بعلم لم يُطلع عليه موسى عليه السلام، واختص موسى بعلم لم يطلع عليه الخضر، وهذا ما قاله الخضر لموسى عليه السلام كما جاء في حديث البخاري: "إنك على علم علمكه الله لا أعلمه أنا، وأنا على علم علّمنيه لا تعلمه أنت"[1]، وهذا دليل على أن كل واحد منهما كان أعلم من الآخر فيما يعلمه.

والحقيقة الثانية التي نود توضيحها وهي مبنيّة على الحقيقة السابقة، أن هذا العلم الذي اختص به الخضر وسأل موسى عليه السلام أن يتعلمه هو من العلم النافع الذي لا يتعلق بالتشريع الذي أُنزل على موسى عليه السلام، بل قد يتعارض معه ويخالفه؛ فتشريع موسى عليه السلام عام يُراعي المصلحة العامة لمن تُشرِّع لهم في كل زمان ومكان، بينما علم الخضر علم خاص يراعي مصلحة أفراد معيّنين، ولا يجوز الاعتماد عليه في الأحكام على الأحداث المختلفة التي تتعرض لها الجماعة.

وتأسيسًا على ما سبق ذكره نستطيع أن نقول: إن موسى عليه السلام لـمّا كان من الأنبياء الذين أقامهم الله تبارك وتعالى لإجراء الأحكام على الظاهر، فلا عجب أن يستنكر ما يشاهده من تصرفات للخضر تختلف مع الشريعة التي ألزمه الله تعالى بها؛ لهذا توقع الخضر أن يَضِيق ذَرْع موسى[2] عليه السلام عن قبول ما يبديه إليه؛ لأنه علم أن ما يصدر عنه من أفعال ظاهرها المنكر وباطنها المعروف؛ لهذا قال لموسى عليه السلام في بادئ الأمر: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ (الكهف) وهذا تحذير منه لموسى عليه السلام وتنبيه على ما يستقبله منه حتى يقدم على متابعته - إن شاء - على بصيرة وعلى غير اغترار، وفي هذا إشارة إلى خطورة أعماله وغرابتها في المتعارف بحيث لا تُتحمل[3].

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليه السلام (٣٢٢٠)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر عليه السلام (٦٣١٣).

٢. يَضِيق ذَرْعًا: لم يحتمل.

٣. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٧، ج١٥، ص٣٧١ بتصرف.

ثانيًا. صدور الاعتراض من موسى عليه السلام نابع من غيرته على الدين، وعدم سكوته عن المنكر:

بعد أن بيَّنا أن تصرفات الخضر كانت من التصرفات التي يصطدم ظاهرها مع أحكام العقل، ومع أحكام شريعة موسى عليه السلام، نبين الآن الأسباب الحقيقية التي دفعت موسى عليه السلام إلى أن يستنكر الأفعال التي صدرت من الخضر، ويمكننا تفصيل ذلك في النقاط الآتية:

- إن مخالفة موسى عليه السلام للشرط في أول مرة حينما خرق الخضر السفينة، فاعترض عليه قائلًا: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١)﴾ (الكهف)، على الرغم من أنه خرقها لمصلحة لا يعلمها موسى - كانت بسبب نسيان موسى عليه السلام لشرط الخضر، يقول عز وجل: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ (الكهف: ٧٣)، والنسيان جائز على الأنبياء في غير التبليغ والشرع[١]، وسِرُّ نسيان موسى عليه السلام لما قاله الخضر، ولما أخذه على نفسه من عهد هو أنه وجد نفسه أمام تصرف عجيب لا مبرر له في نظر المنطق العقلي ولا مسوِّغ له في شريعته، فإن هذا التصرف من الخضر يعرِّض السفينة وركابها لخطر الغرق وتؤدي بهم إلى شر كبير، فلا عجب أن يسأل موسى الخضر: لماذا يقدم على هذا الشر الكبير الذي فيه مفسدة عظيمة حسبما يرى؟ بل العجيب حقًّا أن يرى موسى منكرًا - وهو نبي - فيقره ولا يغيره، ومما يدل على أن موسى عليه السلام إنما حمله على المبادرة بالإنكار الثورة والحمية للحق، أنه قال حين خَرق الخضر السفينة: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ (الكهف: ٧١) ولم يقل: لتغرقنا، فنسي نفسه واشتغل بغيره، في الحالة التي كل أحد فيها يقول: نفسي نفسي، لا يلوي على مال ولا ولد، وتلك حالة الغرق، فسبحان من جبل أنبياءه وأصفياءه على نصح الخلق والشفقة عليهم والرأفة بهم[٢].

- أما قول موسى عليه السلام للخضر عندما قتل الغلام: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (٧٤)﴾ (الكهف) فإن موسى عليه السلام فزع من هذا القتل الشنيع المخالف - بحسب الظاهر - لشرع الله الذي أنزل على موسى في التوراة "أنه لا يجوز أن تُقتل نفس بغير حق"، وإذا كانت الأولى خرق سفينة واحتمال غرق من فيها، فهذه قتل نفس، قتل عمد لا مجرد احتمال، وهي فظيعة كبيرة لم يستطع موسى أن يصبر عليها على الرغم من تذكره لوعده... فليس ناسيًا في هذه المرة ولا غافلًا، ولكنه قاصد، قاصد أن ينكر هذا الفعل المؤثم في شريعته، والذي لا يصبر على وقوعه ولا يتأول له أسبابًا[٣].

أما حكمه عليه السلام على الغلام بأنه نفس زكية، وهذا مخالف للواقع؛ فلأنه حكم عليه حسبما يراه من الظاهر؛ فإن ظاهر أمر الغلام عدم ارتكاب ذنب، قال ابن حزم: وتكلم موسى عليه السلام على ظاهر الأمر، وقدَّر أن الغلام زكي، إذ لم يعلم له ذنبًا، وكان عند الخضر العلم الجلي بكفر الغلام واستحقاقه القتل، فقصد موسى عليه السلام بكلامه في ذلك وجه الله تعالى والرحمة بالغلام[٤]، وعليه "فلو كان الأمر موكولًا إلى العلم البشري

---

١. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٤٨ بتصرف.

٢. محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، مرجع سابق، ج٧، ص٥٨.

٣. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٤، ص٢٨٠.

٤. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٤٩.

الظاهر، لما كان له إلا الظاهر من أمر الغلام، وما كان له عليه من سلطان، وهو لم يرتكب بعدُ ما يستحق عليه القتل شرعًا، وليس لغير الله ولمن يُطلعه من عباده على شيء من غيبه أن يحكم على الطبيعة المغيبة لفرد من الناس، ولا أن يرتب على هذا العلم حكمًا غير حكم الظاهر الذي تأخذ به الشريعة وهذا ما فعله موسى.

وقد يسأل سائل: لماذا لم يحترز موسى لنفسه، ويظن أنه قد لا يصبر على شرط الخضر؟ بل جزم بأنه سيصبر بقوله: ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا ﴾(الكهف: ٦٩).

والحق أن المتأمل لقول موسى عليه السلام للخضر لا يجد فيه هذا الجزم المزعوم، بل لقد علَّق موسى هذا الصبر على مشيئة الله عز وجل، ولم يجزم به كما توهموا، وفي هذا ما فيه من الاحتراز من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الإنسان قد يتصوَّر المعنى الكلي المجرد (التصور النظري)، ولكنه عندما يصطدم بالتطبيق العملي لهذا المعنى والنموذج الواقعي منه يستشعر له وقعًا غير التصور المجرد، فالطبيعة البشرية تلتقي كلها في أنها تجد للتجربة العملية وقعًا وطعمًا غير التصور النظري، ولا تُدرِك الأمور حق إدراكها إلا إذا ذاقتها وجربتها[1]، حتى ولو كانت هذه الطبيعة طبيعة نبي مرسل، بل نبي من أولي العزم من الرسل هو موسى عليه السلام.

وعليه فلا يصح نسبة المعصية لموسى عليه السلام في موقفه من الخضر بأي حال من الأحوال.

الخلاصة:

- لقد اختص الله تعالى الخضر بعلم لم يُطلِعْ عليه موسى عليه السلام، وهو علم خاص نافع لا يتعلق بالتشريع الذي أُنزل على موسى عليه السلام، بل إنه يصطدم معه، كما يصطدم بالمنطق العقلي؛ لهذا استثار إنكار موسى عليه السلام واعتراضه.
- إن سبب مخالفة موسى عليه السلام لشرطه مع الخضر هو أنه رأى تصرفات عجيبة لا مبرر لها في نظر العقل، ولا مسوِّغ لها في الشريعة؛ فالتصرف الأول يعرِّض السفينة وركابها لخطر الغرق وهذا شر كبير، والتصرف الثاني جريمة شنيعة فهي قتل نفس بغير حق، فلم يستطع موسى أن يصبر على هذا، وهو نبي مرسل مأمور بإحقاق الحق وإنكار المنكر.

الشبهة الحادية والستون

ادِّعاء أن موسى عليه السلام تعدى على ملك الموت بلطمه، وفَقْأ عينه(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن موسى عليه السلام لم يطع أمر ملك الموت حين أرسله الله إليه ليقبض روحه، وتعدَّى عليه بلطمه، وفقأ عينه؛ ويستدلون على ذلك بما جاء في الصحيح من طريق طاوس عن أبي هريرة رضي الله عنه موقوفًا قال: "أُرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام فلما جاءه صكَّه[2] فرجع إلى ربه، فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت. قال: ارجع إليه، فقل له يضع يده على متن ثور،

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٤، ص٢٢٧٩.

(*) عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

٢. صكَّه: دفعه بقوة وضربه.

فله بما غطت يده بكل شعرة سنة، قال: أي رب، ثم ماذا؟ قال: ثم الموت، قال: فالآن... الحديث"[1].

وجها إبطال الشبهة:

١) موسى عليه السلام ما كان يعلم أن الذي لطمه كان ملك الموت؛ لأنه جاءه على صورة إنسان ودخل عليه بلا استئذان، فكان فعله دفاعًا عن نفسه.

٢) كان لطم موسى لملك الموت لأنه لم يخبره، وقد ثبت أن ملك الموت لم يقبض نبيًّا من الأنبياء إلا بعد إخبار الله تعالى له.

التفصيل:

أولا. موسى عليه السلام ما كان يعلم أن الذي لطمه كان ملك الموت ؛ لأنه جاءه على صورة إنسان ودخل عليه بلا استئذان فكان فعله دفاعا عن نفسه:

إن الله عز وجل لم يبعث ملك الموت لموسى عليه السلام وهو يريد قبض روحه في المرة الأولى، وإنما بعثه إليه اختبارًا، وموسى عليه السلام ما كان يعلم حين لطمه أنه ملك الموت؛ لأنه جاءه على صورة إنسان فلما رأى موسى إنسانًا يريد الاعتداء عليه دافعه، حيث إن الإنسان مأمور بدفع من يعتدي عليه.

وقد جاءت الملائكة إلى إبراهيم وإلى لوط - عليهما السلام - في صورة آدميين فلم يعرفاهم ابتداء، ولو عرفهم إبراهيم عليه السلام لما قدم لهم المأكول، ولو عرفهم لوط عليه السلام لما خاف عليهم من قومه.

قال الخطابي: إن موسى عليه السلام دفعه عن نفسه لما رُكِّبَ فيه من الحدة، وإن الله رد عين ملك الموت؛ ليعلم موسى عليه السلام أن الذي جاءه من عند الله، فلهذا استسلم حينئذ.

ثانيًا. كان لطم موسى عليه السلام لملك الموت لأنه لم يخبّره، فقد ثبت أنه لم يُقبَضْ نبي حتى يخبره الله تعالى:

كان لطم موسى عليه السلام لملك الموت وفَقْء عينه؛ لأنه لم يخيِّره بين الموت والحياة؛ لأن هذه سنة الله عز وجل في قبض أرواح الأنبياء؛ فعن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - قالت: "كنت أسمع أنه لا يموت نبي حتى يخيَّر بين الدنيا والآخرة"[2].

فلهذا لـمَّا خُيِّر موسى عليه السلام في المرة الثانية أَذْعَن[3] واستسلم لأمر الله عز وجل.

ويرجح د. أبو النور الحديدي الجواب الأول لأنه يستبعد من موسى عليه السلام أن يلطم ملك الموت حتى ولو أراد قبض روحه من غير أن يخبره، لأنه يعلم أن ملك الموت لا يقبض روح إنسان إلا بأمر الله تعالى، ولو كان موسى عليه السلام يعلم أنه ملك الموت لقال له: كيف تقبض روحي، أو أنى قبل أن تخيرني والأنبياء لا يقبضون إلا أن يخيروا؟

فالأصح أنه لم يعلم في المرة الأولى أنه ملك الموت، ومن حق الإنسان مدافعة المعتدي، بدليل استسلامه له لما عرف أنه ملك الموت جاء لقبض روحه[4].

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب من أحب الدفء ليلا في الأرض المقدسة أو نحوها (١٢٧٤)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى عليه السلام (٦٢٩٧).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤١٧١)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل عائشة رضي الله عنها (٦٤٤٨).

٣. أَذْعَن: خضع.

٤. عصمة الأنبياء، د. الحديدي، مرجع سابق، ص٣٥٠.

الخلاصة:

- موسى عليه السلام ما كان يعلم حين لطم - ملك الموت - أنه ملك الموت؛ لأنه جاءه على صورة إنسان، وقد جاءت الملائكة إلى إبراهيم وإلى لوط - عليهما السلام - في صورة آدميين فلم يعرفاهم ابتداء، وما فعله موسى من لطم الملك كان دفاعًا عن نفسه، إذ إن الإنسان مأمور بدفع من يعتدي عليه.
- كان لطم موسى لملك الموت - عليهما السلام - لأن ملك الموت لم يخيِّر موسى بين الحياة والموت، وسنة الله تعالى في قبض أرواح الأنبياء هو تخييرهم.

الشبهة الثانية والستون

توهُّم وقوع الخلط في القرآن بشأن قصة قارون (*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المشككين أن القرآن يخلط في قصة قارون بين قارون وكروسوس ملك ليديا (٥٦٠ - ٥٤٦ ق. م) الذي هو عَلَمٌ على الغني عند العرب وغيرهم، وقورح الذي ورد ذكره في التوراة في زمن موسى عليه السلام، ويستدلون على ذلك بالتشابه الواقع بين قصص الأشخاص الثلاثة.

وجوه إبطال الشبهة:

١) قارون الذي ذكره القرآن ليس كروسوس ملك ليديا، ولا قورح الذي ورد ذكره في التوراة؛ وذلك بناء على ما أكده المؤرخون بخصوص نسب قارون الذي يختلف عن نسب هذين الرجلين.

٢) الحكمة من القصص القرآني هو استخلاص العبرة والعظة، لا ذِكْرُ الأنساب والأسماء، والقرآن يكتفي بما يفيد توصيل العبرة والعظة.

٣) وردت قصة قارون في القرآن واضحة متماسكة، بل فصَّلها الذكر الحكيم تفصيلًا بحيث لا تلتبس بأي قصة أخرى.

التفصيل:

أولا. قارون الذي ذكره القرآن ليس كروسوس ملك ليديا، ولا قورح الذي ذُكِر في التوراة:

كروسوس الذي يقولون عنه إنه ملك ليديا، قد ذُكر التاريخ الذي وجد فيه (٥٦٠ - ٥٤٦ ق. م) كما حُدِّد المكان الذي عاش فيه وهو ليديا، وقد وردت قصة قارون بتمامها في سورة القصص دون أن يحدد الحق عز وجل زمان وقوعها ولا مكان حدوثها.

كما أن كروسوس هذا الاسم ليس هو اسم قارون وليس له علاقة به لا من جهة المعنى ولا المبنى، وإن كان هناك علاقة بين الاسمين؛ فلماذا لم يأتوا بالأدلة العلمية الواضحة التي تثبت هذه العلاقة؟! فمن أين - إذن - يأتي لهم الزعم أن القرآن يخلط بين كروسوس؟ وقورح في قصة قارون، وهم لا دليل لهم على ذلك؟!

كما أن الأدلة العلمية تثبت أنه ليس قورح، وإن كان لا بد من معرفة نسبه وإلى من ينتهي هذا النسب، فالراجح بالأدلة العلمية أنه يصهار عم موسى عليه السلام إذ جاء في قاموس الكتاب المقدس، ص١٠٧٢: "يصهار:

(*) من إعجاز القرآن، رؤوف أبو سعدة، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٣م.

اسم عبري معناه يضيء أو يشرق".

وجاء في تفسير القرطبي والرازي، وجاء في قصص الأنبياء كذلك أن قارون كانت كنيته في قومه المنور؛ لوَضاءته وجماله وحسن صوته بالتوراة.

كما أن الجذر العبري "قر ن" معناه: "أنار وأضاء وأشع، واشتُقَّ منه: قارون بمعنى الأوار المنور".[١] ويقول أكثر المؤرخين وأهل العلم: إنه كان ابن عم موسى عليه السلام فهو قارون بن يصهب بن قاهث بن لاوي، وموسى هو ابن عمران بن قاهث بن لاوي بن يعقوب[٢]. وقيل: إنه يصهار عم موسى الذي ورد ذكره في التوراة، فضلًا عن أن اسم قارون يحمل معنى آخر، وذلك الفعل "يقر" العبري هو الفعل "وقر" العربي، وكلاهما يفيد معاني الثقل والعظمة والمال، فالوقر يعني الحمل الثقيل والوقار من معانيه العظمة، وحينما اشتق القرآن الكريم من "يقرون" اسم قارون لم يبعد كثيرًا عن قواعد اللغة العبرية؛ حيث يشتق من "يشرون" اسم "شارون"، فاختيار القرآن لاسم "قارون" كان إعجازًا لفظيًّا، إذ يتماشى مع قواعد اللغة العبرية، وفي نفس الوقت يعني المنير، وهو نفس اسم "يصهار"، كما أنه يتضمن الحمل الثقيل، وفيه إشارة إلى كنوزه التي كانت مفاتيحها من الثقل، بحيث يعجز عن حملها الرجال الأشداء.

مما سبق يثبت أن قارون هو يصهار أو يصهر - كما ورد في التفاسير - بن قاهث بن لاوي بن يعقوب عليه السلام، وليس كروسوس ولا قورح.

ثانيًا. ليست الحكمة من القصص القرآني ذكر الأسماء والأنساب، وإنما هي استخلاص العبرة والعظة، بغض النظر عن الزمان والمكان والأسماء والأنساب:

فالأسلوب القرآني المعجز - يهتم بما يفيد في توصيل العبرة والعظة؛ لذا نراه هنا يكتفي بذكر أن قارون كان من قوم موسى؛ ليعلم أهل البغي والضلال أن النسب لا يغني عن صاحبه شيئًا، إن جاءه بأس الله في الدنيا، وحلَّت به نقمته، "فمن بطَّأ به عمله لم يسرع به نسبه" كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم[٣].

فقد كان قارون من قوم موسى، وكان ممن سمع منه التوراة ولازمه مدة طويلة، ولكنه لم ينتفع بعلمه، ولم تؤثر فيه مواعظه، فنافق قومه، وحسد موسى على ما آتاه الله من فضله، وتمنى أن يكون رسولًا مثله، كما تمنى ذلك كثير من أثرياء مكة، وكبراء الطائف، ورؤساء اليهود؛ ظنًّا من هؤلاء القوارين - جمع قارون - أن النبوة والشرف، والعزة، تنالُ بالثراء والغنى قال عز وجل: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ (الزخرف). أي: عظيم في نسبه وجاهه وثروته، فضرب الله لهم قارون مثلًا يستبينون به حالهم، ومآلهم ويعرفون به أقدارهم، ومنازلهم بين الناس؛ فيعلمون من خلال هذا المثل أنهم ليسوا على شيء، وأن العزة ليست لهم، وإنما هي للمؤمنين، وأن العاقبة يوم القيامة للمتقين[٤].

من هذا نصل إلى أن اهتمام القرآن بالتوجيه

---

١. المرجع السابق، ج٢، ص٧١.
٢. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ص٣٤٥.
٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر (٧٠٢٨).
٤. قصص القرآن، محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٢٣٩.

والإرشاد، واستخدامه الأسلوب الصالح لكل زمان ومكان - يبرر عدم تحديده لزمان هذه القصة، ولا مكانها، كما يبرر عدم ذكره وتفصيل نسب "قارون" والقرآن بهذا الأسلوب لم يترك فرصة لأعدائه لأن يتصيدوا عليه أي عيب أو خلط؛ فلا يرمي هذا القرآن بعيب إلا سفيه غاب عنه فقه الأسلوب القرآني المعجز.

ثالثًا. وردت قصة قارون في القرآن واضحة متماسكة، يفهمها الصغير والكبير، والمسلم وغيره:

فقد يعرف شخص ما بصفة من الصفات كالغنى، وغيرها، لكن هذا لا يمنع غيره أن يكون مثله أو أكثر منه، وقد عرف حاتم الطائي - مثلًا - بين العرب بالكرم، فهل منع اشتهاره بالكرم مِنْ أن يضاهيه غيره في هذه الصفة؟!

وما المانع - كذلك - أن تكون نهاية ومصير هؤلاء - الذين يشتركون في صفة أو صفات ما - واحدة؟ فكثير ممن كذبوا الرسل أخذتهم الصيحة، وكثير أخذتهم الرجفة... إلخ.

وقورح هذا الذي يزعمون أن القرآن يخلط بينه وبين كروسوس - هو ابن يصهار الذي هو "قارون". وقد ثار قارون على موسى عليه السلام في سيناء، وقد ذكره القرآن فقال تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ (القصص)، وكانت نهايته الخسف: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ (القصص).

ولعل ما حدث من خسف أموال "قارون" كان له أثر عميق في نفس قورح؛ إذ فقد المال الذي كان يُمَنّي نفسه بالتمتع به بعد أن يئول إليه، ولكن ها هي آماله قد ضاعت، فخرج من مصر مع موسى؛ إذ لم يعد هناك شيء يربطه بمصر إلا الأسف على هذه الثروة الضائعة، ونفّث عما في دخيلته فيما بعد بالثورة على موسى وهارون، وكان مصيره أن خسف الله به الأرض هو الآخر في سيناء كما خسفت الأرض بأبيه من قبل في مصر.

فهل هناك ما يمنع من أن يكون مصير الابن كمصير أبيه[1]؟!

الخلاصة:

- ثبت أن القرآن محكم متماسك بأسلوبه المعجز؛ إذ هو من عند الله، لا ريب فيه، ولا خلط، ولا اضطراب، وقصة قارون التي ورد ذكرها في القرآن على قمة التماسك والإحكام، ولا خلط فيها بين قارون وكروسوس وقورح؛ إذ إن قارون الذي ذكره القرآن ليس كروسوس ملك ليديا، ولا قورح الذي ورد ذكره في التوراة، وإنما هو يصهار بن قاهث بن لاوي بن يعقوب عليه السلام كما ثبت هذا بالأدلة العلمية.
- الحكمة من القصص القرآني هي استخلاص العبرة والعظة، والتوجيه والإرشاد؛ لذا لا يعطي كل اهتمامه لتحديد الزمان، والمكان، أو الأسماء، وتفصيل نسبها، وقد حقق هذا الأسلوب القرآني المعجز ما سعى إليه؛ حيث رسم لنا لوحة كاملة لهذا الرجل الذي أنعم

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج ١١، ص١٨٦. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٣٣٣ وما بعدها.

الله عليه، فبغى في الأرض، وتكبر ومنع حق الله؛ فكان مصيره أن خسف الله به وبداره الأرض.

- هذا المصير الذي آل إليه قارون لا يمنع من أن يصير إليه غيره؛ فقد كان لابنه نفس المصير، وهذا لا يعني وجود الخلط في القصة التي يشبهها غيرها.

الشبهة الثالثة والستون

ادِّعاء أن القرآن أخطأ في ذكر عقيدة ذي القرنين (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن القرآن الكريم أخطأ في ذكر عقيدة ذي القرنين، ويستدلون على زعمهم بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨)﴾ (الكهف). فيزعمون أن القرآن الكريم قد مدح الإسكندر الأكبر ـ ذا القرنين ـ باعتباره عبدًا صالحًا يؤمن بالله تبارك وتعالى، في حين أن جميع مؤرخي الإغريق يجمعون على أنه كان من عبدة الأوثان!

وجها إبطال الشبهة:

١) لقد كان ذو القرنين ملكًا عادلا صالحًا، بلغ مُلكه المشارق والمغارب، وقد أعطاه الله ﷻ القدرة على السير في الأرض شرقًا وغربًا لنشر الإسلام في ربوعها، ومن ثم فالقرآن لم يخطئ في ذكر عقيدته حين أخبر أنه كان مؤمنا بالله موحدًا.

٢) جمهور المؤرخين وكبار المفسرين على أن ذا القرنين الذي ذُكر في القرآن الكريم، ليس هو الإسكندر الأكبر المقدوني، الذي لُقِّبَ بذي القرنين تشبيهًا له بالأول بعدما قضى على مملكة فارس، ودانت له الممالك شرقًا وغربًا، ومن هنا حدث الخلط بينهما عند بعض الباحثين.

التفصيل:

أولا. ذو القرنين ملك من الملوك العادلين بلغ ملكه المشارق والمغارب على نحو ما جاء في القرآن:

لقد ذكر الله تعالى ذا القرنين هذا وأثنى عليه بالعدل، وأنه بلغ المشارق والمغارب، وملك الأقاليم وقهر أهلها، وسار فيهم بالعدل التام، والسلطان المؤيد المظفر المنصور القاهر المقسط، والصحيح أنه كان ملكًا من الملوك العادلين، قال إسحاق بن بشر عن عثمان بن الساج، عن خفيف، عن عكرمة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، قال: كان ذو القرنين ملكًا صالحًا عمله، وأثنى عليه في كتابه، وكان منصورًا، وكان وزيره الخضر، وذكر أن الخضر عليه السلام كان على مقدمة جيشه، وكان عنده بمنزلة المشاور الذي هو من الملك بمنزلة الوزير في إصلاح الناس اليوم، وقد ذكر الأزرقي وغيره أن ذا القرنين أسلم على يدي إبراهيم الخليل، وطاف معه بالكعبة المكرمة هو وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ.

ورُوي عن عبد الله بن عمير وابنه عبد الله وغيرهما أن ذا القرنين حج ماشيًا، وأن إبراهيم عليه السلام لما سمع بقدومه تلقاه ودعا له ورضاه، وأن الله سخر لذي

(*) شبكة بلدي لمقاومة التنصير. www.balady.net

القرنين السحاب يحمله حيث أراد[1].

وقد اختلف في كونه نبيًّا أم ملكًا أم عبدًا صالحًا، فقد جاء عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: "لا أدري ذو القرنين كان نبيًّا أو لا"[2]، وذكر وهب في "المبتدأ" أنه كان عبدًا صالحًا، وأن الله بعثه إلى أربع أمم: أمتين بينهما طول الأرض، وأمتين بينهما عرض الأرض، وهي ناسك ومنسك وتأويل وهاويل، وعن أبي الطفيل قال: سمعت ابن الكوّا يقول لعلي بن أبي طالب ﷺ: أخبرني ما كان ذو القرنين؟ قال: كان رجلًا أحب الله فأحبه، بعثه الله إلى قومه فضربوه على قرنه ضربة مات منها، ثم بعثه الله إليهم فضربوه على قرنه ضربة مات منها، ثم بعثه الله فسُمِّي ذا القرنين. ورغم ضعف عبد العزيز أحد رواة الحديث إلا أنه توبع على أبي الطفيل، أخرجه سفيان بن عيينه في جامعه عن ابن أبي حسين عن أبي الطفيل نحوه وزاد: "وناصح الله فناصحه"، وفيه: لم يكن نبيًّا ولا ملكًا، وقيل: كان ملكًا من الملائكة حكاه الثعلبي، وهذا مروي عن عمر ﷺ أنه سمع رجلا يقول يا ذا القرنين، فقال: تسميه بأسماء الملائكة، وقيل: كان من الملوك، وعليه الأكثر[3].

واختلف العلماء والمفسرون في اسمه، فقيل هو الصعب ابن ذي يزن الحميري من ولد وائل بن حمير، وبه جزم كعب الأحبار، وذكره ابن هشام في التيجان عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أيضًا، وقال أبو جعفر بن حبيب في كتاب "المحبر": هو المنذر أحد ملوك الحيرة، وأمه ماء السماء ماوية بنت عوف بن جشم، قال: وقيل الصعب بن القرن بن حمال من ملوك حمير، وأما قول ابن إسحاق الذي حكاه ابن هشام عنه من أن اسم ذي القرنين مرزبان بن مرديه، فقد صرح بأنه الإسكندر، لذلك اشتهر على الألسنة لشهرة السيرة لابن إسحاق.

قال السهيلي: والظاهر من علم الأخبار أنهما اثنان أحدهما كان على عهد إبراهيم عليه السلام، ويقال إن الخليل إبراهيم عليه السلام تحاكم إليه في بئر السبع بالشام فقضى لإبراهيم، والآخر كان قريبًا من عهد عيسى عليه السلام. ثم يقول ابن حجر: "لكن الأشبه أن المذكور في القرآن هو الأول بدليل ما ذُكر من ترجمة الخضر، حيث جرى ذكره في قصة موسى قريبًا أنه كان على مقدمة ذي القرنين، وقد ثبتت قصة الخضر مع موسي، وموسى كان قبل زمن عيسى قطعًا"[4].

واختُلف في سبب تلقيبه بذي القرنين، فقيل: لأنه بلغ قرن الشمس من مغربها وقرن الشمس من مطلعها، رواه الزبير بن بكار عن الزُّهري، وقيل لأنه ملكهما، وقيل لأنه رأى في منامه أنه أخذ بقرني الشمس، وقيل لأنه كان له ضفيرتان تواريهما ثيابه، وقيل لأنه عُمِّر حتى فني في زمانه قرنان من الناس، وقيل غير ذلك[5].

1. البداية والنهاية، ابن كثير، دار التقوى، القاهرة، ٢٠٠٤م، ج١، ص٤٥١، ٤٥٠ بتصرف.
2. صحيح: أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الدخان (٣٦٨٢)، ووافقه الذهبي في التلخيص.
3. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، دار الريان للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ج٦، ص٤٤٢، ٤٤١ بتصرف.
4. المرجع السابق، ج٦، ص٤٤٢، ٤٤٣ بتصرف.
5. سُبُل الهدى والرشاد في هَدْي خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي الشامي، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ج٢٢، ص٤٦٤.

وقد أخبر الله تعالى عنه أنه مكّن له في الأرض فقال: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾ (الكهف)؛ أي وسعنا مملكته في البلاد، وأعطيناه من آلات المملكة ما يستعين به على تحصيل ما يحاوله من المهمات العظيمة، والمقاصد الجسيمة، قال قتيبة، عن أبي عوانة، عن سماك، عن حبيب بن حِمَاز، قال: كنت عند علي بن أبي طالب ﷺ، وسأله رجل عن ذي القرنين كيف بلغ المشرق والمغرب؟ فقال له: سُخِّر له السحاب، ومُدَّت له الأسباب وبُسِط له في النور، وقال: أزيدك؟ فسكت الرجل وسكت علي ﷺ.

وعن أبي إسحاق السبيعي، عن عمرو بن عبد الله الوادعي سمعت معاوية ﷺ يقول: ملك الأرض أربعة: سليمان بن داود النبي - عليهما السلام - وذو القرنين، ورجل من أهل حلوان، ورجل آخر، فقيل له الخضر؟ قال: لا. وقال الزبير بن بكار: حدثني إبراهيم بن المنذر، عن محمد بن الضحاك، عن أبيه، عن سفيان الثوري قال: بلغني أنه ملك الأرض كلها أربعة: مؤمنان وكافران: سليمان النبي وذو القرنين، ونمرود وبختنصر، وهكذا قال سعيد بن بشير: سواء، وقال إسحاق بن بشر، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة عن الحسن قال: كان ذو القرنين مَلَك بعد النمروذ، وكان من قصته أنه كان رجلًا مسلمًا صالحًا، أتى المشرق والمغرب، مدّ الله له في الأجل ونصره حتى قهر البلاد، واحتوى على الأموال، وفتح المدائن، وقتل الرجال، وجاب[1] في البلاد والقلاع، فسار حتى أتى المشرق والمغرب، فذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾[2].

فهل يعطي الله كل هذه الأسباب لرجل مشرك، ثم يمدحه بعد ذلك في القرآن؟!! ولقد رأينا كيف أن الله ﷻ يتوعد الملوك الذين يخالفون أوامره ويصدون العباد عن عبادته وحده كفرعون والنمروذ وغيرهم.

وبهذا يتبين لنا أن ذا القرنين هو ذاك الملك المسلم، الذي كان في زمن سيدنا إبراهيم ﷺ، وأنه حقق العدالة ورفع الظلم، ودعا إلى عبادة الله ﷻ في كل البلاد التي فتحها. فكيف يدّعون أن القرآن أخطأ في ذكر عقيدته؟!!

وما كان هذا الخطأ إلا نتيجة خلطهم بين ذي القرنين الملك الصالح، وبين الإسكندر الأكبر المقدوني الذي تؤرخ به الروم، وهذا ما سنوضحه في الوجه الآتي:

ثانيًا. ليس الإسكندر الأكبر المقدوني هو ذا القرنين المذكور في القرآن:

لقد فرق العلماء وأصحاب السير بين ذي القرنين المذكور في القرآن، وبين الإسكندر الأكبر المقدوني اليوناني، يقول ابن كثير:

فأما ذو القرنين الثاني - أي الإسكندر الأكبر المقدوني - فهو إسكندر بن فيلبس بن مضريم بن هرمس بن هردس بن ميطون بن رومي بن لنطي بن يونان بن يافث بن نونة بن سرحون بن رومة بن ثرنط بن توفيل بن رومي بن الأصفر بن اليفز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، كذا نسبه ابن

١. جاب: طاف.

٢. البداية والنهاية، ابن كثير، مرجع سابق، ج١، ص٤٥٣، ٤٥٢ بتصرف.

عساكر في تاريخه، المقدوني اليوناني المصري باني الإسكندرية الذي يؤرخ بأيامه الروم، وكان متأخرًا عن الأول بدهر طويل، كان هذا قبل المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة، وكان أرسطوطاليس الفيلسوف وزيره، وهو الذي قتل دارا بن دارا، وأذل ملوك الفرس وأَوْطَأَ[1] أرضهم. وإنما نبهنا عليه؛ لأن كثيرًا من الناس يعتقد أنهما واحد، وأن المذكور في القرآن هو الذي كان أرسطاطاليس وزيره، فيقع بسبب ذلك خطأ كبير، وفساد عريض طويل كثير، فإن الأول كان عبدًا مؤمنًا صالحًا، وملكًا عادلًا، وكان وزيره الخضر، وقيل إنه كان نبيًّا على اختلاف في ذلك.

وأما الثاني فكان مشركًا، وكان وزيره فيلسوفًا، وقد كان بين زمانيهما أزيد من ألفي سنة. فأين هذا من هذا؟ لا يستويان ولا يشتبهان إلا على غبي لا يعرف حقائق الأمور[2].

ويؤكد ما ذهب إليه ابن كثير ما قاله ابن القيم في "إغاثة اللهفان":

ومن ملوكهم الإسكندر المقدوني وهو ابن فيلبس، وليس بالإسكندر ذي القرنين، الذي قص الله ﷻ نبأه في القرآن، بل بينهما قرون كثيرة، وبينهما في الدين أعظم تباين، فذو القرنين كان رجلًا صالحًا موحدًا لله تعالى، يؤمن بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وكان يغزو عبَّاد الأصنام، وبلغ مشارق الأرض ومغاربها.

وبنى السد بين الناس وبين يأجوج ومأجوج، وأما هذا المقدوني، فكان مشركًا يعبد الأصنام هو وأهل مملكته، وكان بينه وبين المسيح نحو ألف وستمائة سنة، والنصارى تؤرخ له وكان أرسطاطاليس وزيره، وكان مشركًا يعبد الأصنام[3].

ومما يؤكد ذلك ما قاله الفخر الرازي في تفسيره: إن في كون الإسكندر ذا القرنين إشكالًا قويًّا، وهو أنه كان تلميذ أرسطا طاليس الحكيم وكان على مذهبه، فتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطاطاليس حق وصدق، وذلك مما لا سبيل إليه.

وقد ذكر الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ عدة قرون بين ذي القرنين العبد الصالح الذي ذُكر في القرآن الكريم، وبين الإسكندر الأكبر المقدوني اليوناني، فقال: الأكثر على أنه ـ أي ذا القرنين الصالح الأول ـ كان من الملوك الصالحين، وفي إيراد المصنف ترجمة ذي القرنين قبل إبراهيم عليه السلام إشارة إلى توهين قول من زعم أنه الإسكندر اليوناني؛ لأن الإسكندر كان قريبًا من زمن عيسى وبين زمن إبراهيم وعيسى ـ عليهما السلام ـ أكثر من ألفي سنة، والذي يظهر أن الإسكندر المتأخر لقب بذي القرنين تشبيهًا بالمتقدم لسعة ملكه، وغلبته على البلاد الكثيرة، أو لأنه لما غلب على الفرس وقتل ملكهم انتظم له ملك المملكتين الواسعتين الروم والفرس فلُقِّب ذا القرنين لذلك، والحق أن الذي قص الله نبأه في القرآن هو المتقدم، والفرق بينهما من أوجه: أحدها ما ذكرته، وثانيًا: قول

---

١. أَوْطَأَ: دخل.

٢. البداية والنهاية، ابن كثير، مرجع سابق، ج١، ص٤٥٢ بتصرف يسير.

٣. إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ابن القيم، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، ج٢، ص٢٦٣.

الفخر الرازي في تفسيره: كان ذو القرنين نبيًّا على اختلاف في ذلك، وكان الإسكندر كافرًا، وكان معلمه أرسطاطاليس، وكان يأتمر بأمره وهو من الكفار بلا شك. وثالثًا: كان ذو القرنين من العرب، وأما الإسكندر فهو من اليونان، والعرب كلها من ولد سام بن نوح باتفاق، واليونان من ولد يافث بن نوح على الراجح فافترقا[1].

ثم يدلل ابن حجر على عروبته بذكر بعض الأبيات من كلام العرب، قيل: والذي يقوّي أن ذا القرنين من العرب كثرة ما ذكروه في أشعارهم، قال أعشى بن ثعلبة:

والصعب ذو القرنين أمس ثاويًا

بالحنو في حدث هناك مقيم

قال الربيع بن ضبيع:

والصعب ذو القرنين عُمِّر مُلْكُه

ألفين أمسى بعد ذاك رميما

ويقول قس بن ساعدة:

والصعب ذو القرنين أصبح ثاويا

باللحد بين ملاعب الأرياحِ

وقال تبع الحميري:

قد كان ذو القرنين قبلي مسلمًا

مَلِكا تدين له الملوكُ وتحشد

من بعده بلقيسُ كانت عمتي

ملكتْهُمُ حتى أتاها الهدهدُ

ويؤخذ من أكثر هذه الشواهد أن الراجح في اسمه الصعب، ووقع ذكر ذي القرنين أيضًا في شعر امرئ القيس وأوس بن حجر وطرفة بن العبد وغيرهم[2].

ويؤكد كلام ابن حجر ما قاله الشيخ تقي الدين المقريزي في "الخطط": اعلم أن التحقيق عند علماء الأخبار أن ذا القرنين الذي ذكره الله ﷻ في القرآن اسمه الصعب بن الحارث، وساق نسبه إلى قحطان بن هود بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام، وأنه ملك من ملوك حمير وهم العرب العاربة، ويقال لهم أيضًا العرب العَرْباء، وكان ذو القرنين تبعًا متوجًا، ولما تولى الملك تجبَّر، ثم تواضع لله تعالى، وقد غلط من ظن أن الإسكندر هو ذو القرنين الذي بنى السد، فإن لفظة "ذو" عربية، وذو القرنين من ألقاب ملوك اليمن، وذلك يوناني رومي[3].

ومن خلال تتبعنا لأقوال علماء المسلمين، سواء أكانوا مؤرخين أم مفسرين أم محدّثين، فإننا نجد أن ما قرروه من ضرورة التفرقة بين ذي القرنين الذي ذُكر في القرآن، وذي القرنين الذي هو الإسكندر المقدوني اليوناني - يؤكده ما ذكره المؤرخون في سيرة هذا المقدوني اليوناني؛ فقد ذكروا أنه كان قائدًا عظيمًا، وذا قدرة كبيرة على التخطيط والبراعة في الأداء والقيادة، ولكنه كان قاسيًا وبلا رحمة في أوقات أخرى. ومن المعروف أنه كان سكِّيرًا لدرجة أنه في إحدى المرات قتل صديقه كليتوس في نوبة غضب، وقد ندم كثيرًا على ذلك الأمر، وقبل موته بفترة وجيزة، جعل اليونان تعبده بوصفه إلهًا؛ وذلك بسبب طبيعته كإله كما كان يقول عن نفسه... وقد انتهى هذا الأمر بموته،

---

١. مفاتيح الغيب، الرازي، مرجع سابق، ج٢١، ص١٧٢.

٢. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، مرجع سابق، ج٦، ص٤٤٠، ٤٤١ بتصرف.

٣. سبل الهدى والرشاد في هدي خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي الشامي، مرجع سابق، ج٢، ص٤٦٥.

وقد استطاع أن يؤسس عام ٣٣٢ مدينة الإسكندرية عند نهاية نهر النيل، والتي أصبحت بعد ذلك المركز الثقافي والعلمي والتجاري للعالم اليوناني. وكان أرسطو هو معلم الإسكندر، وقد أعطاه تدريبًا كبيرًا في علم البلاغة والخطابة والأدب، وحث اهتمامه بالعلوم والطب والفلسفة.

ومما يدل على أن هذا الملك اليوناني كان سيء الخلق، ولا يصح أن يُطلق عليه وصف القرآن الكريم، ومدحه بالعدل والقسط والإيمان بالله ﷻ - أنه مات بعد أن سقط مريضًا بحوالي أسبوعين، وكان قد سلم الخاتم الخاص به لقائد جيشه، وهو على فراش الموت، وطلب من الجنود زيارته في فراشه، ويبدو أن المحيطين به في تلك الفترة كانوا متآمرين عليه نظرا لتصرفاته وسلوكياته الغريبة، حيث إنه في أواخر أيامه طلب من الإغريق تأليهه في الوقت الذي كان فيه عنيفًا مع الكثيرين، بالإضافة إلى إكثاره في شرب الخمر، كل هذه العوامل جعلت البعض يتربصون به ويحاولون الفتك به. وقد مات مسمومًا كما ذكرت بعض المصادر التاريخية.

وهذا ما أكده د. جواد علي حيث قال: وأورد أريان في كتابه قصة أخرى، خلاصتها: أن العرب كانوا يتعبدون لإلهين هما: أورانوس، وديونيوس وجميع الكواكب وخاصة الشمس، فلما سمع الإسكندر بذلك أراد أن يجعل نفسه الإله الثالث للعرب[1].

فهل يُعْقل أن مَنْ يريد أن يجعل نفسه إلهًا من دون الله يذكره الله في كتابه ويثني عليه خيرًا؟!!

إن هذه الحياة التي يصورها لنا المؤرخون والمفسرون عن هذا الرجل - الإسكندر المقدوني - من كفر وسكر ومكر في معاملة قواده - لتؤكد الفرق الكبير والبون الشاسع بين هذا الذي ذكره القرآن، وبين المقدوني اليوناني.

الخلاصة:

- ذو القرنين ملك من الملوك الصالحين العادلين، الذين رفع الله بهم الظلم عن العباد، وقد أعطاه الله القدرة على السير في الأرض لنشر دينه ﷻ في ربوع الأرض، وقد زوده الله بالعلم والمعرفة والتقوى.
- لم يخطئ القرآن في ذكر عقيدة ذي القرنين، لأنه كلام الله الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾(النساء: ١٢٢).
- سُمّي الإسكندر الأكبر المقدوني بذي القرنين تشبيهًا بالأول الذي ذُكر في القرآن، لأن ممالك المشرق والمغرب دانت له بعد أن قضى على الفرس، وذلك سنة (٣٣٦ ق. م)، ومن هنا جاء الخلط بينهما.
- فرق العلماء والمؤرخون بين ذي القرنين الذي ذكره الله في القرآن وبين الإسكندر الأكبر المقدوني، فالأول كان ملكًا صالحًا مؤمنًا يدعو إلى الله ويعمل على نشر دينه، والثاني كان كافرًا مشركًا بالله يعبد الأصنام هو وقومه. والأول كان في زمن إبراهيم عليه السلام وحج معه، والثاني كان قبل بعثة عيسى عليه السلام بثلاثمائة وست وثلاثين سنة، أي أن بينهما ما يزيد على ألفي عام، والأول على أصح الأقوال كان عربيًّا، ويبدو هذا من ذكر بعض الشعراء العرب له في أشعارهم، والثاني كان

---

١. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، جامعة بغداد، العراق، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ج٢، ص٦ بتصرف.

يونانيًّا مقدونيًّا انحدر إلى الشرق بعدما استولى على أملاك الدولة الفارسية؛ فكيف يتشابهان أو يتقاربان كما قال ابن كثير وابن حجر ؟!!

- كان الإسكندر الأكبر المقدوني قائدًا عظيمًا، فتح البلاد شرقًا وغربًا، إلا إنه كان سِكِّيرًا يشرب الخمر، وكان أحيانًا يبطش بقواده، وهذا كان سببًا في حقدهم عليه ومحاولتهم للتآمر عليه، على خلاف ذي القرنين المذكور في القرآن، الذي كان عادلًا صالحًا يخدم الناس، ويقوم على مصلحتهم، وقد بنى السد بينهم وبين يأجوج ومأجوج.



المصادر والمراجع

- آراء يهدمها الإسلام، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، بيروت، ط٥، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٨٧م.
- الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، القرافي، تحقيق: د. بكر زكي عوض، دار ابن الجوزي، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- أحكام القرآن، الجصاص، دار إحياء التراث، بيروت، د. ت.
- الأدلة على صدق النبوة المحمدية ورد الشبهات عنها، هدى عبد الكريم مرعي، دار الفرقان، الأردن، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود محمد بن محمود العمادي، دار إحياء التراث، بيروت، د. ت.
- أسئلة العصر المحيرة، محمد فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل للطباعة، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
- أساقفة كنيسة إنجلترا وألوهية المسيح، أحمد ديدات، ترجمة: محمد مختار، رمضان الصفناوي، علي عثمان، كتاب المختار، القاهرة، ١٩٩١م.
- استحالة تحريف الكتاب المقدس، القمص مرقص عزيز خليل، كنيسة القديسة العذراء، والشهيدة دميانة المعلقة، مصر، ٢٠٠٣م.
- أسطورة تجسد الإله في السيد المسيح، جون هك، ترجمة: نبيل صبحي، دار القلم، الكويت، ١٩٨٨م.
- الإسلام دين الهداية والإصلاح، محمد فريد وجدي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي، عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، د. ت.
- الإسلام والغرب، روم لاندو، ترجمة: منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٢م.
- أصول العقيدة الإسلامية دراسات وبحوث، د. محمد سلامة أبو خليفة، مكتبة دار الهاني، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٩٩٢م.
- أضواء على أحاديث الإسراء والمعراج، د. سعد المرصفي، مؤسسة الريان، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.
- أضواء على المسيحية: دراسة تحليلية للكتاب المقدس، أحمد ديدات، ترجمة: د. عادل جلول، دار القارئ، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- إظهار الحق، قساوسة وعلماء مستشرقون أشهروا إسلامهم، محمد عبد الحليم عبد الفتاح، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- إعدام الإله بين المسيحية والوثنية، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ٢٠٠٥م.

- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ابن القيم، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م
- البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، مطابع النصر الحديث، الرياض، ١٩٥٤م.
- البداية والنهاية، ابن كثير، دار التقوى، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- بنو إسرائيل من التاريخ القديم وحتى الوقت الحاضر، د. محمد الحسيني إسماعيل، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
- البهريز في الكلام اللي يغيظ، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
- البيان في تحليل وتوجيه الإشكالات التي تثار حول قصص القرآن، د. عاطف قاسم المليجي، مكتبة اقرأ، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- بين الإسلام والمسيحية، أبو عبيدة الخزرجي، تحقيق: د. محمد شامة، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٧٥م.
- بين الدين والحياة في رحلة قطار، د. عبد الحليم حفني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس، د. ت
- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، دار الفكر، بيروت، ١٩٧١م.
- تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م.
- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: هاني الحاج، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د. ت.
- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ط٢، د. ت.
- تفسير النسفي، عبد الله بن أحمد النسفي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د. ت.
- تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء، أبو الحسن علي بن أحمد السبتي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- الجنة والنار، د. عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، الأردن، دار السلام، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ابن تيمية، المؤسسة السعودية بمصر، القاهرة، د. ت.
- الجواب الفسيح لما لفقه عبد المسيح، الألوسي، تحقيق: أحمد حجازي السقا، دار الجيل، بيروت، د. ت.
- جولة نقدية في نصوص الرواية التوراتية، محمد صالح توفيق، دار الهاني، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط٢، ١٤٢٥/ ٢٠٠٤م.
- حياة وأخلاق الأنبياء، د. أحمد الصباحي عوض الله، مكتبة مدبولي، القاهرة، دار اقرأ، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

- دائرة معارف الفقه والعلوم الإسلامية، محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.
- دراسات في العقيدة الإسلامية، د. محمد أحمد الخطيب، د. محمد عوض الهزايمة، دار عمار، الأردن، ط٥، ١٩٩٧م.
- دراسات لغوية مقارنة، د. محمد صالح توفيق، مطبعة الزهراء، القاهرة، د. ت.
- دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، موريس بوكاي، دار المعارف الأمريكية، د. ت.
- دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ط٥، ٢٠٠٢م.
- الرد الجميل على المشككين في الإسلام من القرآن والتوراة والإنجيل والعلم، عبد المجيد صبح، دار المنارة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٣م.
- رد القرآن والكتاب المقدس على أكاذيب القمص زكريا بطرس، إيهاب حسن عبده، مكتبة النافذة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- الرد على كتاب "أخطاء إلهية في القرآن الكريم"، مجموعة علماء، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- الردود الجلية على من اتهم المسيح بالألوهية، جمع وترتيب: أبو بصير، دار الفرقان، القاهرة، ٢٠٠٧م.
- الرسل والرسالات، د. عمر سليمان عبد الله الأشقر، دار النفائس، الأردن، دار السلام، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- روح المعاني، الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت.
- الرياضيات المسلِّية، بيريلمان، ترجمة: د. إبراهيم محمود شوشة، دار أمير للطباعة والنشر، موسكو، ١٩٧٧م.
- زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٤هـ.
- سُبُل الهدى والرشاد في هَدْي خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي الشامي، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.
- سقوط الغلو العلماني، د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤٣٩هـ/ ١٩٩٥م.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٩٩٥م.
- سلسلة القصص القرآني، د. حمزة النشرتي وآخرون، مؤسسة الأهرام، القاهرة، د. ت.
- شبهات المستشرقين حول العبادات في الإسلام، د. ناصر محمد السيد، مركز التنوير الإسلامي، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م.
- شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية، شرح ابن العثيمين، دار ابن الجوزي، الرياض، ط٣، ١٤١٦هـ.

- الشرق الأدنى القديم، عبد العزيز عثمان، كلية الآداب، جامعة دمشق، سوريا، ١٩٦٢م.
- شمائل المصطفى ﷺ، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- صيحات تحذير من دعاة التنصير، الشيخ محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- العالم الإسلامي والمكائد الدولية، فتحي يكن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
- عصمة الأنبياء، فخر الدين الرازي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مطبعة الأمانة، القاهرة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
- العصمة النبوية، محمد فتح الله كولن، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ط٣، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.
- العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي، د. أحمد بن عبد الله بن إبراهيم الزغبي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٩٩٨م.
- عيسى ليس المسيح الذي تفسيره المسيا، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م.
- عيسى ومريم في القرآن والتفاسير، مجموعة مؤلفين، إشراف: يوسف قزما خوري، المعهد الملكي للدراسات الدينية، دار الشروق، الأردن، ط١، ١٩٩٦م.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، دار الريان للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.
- فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت.
- فقه السيرة، محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الدعوة الإسلامية، القاهرة، ط٧، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
- في الطريق إلى الله: التوكل، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- القرآن ونقض مطاعن الرهبان، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط١، ٢٠٠٧م.
- قصة الهداية، د. عبد الله ناصح علوان، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢، ١٩٨٥م.
- القصة في القرآن، محمد قطب، دار قباء، القاهرة، ٢٠٠١م.
- قصص الأنبياء، ابن كثير، تحقيق: محمد عبد الملك الزغبي، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
- قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط١، ١٩٨٥م.
- قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، دار القدس، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
- قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- الكشاف، الزمخشري، طبعة البابي الحلبي، القاهرة، د. ت.

- لا يأتيه الباطل، محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
- اللقاء بين الإسلام والنصرانية، مناظرة بين الشيخ أحمد حجازي السقا، والأنبا غريغوريوس، دار البشير للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٤م.
- مؤلفات أحمد ديدات: المجموعة الثالثة، الشيخ أحمد ديدات، ترجمة: محمد مختار، رمضان الصفناوي، علي عثمان، مطبعة كتاب المختار، القاهرة، د. ت.
- ما فرطنا في الكتاب من شيء، د. أحمد شوقي إبراهيم، دار الفكر العربي، مصر، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- المائة الأعظم أثرًا في التاريخ، ميخائيل هارث، ترجمة: علي الجوهري، مكتبة القرآن، القاهرة، د. ت.
- مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط١، ١٣٩٨هـ.
- محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- محمد ﷺ خير البشر وأمته خير الأمم، محمد أحمد محمد، مكتبة التراث الإسلامي، مصر، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
- محمد في التوراة والإنجيل والقرآن، إبراهيم خليل، دار المنار، القاهرة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- محمد والأنبياء في المصادر اليهودية والمسيحية، السيد سلامة غنمي، مطابع الوليد، مصر، ٢٠٠٣م.
- مدرسة الأنبياء: عبر وأضواء، محمد بسام الزين، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.
- المستشرقون والقرآن، د. إسماعيل سالم عبد العال، رابطة العالم الإسلامي، مكة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- المسيحية بين التوحيد والتثليث وموقف الإسلام منها، د. عبد المنعم فؤاد، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
- مشكل الحديث وبيانه، ابن فورك، تحقيق: د. موسى محمد علي، عالم الكتب، بيروت، ط٢، ١٩٨٥م.
- المصطفون الأخيار، عطية صقر، دار مايو، القاهرة، ١٩٩٧م.
- مع الأنبياء والرسل، د. عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٩٠م.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٩٧م.
- مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م.
- المفترون: خطاب التطرف العلماني في الميزان، فهمي هويدي، دار الشروق، مصر، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، جامعة بغداد، العراق، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- من إعجاز القرآن، رؤوف أبو سعدة، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٣م.
- المناظرة الكبرى مع القمص زكريا بطرس حول ألوهية يسوع، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

- مناظرة بين الإسلام والنصرانية لمناقشة العقيدة الدينية، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، دار الحديث، القاهرة. ط٢، ١٤١٢هـ.
- مواجهة صريحة بين الإسلام وخصومه، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، مصر، ٢٠٠٥م.
- موجز دائرة المعارف الإسلامية، فريق بحث من المستشرقين، ترجمة نخبة من الأساتذة، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الشارقة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- الموسوعة الإسلامية العامة، إشراف: د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- موسوعة القرآن العظيم، عبد المنعم الحفني، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.
- النبوات، ابن تيمية، مكتبة فياض، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م.
- النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، دار الصابوني، مكة المكرمة، ١٣٩٠هـ.
- النبوة والأنبياء في اليهودية والمسيحية والإسلام، أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٩٢م.
- هذا هو الحق، رد على مفتريات كاهن الكنيسة، ابن الخطيب، المطبعة المصرية، مصر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٧م.
- الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده، د. محمود ماضي، دار الدعوة، مصر، ١٩٩٦م.



موسوعة

بيان الإسلام

الرد على الافتراءات والشبهات

القسم الأول: القرآن

المجلد السادس

ج ٩

شبهات حول الأنبياء والرسل (١)



العنوان:

موسوعة بيان الإسلام
الرد على الافتراءات والشبهات
القسم الأول: القرآن
المجلد السادس (ج٩، ج١٠)

إشراف عام:

داليـا محمـد إبراهيـم

الترقيم الدولي: 977-14-4243-0
رقم الإيداع: 2010/10896
الطبعة الأولى: يناير 2011



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة

تليفـون: 33466434 - 33472864 02
فاكـس: 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com